Readonly

في أروقة التاريخ (٥)..... محمد إلهامي

Readonly

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

Kitab ismi:	Fi evrak tarih.
Yazar:	Muhammed İlhami.
baskı yılı:	2022
birinci baskı	
tüm baskı hakları mahfuzdur	

تركيا - إسطنبول

00905378167783

00902125146104

www.dar-alusool.com

info@dar-alusool.com

daralusool - usool2017

دار الأصول العلمية
AL-USOOL AL-ELMIYAH

Balabanağa Mah. Büyük Reşitpaşa Cad. 16B/15,

Fatih - İstanbul

Readonly

في أروقة التاريخ (٥)..... محمد إلهامي

الجزء الخامس

Readonly

إهداء

إلى روح الحاجة هناء..

معلمتي الأولى..

أول من ألقى في قلبي حب الجنة والشوق إليها..

وألقى في قلبي الخوف من النار والهروب منها..

كانت معدنا أصيلا ونفسا تشع بالإيمان ونبعا للخلق الحسن..

رحمها الله وتقبلها في الصالحين ورفع درجتها في عليين..

محمد

***

Readonly

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٤
المحتويات	٥
مقدمة	١٤
الباب الأول: في أروقة النظام الإسلامي	١٧
الإسناد الاجتماعي والاقتصادي للنظام السياسي بين الإسلام والغرب	١٩
طريق الحداثة إلى الطغيان	٢٤
منتج غربي مصبوغ بالطغيان	٢٧
النزوع إلى دولة قوية وحرية مقدسة	٣٦
طغيان بلا طاغية؟!!	٣٨
النظام الإسلامي: نموذج توازن القوى	٤٠
تقليص صلاحيات السلطة	٤٢
تقوية المجتمع	٤٩
خاتمة	٥٩
ملامح النظام السياسي الإسلامي ومحنته المعاصرة	٦٣
أخصر المختصر في ملامح النظام السياسي الإسلامي	٦٤
معضلات الاجتهاد في باب السياسة	٧٥
١. معضلة الفهم والتصور	٧٧

Readonly

الموضوع	الصفحة

٢. معضلة العجز ٧٧

٣. معضلة الهروب إلى المعارك الفرعية ٧٨

٤. معضلة التوظيف ٧٩

محنة العلماء ومحنتنا في العلماء.. كيف نفعل؟ ٨١

مصانع الخيانة! ٨٦

مصير المواطن الصالح ٩٥

في طريق استعادة النظام الإسلامي من جديد ١٠٧

الحرية أولًا أم الشريعة ١٠٩

العوائق الأربعة أمام عقل التحرر والمقاومة ١١٥

ملامح خطة عامة للأمة الإسلامية ١٢٩

١. نظرة عامة كبرى ١٣٠

٢. الفرصة السانحة ١٣٢

٣. ما يلزم حركة التغيير ١٣٣

ثغور فارغة، وجيوش من العاطلين ١٣٦

١. المعلومات ١٣٨

٢. ابتكارات علمية ١٣٩

٣. ترجمات ١٤٠

٤. ملخصات وفهرسة ١٤١

عبد الله عامر.. المؤرخ النسابة رجل المخابرات والأعمال ١٤٤

الجهاد العلمي ١٤٩

وكم في «كورورنا» من فوائد وعظات! ١٦١

الهول الأعظم ١٦١

الإلحاد في كورونا! ١٦٢

Readonly

الموضوع	الصفحة

النبوءة! ١٦٤

حرية البذرة الخبيثة! ١٦٦

الخوف من الموت ١٦٨

العلم والسلاح ١٦٩

النكبة في المجتمع الإسلامي ١٧٣

هل تستطيع الأمة أن تستفيد من كورونا؟! ١٧٦

العلم والتعليم ١٧٧

الاقتصاد والأموال ١٧٩

التواصل ١٨١

العلاقات الاجتماعية ١٨٣

الباب الثاني: في أروقة الصراع بين الإسلام والغرب ١٨٧

الإسلام وفرنسا ١٨٩

قصة الاستشراق الفرنسي ١٩٠

فرنسيون أنصفوا الإسلام ١٩٧

كيف تتشكل صورة الإسلام في فرنسا: خبرة مستشرق فرنسي ٢٠٤

هل يتغير موقف الشعوب الغربية إذا عرفوا محمدًا ﷺ؟ ٢١٠

أفاضوا في مدح النبي وماتوا كافرين!! ٢١٦

مقارنات كاشفة ٢٢٣

سفاح نيوزيلاندا لم يفهم قوانين القتل ٢٢٥

الدولة الإسلامية أم الدولة النيوزيلاندية ٢٣٢

نيوزيلاندا استثناء علماني ٢٣٣

نيوزيلاندا بعيدة عن الصراع بينما تظهر حقيقة الأخلاق في الصراع ٢٣٣

نيوزيلاندا يمكن أن تتغير ٢٣٥

Readonly

الموضوع	الصفحة

هل خرجت نيوزيلاندا عن طبيعتها كدولة علمانية ليبرالية ديمقراطية؟ ٢٣٦

فماذا عن «الدولة الإسلامية» التي تنشدها؟ ٢٣٩

فلسفة العلم بين الحضارتين الإسلامية والغربية ٢٤٥

كيف عامل المسلمون عبيدهم: شذرات من كتب الرحالة الغربيين ٢٥٥

تركيا ٢٥٩

الكويت ٢٦٠

الحجاز ٢٦١

ليبيا ٢٦٢

مصر ٢٦٣

من سجلات الهزيمة ٢٦٥

سطوة الغالبين ٢٦٧

(١) أحمد أمين ٢٦٨

(٢) طه حسين ٢٧١

الخلاصة: ٢٧٦

زمن الجاهلية الجميل! ٢٧٧

هل نحتاج «قراءة ثانية» للإسلام؟ ٢٨٤

أزمة تصور لا أزمة تجربتنا الحضارية ٢٩١

عبادة الأصنام المكسورة ٢٩٨

كيف صارت حانة اليوناني استاد كرة؟! ٣٠٢

ثقافة الإسراف.. الجذور والمسار والثمار ٣٠٧

الجذور ٣٠٧

المسار ٣٠٨

الثمار ٣١٠

Readonly

الموضوع	الصفحة

الحروب الإلكترونية.. الاحتلال الرائع! ٣١٢

اختبر نفسك: كيف تتفاعل مع الشائعة؟ ٣٢٠

الباب الثالث: في أروقة بيت المقدس ٣٢٧

قراءات في تاريخ بيت المقدس ٣٢٩

سنن تاريخية في تحرير بيت المقدس ٣٣٠

أولًا: الفتح ٣٣١

ثانيًا: التحرير ٣٣٢

سنن تاريخية في ضياع بيت المقدس ٣٣٥

الضياع الأول ٣٣٦

الضياع الثاني ٣٣٦

الضياع الثالث ٣٤١

كيف تشكلت معركة الصراع الحضاري العالمي؟ ٣٤٣

منهج تصدير المشكلة ٣٤٤

إسرائيل بنت الفكرة القومية ٣٤٤

إسرائيل بنت البروتستانتية ٣٤٥

إسرائيل بنت العلمانية ٣٤٦

إسرائيل بنت الاحتلال ٣٤٨

خلاصة ٣٤٩

قراءات في واقع بيت المقدس ٣٥١

مُعَكِّر صَفْوِ الأُنس في سيرة سلب القدس ٣٥٢

بعض ما قدمته مصر لفلسطين ٣٥٩

السياسة المصرية ٣٦٠

الإعلام المصري! ٣٦١

Readonly

الموضوع	الصفحة

الجيش المصري..... ٣٦٣

أشدُّ رهبة في صدورهم من الله! ٣٦٤

مائة عام على مولد يوشع براور ومحمد الغزالي..... ٣٦٩

ذكريات كثيرة ودرس مفقود ٣٧٤

١. مائة عام على وفاة عبد الحميد الثاني..... ٣٧٥

٢. استشهاد حسن البنا ٣٧٦

٣. عمر عبد الرحمن..... ٣٧٨

الباب الرابع: في أروقة القرآن ورمضان..... ٣٨١

في أروقة القرآن الكريم ٣٨٣

لماذا لا نشعر بجمال القرآن..... ٣٨٤

التشويق إلى القرآن ٣٨٩

(١) المشهد الحيّ ٣٨٩

(٢) القرآن كائن حي..... ٣٩٠

(٣) القرآن وأسرار النفس..... ٣٩١

(٤) القرآن والكافرون ٣٩٢

جولة في علم النفس والاجتماع من سورة سبأ ٣٩٤

(١) نفسية المستكبر الساخر ٣٩٤

(٢) ردٌّ لا بالحُجَّة!..... ٣٩٧

(٣) ماذا بين القصتين؟! ٣٩٩

(٤) قليل من عبادي الشكور ٤٠١

(٥) الإهانة! ٤٠٢

(٦) مكر الليل والنهار ٤٠٣

(٧) فما الحل؟! ٤٠٥

Readonly

الموضوع	الصفحة

القرآن يعلمنا كيف ننجز المهمات الكبرى ٤١٢

نصيبك من القرآن نصيبك من العمل ٤١٧

وقفة مع: أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ ٤٢٢

المنشاوي.. صوت السماء الخاشع البَكَّاء ٤٢٧

في أروقة شهر رمضان ٤٣٣

رمضان من أركان النظام السياسي الإسلامي ٤٣٤

معركة رمضان بين الأمة المسلمة والسلطة العلمانية ٤٣٩

معركة الفتوى والنظام ٤٣٩

معركة إنتاج الثقافة ٤٤١

الخلاصة ٤٤٣

هل المجاهرة بالإفطار في رمضان حرية شخصية؟ ٤٤٥

كيف نعالج الفتور وننشط للعشر الأواخر؟ ٤٥٠

وداع القرآن في آخر رمضان ٤٥٤

الباب الخامس: في أروقة الكتب ٤٦١

في أروقة الفكر والتاريخ ٤٦٣

جمال الكتب في الحضارة الإسلامية ٤٦٥

الجِناس المُطرب ٤٦٥

ظلالٌ وثمار ٤٦٦

شموسٌ وأقمار ٤٦٧

بحار وأنهار ٤٦٧

كنوزٌ وجواهر ٤٦٨

هدايا أخرى ٤٦٨

العقد الفريد ٤٦٩

Readonly

الموضوع	الصفحة

دليلك لقراءة تاريخ مُبَسَّط مُشَوِّق غير مُمِلّ! ٤٧٠

دليلك لقراءة تاريخ مصر الحديث ٤٧٥

الدولة المستحيلة ٤٨١

فكرة صحيحة ومسبوقة ٤٨١

وعنوان إثاري ٤٨٢

لمن هذا الكتاب؟ ٤٨٥

ضرر المنهج الوضعي ٤٨٦

مأساة في حالتنا الثقافية ٤٨٨

موجز تاريخ الإسلام ٤٩٠

نقد التقليد الكنسي ٤٩٦

تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي ٥٠١

تناقضات ٥٠٤

من المتهم؟ ٥٠٥

غزل الدولة للأقلية!! ٥٠٧

حياتي في رحاب الأزهر ٥١٠

في أروقة أدب السجون ٥١٥

كلمة في أدب السجون ٥١٦

البلاء الشديد والميلاد الجديد ٥٢٠

اجتمع فيه ما تفرق في غيره ٥٢١

العلم في خدمة الشر ٥٢٢

اجتمعوا على غير أرحام بينهم ٥٢٤

أدب السجون: مراجع دراسية ٥٢٥

جوانتانامو الحضارة ٥٢٦

Readonly

تلك العتمة الباهرة..... ٥٢٧
السجينة ٥٣٥
الغريبة..... ٥٤٠
خاتمة..... ٥٤٤

❊ ❊ ❊

Readonly

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله...

هذا هو الجزء الخامس من سلسلة «في أروقة التاريخ»، تلك السلسلة التي أردت فيها أن أجمع ما تناثر مما أكتب في المؤتمرات أو المجلات العلمية أو الصحافة، وذلك أن الكاتب يرى في إنتاجه بعضًا منه وامتدادًا له، وأغلى شيء على الكاتب أن يصل كلامه إلى الناس. وكاتبٌ لا يصل كلامه إلى الجمهور هو كالأبكم الذي لا يستطيع توصيل ما في نفسه للناس، ويا له من شعور خانق قاهر!

لكن هذا الجزء يكتب لأول مرة وقد طرأت عليّ بعض ظروف جديدة، فقد صارت كتبي ـ ولله الحمد والمنة ـ ممنوعة ومصادرة في بلدي مصر وفي عدد من البلاد العربية الأخرى، كما قد امتدت يد التضييق حتى مُنِعت من الكتابة في كل المنافذ التي كنت أنشر فيها سابقًا، وحين لم يبق لنا إلا مواقع التواصل الاجتماعي أغلق موقع الفيسبوك حسابي وصفحتي العامة، وقد سبقه بسنوات موقع «آسك» حين أغلق حسابي كذلك. فلم يبق لنا الآن إلا المدونة والحساب على تويتر واليوتيوب، ولا ندري إلام يستمر هذا.

ولقد كنتُ شرعتُ في نشر هذه السلسلة من الكتب، سلسلة «في أروقة التاريخ»، محاولة للحفاظ على ما كُتِب ورجاء أن يكون من العلم الذي يُنتفع به بعد الموت، ومحاولة لحفظ ذاكرة الحاضر للجيل القادم، فإني من شهود العيان على حجم

Readonly

الجريمة الضخمة التي ترتكب في حق الأجيال حين يُزَوَّر لها التاريخ! فالآن يزيد على هذه الأغراض غرضٌ آخر: أن يبقى هذا الكلام مسطورًا في الأوراق بعدما أغلقت أمامه بقية أبواب النشر على مواقع الانترنت.

إن الكلام الذي يلقى في المؤتمرات أو ينشر في المجلات العلمية نادرًا ما يُقرأ، ولئن قُرأ فلن يتجاوز دائرة المتخصصين، كذلك فإن الكلام الذي ينشر في الصحافة والمجلات نادرًا ما يعود الناس إليه، وإنما هو ابن وقته وبلده في الأغلب. وإذا ما فَكَّر الإنسان في آخرته وأراد أن ينتفع مما يرجو أن يكون علمًا نافعًا، أو إذا فكر في أمانته تجاه الجيل الحاضر والجيل القادم، فإن التفكير يقوده مباشرة إلى نشر الكتاب.

ولا شك أن أكثر ما يجب نشره لا يمكن نشره، وكثيرٌ من الأوراق التي كتبتها ونشرتها على مدونتي أو بقيت طي أوراقي لن يمكن نشرها في المدى المنظور، سيحتاج هذا الكلام إلى ظروف أخرى ليكون ذلك ممكنًا. ويكفي في الظروف الحالية أن ننشر هذه الصفحات التي لا تزال تلتزم بالخطوط الحمراء!

لست أدري إن كان ممكنًا نشر الجزء السادس في قابل الأيام أم لا، علم ذلك عند ربي، وفي كل الأحوال فإن الذي أستطيع أن أضمنه من نفسي أني لم أكتب حرفًا في حياتي مجاملة لأحد، نعم... ربما داخلني الخوف يومًا فأمسكتُ، أو أخطأت حسبة المصلحة والمفسدة فرفقت حيث كان يجب أن أشتد أو اشتددت حيث كان يجب أن أترفق، لقد أكرمني الله تعالى أن لم أكن يومًا في يد أحد ولا بوقًا لأحد! وأسأل الله أن يميتني على ذلك.

ولهذا فإنه إذا نزل بي الموت الساعة فلست أجد في كلامي شيئًا أندم عليه، لكن سيجتاحني الرعب كله إذا سُئلت أو حوسبت على «الإخلاص» في الكلام.

Readonly

هذا هو الشأن الذي لا يمكن ضمانه، بل لا يمكن الزعم بأن شيئًا مما كتبت كله أضمن أنه كان خالصًا تمامًا لوجه الله، إن في النفس شهوات خفية، من ذا الذي يضمن أن لم يداخله العجب أو حب المدح فيما يكتب ويقول؟! من ذا الذي يضمن أنه استنفد كل وسعه في البحث عن الأمر قبل أن يتكلم فيه؟! من ذا الذي يضمن أن رضاه وغضبه وحبه وبغضه لم يؤثرا على رؤيته وألفاظه وأحكامه؟!

في عصر التواصل الاجتماعي هذا صار طبعًا لدى الكاتب أن ينتهي من كلامه فينظر في عداد الإعجابات والمشاركات ونحوها، هل يمكن أن يكون مخلصًا من يفعل هذا؟! الله أعلم!

خلاصة الكلام يا أيها القراء الكرام: إن ما بين أيديكم هنا هو خلاصة عقلي وروحي، أضمن لكم أنه لم يكن مكتوبًا لحساب أحد، ولكن لا أضمن أنه كان خالصًا لوجه الله وحده، فأسأل الله تبارك وتعالى أن يقيل عثراتنا ويجبر نقصنا ويبلغنا مما يرضيه آمالنا.

محمد إلهامي

إسطنبول

سبتمبر ٢٠٢١

***

Readonly

الباب الأول
في أروقة النظام الإسلامي

ـ الإسناد الاجتماعي والاقتصادي للنظام السياسي بين الإسلام والديمقراطية المعاصرة

ـ ملامح النظام السياسي الإسلامي ومحنته المعاصرة

ـ في طريق استعادة النظام الإسلامي من جديد

* * *

Readonly

Readonly

الإسناد الاجتماعي والاقتصادي للنظام السياسي بين الإسلام والغرب

ألقي هذا البحث في مؤتمر

الحوكمة والسلطة السياسية في العالم الإسلامي: النظرية والممارسة

جامعة صباح الدين زعيم، جامعة حمد بن خليفة

إسطنبول، ديسمبر ٢٠٢٠

ماذا لو قررت الجيوش الغربية تنفيذ انقلاب عسكري على الحكم؟

ماذا لو ظهر في الغرب زعيم يتمتع بالمواهب الخطابية والقيادية (الكاريزما)، عسكريٌّ أو استطاع الهيمنة على القوة العسكرية، فقرَّرَ أن يُعَدِّل الدستور ليتمكن من الحكم مدى الحياة؟

هل يا تُرى ستمنح الحداثة هؤلاء الوسائل القادرة على تحقيق رغباتهم بما أسسته من منظومة تحكمٍ كامل وسيطرة تامة على كافة تفاصيل الأفراد (المواطنين) وأنشطة المجتمع؟ أم أن الحداثة ستعيق هؤلاء عن تحقيق هذه الرغبات بما نشرته ورسَّخته من أفكار الحرية والديمقراطية وتداول السلطة؟

تعتمد هذه الورقة الفرضية القائلة بأن الحداثة منحت سلطة الدولة قدرًا هائلًا

Readonly

من التحكم والسيطرة والاستبداد، بحيث لو ظهر طاغية[١] في الغرب لوجد تحت يده وسائل كافية لتحقيق رغبته، ووجد أمامه مجتمعًا ضعيفًا تنتشر فيه النزعة الفردية والاستهلاكية، وحتى منظمات المجتمع المدني يمكنه تجريمها بمرسوم أو قانون يُحَوِّلها إلى كيانات محظورة.

هذه القدرة الهائلة التي منحتها الحداثة للسلطة تظهر بوضوح في دول مثل الصين وكوريا الشمالية، وتظهر بدرجة أقل في العالم العربي وكثير من الدول الإفريقية، ولكنها لم تظهر بعدُ في الغرب على الأقل منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى الأقل: لم تظهر بهذا الوضوح.

عند هذه اللحظة سينبثق السؤال البديهي: ولماذا لم تفضِ الحداثة في الغرب إلى هذه الحالة الطغيانية؟ وقد يجادل البعض بالقول: إن المشكلة إذن ليست في الحداثة كمنظومة أفكار أو منظومة مؤسسات، وإنما في الاستغلال السيئ لمنتجاتها في بيئة تقبل ثقافتها بالطغيان والاستبداد.

أما سؤال: لماذا لم تفضِ الحداثة في الغرب إلى الطغيان؟ فلن يكون من دور هذه الورقة أن تجيب عليه، مع أن كثيرًا من محتواها يحمل في طياته الإجابة.

---

(١) طاغية هي الكلمة المكافئة لمعنى «ديكتاتور» في اللغة العربية، وهي أدق من لفظ «المستبد»، فالاستبداد هو الانفراد وليس معناه سيئًا بالضرورة بل قد يرد بمعنى الحزم والحسم والمبادرة، وأما الطغيان فهو مجاوزة الحد، وهو شر دائمًا، وهو الذي يجري في لغة القرآن والسنة، ومنه جاء لفظ «الطواغيت» الذي استعمله القرآن في وصف من جاروا وظلموا واستعبدوا أقوامهم. وبناء على هذا فسنستعمل لفظ الطغيان بدلًا من لفظ الاستبداد أو الديكتاتورية في هذه الورقة. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ط١ (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٣/ ٧٨، ١٥/ ٧؛ أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ط١ (قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ٢٠٠٠م)، ص٣٣٧.

Readonly

وإنما تهتم هذه الورقة أساسًا بتوضيح ما إن كانت بنية الحداثة في نفسها مُفْضِيةً إلى الطغيان وتهيئ الوسائل والأسباب له. فإذا تحقق هذا الوضوح فإن الإجابة عن السؤال ستكون مجرد نقاش عن الظروف والأوضاع التي لم تسمح (حتى الآن) بظهور الطغيان في الغرب، مع التسليم بأن هذا الطغيان قد يظهر يومًا ما وفي ظرف ما. ومع التسليم أيضًا بأن منظومة الحداثة لم تساهم في تخفيف غلواء الطغيان في الدول الطغيانية، بل دعمتها بما وفَّرت لها من وسائل تقنية لم تتوفر لحاكم من قبل.

من المعروف أن العديد من الفلاسفة والمنظرين والباحثين وحتى الصحافيين ذهبوا، ومعهم الكثير من الأدلة، إلى أن أنظمة الحكم في الغرب تمارس نفس القدر من الطغيانية ولكن بغطاء ديمقراطي مزخرف، وأن القوى الحقيقية المتحكمة في مسارات السياسة ليست هي التي تذهب وتأتي عبر الانتخابات، وإنما هي القوى الكامنة في شبكات المصالح العسكرية والاقتصادية التي هي خارج نطاق الانتخابات بل هي التي تستطيع بما لديها من أموال ونفوذ إعداد المسرح الديمقراطي واختيار مرشحيه ـ الذين لا يختلفون كثيرًا عن بعضهم البعض ـ وتوفير الفرصة لإقناع الشعوب الغربية بأنها صاحبة الاختيار.

ومع ما لهذا الكلام من القوة وما يملكه من الأدلة الكثيرة، فلن أستند إليه في هذه الورقة، ذلك أنني أرمي إلى ما هو أبعد من ذلك، أرمي إلى مناقشة أن الحداثة بنفسها، وفي ظل هذا الوضع القائم، ستفضي لا محالة إلى ظهور طغاة في الغرب لا يقلون أبدًا عن أباطرة الرومان والعصور الوسطى بل تزيد سطوتهم بما توفره لهم منظومات الحداثة من وسائل المراقبة والتحكم التفصيلي في حياة الأفراد وأنشطة المجتمع. كذلك لن أتطرق إلى الصلاحيات غير المعقولة التي سمحت بها الحداثة «الديمقراطية» لبعض الحُكَّام المعاصرين مثل ملكة بريطانيا التي تبدو

Readonly

فوق كل دستور وكل قانون بل كأنما هي مصدر الدستور والقانون، لن أتطرق لهذا لأن الشأن فيه يبدو كأنما هي نماذج استثنائية غير شائعة، بينما غرضي الأساس هو التوقف مع نظام الدولة الحديثة نفسه والطغيان الكامن في بنيته وجوهره.

تُكتب هذه الورقة في لحظة قد بدأت فيها تسريباتٌ تقول بأن ترمب لن يسلم السلطة لجو بايدن في حال خسارته، لا أعرف بالضبط ماذا قد ينتهي إليه الوضع، لكن الورقة هنا تقول: حتى لو سلَّم ترمب بخسارته وسلَّم السلطة، فلا بد يومًا سيأتي من لا يُسلِّم السلطة إذا خسر في الانتخابات إذا استطاع أن يجعل الجيش إلى جانبه أو صنع ظرفًا يتمكن به من قلب نتائج الانتخابات، وهذا إذا لم يخطط من البداية للسيطرة على نتائج الانتخابات بتزوير فج أو ناعم، أو بتعديل دستوري، أو بإعلان حالة الطوارئ، أو غير ذلك من وسائل لطالما استعملها الطغاة عبر التاريخ. إن الديمقراطية ـ إذن ـ تقف على منظومة حداثية هشَّة لا تلبث أن تنهار!

سيشغل هذا النقاش نصف الورقة الأول، بينما نصفه الثاني سيكون مخصصًا للحديث عن النظام السياسي الإسلامي، باعتباره النظام المتفوق بل وباعتباره البديل المنشود لمنظومة الحداثة الغربية «الدولة الحديثة»، وفي هذا النصف سنحاول توضيح أن النظام الإسلامي، كما جاء في النصوص القرآنية والنبوية وكما تبدى في التجربة التاريخية، هو نقيض للطغيان، وهو أبعد الأنظمة عن إنتاج حالة طغيانية، وذلك أنه يقوم على أساس «توازن القوى»، ففي النظام الإسلامي لا تحتكر سلطة الدولة عوامل القوة، بل هي موزعة بين السلطة والمجتمع، وهذا التوازن لا يتحقق لمجرد وجود النصوص التي تُوَجِّه إليه وتطلب المسلمين أن يلتزموه، بل هو فكرة راسخة تعمل على تحقيقها العباداتُ والشعائر والمعاملات، إنها نظام قائم في طبيعة النظام الإسلامي وبِنْيَتِه الاقتصادية والاجتماعية، بمعنى أن الطغيان لا يمكن

Readonly

أن ينتج في صورته الشاملة على نحو ما هو في «الدولة الحديثة» إلا في مجتمع قد تحطمت بنيته الاجتماعية والاقتصادية بل والشعائرية المستندة إلى الإسلام. وهذا هو ما تحقق في الحقبة الاستعمارية، فلم تشهد بلاد العالم الإسلامي أبدًا انتقالا سلسا إلى الحداثة، وإنما أُدخلت إلى هذه الحداثة وأُخْضِعَتْ لنظام الدولة الحديثة بالمذابح والحروب.

والسر في هذا أن النظام الإسلامي ينتزع من سلطة الحكم أهم خصائص إنتاج الطغيان، ويقلص صلاحياتها إلى الحد الأدنى، في نفس الوقت الذي يزيد من قوة المجتمع وتكتله إلى الحد الأقصى، فضلًا عن أن السلطة لم تكن منتجة للمعرفة في التجربة الإسلامية، مما جعل العلماء الذين يمثلون السلطة العلمية أندادًا للسلطة السياسية ومستقلين عنها بدعمٍ من البنية الاجتماعية والاقتصادية التي تُقَوِّي نفوذهم، وهم مع هذا لم يكونوا مؤسسة كهنوتية ولا تنظيمًا هرميًّا يمكن التحكم فيه سياسيًّا، بل كانوا شبكة متغلغلة بين الناس ومرتبة متميزة ومرموقة ووسيطة في التعامل بين الحكام والعامة. وعند النظر المنصف سيتبين بوضوح أن صلاحيات أكثر الحكام المعاصرين ديمقراطية في نظام الدولة الحديثة هي أكثر وأقوى بكثير من صلاحيات أشد الملوك استبدادًا في التجربة الإسلامية! لأن مجال هيمنة السلطة والملفات التي تديرها في الدولة الحديثة أوسع بكثير، وبما لا يقارن، بمجال هيمنة السلطة والملفات التي تديرها في نظام الحكم الإسلامي.

ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل إن طبيعة المجتمع الإسلامي هي المؤهلة لتمارس المقاومة ضد طغيان «الدولة الحديثة»، فحتى بعد قرنيْن من القهر والطغيان الاستعماري والمحلي لا تزال المجتمعات الإسلامية هي الأكثر مقاومة للحداثة، ولم تزل منظومة الحداثة غير متمكنة من ثقافة هذه المجتمعات، ويمكن القول ـ

Readonly

بنوع من الحذر الناتج عن احتياج المصطلحات إلى تحرير ـ بأنه: في الفترات التي أتيح فيها لهذه المجتمعات أن تختار، فإن النتيجة كانت ضد الحداثة، أو بلفظ آخر: كان الخيار الشعبي الإسلامي يعيد تعريف الحداثة ليجعلها مرادفة للتطور التقني لا للمحتوى الفلسفي، ومهما تدثر ممثلوه بأنهم لا يرفضون الحداثة إلا أنهم في أدنى الأحوال كانوا يمثلون تمهيدًا للعودة إلى الهوية الإسلامية، حتى لو اختلفوا في تفاصيل صيغتها المعاصرة اختلافا واسعًا. لكن المهم هنا، والذي يعنينا في هذا السياق، أن المجتمع الإسلامي لا يزال هو المجتمع الأقدر على مقاومة طغيان الحداثة، بما لا يزال يحتفظ به من ثقافة راسخة وتكتل اجتماعي وتقاليد دينية عميقة.

وإذا أردتُ اختصار فكرة الورقة التي أسعى إلى توضيحها هنا أقول: إن منظومة الحداثة ـ حتى في صيغتها الغربية الديمقراطية ـ تقود إلى مجتمع ضعيف ويزداد ضعفًا، وسلطة متغولة تزداد تغولًا وسيطرة، مما يجعل من المحتم انقلابها إلى حالة طغيانية ظاهرة عند أول أزمة قوية تعصف بالتفوق الغربي المعاصر، مع ملاحظة أنها الآن تمثل فعليًّا حالة طغيانية تعمل تحت ستار ديمقراطي زائف. وعلى النقيض من ذلك يأتي النظام الإسلامي الذي يقود إلى حالة من توازن القوى بما يبنيه من مجتمع قوي متكتل وسلطة تدير الملفات الأساسية (الأمن والدفاع وما يتعلق بهما) لا غير، وهو يحفظ هذا التوازن من خلال نظامه الاقتصادي والاجتماعي الذي يمثل إسنادًا لهذا التوازن.

طريق الحداثة إلى الطغيان

يبدو سخيفًا للغاية أن نقف أمام من يتضور جوعًا ويسيل لعابه أمام شطيرة من البرجر لنعطيه درسًا في الأضرار التي يسببها، وربما أسخف من ذلك أن يكتب عربي معاصر عن عيوب الديمقراطية وهو يعاني في واقعه أشنع أنواع الطغيان. إن البرجر

Readonly

بالنسبة للمتضور جوعًا هو الفردوس التام في هذه اللحظة! مثلما تبدو الديمقراطية في الغرب فردوسًا تامًّا لعربيٍّ معاصر! لكن لي حجة وعذرٌ، فأما الحجة فهو أن جوع الجائع لا ينفي الأضرار الحقيقية الكامنة حقًّا في شطيرة البرجر وإن كان هذا أمر هو في ذيل أولوياته الآن، وأما العذر فهو أني أدلّ قومي الجوعى على ما هو خير لهم من البرجر ومن الديمقراطية الغربية، أدلهم على غذاء صحي سليم هو النظام الإسلامي الذي سُلِب منا قهرًا ليوضع أمامنا هذا البرجر المشبوه، ثم حُرِمنا حتى من هذا، وأريد لنا أن نبقى في الجوع الكبير ليكون هذا الطعام المشبوه هو أقصى أحلامنا وغاية أمانينا!

لقد كاد الفيلسوف الإيطالي جورجيو أجامبين يلمس سؤالنا الذي صدَّرنا به هذه الورقة، حين أثار النقاش حول حقيقة السيادة في الدولة الحديثة، في كتابه «حالة الاستثناء» (مايو ٢٠٠٣م)، وكانت خلاصة دراسته أن حالة الطوارئ هي اللحظة الكاشفة التي يظهر فيها أن السيادة في الدولة الحديثة مُحْتَكرة تمامًا بيد السلطة التنفيذية، لا كما تقول الأدبيات السياسية والقانونية بأن السيادة للشعب، ففي تلك اللحظة تُمَزَّق السلطة كلَّ الدستور والقانون وتعطل عمل البرلمان وتمنح لنفسها حق إعلان حالة الطوارئ وإعلان الأحكام العرفية، وهي التي تملك تحديد مدة هذه الحالة وتمديدها وإنهاءها، وبهذا لم يعد لأحدٍ سيادة سواها. وقد بنى أغامبين فكرته على البذرة التي بذرها كارل شميت في كتابه «اللاهوت السياسي» (١٩٢٢م)، حيث قرر شميت أن صاحب السيادة هو من يملك فرض حالة الاستثناء.

يستمد التنظير في هذه المسألة قيمته من أنها تبدو ثغرة خطيرة في منظومة القانون الذي هو مرجعية الدولة الحديثة، وأخطر من هذا أنها تبدو حتى الآن ثغرة لا حلَّ لها، فمهما طال التنظير في الدولة التي هي مرجعية نفسها والشعب الذي هو سيد

Readonly

نفسه، فإن مصطلح «الدولة» ومصطلح «الشعب» لا يعود في النهاية إلى فاعلٍ عاقلٍ ملموس، دائمًا ثمة شخص أو نخبة هي التي تدير الدولة وتقود الشعب، وتملك تنفيذ إرادتها وسياستها باعتبار أنها سياسة الدولة وإرادة الشعب!

وبهذه الطريقة نجد أنفسنا قد وقعنا في ما حاولنا الهروب منه؛ فإذا كان التراث الفلسفي الممتد من فلاسفة اليونان وعصر النهضة والتنوير والحداثة قد حاول الهروب من الطغيان، فمن الواضح أنه قد عاد إليه مرة أخرى، فأي فارق عمليٍّ بين إمبراطور يزعم أنه من نسل الآلهة وبين زعيم يملك حق السيادة ويستطيع تعطيل المنظومة القانونية ونسف ـ أو حتى احتواء ـ نظام الفصل بين السلطات الذي هو جوهر الفلسفة السياسية لمكافحة الطغيان؟!

يبدو الأمر وكأنه حلقة جديدة من ارتداد التجارب العلمانية وإنتاجها لعكس مقصودها، فقد هربت الرأسمالية من الاحتكار وقصدت إلى توفير اختيارات متعددة، وزعمت أن السوق يعيد التوازن إلى نفسه فإذا بها تنتج أقوى طبقة احتكارية في التاريخ! وكذلك هربت الشيوعية من التمييز الطبقي وسلطة الأقلية لتفضي إلى طبقة حاكمة حازت ما لم يحزه إقطاعي وفتكت بالشعوب فتكًا لم يستطعه قيصر! وحتى فلسفة النسبية التي حاولت الهروب من العنف وقصدت إلى نشر التسامح انتهت إلى أن تُميِّع كل الحقائق حتى لم يعد من سبيل لإثبات شيءٍ ما على أنه «حقيقة» إلا بالقوة، فأفسدت بذلك كلَّ منطق إلا منطق القوة، فأي تسامح يبقى حينئذ؟! وأخيرًا: هل كانت العلمانية ابتعادًا عن الدين أم أنها اعتناق لدينٍ جديد: حلت فيه الدولة محل الكنيسة، والدستور محل «الكتاب المقدس»، والعَلَم محل الصليب، والبرلمان محل الكُهّان؟!

Readonly

منتج غربي مصبوغ بالطغيان:

باستثناء الذين يعتنقون المركزية الغربية، أو الذين يرون أن التاريخ يسير في خط مستقيم إلى الأمام، فثمة اتفاق بين الباحثين على أن «الدولة الحديثة» هي بنت التجربة الغربية[١]، وأن كل حضارة كان بإمكانها أن تطور نظامًا خاصًّا بها يحمل بصمتها الثقافية إذا لم يتدخل الغرب فارضًا نظامه ومنطقه الحضاري بفعل تفوقه العسكري في أحقاب الاستعمار ثم حقبة النظام الدولي. فالوصول إلى الدولة الحديثة ليس حتمية تاريخية، ولا هو بالضرورة نوعٌ من التقدم المنشود لجميع الأمم.

وحيث كانت «الدولة الحديثة» بنت السياق التاريخي والاجتماعي الغربي، فإنها تحمل موروثاتها وخصائصها الأصيلة، ومن أهم هذه الموروثات هو هذا النزوع إلى الطغيان والتحكم والهيمنة من قِبَل السلطة مع إضعاف مستمر للمجتمع، ولا يحتمل المقام هنا أكثر من إشارات مختصرة إلى سياقات دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية، وخصوصيات أخرى جغرافية وتاريخية أثرت على هذه السياقات كلها، وصنعت هذا النزوع.

١ ـ في **السياق الديني** يلاحظ أحمد داود أوغلو أن التجربة الغربية مرت بثلاث مراحل: الوثنية ثم المسيحية ثم العلمانية، وبالرغم من كون كل مرحلة انقلابًا على الأخرى إلا أنها تجتمع في دمجها بين الإله والإنسان، فالآلهة عند اليونان لها صفات

---

(١) أحمد داود أوغلو، الفلسفة السياسية، ترجمة: إبراهيم البيومي غانم، ط١ (القاهرة: مكتبة الشروق، يناير ٢٠٠٦م)، ص٥٩ وما بعدها؛ وائل حلاق، الدولة المستحيلة: الإسلام السياسي ومأزق الحداثة الأخلاقي، ترجمة: عمرو عثمان، ط١ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث، ٢٠١٤م)، ص٦٣ وما بعدها.

Readonly

الإنسان، وفي المسيحية تجسَّد الإله إنسانًا، وفي العلمانية صار الإنسان إلهًا[١]. وهكذا كانت المرجعية العليا وحق السيادة جزءًا مندمجًا في المجتمع، متجسدًا في بعض مكوناته، دائمًا ما كان ثمة شخصٌ ما أو نخبةٌ ما أو مؤسسةٌ ما تنتهي إليها المرجعية وتملك السيادة حصريًّا، ولا معقب لها. ولعل هذا يفسر الحضور الطاغي لسلطة الدولة في نماذج المدن الفاضلة التي أنتجتها الفلسفة الغربية عبر ألف سنة منذ الجمهورية لأفلاطون وحتى يوتيوبيا لتوماس مور.

٢ ـ وفي **السياق السياسي** فإن الديمقراطية المعاصرة ترجع إلى جذورها في ديمقراطية المدن اليونانية، وتعد الفلسفة اليونانية هي المرجع الأساسي للغرب المعاصر، وبها يبدأ مؤرخ الفلسفة الغربي كتابه، بل يجنح الكثيرون إلى اعتبار أن الحضارة المعاصرة ما هي إلا استئناف لتلك اللحظة بعدما قطعتها حقبة القرون الوسطى المظلمة[٢] ومع أن قرونًا طويلة سبقت سقراط فإن مؤرخي الفكر السياسي يلقبونه بمؤسس الفلسفة السياسية[٣]. ما يهمنا في هذا الآن أن الفكر السياسي اليوناني وديمقراطية المدن اليونانية وُلِدت ضمن خصوصية جغرافية يونانية، الجغرافيا الوعرة والجزر المنفصلة والمجتمعات القليلة المنعزلة، إنها الدولة المدينة التي هيمنت على هؤلاء الفلاسفة، وهذا ما ولَّدَ فكرة «الوطنية/ القومية»، وهي فكرة ذات وجهين: فوجهٌ منها يحمل السعادة والتقدير للمواطنين داخل

---

(١) أحمد داود أوغلو، الفلسفة السياسية، ص٢٩ وما بعدها.

(٢) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠١٠م)، ١/ ١٨٣؛ رونالد ستورمبرج، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث: ١٦٠١ ـ ١٩٧٧، ترجمة: أحمد الشيباني، ط٣ (القاهرة: دار القارئ العربي، ١٩٩٤م)، ص١٨.

(٣) ليو شتراوس وجوزيف كروبسي، تاريخ الفلسفة السياسية، ترجمة: محمود سيد أحمد، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٥م)، ١/ ١٩ وما بعدها.

Readonly

الحدود، ووجهٌ آخر يرى في غير المواطنين مرتبة أدنى ومادة استغلال لا بأس بقهرهم لتمويل المواطنين اليونان[١]. لقد كان التمايز على أساس قومي، وتطبيق السلطة المباشرة في جغرافيا محدودة أمرًا بارزًا طول التاريخ الأوروبي، حتى في الحقبة المسيحية[٢]، وهو ما ازداد انتعاشًا في عصر المدن الإيطالية التي كانت البيئة الحاضنة لفلسفات عصر النهضة ونظرياته القانونية. وقد اعتبر صُلْح وستفاليا الذي يرسخ التمايز القومي ويرسم الحدود حلًّا لمشكلات أوروبا، وظل يمثل الأساس والمرجعية إذ تسبب خرقه في حروب وأزمات[٣]. إن هذا السياق السياسي الذي وُلِد ونما ونضج في ظل جغرافيا وعرة تساهم في تقسيم الأمة إلى شعوب وقوميات معزولة ينتج سلطة أقدر على التحكم والهيمنة والسيطرة وممارسة الإدارة التفصيلية على شعوب قليلة العدد محصورة المساحة! نعم، ربما يسرت هذه المدن الصغيرة فرصة للحظات ديمقراطية قصيرة كما هو الحال في مدن اليونان وفي الدولة الحديثة، لكن بمجرد أن تتسع مساحة النفوذ السلطوي تختفي الديمقراطية كما

---

(١) برتراند رسل، حكمة الغرب عرض تاريخي للفلسفة الغربية في إطارها الاجتماعي والسياسي، ترجمة: د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة ٦٢ (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، فبراير ١٩٨٣)، ١/ ٣٠، ١٠٠، ١٤٣، ١٥٧؛ أرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١ م)، ١/ ٩٣؛ مونتسكيو، روح الشرائع، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، ١٩٥٤)، ٢/ ١٤٦.

(٢) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، (المنصورة: مكتبة الإيمان، د. ت)، ص١٤٤، ١٤٥؛ هنري كيسنجر، النظام العالمي: تأملات حول طلائع الأمم ومسار التاريخ، ترجمة: د. فاضل جتكر، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠١٥م)، ص٢٠ وما بعدها.

(٣) هنري كيسنجر، النظام العالمي، ص٣٢ وما بعدها.

Readonly

حصل في عصر الإمبراطورية الرومانية وفي عصر الاستعمار، فالديمقراطية ـ إن حدثت ـ فإنما يتمتع بها عدد قليل من المواطنين داخل مدن أو أوطان محدودة.

٣ ـ وفي **السياق الاجتماعي** كانت أوروبا متفردة بين الأمم بالميل إلى العائلة الصغيرة والنفور من العائلة الكبيرة، تضافرت عددٌ من العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية لتحطم وتعيق فكرة القبيلة والعشيرة والعائلات الكبيرة، من ذلك: تقديس العزوبية، وتأخر الزواج، والاكتفاء بزوجة واحدة، ومنع زواج الأقارب المقربين، والميل إلى إنجاب عدد قليل من الأطفال، وصعوبة الطلاق، وميل المسيحية إلى التشريع الفردي دون التشريع للمجتمع والدولة، وغير ذلك، لقد ساهم هذا كله في إنتاج النزعة الفردية وتعزيزها[١]. إن فكرة المواطن الفرد ذي النزعة الفردية مُوَلِّدة بطبيعتها لسلطة قوية مستبدة، فالمواطن المحكوم هو مجرد فرد أو عضو في أسرة صغيرة لا تستطيع بل ولا تفكر في مقاومة السلطة، وإذا كانت العلاقة بين مواطن فردٍ وسلطة دون المرور بمرحلة القبيلة والعشيرة فلا بد أن تتوغل السلطة في تفاصيل حياة المواطن ومنازعاته البسيطة مع غيره من المواطنين. ولأنه لا توجد سلطة يمكنها متابعة الأفراد بهذه الدقة فيما قبل الثورة التقنية الحديثة التي وفَّرت هذه الإمكانية، فإن العلاقة البديلة للعشيرة كانت هي العلاقة الإقطاعية بين السيد والخادم[٢]، وهي علاقة امتلاك سلطوية نفعية قسرية وليست علاقة تعاضد

---

(١) ريتشارد كوك وكريس سميث، انتحار الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة، ط١ (الرياض: العبيكان، ٢٠٠٩م)، ص٢٢٣ وما بعدها؛ أنتوني بلاك، الغرب والإسلام، ترجمة: د. فؤاد عبد المطلب، سلسلة عالم المعرفة ٣٩٤ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، نوفمبر ٢٠١٢م)، ص١١٧، ١١٨؛ عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢م)، ١/ ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) أنتوني بلاك، الغرب والإسلام، ص١١٩.

Readonly

وتكافل وعصبية كما في حال القبيلة والعشيرة، فكأن هذه العلاقة الإقطاعية ـ من منظور سياسي أمني ـ وفَّرت الحل السلطوي للتحكم في الأفراد ريثما تأتي التقنية الحديثة بإمكانيات التحكم دون طبقة وسيطة بين سلطة الدولة والمواطن. وهذه التقنية لم تأتِ إلا في ظل الثورة الصناعية ـ التي هي حدثٌ غربي ضمن خصوصية السياق التاريخي الغربي ـ وقد كانت لها تأثيرات حاسمة اجتماعيًّا كظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة وانحلال ما بقي من روابط القرابة والعائلة لحساب العامل الفرد الذي تهيمن عليه منظومةٌ آلية رتيبة، سواء في عمله الصناعي أو في سكنه الذي هو مجرد وحدة وظيفية خالية من أي روح أو بصمة حضارية، وقد أنتج هذا الوضع تضخم البيروقراطية لإدارة العمل وتقسيمه، إن الثورة الصناعية أنتجت جملة من العلاقات والظروف والطباع المصبوغة بالفردية والتحكم حتى ليكاد الإنسان فيها أن يكون آلة[١].

٤ ـ وفي **السياق الاقتصادي** لاحظ فرناند بروديل، في عمله الموسوعي عن القرون الأربعة الأوروبية (١٥ ـ ١٨م)، أن التطور الاقتصادي في أوروبا والذي انتهى إلى الرأسمالية لم يكن تطورًا طبيعيًّا ضمن اقتصاد السوق، بل إن قواعد اقتصاد السوق لم تظهر إلا نادرًا في إطار المنافسة الحرة، لكنه تطور صُنِع في منطقة محجوبة غامضة، على يد «المحنكين العليمين بالأسرار»، فالرأسمالية تراكمُ سلطةٍ تعتمد على موازين القوة أكثر مما تقوم على تبادل الاحتياجات، وهي سلطة تفرض نفسها «تتطفل» على المجتمع وإن لم يكن المجتمع بحاجة إليها[٢]. ولاحظ المسيري أن مسيرة الحضارة

---

(١) عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ٢١٠ وما بعدها.

(٢) فرناندو بروديل، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، الجزء الثاني: التبادل التجاري وعملياته، ترجمة: مصطفى ماهر، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣م)، ص٨، ٩.

Readonly

الغربية، في جانبها الاقتصادي، نزعت إلى المرجعية المادية وسارت نحو تحويل الإنسان إلى وسيلة أو أداة ضمن علاقة نفعية لا تبالي بالجانب الإنساني، فمنذ القرن الرابع عشر وحتى القرن التاسع عشر كان كل تطور اقتصادي يؤسس مزيدًا من نزع الإنسانية عن الإنسان وتحويله إلى رقم، مثلما يؤسس ـ ويخضع في نفس الوقت ـ لتضخيم الآلة والمصنع، فصار الاقتصاد حالة من القوانين المادية المجردة والثروة المتراكمة رقميًّا، وصار حالة مهيمنة على مجمل علاقات المجتمع ورؤاه، وقد تدعم هذا التوجه ـ ودَعَّم هو أيضًا ـ النزوع إلى العلمانية والتخلي عن قيم المسيحية، والتأثر بالثورة العلمية المادية التي اعتنقت فكرة القوانين المادية التي تحكم حركة الإنسان[1].

ثم إن ثمة خصوصيتان جغرافية وتاريخية في التجربة الغربية، كانتا بمثابة الوعاء الذي تشكلت فيه الأفكار الكبرى، وقد أشرنا إلى الخصوصية الجغرافية لدى الحديث عن السياق السياسي وأثرها في إنتاج الفكر السياسي الغربي منذ فلاسفة اليونان، ونريد أن نشير إلى خصوصية تاريخية تؤثر بشكل حاسم في مسارات التفكير والتنظيم، يهمنا منها الآن ثلاثة أمور فحسب:

١ ـ ما إن تغادر التجربة الأوروبية نطاق الجزر اليونانية والأوطان المحدودة، وتنزع إلى الإمبراطورية والتوسع، سواء في عصر الرومان أو عصر الاستعمار الحديث، حتى نرى أن التنظيم الذي يحكم المجتمع يميل إلى الهرمية، فثمة رأس في الأعلى، ثم طبقات تتوسع تدريجيًّا حتى المواطن في أسفل الهرم، تَبَدَّى هذا الشكل في الدين والدنيا، أي في التنظيم الديني والسياسي، في البابا والإمبراطور. كان هذا الشكل سببًا ونتيجة معًا في شيوع النزعة الفردية، وفي هيمنة السلطة وتحكمها بمن تحت أيديها من الرعايا وانفرادها بموارد القوة.

---

(١) المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ٢٠٧ وما بعدها.

Readonly

٢ ـ ما إن تجاوزت التجربة الأوروبية حقبة الكنيسة واعتنقت العلمانية، حتى تحطم الأساس الأخلاقي لأي سلوك سياسي أو حتى اجتماعي، أو بعبارة فاكيلاف هافل: «حينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، في هذه اللحظة بدأ العالم يفقد بُعْدَه الإنساني»[١]. نعم كثيرًا ما كان الملوك بلا أخلاق ومثل ذلك كان اللصوص والمجرمون، لكن الهيمنة الأخلاقية في مجتمع ما هي ولا شك قادرة على كبح جماح الملوك واللصوص، وإجبارهم في أقل الأحوال على التماس مبرر أخلاقي لسياستهم، وتقديم ما يثبت أنهم أخلاقيون. لكن مع تحطم فكرة الدين والغيب بالكلية، فإن الأخلاق لا معنى لها، إذ الأخلاق نفسها أمرٌ لا يمكن إثباته علميًّا ولا هو من المجال المادي[٢]. وغاية ما يمكن أن يُتوقع من علمانيين أن يتفقوا على قواعد أخلاقية معينة لأنها توفر لهم مزيدًا من المكاسب والمنافع المادية، فليس الأمر أخلاقًا بقدر ما هو تنظيمٌ مادي لتحقيق المصلحة، وهو لا يتمتع بأي رسوخ ولا له معنى إذا رأى طرفٌ أن مصلحته في انتهاك هذه القواعد. وعند تحطم الأساس الأخلاقي ظهرت العلوم الوضعية التي ترى أن مهمتها هي البحث في خصائص ما هو كائن لا فيما ينبغي أن يكون، ومن هنا انبثقت نظريات المعرفة المادية وهيمنت على علوم الاقتصاد والاجتماع والقانون وغيرها.

٣ ـ أن «الدولة الحديثة نشأت عن إفلاس الكنيسة»[٣]، وإن صلح وستفاليا

---

(١) عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية، ط٤ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩م)، ص٢١٩.

(٢) انظر عرضًا بديعًا لهذه الفكرة عند: علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ط١ (ميونخ ـ القاهرة: مؤسسة بافاريا ـ دار الجامعات، ١٩٩٧م)، ص١٧٧ وما بعدها، ٢٣١ وما بعدها.

(٣) رونالد ستورمبرج، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، ص٣٦.

Readonly

الذي أعاد تشكيل أوروبا إلى دول قومية كانت المسيحية هي أكبر الخاسرين فيه[١]. وبهذا فقد ورثت الدولة الحديثة سلطة الكنيسة واستحوذت على ما كان لها من الهيمنة والنفوذ، لقد كان الأمر أشبه بمنتصر يحصل لنفسه على أملاك المهزوم، إلا أن إله الدولة كامنٌ فيها وليس في السماء. وهكذا ـ كما يقول كارل شميت ـ فإن «مفاهيم النظرية الحديثة للدولة هي مفاهيم لاهوتية معلمنة، ليس فقط بسبب تطورها التاريخي بل بسبب بنيتها المنهجية»[٢].

وإذا جمعنا بين هذه الأمور الثلاثة، فبوسعنا أن نرى مدى ما يمكن أن تقوم به سلطة دولة قوية متفردة تحتكر القوة ومواردها، ورثت بنية منهجية ومفهومية كنسية، ويخلو تفكيرها من أساس أخلاقي تدين له بالتقديس!

لقد تنبأ توماس هوبز أن حالة الطبيعة (أي حالة الإنسان بعد انسحاب الإله من الكون) هي حالة حرب من الجميع ضد الجميع، وعندها سيتعاقد البشر لا بدافع من فطرة الخير بل بدافع الخوف من بعضهم، فيُنَصِّبون «الدولة التنين» حاكمًا عليهم رجاء تحقيق شيء من الطمأنينة[٣]. ولهذا فإن كفاءة الدولة الحديثة تقاس بقدرتها على السيطرة على الشعب، يستوي في هذا أمريكا والاتحاد السوفيتي رغم تناقضهما في كل شيء[٤].

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد علي أبو درة، (بيروت ـ تونس: دار الجيل ـ المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، د. ت)، ٣٠/ ٣١٥ وما بعدها.

(٢) كارل شميت، اللاهوت السياسي، ترجمة: رانية الساحلي وياسر الصاروط، ط١ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث، ٢٠١٨م)، ص٤٩. باختصار بسيط.

(٣) عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية، ص٢١٩.

(٤) ناعوم تشومسكي، النظام العالمي القديم والجديد، ترجمة: د. عاطف معتمد، (القاهرة: دار نهضة مصر، مارس ٢٠٠٧م)، ص٥.

Readonly

لا يهمنا الآن الخوض فيما إن كانت الدولة الحديثة قد صارت إلهًا بفعل الضرورة البشرية التي تطمح إلى إله بعد إزاحة الكنيسة، أو بفعل الخوف الذي يبلغ ذروته بزوال الأساس الأخلاقي، أو بفعل الشبق البشري الغريزي لدى الحكام لتطوير استبدادهم وتقويته بكل ما تصل إليه عقولهم وأياديهم من أفكار وأدوات، أو لكل ما سبق أو لأسباب أخرى، لقد أفاض الفلاسفة والمفكرون في تناول هذا كله، يهمنا الآن أن نقرر اتفاقهم على أن الدولة الحديثة قد صارت إله هذا العصر، وأنها صارت مرجعية نفسها، ومصدر معرفتها، وأنها طورت مراقبتها لكل أنشطة المواطنين، وتغلغلت في كل التفاصيل، وأنشأت جهازًا بيروقراطيًا لا يكف عن التضخم للتحكم في كل هذا ومتابعته. كما يهمنا بشكل أهم أن نقرر حقيقة أن هذا الإله الجديد خالٍ تمامًا من صفات الرحمة والحكمة والستر وغيرها من صفات العطف التي يؤمن بها المتدينون في إلههم. الدولة الحديثة إله تحركه المنفعة واللذة التي تخص نخبته الحاكمة، وهو يملك من الوسائل والتقنيات ما لم يحلم به إمبراطور ولا بابا فيما سبق.

إن عددًا كبيرًا من المفكرين والباحثين الغربيين يتأسفون ويندبون أن أوروبا لم تستفد من الميراث الحضاري العربي الإسلامي، لا سيما في جانبه الأخلاقي[1]. لا أقول هذا الآن لأمارس الفخر، بل للتأكيد على أن الدولة الحديثة هي بنت التجربة

---

(١) رجاء جارودي، وعود الإسلام، ترجمة: د. طوقان قرقوط، ط٢ (بيروت: دار الرقي، ١٩٨٥م)، ص١٧ وما بعدها؛ وتأسف جوستاف لوبون أن المسلمين أخفقوا في فتح باريس وإنقاذ فرنسا. جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠م)، ص٣١٧؛ ويعد كتاب وائل حلاق «الدولة المستحيلة» دعوة صريحة للغرب إلى النظر في الميراث الإسلامي لمعالجة أزمات الحداثة.

Readonly

الغربية حصرًا، وذلك أنها مارست بوعي رفض إسهامات حضارية أخرى ربما ساهمت في تخفيف غلوائها.

النزوع إلى دولة قوية وحرية مقدسة:

مع الإدراك التام بتداخل وتشابك هذه السياقات والخصوصيات، وتأثير بعضها في بعض، وتداخل ظروف أخرى كثيرة، ومع اليقين التام بالحاجة إلى تناول أعمق وأوسع، إلا أن المساحة المتاحة والضرورة الدراسية تفرض دائمًا قدْرًا من التبسيط والاختزال لتقديم التفسير وربط الأسباب بالنتائج. والنتيجة التي يهمنا الإشارة إليها هنا أن التجربة الغربية كانت نزَّاعةً إلى الاستبداد والتحكم والسيطرة، حتى إن فلسفات عصر النهضة والتنوير والحداثة لم تستطع الانخلاع من هذا التصور لعلاقة الدولة بالرعية[١]، بل نزعت أيضًا إلى بقاء القوة مُحْتَكَرة في يد الدولة[٢]، مع بذل المجهود في تصميم نظريات وهياكل ونُظُم تُصَعِّب الانفراد بالسلطة والاستبداد بها، ولهذا أنتجت هذه الفلسفاتُ أفكارَ الفصل بين السلطات والديمقراطية الشعبية والبيروقراطية (وأصل معناها: الاحتراف المهني) ومنظمات المجتمع المدني وحرية وسائل الإعلام ...إلخ! ولكن واقع التجربة كما هو على أرض الواقع لا كما أنتجتها عقول المفكرين يقرر بأن السلطة التنفيذية، التي هي حقيقة السلطة ومركز

---

(١) بذكاء وبراعة يكشف علي عزت بيجوفيتش أن المدينة الفاضلة (يوتوبيا) كما ظهرت في عقول الفلاسفة إنما هي في نهاية الأمر معسكرات ضخمة، والمعسكرات هي أقرب نموذج أمكن تحقيقه لتصورات المدينة الفاضلة التي تحظى بالأمن والنظام والانضباط وتوفر الغذاء والصحة، ومع ذلك فإن المعسكرات هي من وجهة نظر إنسانية أسوأ مكان يمكن تخيله، وآخر مكان يحب الإنسان أن يعيش فيه. انظر: بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص٢٣٩ وما بعدها.

(٢) المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ١/ ٣٠٨ وما بعدها.

Readonly

القوة في الدولة، كانت أقدر دائمًا على تطويع هذه الوسائل لمصلحتها، وتمكنت من السيطرة عليها واستعمالها! وهو الأمر الذي يتبدى بوضوح فجّ في «حالة الاستثناء»، ويبدو بوضوح ناعم في سائر المظاهر الأخرى[1].

إن هذا يلفت نظرنا إلى فارق مهم، سنحتاجه بشدة في الجزء الثاني من الورقة، ذلك هو: لماذا كانت الحرية هي القيمة المقدسة التي حامت حولها مدارس الفلسفة الغربية، على العكس من الحالة الإسلامية ـ مثلًا ـ التي حامت حول فكرة الطاعة والنظام. يكمن الجزء الأساسي من الإجابة في أن الدولة الغربية طالما كانت قوية تتحكم في مجتمع ضعيف لا يتمتع بالقدرة على الثورة، بينما كانت الدولة في التجربة الإسلامية أضعف بكثير ولا تسيطر تمامًا على مجتمع قوي متكتل قبليًّا ومُسْتَثَار دينيًّا ويتمتع بالقدرة على الثورة.

ومن الجدير بالذكر هنا أنني أفترض جدلًا أن أفكار الحداثة وتطور الدولة الحديثة كانت نتاجًا لفلسفة النهضة والتنوير، أريد بذلك أن أوضح أنه حتى هذه الفلسفات سَعَتْ ورغبت وطمحت ـ في مجملها ـ إلى دولة تحتكر القوة وتهيمن على الشعب، مع بذل الجهد وإتعاب العقل في الطريقة التي تجعل هذه الدولة تُحْسِن تمثيل الشعب ولا تتغول على حريته، أي باختصار: السعي نحو دولة قوية تقدس الحرية. مع أنني في واقع الأمر أنحاز إلى القائلين بأن الدولة الحديثة إنما كانت نتاج السياسة والمعارك والواقع أكثر مما كانت نتاج حركة فكرية، وأن بناءها

---

(١) مع كثرة الكتابات التنظيرية والفلسفية لهذا الموضوع، إلا أني أشير على وجه الخصوص إلى كتاب الصحافي الأمريكي جريج بالاست «أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها»، حيث يصوغ هذه الفكرة من خلال وقائع حية تتجسد فيها الفكرة، وهو ما يجعلها أكثر وضوحًا من التجريد الفلسفي في كتابات المنظرين.

Readonly

إنما قام على غريزة حب السيطرة والتحكم ورغبات التوسع والهيمنة واحتكار الموارد، أي أن الدولة الحديثة إنما هي من صنع الملوك والغزاة والمحاربين لا المفكرين والفلاسفة[1]. إنني أقول بوضوح: إن أفكار الحداثة نفسها تحمل جنين الطغيان لأنها تفضي في النهاية إلى دولة تحتكر السلطةُ فيها كلَّ عوامل القوة، ولا يبقى إلا أن يأتي ظرف ما فيستغله زعيمٌ ما فيجدد سيرة الأباطرة الطغاة!

طغيان بلا طاغية؟!!

هنا يطرح السؤال نفسه: لماذا إذن لا نرى في الغرب طغاة على نحو مَن هم في عالمنا العربي، وفي إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية؟!

تعددت الإجابات على هذا السؤال، يهمنا من بينها هذه الإجابات الثلاث التي تختص بموضوعنا في هذه الورقة:

١ ـ ثمة تنظير يقول بأن الطغاة ظهروا فعلًا في الغرب، ومن بعد الثورة الفرنسية

---

(١) تشارلز تيلي، «صناعة الحرب وبناء الدولة بوصفها جريمة منظمة»، ترجمة: أحمد العوفي، مدونة: نظر، بتاريخ: ٢٧ فبراير ٢٠١٦. (تاريخ الزيارة ٢٧ نوفمبر ٢٠١١م)؛ مارك كوياما، «لم تكن الأفكار كافية»، ترجمة: عمرو بسيوني، مجلة: حكمة، بتاريخ: ١٢ إبريل ٢٠١٨. (تاريخ الزيارة ٢٧ نوفمبر ٢٠١١م). ومقال تشارلز تيلي مترجم عن مقال محرر ضمن كتاب «Bringing the State Back in»، ولكن فكرته بسطها المؤلف نفسه في كتابه «Coercion, Capital, and European States, A. D. 990 - 1992». ولفت نظري أن هنري كيسنجر، وهو أستاذ للتاريخ قبل كونه مسؤولًا سياسيًّا، استعرض تطور أوروبا والدولة القومية الحديثة في كتابه «النظام العالمي»، ولم يكترث لأفكار فلاسفة التنوير، حتى إنه لم يذكر فولتير مطلقًا، وذكر روسو مرة واحدة عابرة، بينما ركَّز كثيرًا عند ريشيلو، المؤسس العملي ـ لو صح التعبير ـ لفكرة الدولة المتجاوزة للدين في البلاط الفرنسي، وبشكل أقل مع بالمرستون القائد البريطاني الشهير. انظر: كيسنجر، النظام العالمي، ص ٣٠ وما بعدها.

Readonly

ذاتها وفي فرنسا، مثل نابليون الذي جدد الإمبراطورية وأخمد الجمهورية وحتى هتلر وموسوليني الذين جاءوا بطريقة ديمقراطية، ولكن لا الديمقراطية ولا الحداثة تمنعان ظهور الطغاة.

وهذه إجابة تدفعنا إلى التفكير الجدي في جدوى هذا النموذج الحداثي ووسيلته الديمقراطية، ولا تغرينا غريزة الجوع للاندفاع نحو طعام لا يحقق الشبع.

٢ ـ وثمة تنظير يقول بأن الغرب ليس بحاجة إلى ظهور الطغاة في الغرب، طالما أنهم يستطيعون حل مشكلاتهم وضمان رفاهيتهم على حساب الشعوب الأخرى، وهذا ما يفسر ـ في جانب منه ـ كيف أن الحكومات الديمقراطية الغربية هي الداعم الأقوى للحكومات الطغيانية في بقية العالم، ذلك لأنها تحل لهم مشكلاتهم الداخلية بما توفره لهم من السيطرة على الموارد ومن أسواق استهلاكية ومن يد عاملة رخيصة[1]. وفي اللحظة التي تعجز الشعوب المقهورة على توفير رفاهية الغرب ستبدأ الأزمات التي ستضطرهم اضطرارًا إلى فرز طغاة يعيدون حالة الاستقرار عندهم واستعادة حالة الرفاهية على حساب آخرين.

وهذه إجابة تدفعنا إلى التفكير بأن هذا النموذج الحداثي ووسيلته الديمقراطية لا يعيش إلا بقدر ما نموت، ولا يتألق إلا بقدر ما ننطفئ، وأن حياته هناك رهينة بموتنا نحن في بلادنا، لقد توقفوا عن غزو بعضهم لأنهم يغزوننا نحن، وندفع نحن فاتورة فائض القوة والعنف وفائض الإنتاج أيضًا! ومن ثم فقد يكون تحطيم هذا النموذج على رأس أولوياتنا، بدلًا من أن يكون الاقتداء به هو منتهى أملنا.

٣ ـ وثمة تنظير يقول بأن الديمقراطية نفسها كوسيلة حداثية، تحولت إلى

---

(١) ريتشارد كوك وكريس سميث، انتحار الغرب، ص٣٠، ٣١.

Readonly

وسيلة زائفة للتعبير عن الشعوب، وأن الطغاة موجودن وقائمون، ولكنهم يفضلون التواري عن المسرح وممارسة القيادة من خلف الستار، وذلك أنه في مجتمع فرداني مغرم باللذة والاستهلاك، تتمكن الأموال من التحكم في عملية الانتخابات واختيار المرشحين وتغطية حملاتهم الدعائية والإعلامية، كما تتمكن فيما بعد من التحكم في سير القوانين والسياسات التي يصدرها هؤلاء المنتخبون.

وهذه إجابة تدفعنا إلى التفكير في أن الديمقراطية مجرد وسيلة استطاع من يملك السلطة والقوة أن يحتويها ويوظفها ويديرها لتحقيق أغراضه، وعجزت أن تكون تمثيلًا حقيقيًّا للشعوب. وهو ما يدفعنا إلى التفكير لا في الديمقراطية كحلم وأمل بل إلى تعديل صيغ القوة في المجتمع، تلك التي تمنع أن تكون القوة حكرًا على أطراف ما، فتملك بهذا أن توظف أي وسيلة لتحقيق أغراضها.

وهذه الإجابة الأخيرة هي مدخلنا إلى الحديث عن النظام الإسلامي كنموذج لتوازن القوى.

النظام الإسلامي: نموذج توازن القوى

من نافلة القول أن الإسلام هو الذي صنع الدولة والحضارة، فالعرب لم يكونوا قبل الإسلام أمة ولا دولة ولا قومية، بمعنى أن تجتمع في شكل من أشكال التنظيم السياسي والاجتماعي، فالإسلام هو العامل الوحيد الجديد الذي أحال هذه المجموعات المتناثرة إلى أمة ودولة وحضارة. وهو الأمر الذي يختلف جذريًّا عن التجربة الغربية، حيث لا يمكن القول بأن المسيحية هي التي أطلقت الحضارة الغربية، بل هي مسبوقة بالفلسفة اليونانية والتنظيم السياسي والقانوني الروماني،

Readonly

وهي أمور تَمَثَّلَتْها المسيحية وامتَصَّتْها بأكثر مما قضت عليها وغيَّرَتْها[١]، ثم إن السياق الغربي انقلب على المسيحية وانحاز إلى العلمانية التي أنتج في ظلها أشكال التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي المعاصرة.

وبرغم ما تعرض له المسلمون من علوم الحضارات الأخرى في أزمنة الفتوح وعصر الترجمة ومناطق الاحتكاك الحضاري فإن صبغة الإسلام وطبيعته ظلت مهيمنة ومستوعبة لما سواها من التراث الحضاري، بحيث لا يمكن القول إن حضارات المناطق المفتوحة قد استوعبت الإسلام فيها وأعادت إنتاج نفسها من خلاله. بل إن مؤرخًا مثل أرنولد توينبي يعتبر هذه الظاهرة الإسلامية استثناء بين تاريخ الحضارات[٢].

من هنا كانت نشأة الدولة الإسلامية، خالصة للتأثير الإسلامي، لم تكن متأثرة بسياق حضاري قبلها، ولم يشاركها مصدر ثقافي آخر في مصدر المعرفة الذي بُنِيَتْ عليه، ولم تتصالح مع واقعها الجاهلي بل كانت انقلابًا عليه وتحطيمًا لمعتقداته وأشكال تنظيماته السياسية والاجتماعية والاقتصادية. إننا حين ندرس التجربة الحضارية فإننا ندرس الإسلام نفسه، وحين ندرس الإسلام ندرس تجربته الحضارية أيضًا.

نسعى في هذا الجزء من الورقة إلى بيان كيف بنى الإسلام نظامه السياسي على مبدأ توازن القوى، وكيف مَثَّلت تعاليمه وشعائره وشرائعه أساسًا دينيًّا ثم إسنادًا

---

(١) للقاضي عبد الجبار المعتزلي كلمة مشهورة: «النصارى تروموت ولم تتنصر الروم»، القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، (القاهرة: دار المصطفى، د. ت)، ص١٧٣؛ ريتشارد كوك وكريس سميث، انتحار الغرب، ص١٠، ٧١.

(٢) توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ٢/ ٢٤٨، ٢٤٩.

Readonly

اقتصاديًّا واجتماعيًّا لهذا التوازن، بحيث إن حصول الطغيان في أمة المسلمين هو أمرٌ صعب على أية سلطة سياسية، ولا تزداد السلطة طغيانًا إلا بمقدار ما يصيب النظام الإسلامي الاقتصادي والاجتماعي كله من نقصان وانهيار، وهذا هو ما يفسر لنا كيف أن الدولة الحديثة لم تنشأ في بلادنا إلا قسرًا وقهرًا، ويفسر لنا عدم استقرارها وتمكنها في بلادنا حتى الآن.

سنحاول توضيح الفكرة من خلال محورين؛ الأول: كيف قلَّص النظام الإسلامي من صلاحيات السلطة ونزع عوامل استبدادها. والثاني: كيف بنى الإسلام مجتمعًا متكتلًا متينًا محفوفًا بنظام اقتصادي واجتماعي يستمد قوته من الدين نفسه بحيث يكون الاستبداد به أصعب ما يمكن.

تقليص صلاحيات السلطة:

يقوم الإسلام على فكرته المركزية، التوحيد، كلمة «لا إله إلا الله»، والله تبارك وتعالى مفارق لخلقه، فليس الإله حالًّا في إنسان أو في مؤسسة، ولا لأحد من البشر طاقة أن يبلغ مرتبة الإله أو يتحدّ به، بل كل البشر عبيده وعباده، بمن في ذلك رسوله وخير خلقه. وليس في البشر من يتكلم باسم الله إلا رسوله حين يوحى إليه، بل إن الوحي لينزل بتصحيح موقف اتخذه الرسول كبشر، وإن الرسول ليسكت إذا عُرِضت عليه مسألة لأنه لم يوحَ إليه فيها بشيء، وهكذا كان كلام الرسول (وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحي). وهذه المفارقة بين الله وخلقه هو أول اختلاف حاسم بين الإسلام والغرب، الذي دمج بين الإله والإنسان في كل عصوره الدينية مع اختلافها.

وحين ننظر في التنظيم السياسي للمجتمع الإسلامي نرى معنى التوحيد متمثلًا

Readonly

في «نزع السيادة» عن كل البشر وجعلها حصرًا لله تعالى، فليس في البشر من يمكن أن يكون إلهًا أو شبه إله أو من نسل الآلهة[١]، فالتوحيد هو ما يجعل البشر سواسية، ويُنهي أي أساس لامتياز بعضهم على بعض، فجميعهم أبناء آدم، وجميعهم تتحدد أقدارهم ومكانتهم وفقًا لتقواهم ولأعمالهم الصالحة[٢].

ومن هنا كان الحاكم في النظام الإسلامي إنما هو وكيل عن الناس لا امتياز له عليهم، ويستمد شرعيته من اختيارهم له، فلهم حق نصبه ثم مراقبته ونصحه وتقويمه ولهم حق عزله أيضًا. وكان هذا الأمر في زمن نزول الإسلام، زمن الإمبراطوريات الملكية الحاكمة بحق السماء، ثورة هائلة في الفكر السياسي، بل ظل هذا الحال إلى ما بعد زمن الإسلام بألف سنة، إذ لم تعرف الحضارات وسيلة غير الملكية لتحقيق استقرار النظام وإدارة المناطق الواسعة، وبينما كان ولي العهد في أي إمبراطورية يكتسب صفته هذه منذ لحظة خلقه في بطن أمه ودون أن يُعدّ هذا انحرافًا، كانت الملكيات في العالم الإسلامي تعد انحرافًا عن الأصل ولا يُخضع لها إلا بحكم الضرورة والاضطرار، ولا يكتسب فيها ولي العهد صفته هذه إلا ببيعة يأخذها أو تؤخذ له من الناس، ومع أن هذا إجراء شكلي في أغلب الأحيان إلا أنه إقرار بأن

---

(١) إن طرح التوحيد بمفهوم التحرر من الاحتلال ومن الطغيان هو مَعْلَمٌ ثابت، بل مركزي، في أفكار سائر الحركات الإسلامية المعاصرة.

(٢) يتردد في كتابات الرحالة الغربيين والمستشرقين إشادتهم، وربما دهشتهم، من رسوخ الشعور بالمساواة في المجتمع الإسلامي بخلاف الطبقية المترسخة في الغرب. انظر: جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٣٩١؛ نبيل مطر، الإسلام في بريطانيا: ١٥٥٨ ـ ١٦٨٥م، ترجمة: بكر عباس، ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٢م)، ص٦١، ٦٢؛ محمد إلهامي، «كيف عامل المسلمون عبيدهم: شذرات من مؤلفات الرحالة الغربيين»، مجلة المجتمع الكويتية، يوليو ٢٠٢٠م.

Readonly

الشرعية تُستمدّ من اختيار الناس لا من صلة الدم والعرق النبيلة أو المقدسة!

ربما لا يُقَدِّر المعاصرون حجم هذا التحول الجذري وآثاره لكون الغرب الآن قد توصل إلى صيغة «الرئيس الموظف»، لكنه في هذا الوقت كان أشبه بالمعجزة الخارقة، ومع ذلك فإنه قد بقي في هذا التحول من الأمور ما لم تصل إليها الديمقراطيات المعاصرة حتى الآن، ذلك هو: نزع الحق في التشريع.

فمن أهم ما يترتب على «نزع السيادة» وجعلها لله حصرًا، نزع الحق في التشريع عن البشر وجعل ذلك لله أيضًا، فالحاكم المسلم ملزم بالحكم بشريعة الله، وهذه الشريعة ليست دستورًا وضعه هو أو حتى ساهم فيه بل ولا كانت له القدرة على التأثير في كتابته، ولا يملك الحاكم المسلم تحت أي ظرف أن يعطل العمل بالشريعة أو يستبدل بها غيرها وإلا سقطت شرعيته وأبيح للناس الخروج عليه وعزله، فليس ثمة «حالة استثناء» يملك أحدٌ فيها تعطيل الشريعة. وأقصى ما يستطيعه الحاكم المسلم إذا انحرف أن يتكلف في تأويل الشريعة ونصوصها ليجعل أغراضه ورغباته مما تسمح به الشريعة، ويستعين على ذلك بعلماء السلطان، ويكون هذا أمرًا مفضوحًا يطعن فيه وفي العلماء الذين استعان بهم أيضًا، وذلك لطبيعة وضع العلماء في التنظيم الاجتماعي الإسلامي إذ لم يكونوا مؤسسة كهنوتية ولا كان فيهم من يحتكر الحديث باسم الشريعة.

بينما يملك الحكام المعاصرون المنتخبون ديمقراطيًّا أن يصدروا من اللوائح والقوانين والتشريعات بل والتعديلات الدستورية ما يحقق مصالحهم ويُحوّل رغباتهم إلى بنود تكتسب صفة الشرعية والقانونية. وتزداد هذه القدرة إلى الحد الأقصى في لحظة التحولات السياسية مثل الاحتلال والانقلابات العسكرية،

Readonly

وغيرها من صور «حالة الاستثناء»، حيث يملك الحاكم أن يعطل سائر القوانين وأن يفرض قوانين أخرى، ويملك أن يكتب دستورًا جديدًا يكون هو الوثيقة القانونية الجديدة المعبرة عن أهداف المنتصر. وفي السياق العلماني لا يُعَدّ خبراء القانون الذين أخرجوا هذه الوثائق والقوانين قد ارتكبوا فعلًا مشينًا ـ كما هو حال علماء السلاطين ـ بل يُعَدُّ هذا من دلائل خبرتهم وكفاءتهم. فالقانون في السياق العلماني هو تقنين لحالة سياسية ولموازين القوى وليس تعبيرًا عن العدالة، ذلك أنه صادر عن سلطة بشرية أرضية في لحظة صراع[١].

ومن أهم ما يترتب على «نزع السيادة» وجعلها حصرًا لله تعالى، توحيد مصدر المعرفة، بكل ما لهذا من آثار ثقافية عميقة[٢]، فالله تعالى هو مصدر المعرفة وميزان الصواب والخطأ والحق والباطل والحلال والحرام، ومن ثَمَّ فلا قيمة لأي فكرة أو معنى يقوله أيّ أحد إلا بقدر قربه أو بعده عما جاء به الوحي. وهذا الأمر هو من أهم ما نزع من البشر قدرتهم على تبرير التسلط والاستبداد أو الزعم بأن ثمة من له الحق أن يفرض أو يخترع أصولًا فكرية خارجة عما جاء به الوحي. إن كل فكرة تأخذ قيمتها من اتساقها مع ما جاء به الوحي[٣]. ومن هنا فإن كل خلاف بين المدارس

---

(١) تثبت الخبرة التاريخية أن القضاة في الدولة الحديثة دولتيون، بطبيعة التفكير وبطبيعة التنظيم الاجتماعي والبنية الثقافية للدولة، وليسوا سلطة مستقلة على الحقيقة. انظر: وائل حلاق، الدولة المستحيلة، ص١٠٠ وما بعدها.

(٢) حديثنا هنا عن الآثار الثقافية من زاوية ما ناقشه فوكو وأفاض فيه من القوة الثقافية للدولة وتغلغلها في المجتمع، وعمل الدولة الدائب على تصنيع ثقافة المجتمع وفق رؤيتها وأهدافها.

(٣) وهذا الأمر حاسم في تفسير استجابة المجتمع الإسلامي لسياسة الحكم القائمة، فحتى الذين يخرجون للجهاد ـ كمثال على أصعب أنواع الاستجابة وأشدها كلفة ـ لا يفعلون ذلك لأن هذا هو واجبهم تجاه الدولة، بل لأن الجهاد تكليف من الله، ولا يفعلونه لتوسيع حدود الدولة بل لأنه نشر =

Readonly

الإسلامية إنما خلاف حول فهم النص وتفسيره لا خروجًا عليه، كما أن كل محاولة انحراف واختراع أصول فكرية جديدة كانت تحاول أن تتسربل بنوع تأويل واجتزاء، وهو ما جعلها محاولات مفضوحة ومنبوذة ولم يكتب لها البقاء طويلًا، ومن بقي منها ظل على هامش التجربة الإسلامية.

بينما كان إقصاء «المقدس» في التجربة الغربية، مفضيًا إلى حالة لا انضباط لها من الأفكار، بل إلى حالة من السيولة العامة، وصار ما كان منبوذًا محتقرًا بالأمس هو من صميم الحقوق والحريات اليوم، بل ربما جُرِّم وعوقب من يعارضه أو حتى ينفر منه! والعكس صحيح أيضًا[1]! هذه الحالة من السيولة ـ لا سيما في سياق علماني غير أخلاقي ـ تفضي إلى أوضاع مرعبة تُستعمل فيها المهارات والأدوات والعلوم في إعادة تفسير وإعادة تبرير كل شيء وأي شيء، إذ ليس ثمة معيار أصلًا!

لقد أدّى «نزع السيادة من البشر» في النظام الإسلامي إلى تقليص كبير لصلاحيات

= للدين وجهاد في سبيل الله. وهذا فارق مهم في توضيح شكل العلاقة بين المسلم والسلطة، وله دلالته السياسية الواضحة. انظر: برهان غليون، نقد السياسة: الدولة والدين، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٩٣م)، ص٥٢، ٥٣؛ هشام جعيط، الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ط٤ (بيروت: دار الطليعة، مارس ٢٠٠٠م)، ص٧٢.

(١) حتى إذا قبلنا رأي القائلين بأن الدولة الحديثة يمكن أن تستوعب النظام الإسلامي، وأنه ليس ثمة تعارض جذري بينهما، فسنرى أن سيادة القانون لا تساوي سيادة الشريعة، حتى بالمنطق القانوني الدولتي، يشير القانوني المعروف د. توفيق الشاوي إلى هذا الفارق بقوله «الشريعة ملزمة للجميع»: سلطات التشريع والتنفيذ والقضاء، وهي تغل يد الحاكم والمشرع عن سنّ قوانين ظالمة، بينما سيادة القانون مُلْزِمة لسلطة التنفيذ فقط، ويبقى الباب مفتوحا لإصدار قوانين وضعية تسمح بالاستبداد والطغيان. انظر: د. توفيق الشاوي، سيادة الشريعة الإسلامية، ط١ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧م)، ص١٤.

Readonly

السلطة[١]، وبالنظر إلى كتب السياسة الشرعية نرى أن الوظفية المنوطة بالسلطة تنحصر في ملفات الأمن والدفاع وما يتعلق بهما وجباية المقررات الشرعية من الأموال[٢]، وأما أمور التعليم والثقافة والاجتماع والعمران فلا تتحكم فيها ولا تسيطر عليها، وإنما تشارك فيها كفاعل اجتماعي، بتوجيه المال العام إلى إنشاء المدارس والمستشفيات وتعبيد الطرق ونحو ذلك.

كما أدى «نزع السيادة من البشر» إلى قدرة عالية لعموم المجتمع الإسلامي على تقييم هذه السلطة، والقيام في وجهها بالمراقبة والنصح والتقويم، وكذلك الخروج عليها أيضًا. إذ إن انحراف السلطة عن الشريعة يسقط شرعيتها ويستثير المؤمنين ضدها. والشريعة ـ كما ذكرنا ـ مرجعية متعالية مهيمنة على السلطة والمجتمع معًا، فهي ليست وثيقة قد أصدرتها السلطة ولا ساهمت في كتابتها ولا لها قدرة على التحكم فيها بالتفسير والتأويل. والمؤمنون حين يقاومون الخروج على الشريعة فإنهم لا يقومون بالحقِّ الذي لهم فحسب بل يقومون بالواجب عليهم، فالحق يمكن التنازل عنه بينما الواجب يتحتم أداؤه[٣].

---

(١) انظر: وائل حلاق، الدولة المستحيلة، ص١٣٠ وما بعدها؛ إبراهيم البيومي غانم، «مقاصد الدولة بين السيادة وولاية الأمر»، ضمن: محمود مصري (تحرير)، الدولة والمجتمع: رؤية مقاصدية، (اسطنبول ـ لندن: إيثار ـ مؤسسة الفرقان، ٢٠١٥م)، ٢/ ٤١١ وما بعدها.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد جاد، (القاهرة: دار الحديث، د. ت)، ص٤٠ وما بعدها.

(٣) ناقش عدد من العلماء والباحثين مسألة أن ممارسة الحق في الشريعة إنما هو في نفس الوقت إنجاز واجب، وهو ما يجعل المجتمع الإسلامي نشيطًا في رفض الانحراف ومقاومته. انظر: ديفيد دي سانتيلانا، «القانون والمجتمع»، ضمن: توماس أرنولد (إشراف)، تراث الإسلام، ترجمة: جرجيس فتح الله، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٢م)، ص٤١١ وما بعدها. وللمستشرق الأمريكي مايكل كوك =

Readonly

ولأن المجتمع الإسلامي كان مجتمعًا قويًّا ومتينًا، وهو ما سنتناوله بعد قليل، فقد كانت قدرته على الثورة والخروج على السلطة قدرة عالية، وكان يتمتع بثورية يُتَخَوَّف منها الوصول إلى الفوضى، ولهذا ناقش العلماء كثيرًا وطويلًا مسألة حدود طاعة المسلمين للسلطة القائمة عليهم، وكان إطار هذه المناقشة يوازن بين حدَّيْن؛ الحد الأول: ألا يكون الخروج على السلطة مفسدة تفضي إلى شرٍّ من الوضع القائم، والحد الثاني: ألا تكون طاعة السلطة مفسدة تُفضي إلى زيادة انحرافه وطغيانه. ويمكن القول بكثير من التبسيط والاختصار بأن رأي أهل السنة والجماعة ـ وهم التيار العام وأغلبية المسلمين ـ هو أن الظلم سبب كافٍ للخروج على السلطة[1] طالما لم يترتب على ذلك فسادٌ أكبر. كما أن الطاعة للسلطة لا تكون إلا في المعروف، ولا تُطاع في معصية[2]. وإذا لم يكن السلطان عدلًا فقد انحصر حقه في أمرين: الخروج إلى الجهاد المشروع معه، وبذل الزكاة المشروعة له[3].

= دراسة واسعة استغرقت منه عشر سنوات وصل فيها إلى أن قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم تكن واضحة ولا لها صياغة متكاملة في أي فلسفة شرقية ولا غربية وإنما انفرد بها الإسلام. انظر: مايكل كوك، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي، ترجمة: د. رضوان السيد وآخرين، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩م)، ص٢٥، ٢٦، ٨٠٣ وما بعدها.

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ت)، ٤/ ١٣٢ وما بعدها.

(٢) البخاري (٤٠٨٥)، (٦٦٤٧)، (٦٧٢٥)، (٦٧٢٦)، (٦٧٧٤)، (٢٧٩٦)، (٦٨٣٠)؛ مسلم (١٨٣٩)، (١٨٤٠).

(٣) ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، تحقيق: دار الفلاح، ط١ (دمشق: دار النوادر، ٢٠٠٨م)، ٢٣/ ٢٨٣؛ ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تصحيح وإشراف: محب الدين الخطيب، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ)، ١٣/ ٦؛ العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ٢٤/ ١٧٧.

Readonly

ولابن تيمية تفريق دقيق بين حالتي السلطة هو فيما أعلم تفريق لم يصل نظامٌ قانوني إليه، يقول: «الإمام العدل تجب طاعته فيما لم يُعْلَم أنه معصية، وغير العدل تجب طاعته فيما عُلِم أنه طاعة كالجهاد»[1]، وهذا التفريق يعدُّ أساسًا متقدمًا لتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم طاعةً أو إنكارًا بناء على حال الحاكم نفسه؛ ونرى أن هذا المستوى لم تصل إليه منظومة قانونية ديمقراطية معاصرة، وذلك أن السلطة تتحرك في كثير من الملفات والقضايا في أمور هي محل نظر واجتهاد واختلاف آراء، فإذا كانت الأنظمة الديمقراطية المعاصرة تُلزم الناس بطاعة السلطة إلا فيما خالف القانون مخالفة واضحة، فهذا التفريق الذي قاله ابن تيمية يجعل المحكوم في حل من طاعة السلطة غير العادلة إلا فيما يوافق الشريعة موافقة واضحة، ويجعله غير مُلْزَمٍ بطاعة هذه السلطة فيما تتردد فيه الآراء وتختلف فيه الأنظار.

وهكذا كانت «لا إله إلا الله»، وما انطوت عليه من معنى «نزع السيادة عن البشر»، تحريرًا للشعوب وإنقاذًا للبشر من رغبات الحاكمين الذين يسربلون طموحاتهم بأنظمة وقوانين ودساتير وأفكار مهما كانت خرافية.

تقوية المجتمع:

لم يكتف الإسلام بهذا التقرير النظري للتوحيد ومقتضياته، والتي نهتم منها في هذه الورقة بجانب النظام السياسي، بل أقام الإسلام نظامه الاقتصادي والاجتماعي ليكون إسنادًا وقوة داعمة وركنًا في بناء الدولة الإسلامية.

كما تفضي تعاليم الإسلام إلى تقليص صلاحيات السلطة ونزع مبررات الاستبداد

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ١٩٩٥م)، ١٩٦/٢٩.

Readonly

وأدواته، تفضي كذلك إلى تقوية المجتمع وتكتيله وتمتينه بحيث يكون الاستبداد به أصعب ما يمكن، وبقليل من التأمل نرى أن بناء مجتمع قوي متين هو هدف أصيل تفضي إليه معظم العبادات والمعاملات والشرائع، وسنحاول توضيح ذلك من خلال التركيز على ثلاثة أمور فقط هي: إنشاء الروابط الاجتماعية وتقويتها، الأثر الاجتماعي والاقتصادي للعبادات، وضع العلماء في المجتمع الإسلامي.

أولًا: إنشاء الروابط الاجتماعية وتقويتها

أنشأ الإسلام رابطة **أخوة الدين**، وهي الأخوة الإسلامية، فكل مسلم أخ للمسلم، ورتب على هذا كثيرًا من الحقوق والواجبات، وصلت إلى تفاصيل صغيرة مثل عيادة المريض واتباع الجنازة بل وردّ السلام وتشميت العاطس. فضلًا عن الحقوق الأصيلة كـ ألّا يظلمه ولا يُسْلِمه، فكل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه، والأخذ على يد الظالم ونصرة المظلوم وقتال الفئة الباغية، والوعد الجزيل لمن أعان أخاه أو فرج عنه كربة أو ستر عيبه، والحذر من التحاسد والتباغض والتنازع، بل إن تحقير المسلم هو شرٌّ عظيم، والهدف أن يكون المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد، وكالبنيان يشد بعضه بعضًا[1]. ومن نافلة القول أن هذه التعاليم النابعة من الدين يكون أثرها في المؤمنين أضعاف تأثير التعاليم الوطنية التي يتلقاها المواطن عبر وسائل التعليم والإعلام في ظل مجتمع فرداني مادي استهلاكي لا يؤمن بالغيب ولا بحياة أخرى بعد الموت. كذلك فإن هذه التعاليم لم تكن مجرد وصايا بل لقد طُبِّقت في واقع الحياة وتحققت صورتها المثلى في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حيث

(١) راجع مزيدًا من النصوص في «الإخاء» في: صالح بن عبد الله بن حميد وعبد الرحمن بن ملوح (إشراف)، نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم، ط٤ (جدة: دار الوسيلة)، ٢/ ٩٥ وما بعدها.

Readonly

صاروا كالجسد الواحد وحمل بعضهم بعضًا وآثر بعضهم بعضًا على نفسه مهما اشتدت حاجته[١]، وقُضِي بهذه المؤاخاة على مشكلة اللاجئين التي لا تزال تعجز الدول الحديثة عن حلِّها جذريًّا. وقد عملت هذه الأخوة الدينية على تماسك المجتمع المسلم وتقويته، وانبعاث كل مسلم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ يرى هذا حقًّا له وواجبًا عليه ـ تجاه أي مسلم، ولا تزال هذه الأخوة الدينية حتى الآن تُخرج المسلم من بيته ليذهب مجاهدًا مدافعًا عن مسلمين آخرين في أقصى الأرض لا يربطهم به عرق ولا لغة ولا مصلحة مشتركة!

كذلك فقد اعتنى الإسلام بتقوية **صلة الرحم** ومع أنه جاء في مجتمع قبلي، كانت فيه العصبية القبلية مانعًا وحائلًا دون انتشاره، إلا أن الإسلام حرص على تمتين صلة الرحم وتقويتها، وحرص على الحفاظ على القبيلة، ولم يحاول أبدًا كسر هذه الرابطة وإنما كان حفيًّا بألا تعلو صلة الرحم على الحق، فكثرت وصايا الإسلام ببر الوالدين، وبصلة الرحم، والإحسان إلى ذوي القربى، وجاءت الآيات والأحاديث تربط بين صلة الرحم وبين سعة الرزق وطول العمر، وتربط بين قطع الرحم والفساد في الأرض[٢]. وقد طُبِّق هذا منذ اليوم الأول لنشأة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، حيث أقطع النبي للمهاجرين ما ليس مملوكًا من أرض المدينة

---

(١) البخاري الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط٣ (بيروت: دار ابن كثير، ١٩٨٧م)، (١١٨٦)؛ أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ط٦ (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٤م)، ١/ ٢٤١؛ إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ط١ (عمّان: دار النفائس، ١٩٩٥م)، ص١٣٨، ١٣٩.

(٢) راجع مزيدًا من النصوص عن «صلة الرحم» في: صالح بن عبد الله بن حميد (إشراف)، نضرة النعيم، ٧/ ٢٦١٥ وما بعدها.

Readonly

أو تنازل عنه الأنصار أو غنمه من اليهود، فأقطعها إياهم بحسب قبائلهم[١]، وعلى هذا جرى العمل في المدن التي أنشأها المسلمون كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وبغداد والقطائع والعسكر وواسط والمنصورة والموصل وقرطبة[٢]، وكانت جيوش المسلمين في الغزوات ثم في الفتوحات تقاتل وفقًا لتقسيمها القبلي، فالكتيبة في الجيش الإسلامي تضم مقاتلي القبيلة ولهم رايتهم التي يُعرفون بها[٣]، كما كانت الأموال والغنائم وقسمة الدواوين تُوَزَّع وفق الانتماء القبلي[٤]. ووردت الأخبار باحتماء الصحابي بقبيلته لدفع ظلم والٍ من الولاة[٥]، بل باستدعائهم أحلاف القبلية الجاهلية للانتصاف من الظلم[٦]. ولا شك أن التكتل القبلي حال دون كثير من

---

(١) ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، (قم: دار الفكر، ١٤١٠هـ)، ١/ ٢٦٠ وما بعدها.

(٢) شاكر مصطفى، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، ط٢ (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٧م)، ١/ ٣٢١، ٣٤٨ وما بعدها؛ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ص٤٩، ٥٧، ٥٨، ٦١؛ عبد الجبار ناجي، المدن العربية الإسلامية، ط٢ (بيروت: شركة المطبوعات، ٢٠٠٩م)، ص١٦٣، ١٩١، ٢١٤، ٢٥٧، ٣٠٥، ٣٢٩، ٤٠٣، ٤٢٨، ٤٧١.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م)، ٢/ ٢٧٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م)، ٦/ ٣٥٧؛ أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة: محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٩م)، ص٤٠٧، ٤٠٨؛ أحمد عادل كمال، الطريق إلى المدائن، ط٦ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٦م)، ص٢٠.

(٤) أكرم العمري، عصر الخلافة الراشدة، ص٢٣١.

(٥) ابن حجر، فتح الباري، ٥/ ١٢٣.

(٦) الألباني، صحيح السيرة النبوية، ط١ (عمّان، المكتبة الإسلامية، ٢٠٠١م)، ص٣٦، ٣٧.

Readonly

ظلم الحكام والولاة، بل حان دون التفكير في ذلك، وجعل العدل والحلول السلمية للنزاعات هي الأولى دائمًا[١].

كذلك اعتنى الإسلام بتقوية **رابطة الجوار**، وجاء بحقوق عظيمة للجار لا نعرف شبيها لها في أي دين أو فلسفة أخرى، فمن حقوق الجار ألا يبيت جائعًا وإلى جواره شبعان، ولا يكتمل إيمان المسلم إن كان جاره لا يأمنه ويخشى أذاه، وقد توقع النبي أن الجار سيكون من ضمن الورثة من كثرة ما يوحى إليه من الوصية بالجار[٢]، والجار يشمل المسلم والكافر والعابد والفاسق والصديق والعدو والغريب وابن البلد والنافع والضار[٣]. وهذه الرابطة قد تجمع الروابط السابقة، فالأصل في المدينة الإسلامية ـ كما ذكرنا قبل قليل ـ سكن أهل القبيلة الواحدة في مكان واحد، فيجتمع في الجار حق الإسلام وحق القربى وحق الجار.

ثانيًا: الأثر الاجتماعي والاقتصادي للعبادات

تظهر الآثار الاجتماعية والاقتصادية للعبادات والمعاملة في كل أركان الإسلام:

فالمسجد هو المؤسسة الإسلامية الأولى والمركزية، وهي أول ما بُنِي من مؤسسات الدولة الإسلامية إن صح التعبير، بل الأدق أن يقال إن المسجد قد احتوى سائر المؤسسات، فقد كان مركز القيادة السياسية والعسكرية ووسيلة الإعلام

---

(١) مثلاً: ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: د. إحسان عباس، (بيروت: دار صادر)، ٢/ ٥٠٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة بإشراف شعيب الأرناءوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م)، ٨/ ٣٧٣ وما بعدها.

(٢) للمزيد في «حقوق الجار»، انظر: في: صالح بن عبد الله بن حميد (إشراف)، نضرة النعيم، ٥/ ١٦٦٦ وما بعدها.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، ١٠/ ٤٤١.

Readonly

ومدرسة التعليم وجمعية التكافل الاجتماعي للفقراء ففيه يسكنون وفيه يأكلون، وفيه عولج الجرحى واستعمل أحيانًا كسجن للأسرى[١]. والصلاة في المسجد إما واجب وإما سنة مؤكدة، وهي تجمع أهل الحي الواحد في كل يوم خمس مرات، وكان المسلم في المدينة يأتي إلى الصلاة ولو كان ضعيفًا يتساند بين رجلين حتى يُقام في الصف[٢]، هذا بالإضافة إلى يوم الجمعة حيث يلتقي أهل البلد أو أهل الحي الكبير في المسجد الجامع، وقد كانت المدن أول تاريخ الإسلام ليس فيها إلا مسجد جامع واحد، فلما كثر الناس واتسعت المدن بُنيت جوامع أخرى صارت تُقام فيها الجمعة بالتعاقب، ومع الزيادة والاتساع صار في المدينة الواحدة أكثر من مسجد جامع، والقصد أن أهل الحي الكبير أو البلدة الصغيرة يلتقي أولهم وآخرهم مرة واحدة في الأسبوع بحدٍ أقصى. ويمكن تصور كيف يمكن أن يتحقق التعارف والتآلف والتعاضد بين حيٍّ يلتقي أهله خمس مرات في كل يوم! وبلدة يلتقي أهلها كل أسبوع، مع ما ينشأ بينهم إثر ذلك من علاقات تعاون وتكافل وانصهار.

وكذلك الزكاة، وهي «حق الله» في المال، تؤخذ من أغنياء الناس لتُرَدَّ على فقرائهم، فيأخذ منها الفقير والمسكين وأصحاب الديون وأبناء السبيل، كما أنها تُمَوِّل العاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ـ الذين يُرجى إسلامهم أو يرجى ثباتهم على الإسلام ـ وما سوى ذلك من المصالح. والذي يهمنا هنا بشكل خاص أن الأصل في الزكاة أن تنفق في أهل البلد، ولا يجوز إنفاقها في بلد آخر إن كان أهل البلد

---

(١) علي الصلابي، السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، ط٧ (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٨م)، ص٣٠٦ وما بعدها.

(٢) حديث ابن مسعود في: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، (٦٥٤).

Readonly

محتاجون إليها[١]. ويجتمع في الزكاة الأثر الاجتماعي والأثر الاقتصادي في تقوية روابط المجتمع وتخفيض الفوارق الطبقية، وتنشيط الحركة التجارية وغير ذلك من الآثار.

وكذلك الصيام، فإن اجتماع الناس في العادات والتقاليد مما يقوي الرابطة بينهم، وإن مسارعتهم لفعل الخير الفردي والجماعي كإفطار الصائمين والاجتماع على العبادات كالتراويح والذكر ومجالس القرآن وغيرها مما يكثر في رمضان، هو مما يقوي هذه الروابط ويجددها، وتكون فرصة للإصلاح بين المتخاصمين والمتنازعين. إن الأجواء الإيمانية الأخلاقية التي تصنعها العبادات لها أثر بعيد وعميق في العلاقات الاجتماعية، كما أن بذل الخير والصدقات وزكاة الفطر المرتبطة بالصوم له أثر قوي في تنشيط اقتصاد المجتمع وتمويل أنشطته الذاتية[٢].

وكذلك الحج، الذي يجتمع فيه الناس من سائر أطراف الأمة، فيكون فيه من منافع التعارف والتلاقي، عبر الطريق وفي المحطات الرئيسية وفي الحج نفسه، وما يكون في ذلك من توثق العلاقات البعيدة وتناقل التجارب وتلاقح الخبرات، ومثله ما يحدث من تبادل المنافع في التجارة والمصاهرات وبذل الصدقات وطلب العلم وغير ذلك، وهذا بالإضافة إلى ازدهار طرق الحج التي عمرت بالتجارة والمدارس

---

(١) قال بهذا المالكية والشافعية والحنابلة، وقال الأحناف: يُكره تنزيها نقلها إلى غير بلدها. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ط١ (الكويت ـ مصر: وزارة الأوقاف الكويتية ـ دار الصفوة)، ٢٣/ ٣٣١.

(٢) انظر طرفًا من الآثار الاجتماعية والاقتصادية للصوم في: محمد موسى الشريف، مقالات الإسلاميين في شهر رمضان الكريم، ط١ (جدة: دار الأندلس الخضراء، ٢٠٠١م)، ص٢٢٥ وما بعدها؛ محمد إلهامي، في أروقة التاريخ، (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٨م)، ٢/ ٤٧٩ وما بعدها.

Readonly

والتكايا وغيرها من المؤسسات ذات الأثر الاقتصادي والاجتماعي، التي لولا الحج ما نشأت أوقاف إعانة من يريد الحج، وتمهيد الطريق إلى الحج وحفر الآبار فيها، وتقديم الدعم لأهل مكة والمدينة، وأوقاف تعمير الحرمين[١].

ثالثًا: مكانة العلماء في المجتمع الإسلامي

أكثر ما يعنينا في سياق هذه الورقة الحديث عن العلماء من ثلاث زوايا؛ مكانتهم الاجتماعية كطبقة رفيعة، واستقلالهم الاقتصادي الذي عزز مكانتهم وعوَّق احتواء السلطة لهم، وطبيعتهم التنظيمية كتيار شبكي لم يندرج في مؤسسة هرمية وهو ما أعاق أيضًا احتواء السلطة لهم وجعل قدرة السلطة على إنتاج المعرفة أدنى ما يمكن.

كان العلماء يحظون بمكانة اجتماعية رفيعة، تحظى في العموم باحترام العامة وتوقيرهم، كما تتوفر على احترام السلطة لهم كذلك، ومن ثَمَّ فكثيرًا ما مثَّل العلماء صوت العامة لدى السلطة، وكانوا كابحًا لاستبداد السلطة وظلمها، ويمكننا أن نرى هذا مضطردًا في التاريخ منذ ثورة القراء في مطلع الدولة الأموية وحتى حركات شيوخ الأزهر ضد السلطة المملوكية قبيل اقتحام الاستعمار والحداثة بلادنا.

---

(١) انظر طرفًا من الآثار الاجتماعية والاقتصادية للحج في: د. محمد موسى الشريف، المختار من الرحلات الحجازية، ط١ (جدة: دار الأندلس الخضراء، ٢٠٠٠م)، ٤/ ١٣٨٣، ١٣٨٦، ١٤٣٨ وما بعدها؛ مجموعة، مؤتمر طرق الحج في إفريقيا، ط١ (الخرطوم: جامعة إفريقيا العالمية، ٢٠١٦م)؛ مصطفى جولار، أوقاف الحرمين في الدولة العثمانية، ترجمة: د. محمد حرب، ط١ (القاهرة: مركز التاريخ العربي، ٢٠١٩)؛ منير اطالار، الصرة الهمايونية ومواكب الصرة، ترجمة: د. محمد حرب، ط١ (القاهرة: مركز التاريخ العربي، ٢٠١٩م)؛ سميرة فهمي علي عمر، إمارة الحج في مصر العثمانية، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠١ م)، ص ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٢، ٣٦٦؛ محمد إلهامي، في أروقة التاريخ، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٧م)، ١/ ١٤١ وما بعدها.

Readonly

وقد تعززت هذه المكانة من خلال استقلالهم الاقتصادي عن السلطة، حيث لم يكن العلماء بمثابة الموظفين الذين يتقاضون رواتبهم منها، وإنما ضمنت لهم الأوقاف كما ضمن لهم استقلال القضاء ممارسة عملهم في التدريس والإمامة والفتوى والقضاء دون احتياج إلى السلطة، ومن ثَمَّ لم تكن السلطة قادرة دائمًا على احتواء العلماء، بل كان يكفيها منهم السكوت والاعتزال.

ومن أهم ما ميَّز حركة العلماء أنهم لم يكونوا مؤسسة هرمية تحتكر الخطاب الديني، وإنما كانوا تيارًا متغلغلًا في عموم الأمة، وهو ما جعل قدرة السلطة على التأثير في الخطاب الديني وفي إنتاج المعرفة أقل ما يمكن. بل كانت البيئة العلمية تمارس نوعًا من النفور من العالِم الذي يقترب من السلطة أو يتولى بعض مناصبها، وكل ما يُقال حول التأثير السياسي للسلطة في إنتاج المعرفة في الحضارة الإسلامية هو أقرب إلى الوهم والخيال منه إلى الحقيقة[1].

ومن نافلة القول أن هذا الوضع لا يعني تقديم صورة مثالية خالية من وجود علماء السلطان، أو خالية من اضطهاد السلطة للعلماء، أو خالية من إخفاق العلماء في بعض ثوراتهم ومعارضتهم، فنحن إزاء مجتمع بشري دائمًا، ولكن المقصود أن ما تمتع به العلماء في الحضارة الإسلامية يستحيل أن تتمتع به طبقةٌ ما في دولة

---

(١) من الدراسات المتميزة التي ناقشت دعوى تأثير السلطة في إنتاج المعرفة الإسلامية: كتاب «المحدثون والسياسة» للدكتور إبراهيم العجلان، وكتاب «التفسير السياسي للقضايا العقدية» للدكتور سلطان العميري، وللباحث ثلاث ورقات بحثية عن «أحاديث طاعة الأمراء في البخاري» وعن «فحص دعوى أثر السياسة في تدوين الموطأ»، ألقيت الأولى في مؤتمر «صحيح البخاري» (إسطنبول: جامعة ابن خلدون، نوفمبر ٢٠١٩م)، والثانية في مؤتمر «كتاب الموطأ» (وجدة: جامعة محمد الأول، أكتوبر ٢٠١٩م)، والثالثة في مؤتمر «علم الحديث في الدولة العثمانية» (إسطنبول: إيثار ـ ديسمبر ٢٠١٩).

Readonly

حديثة تُهَيْكِل كلَّ نشاطٍ ضِمْنَ مؤسسةٍ تُمسك بمفاصلها وتحدد لها طريقة عملها وتهيمن عليها بمرجعيتها.

إن الفارق يبدو ضخمًا بين العلماء في المجتمع الإسلامي وبين القضاة والخبراء والأكاديميين في الدولة الحديثة، فحتى القضاة ـ وهم أكثر من يحظى باستقلالية نسبية ضمن الدولة الحديثة ـ تثبت التجربة أنهم موظفون منحازون للدولة عاملون على تعزيزها وإسباغ الشرعية عليها[١]. لقد كان العلماء عمومًا في جانب المجتمع ضد السلطة، وفي جانب المعارضة والمقاومة[٢].

ومن نافلة القول أيضًا أنه لا يمكن مقارنة هذه الشرائع والشعائر والمعاملات وأثرها في تقوية المجتمع وتكتيله بما أنتجته التجربة الغربية من وسائل تقوية المجتمع كالنقابات المهنية ومنظمات المجتمع المدني ووسائل الإعلام، فهذه الشعائر والمعاملات هي جزء من بنية المجتمع وتكوينه وعباداته وتقاليده، وهي

---

(١) وائل حلاق، الدولة المستحيلة، ص١٠١.

(٢) لاحظ نوح فيلدمان بذكاء أن حركة تقنين الشريعة التي قام بها سليمان القانوني كانت أول بذرة في تحطيم العلاقة بين السلطة (الدولة) وبين العلماء، وذلك أنها أول الطريق الذي أفضى إلى تحول العلماء من قوة مستقلة موازية للسلطة إلى طبقة موظفين وخبراء منفذين لما يصدر عنها، مع أن هذا التقنين في أول أمره كان مكتوبًا بيد العلماء. انظر: نوح فيلدمان، سقوط الدولة الإسلامية ونهوضها، ترجمة: الطاهر بوساحية، ط١ (بيروت: الشبكة العربية، ٢٠١٤م)، ص٨٣ وما بعدها. ولأسباب لا تتسع لها المساحة هنا، فإن هذا التقنين ما كان له أن ينجح أو أن يحدث في المجال العربي، وإنما أفرزته عوامل وراثة الدولة العثمانية للتقاليد البيزنطية، ووجدت في المجال الأوروبي مناخًا ملائمًا لبعض الميراث التركي الشرقي المتعلق بمركزية السلطان ومركزية الإدارة الحكومية. إننا نفترض بالطبع حسن النية في القانوني والعلماء آنذاك، وأن المسألة في ذهنهم إنما كانت نوعًا من التنظيم لا غير، إلا أن نتائجه كانت مريرة على المستوى البعيد.

Readonly

تستمد مكانتها من الدين، ولا تملك السلطة تعطيل هذه الأمور بل إن حمايتها ورعايتها وإقامتها هي من صميم واجباتها، وتقصير السلطة في هذه الحماية والرعاية مما يسقط شرعيتها ويبرر الخروج عليها. بينما في النظام الغربي الديمقراطي المعاصر لا تتمتع هذه الإجراءات بأية قداسة ولا يمكنها ممارسة عملها إلا بسماح السلطة لها وفي ظل تصدره السلطة نفسها لتنظيم ممارستها عملها، كما أن السلطة تملك دائمًا تعطيلها بقرار إداري أو في حالة الاستثناء!

خاتمة:

كان ينبغي، لولا ضيق المساحة، أن نفرد الحديث عن أمثلة تطبيقية عملية يبدو فيها التناقض واضحًا بين نموذج الدولة الحديثة الديمقراطية وبين النموذج الإسلامي. فإن الأمثلة التطبيقية أكثر وضوحًا ويتكثف فيها سائر الجوانب التي تميل الدراسة النظرية التجريدية إلى الفصل بينها وتفكيكها.

إن مؤسسة الوقف كما كانت عليه في التجربة الإسلامية لا يمكن أن تقبل بها دولة حديثة، لأن نظام الوقف قد يحرم السلطة في الدولة الحديثة من أغلب مواردها المالية، فيجعله خارجًا عن سيطرتها وعن إدارتها وعن التحكم فيها، في الوقف يختار فرد ما أن يخرج بعض أملاكه لتكون ملكًا لله بغرض أن ينفق ريعها على وجه مخصوص من وجوه الخير. لا تملك السلطة أن تمنع إنشاء الوقف، ولا أن تغير شرط الواقف، ولا أن تستولي عليه وتضمه إلى خزانتها! بل مهمتها هي تنظيم هذه العملية ورعاية تحقيق شرط الواقف. إن الوقف نموذج واضح يظهر فيه معنى نزع السيادة من البشر، ويظهر فيه الحضور القوي لله تبارك وتعالى كمالكٍ لهذا المال الذي أوقف له، إنه امتزاج بين عالم الغيب والشهادة لا تفهمه الدولة الحديثة ولا

Readonly

تعترف به، كما يظهر في الوقف قدرة الأمة على دعم أنشطتها المجتمعية بمعزل عن سياسة السلطة!

ومثل ذلك فقه إحياء الموات، ففي الإسلام يجوز لمن عمَّر أرضًا أن يمتلكها، ولا يعترف الفقه الإسلامي بما يُسَمَّى «مال الدولة» أو «أملاك الدولة»، بل وقع النزاع بين أبي الدرداء ومعاوية رضي الله عنهما في تسمية المال العام، فمعاوية يقول هو «مال الله» وأبو الدرداء يقول هو «مال المسلمين»، وما كان هذا الخلاف بينهما إلا لأن توصيف المال بأنه «مال المسلمين» يقيد حق تصرف الخليفة فيه، ومثل إحياء الموات حفر الأنهار والآبار، فمن حفر نهرًا أو بئرًا فهو أولى بالاستفادة منه شرط ألا يمنعه عن محتاج لا يملك الثمن، وأهم ما في هذا الأمر هنا أن الجمهور ـ المالكية والشافعية والحنابلة ـ على أنه لا يُشترط إذن الإمام في الإحياء! فالنظام الإسلامي لا يجعل السلطة مقيدة لحركة المجتمع، بل منظمة له إن لم تكن حافزة له. وهذا وضع لا تقبله الدولة الحديثة التي تسيطر على كل شيء، وتعتبر كل ما هو داخل الحدود ملكًا لها، ولا يجوز لأحد التصرف فيه إلا عبر سلسلة من الموافقات والتصريحات والشروط، بل إن الدولة الحديثة تتدخل لتنزع أملاكًا خاصة إذا ما ظهر أنها تحوي بئرًا للنفط أو آثارًا قديمة، وقد جاء الإسلام بنقيض هذا، ففي هذه الكنوز زكاة الركاز التي هي الخمس وتكون ملكًا لصاحب الأرض.

ومثل ذلك موضوع الضرائب والمكوس، فالإسلام فرض قدرًا محدودًا من الواجبات المالية كالزكاة والخراج والعشور ونحو ذلك، وهي مقادير مقدرة في الكتاب والسنة، لم تحددها سلطة سياسية ولا قانون صادر من برلمان ما. ويقف الإسلام موقفًا حاسمًا من فرض الضرائب (المكوس)، ويرى ذلك من الكبائر بل من أكبر الكبائر التي تزيد عن السرقة والزنا، وإذا فرض سلطانٌ ما ضريبةً غير

Readonly

جائزة له فإن مقاومته والامتناع عن بذلها له هو من حقوق المسلم. بينما لا تستطيع الدولة الحديثة أن تعيش دون أن تفرض ضرائب، بل وأن تزيد في الضرائب بصورة مستمرة لتغطية نفقاتها المتزايدة وجهازها الإداري الذي يزداد تضخمًا، وتعد عملية فرض الضرائب مسألة بسيطة بالنسبة للحاكم الديمقراطي المعاصر فهي لا تكلفه سوى تحقيق أغلبية برلمانية بسيطة، وربما مجرد قرار بقانون، وبعدها يصير الممتنع عن هذه الضريبة خارجًا عن القانون مستحقًا للعقوبة.

ومثل ذلك موضوع الظفر بالحق، فقد أجاز الإسلام للمسلم أن يظفر بحقه إذا لم يستطع أن يقيم حجته أمام القاضي على هذا الحق، ويرى الجمهور ـ الأحناف والمالكية والشافعية ـ أن الظفر بالحق جائز، وقال الظاهرية: بل هو واجب، وهذا في حال أن يكون الظفر بالحق فيما بين الناس، فأما إن كان للمسلم حق في المال العام فيجوز له أن يأخذه في قول المذاهب الأربعة. فهذا الأمر هو جريمة متكاملة الأركان في عرف النظام القانوني للدولة الحديثة.

هذه التطبيقات وغيرها، يظهر فيها بوضوح طبيعة البناء الإسلامي لنظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وكذلك لطبيعة بنائه الشخصية المسلمة، وهو على النقيض من طبيعة الدولة الحديثة ورؤيتها وبنيتها وطريقة تشكيلها لشخصية المواطن. إن المواطن الصالح في النموذج الإسلامي يبدو ثوريًا للغاية يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يرى نفسه خاضعًا للدولة بل هو والدولة خاضعين لمرجعية الشريعة، وهو بمثابة الرقيب عليها، كما أنه عضو في مجتمع متماسك متكتل تتصل علاقاته بالقبيلة والجوار وأخوة الإسلام. بينما المواطن الصالح في النموذج الغربي خاضع للدولة وقانونها مهما تغير وتبدل، مرجعيته هي الدولة والدولة هي مرجعية نفسها، لا يملك الاعتراض إلا من خلال الطرق التي

Readonly

تسمح بها الدولة نفسها، ثم إنه مواطن مكشوف تمامًا أمام السلطة التي تعرف سائر تفاصيل حياته، ويمكنها بضغطة زر أن توقف حياته تمامًا، وهو في النهاية مواطن معزول يعيش حالة من الفردانية، روابطه الاجتماعية ـ إن وُجِدت ـ رثة هشة بالية، لا يمكنها أن تعينه أمام قوة الدولة.

إن هذا يفسر لنا كيف أن الاستعمار ووكلاؤه كانوا أول من حرص على تحطيم بنية المجتمع الإسلامي ونظمه الاقتصادية والاجتماعية، ليتمكنوا من غرس هذه الدولة الحديثة قسرًا. ومع ذلك فلا تزال الدولة الحديثة غير متمكنة في العالم الإسلامي ولا تزال المجتمعات الإسلامية تقاومها، وهذا ما يجعل النموذج الإسلامي يمثل البديل القادم والمنشود عن الحداثة منزوعة الأخلاق.

إن حديثنا عن البديل الإسلامي المنشود، تزداد ضرورته في اللحظة التي تتآكل فيها سيادة الدولة الحديثة لحساب النظام العالمي والهيمنة الاقتصادية للشركات الكبرى والتشابك الإقليمي والدولي، الأمر الذي أفضى في النهاية إلى تآكل سيادة الدولة خارجيًّا وازدياد تغول هذه السيادة داخليًّا، فالدولة في عالمنا العربي والإسلامي تزداد ضعفًا أمام الخارج وتنزف سيادتها باستمرار عبر أنواع لا تحصى من التدخلات العسكرية والأمنية والاقتصادية والثقافية، في نفس الوقت الذي تزداد فيه توحشًا وتغولًا وتمسكًا بالسيادة أمام رعيتها.

ربما رأى البعض أن هذه النظرة للنظام الإسلامي مثالية حالمة وغير واقعية ولا ممكنة، وأن هذه النظرة للدولة الحديثة فيها الكثير من التجني والمبالغة والتوجس. حتى أولئك، يجب عليهم في ظل تآكل السيادة خارجيًّا وتغولها داخليًّا أن يفكروا في هذا النظام الإسلامي كمحفز وباعث على التحرر من الحكومة العالمية المتغولة، مهما ظلوا على إحسانهم الظن في نموذج الدولة القومية الحديثة!

Readonly

ملامح النظام السياسي الإسلامي ومحنته المعاصرة

في هذا الفصل نلقي الضوء على ملامح النظام السياسي الإسلامي، ومحنته المعاصرة التي تتمثل في ضمور الاجتهاد في النوازل السياسية، وفي المحنة التي نزلت بالعلماء في باب السياسة، ثم تمددت محنتهم فصارت محنة للأمة كلها، لقد تغير الوضع كليًّا، وصار النظام السياسي المعاصر نفسه كجهاز حكم آلةً لإنتاج نقيض النظام الإسلامي، وصار لا يمكن لواحد في الرعية أن يحمي نفسه من بطش النظام إلا إن كان خارجًا عليه!

نستعرض هذا كله عبر هذه العناوين:

- أخصر المختصر في ملامح النظام السياسي الإسلامي
- معضلات الاجتهاد في باب السياسة
- محنة العلماء ومحنتنا في العلماء
- مصانع الخيانة
- مصير المواطن الصالح

* * *

Readonly

أخصر المختصر في ملامح النظام السياسي الإسلامي

نشر في مجلة «كلمة حق»

يوليو ٢٠٢٠

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

ما زالت تزداد قناعتي كل يوم بأن المعضلة المعاصرة التي تواجه المسلمين ليست معضلة شبهات تحتاج إلى ردود وتوضيح وبراعة في البيان والتفسير والتفصيل، بل هي معضلة عجز وإخفاق تحتاج إلى كفاءة في العمل والإنجاز والبناء والتكوين.

فالشبهة مهما كانت متهافتة فإنها تستمد قوتها إذا نطق بها القوي الغالب المتمكن، والحق مهما كان سديدًا فهو مخدوش مُزْدَرى إذا نطق به الضعيف المهضوم، تلك طبيعة النفس البشرية، فإذا انقلبت موازين القوى فإذا بالشبهة المتمكنة التي كانت تهيمن في زمن القوة تزول كأنها غمامة صيف تنقشع، وإذا المهضوم المزدرى إذا غَلَبَ انتصرت أفكاره وأقبل عليها الناس بلا عسر.

ومع هذا كله، فلا بد من البيان فإنه أول العمل، وقد جعل البخاري بابًا في صحيحه بعنوان «باب العلم قبل القول والعمل».

ثم أقول: وما زالت تزداد قناعتي كل يوم بأن الإنتاج المعاصر في باب السياسة الشرعية ليس قليلًا ولا هو ضعيف أو ضحل، وإنما هذا كلام من لم يكن لهم حظٌّ من الاطلاع على ما أنتجه المعاصرون في باب السياسة الشرعية أو ما صار يسمى «الفقه السياسي الإسلامي»، والواقع عكس ذلك، فإن قضية الدولة الإسلامية كانت هي القضية الأكثر حرجًا لدى المهمومين بقضايا الإسلام، طوال قرنٍ أو قرنين على

Readonly

الأقل، وأنتجوا فيها كثيرًا جدًّا. إلا أن أكثر هذا الإنتاج غير معروف ولا مشتهر، وما ذلك إلا لأن موازين القوى ـ والتي من بينها منافذ الإعلام والثقافة ـ تسهم في طمر هذا الإنتاج وغمره. وإنما المنشور كثير جدًّا، وأكثر منه غير المنشور الذي لا يزال رابضًا على رفوف المكتبات في الرسائل العلمية بكليات الشريعة والقانون والحقوق والاقتصاد والسياسة، فكثير من طلاب هذه الكليات عبر هذه العقود بحثوا الموضوعات المعاصرة والقضايا الملحة في الإسلام أو مقارنًا بغيره من النظم الوضعية. وهذا فضلًا عن إنتاج المجامع الفقهية ومراكز البحوث الإسلامية المتعددة التي حاولت سد هذه الثغرات وتقديم مشروع إسلامي.

ولكن، وبسبب ما ذكرناه من هيمنة العلمانية على المجال العام ومنافذ التعليم والثقافة، فلا تزال الحاجة ماسة لتعريف المسلمين بملامح النظام السياسي الإسلامي، وكيف أنه متفرد متميز عن غيره. كما لا تزال الحاجة ماسة إلى تبسيط هذه المادة العلمية وتقديمها بمختلف الصور ووسائل الشرح لتحقق أكبر انتشار بين عموم المسلمين، وعموم غير المسلمين أيضًا.

وفي النهاية، فمهما كان ثمة نظرية عظيمة متقنة محكمة، فلا مجال لرؤية عظمتها إذا لم تكن ثمة فرصة للتطبيق والتنزيل، وهنا تظهر بشكل أقوى موازين القوى التي لا تسمح بأدنى قدر من تحقق الفكرة في واقع الحياة. فمهما امتلكنا من البلاغة والفصاحة وأحسنَّا الشرح والبيان والتفصيل، فلن يتغير شيء في الواقع.

لهذا الذي سبق كله، حاولت في هذه السطور القادمة اختصار أهم الأفكار التي أرى أن عموم المسلمين في حاجة لاستيعابها جيدًا في ملامح النظام السياسي الإسلامي، وليس لي إلا غرض واحد فيها لو أنه تحقق فقد تمَّت النعمة، وهو:

Readonly

تجميع هذه الأفكار المتناثرة في خيط واحد لدى العقل المسلم، خيط يتصل فيه ما هو ديني بحت بما هو دنيوي بحت، يتصل فيه معنى التوحيد العقدي بشكل النظام السياسي، وهذا الاتصال هو الذي أستشعر كثيرًا في نقاشاتي مع الشباب أنه مفقود أو غير واضح.

ووضعت هذه الأفكار في نقاط، حاولت أن تسلم كلُّ واحدة منها للتي بعدها، فأسأل الله أن أكون قد وفقت في هذا:

١ ـ اختلف معنى كلمة «السياسة» عبر الزمن، وفي زماننا هذا يُقسم المعاصرون «السياسة» إلى ثلاثة فروع كبرى هي: النظرية السياسية، النظم السياسية، العلاقات الدولية.

٢ ـ مهما جاء أحدٌ بمشروع تغيير وإصلاح، فإنه لا يستطيع أن ينفكَّ عن واقعه ولا أن يبدأ من الفراغ، وإنما يأخذ من واقعه لمشروعه، ويعاني مضايقاته، ويتصرف في اضطراراته، ويوازن بين المصالح والمفاسد حتى يبلغ ما يريد. ولم يستطع المثاليون المتعلقون بالأحلام المستعلنون برفض الواقع المتعالون على السنن، أن ينجزوا التغيير في واقع الحياة.

٣ ـ الموازنة بين المصالح والمفاسد، مهما كُتِب فيها نظريًّا، فإنها متعلقة بحكمة العاملين وقوة فهمهم للسنن وحسن بصيرتهم في تقدير المآلات، ومن ثمَّ فالحديث النظري إنما هو رسم للخطوط العامة والقواعد العريضة وتوضيح للأهداف والغايات، فهو كالهداية والإرشاد وليس قيدًا لتعطيل العمل أو القعود بالعاملين. وهو تحديد للوجهة والطريق وليس حثًّا على المسارعة في هدم الواقع ومخالفة سنن التدرج ومراعاة الطبائع والتقيد بحكم الضرورة والاضطرار.

Readonly

٤ ـ تراجعت حركة الاجتهاد في الفقه السياسي لظروف عديدة: سياسية وعلمية، فالمجتهد في باب الفقه السياسي بحاجة إلى إدراك ثلاثة أمور: علم السياسة الشرعية، والعلم بالواقع المعاصر، وإدراك الفوارق بين النموذج الإسلامي والمعاصر على مستوى التنظير وعلى مستوى التطبيق التاريخي والواقعي. وهذه الأمور يتعذر تحصيلها في الأوطان التي يحكمها الاستبداد وينشر فيها التخلف العلمي.

٥ ـ ومن شأن هذا أن يقع الخلاف الكثير والواسع أحيانًا بين مكونات وأطياف العمل السياسي الإسلامي، فالخلاف قد يحدث في الاجتهاد نفسه، وقد يحدث في تنزيل هذا الاجتهاد على الواقع، وقد يحدث في كليهما. كما أن التطبيق العملي لهذا الاجتهاد قد يتناوله الخطأ، والعبرة بمجمل أحوال العاملين، ويجب أن تتسع الصدور لمن دلَّت مجمل أحواله على الرغبة الصادقة لخدمة الإسلام والمسلمين، مهما وقع الخلاف بيننا في التأصيل أو في التنزيل أو في التطبيق.

٦ ـ الأصل الأول الكبير الذي قام عليه الإسلام هو التوحيد، الذي هو شهادة «لا إله إلا الله»، ومن هذا الأصل الكبير تتفرع سائر الأصول والفروع التي تمثل نظام الإسلام في واقع الحياة. ومن ثم، فإن التوحيد يمثل صلب النظرية السياسية الإسلامية.

٧ ـ تتمثل أهم آثار «التوحيد» في «النظرية السياسية الإسلامية» في أنه يحسم الإشكاليات الكبرى المعضلة التي اختلفت فيها النظريات السياسية الوضعية، وذلك لوضوح التصور العام والقيم الأساسية والأهداف النهائية وطبيعة العلاقات السياسية والاجتماعية.

Readonly

٨ ـ إن الله تبارك وتعالى قد اختص نفسه بالخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ومن ثم فإن البشر سواء، ولا فضل للحاكم على المحكوم وإنما هو وكيل عنهم، وهم جميعًا ـ الحاكم والمحكوم ـ يعملون لتنفيذ أوامر الله التي أنزلها على رسوله، ومن هنا نزع الإسلام كل الأصول والقواعد التي يقوم عليها الطغيان، فالحاكم ليس إلهًا ولا شبه إله ولا ينحدر من نسل الآلهة، كما أن القوانين والشرائع التي تهيمن على المجتمع ليست من إنتاج الحاكم أو النخبة الحاكمة وليست وثيقةً كتبها المنتصر في لحظة ما، بل هي شريعة الله التي يعلمها ويخضع لها الجميع.

٩ ـ وكل محاولة للطغيان على البشر تبدأ منذ اللحظة التي يتغلب فيها أحدهم، فيكتب في لحظة نصره الوثائق والقوانين التي يحكم بها الناس، ليتحول انتصاره إلى حالة شرعية وتتحول مقاومته إلى حالة خروج عن الشرعية تستوجب العقوبة. هذا الطغيان على الناس يراه الإسلام «عبودية لغير الله»، ويعتبر المسلمون أن من مهماتهم إنقاذ الناس بإخراجهم من عبادة غير الله إلى عبادة الله، وبذلك يخرجون من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

١٠ ـ هـذا التأسيس العقدي للتوحيد يتفوق على كـل تأسيس آخر فكري ونظري، لأنه يستمد قوته من كونه دينًا وعقيدة، وليس مجرد فكرة أو فلسفة، وبهذا يتحول المسلم ـ من هذه الزاوية ـ إلى طاقة عملية جبارة في التغيير، لا إلى مجرد عنصر يحمل فكرة ثورية فحسب!

١١ ـ وبعد هذا التأسيس العقدي، فإن الإسلام يبني نظامه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بحيث يقلص الصلاحيات الممنوحة للحاكم ويجعلها في الحد الأدنى اللازم لإدارة وتدبير شأن الناس، وفي نفس الوقت يزيد من التكتل الاجتماعي والاقتصادي

Readonly

للمجتمع، بحيث تكون القدرة على اضطهادهم واستعبادهم أصعب ما يكون، إذ هي خروج على الشريعة وعلى النظام الاجتماعي الراسخ في نفس الوقت.

١٢ ـ بهذا صار مستقرًا لدى المسلمين، حتى في عصور هيمنة الإمبراطوريات التي يزعم حكامها أنهم يحكمونها بقداسة إلهية، أن الحاكم مجرد بشر وأنه وكيل عنهم وأن مهمته تنفيذ الشريعة ورعايتها، وأنهم مكلفون برقابته والنصح له وتقويمه سرًّا وجهرًا، وأن خروجه عن الشريعة يسقط شرعيته ويبيح الخروج عليه. وهذه الأصول والثوابت لم تصل إليها الأنظمة المعاصرة حتى الآن، ويبقى على المسلمين مهمة الاجتهاد المعاصر في التحقيق الأمثل لهذا النموذج، كتدبير شأن اختيار الحاكم وتدبير طرق رقابته وتقويمه، ومقاومته وعزله.

١٣ ـ وبملاحظة التطبيق التاريخي للنموذج الإسلامي في مقابل النظم الأخرى بما فيها الديمقراطية المعاصرة، يمكن القول بوضوح بأن أشد حكام التاريخ الإسلامي استبدادًا كانت صلاحياته أقل كثيرًا من أكثر حكام الديمقراطية المعاصرة، وهذا الحاكم الأشد استبدادًا في الحضارة الإسلامية كان محكومًا في تصرفه ـ رغبًا أو قسرًا ـ بقيود أخلاقية لا يلتزم بها أكثر حكام الديمقراطية المعاصرة.

١٤ ـ تتمثل المعضلة الأساسية في الواقع المعاصر في أن الاستعمار الأجنبي والأنظمة التي أنشأها في بلادنا قد أزاحت هيمنة الدين من واقعنا، لتحل محلها هيمنة الدولة، وعملت الدولة بكل طاقتها على أن يتحول الدين إلى شأن شخصي وطقوس شعائرية لا دخل لها في المجال العام، إلا أن يكون هذا التدخل في خدمة الدولة، وبالتالي يصير الدين خادمًا للدولة بدلًا من أن تكون الدولة خادمة للدين.

١٥ ـ وحيث جرت إزاحة الدين فقد ارتكبت هذه الدولة الكثير من الجرائم

Readonly

في حق الأمة، ولكن هذه الجرائم كانت تُقَدَّم باعتبارها حداثةً وتطورًا وسياسات دنيوية. ومن هذه الجرائم التعدي على كرامة الناس وحريتهم بالتدخل المتغول في شؤونهم ومنعهم من التنقل ومن الزواج ومن التجارة ومن البناء ومن التدريس ومن أي نشاط بدون تصريح مسبق، وإجبارهم على أنشطة اقتصادية وتعليمية وثقافية تحددها هي، ومنها التعدي على أموال الله كالأوقاف وفرض الضرائب عليهم وهو عدوان على أموال الناس بغير حق، فضلًا عن إشاعة الفاحشة والانحلال والتفلت الأخلاقي، وغير ذلك كثير. إلا أن المشكلة الأساسية أنه لا يمكن تقييم هذه الأفعال على أنها جرائم إلا بوجود الميزان الإسلامي، فإذا فُقِد هذا الميزان أو أزيح فإن هذه الأفعال تُصَوَّر باعتبارها سياسات حديثة!

١٦ ـ وهذه الدولة التي صنعها الاستعمار هي ذاتها وحدة في شبكة دولية أسس لها هذا الاستعمار الأجنبي وسمَّاها «النظام العالمي»، وفي هذا النظام العالمي يتجسد معنى الطغيان الذي حاربه الإسلام، فقد وضع المنتصرون بعد الحرب العالمية الثانية جملة من الوثائق والقواعد والنظم التي ترسخ هيمنتهم على العالم، وقدموها باعتبارها «النظام العالمي» و«الثقافة العالمية» و«القانون الدولي» و«الشرعية الدولية»، وأعطوا لأنفسهم حق معاقبة الخارج عليها بأنواع العقوبات التي تبدأ بعدم الاعتراف وتمر بالحصار وتنتهي بالاحتلال العسكري.

١٧ ـ بُني النظام السياسي الإسلامي على نظريته السياسية، وكان تطبيقًا عمليًا لها، وقد وقع فيه سائر ما يقع في أي عمل إنساني، وهو وجود مسافة بين التنظير والتطبيق ناتجة عن الخطأ والقصور الذي يصيب أي عملية بشرية، ولكنه مع ذلك ظل أفضل نموذج تطبيقي لتجربة سياسية في التاريخ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وبينما تمثلت لحظته النموذجية في عصر النبوة ثم عصر الخلافة

Readonly

الراشدة، فقد بدأ النقصان التدريجي مع عصر الدول الأموية والعباسية والعثمانية، ثم انهار مع سقوط الخلافة الإسلامية (١٩٢٤م).

١٨ ـ تمثلت أهم ملامح النظام السياسي الإسلامي في التطبيق العملي لكون الأمير وكيلًا عن الشعب، يأتي لهذا المنصب باختيار الأمة وتفويضها، ويظل تحت مراقبتها ولها حق نصحه وتقويمه، وحق مقاومته وعزله إن خرج عن الشريعة، ومع أنه قد حصل انحراف مبكر لمسألة اختيار الحاكم، إلا أن ذلك لم يتحول أبدًا إلى عمل مشروع في كتب الفقه والسياسة الشرعية بل ظل هو خلاف الأصل وجائزًا للضرورة، ولم يستطع ملك أو سلطان مهما كانت إنجازاته أن يبدل الأساس العقدي ـ الفكري والنظري ـ فيجعل نفسه مكتمل الشرعية وقد جاء بالتغلب.

١٩ ـ كذلك تمثلت في كون النظام السياسي الإسلامي قد حقق أكبر قدر معروف من التمكين المجتمعي في أي نظام سياسي، لقد كان من آثار العبادات والمعاملات الإسلامية أن حققت تلاحمًا عظيمًا وقويًّا بين أبناء الأمة مما جعل الطغيان عليهم لا يقارن بالطغيان الذي وقع على أمم أخرى في فارس والهند والصين وأوروبا، ولم يوجد في العالم الإسلامي قط طبقية أو عبودية على النحو الذي وُجِد في الأمم الأخرى، بل ولا حتى وُجِد في الديمقراطية المعاصرة. لقد كانت الصلاة والزكاة والصيام والحج تزيد يوميًا وشهريًا وسنويًا من التلاحم الإنساني بين عناصر الأمة، وكانت تعاليم صلة الرحم وحسن الجوار والتكافل والإنفاق بالصدقة وإقامة الأوقاف وعمل الخير وتقديم المعونة تزيد من التكتل الجغرافي والقبلي لأبناء الأمة ليكونوا مجتمعًا متماسكًا. وهذا كله يجعل الطغيان على هؤلاء والاستبداد عليهم عملية صعبة على أي مستبد، ومحفوفة بالمخاطر.

٢٠ ـ وحقق النظام الإسلامي أكبر قدر معروف في تقليص صلاحيات السلطة،

Readonly

فلم تكن السلطة في الحضارة الإسلامية تتغول على أنشطة المجتمع العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، ولم يستطع حاكم مسلم مصادرة الأوقاف التي كانت تمثل تمويلًا ذاتيًا واستقلالًا ماليًا للمجتمع، كما أن ما فُرِض من الضرائب والمكوس في فترات ما لم يتمتع أبدًا بالشرعية ولم يستقر لفترة طويلة، وظل المجتمع حتى في حالات الضعف والانهيار العسكري قادرًا على مواصلة العطاء الحضاري.

٢١ ـ هذه الملامح العامة، التي نضطر لشرحها لعموم الجهل بها في الواقع المعاصر، ترسم ملامح النظام السياسي الذي نطمح إليه، فهو النظام الذي يقلص مساحات السلطة وتغولها، ويعيد تمكين المجتمع ويقويه، وهو ما يترتب عليه بالضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية والتوزيع الطبيعي للثروة، كما يتحقق به وقف التغول السلطوي على النشاط المجتمعي.

٢٢ ـ وهذا النظام الذي نطمح إليه لا يمثل إنقاذًا لأمتنا وحدها، بل نحن نقدمه لكل العالم إنقاذًا لهم، ونرى أن كل مجهود المجتمع المدني في الديمقراطيات المعاصرة، وكل الأفكار التي قامت عليها النقابات والجمعيات الأهلية والأنشطة الاجتماعية لا تحقق جزءًا بسيطًا من التلاحم والتماسك الذي يحققه النظام الإسلامي، فنحن نؤمن أن هذا النظام ينقذ كل البشر من الاستبداد والطغيان الذي يهيمن عليهم، والذي يتزخرف ويتزين بشرعية شعبية وهمية من خلال عملية انتخابات مزيفة تجري تحت التحكم الكامل لأصحاب النفوذ والتأثير.

٢٣ ـ وعلى هذا فالنظام السياسي الذي نأمله هو الذي تقل فيه صلاحيات السلطة إلى الحد الأدنى، ويزداد فيه تمكين المجتمع إلى الحد الأقصى، ونرى أن تطبيق القيم والنظام الإسلامي هو السبيل الوحيد الكفيل بالوصول إلى هذا الهدف.

Readonly

٢٤ ـ نرى أن السلطة السياسية يجب أن تتقلص إلى وزارات محدودة تنظم قطاعات: الجيش والشرطة والقضاء والمالية والخارجية. وهي القطاعات التي تقوم بمهمتي حفظ الأمن والدفاع وما يتعلق بهما. بينما يوكل تنظيم قطاعات التعليم والإعلام والثقافة والصحة والزراعة والصناعة وبقية النشاطات إلى العمل المجتمعي والأهلي والخيري.

٢٥ ـ ومع ذلك، فإن القطاعات التي تتولاها السلطة لا تُنْتَزَع من المجتمع كلية، وإنما المجتمع مساند لها وداعم بمجهوده في وجودها، فمثلًا:

ـ الشعب يجب أن يكون مسلحًا ومدربًا، فانتشار التسليح والقدرة على استعماله يعصم الأمة من استبداد وطغيان الحكام في الداخل كما يجعل عملية احتلالهم الأجنبي عملية بالغة الصعوبة، ويساعد انتشار السلاح في استتباب الأمن وانخفاض الجريمة، وهذا يرفع عبئًا كبيرًا من أعباء الجيش والشرطة والقضاء.

ـ وأعيان الشعب وزعماؤه يجب أن يكون لهم الحق في حل الخصومات والنزاعات من خلال القضاء العرفي والأهلي الذي يقضي بالشريعة، فهذا يعزز الأمن الاجتماعي ويقضي على كثير من أسباب التحايل وهضم الحقوق وبطء التقاضي.

٢٦ ـ كما أن القطاعات التي يتولاها المجتمع، يمكن للسلطة أن تساهم فيها بالتوجيه والتخطيط والمشاركة لكن دون هيمنة واحتكار:

ـ فيمكن للسلطة أن تبني المستشفيات وتنشئ المدارس والجامعات والأندية الرياضية والنشاطات الثقافية وغيرها، تنشئ ذلك وتموله من فائض الموارد المالية الشرعية التي ترد إليها.

ـ كما يمكن أن تشير في كل هذه الأنشطة بالتوجيه والإرشاد لرؤوس الأموال

Readonly

نحو بناء مستشفى بعينها أو في مكان بعينه لحاجة المجتمع لذلك، أو الاستثمار في منطقة بعينها أو مجال بعينه. يمكن لخريطة اقتصادية تضعها السلطة أن تصنع التوازن بين مجالات النشاط الاجتماعي الذي يقوم به المجتمع نفسه.

٢٧ ـ ويجب أن يكون واضحًا أن من مهمات السلطة حراسة الدين ورعايته، ومن ضمن ذلك تعهدها بإقامة الشعائر ورعايتها كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها، وهي أمور تزيد من تماسك المجتمع وصلابته.

٢٨ ـ ولا يجوز للسلطة فرض ضرائب إطلاقًا، فهذا من الكبائر في الإسلام، وهناك الكثير من البدائل التي يمكن بها سد عجز ضروري في الموارد كالاقتراض والمشاركات أو إعطاء مزايا بعينها لمن يستثمر في مجال ما لا تتشجع له رؤوس الأموال، فإن لم يكن فقد أجاز العلماء فرض الضرائب على الأغنياء دون الفقراء بقدر الحاجة والضرورة وبشكل استثنائي مؤقت.

٢٩ ـ والسلطة بالأساس لا يحوزها إلا من اختارته الأمة بإرادتها الحرة، ولها الحق في نصحه ومحاسبته وعزله، وآليات الانتخاب والمراقبة والعزل متروكة لأهل الزمان والمكان طالما كان ذلك في إطار الشرع لا خارجًا عنه. سواءٌ أطلق على هذا اسم «الديمقراطية» أو أي اسم آخر، فالعبرة بالمعاني والمسميات.

٣٠ ـ استقلال الأمة وتحررها هو الهدف الأول والأكبر والأعظم أمام كل مشروع تغيير، ولا يمكن تحقيق أدنى تمكين قبل تحقيق هذا الاستقلال، الاستقلال السياسي والاقتصادي، وهذا الاستقلال السياسي والاقتصادي لا يمكن أن يتم دون قوة العقيدة والفكرة المهيمنة على عموم الأمة ـ وفي الطليعة منها: العاملون والقادة ـ ولا يمكن أن يتم دون قوة عسكرية تنتزع هذا الاستقلال انتزاعًا ثم تحميه وتحرسه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

Readonly

معضلات الاجتهاد في باب السياسة

نشر في «المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية».

يونيو، ٢٠١٦

على غير ما يظن الكثيرون، فإن المؤلفات الإسلامية المعاصرة المكتوبة في باب السياسة الشريعة ليست بالقليلة، ولكنها إنما تبدو كذلك لأن الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي لا تسمح بالاجتهاد في هذا الباب، فهو إما مغلق تمامًا لطبيعة الأنظمة الاستبدادية التي تفرض أنماطًا من المحظورات في البحث العلمي، وإما مغلق عمليًا إذ لا مجال لشيء سوى التنظير والبحث الذي غاية أمله أن يرتقي به الباحث درجة علمية ثم يوضع بحثه في أرفف المكتبة الجامعية، وفي هذه الحالة فإنه لا تمضي بضع سنوات حتى يصير البحث لا قيمة له لما يستجد من النوازل والمتغيرات في البيئة السياسية، والاجتهاد عملية حية مستمرة إن أغلق دونها باب التنفيذ لم تستطع أن تستوعب الجديد وتتفاعل معه.

منذ حوالي القرنين شهد باب السياسة في العالم الإسلامي نازلة كبرى مركبة: نازلة الدولة الحديثة، وقد ساهم في تعقيد ظاهرتها أنها كانت وليدة مرحلة الهزائم الإسلامية منذ بدء ضعف الدولة العثمانية وانهيار ولاياتها تحت الغزو الأجنبي، ثم مرحلة البعثات العلمية والترجمات ومرحلة الاستعمار الحديث! كان العقل الإسلامي يحاول البحث عن إجابة سؤال: ما الذي تغير في معادلة التفوق الإسلامي؟ ولأول مرة صار النظر إلى الغرب يسفر عن مشروع حضاري مثير للإعجاب لا عن مجرد تفوق عسكري كما كان الشأن في زمن الحروب الصليبية!

وهكذا وُضِعت تحديات التحديث والتغريب والدولة الحديثة أمام العقل

Readonly

المسلم، وكانت أول الإجابات قادمة من علماء بالمعنى التقليدي، إلا أنه أتيح لهم الاتصال بالسلطة والاحتكاك بالغرب معًا، ونعني بهما: رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي، غير أن مشروعات أي منهما لم تنجح.

لقد كانت السلطةُ هي الصخرة التي تحطمت عليها آمال هؤلاء الإصلاحيين، كانت السلطة المستبدة في العالم الإسلامي تريد نقل المنجزات الصناعية الحديثة من الغرب فحسب، بينما أبصر الطهطاوي والتونسي أن التفوق الغربي ليس منحصرًا في باب الصناعات وإنما هو جزء من مشروع ونموذج حضاري أهم ما فيه هو الوضع الجديد للشعوب في معادلة السلطة، وأن ما وُجِد من القوانين والتقييد لسلطة الملوك وما أتيح من الحريات والحقوق للجماهير أطلق هذا المدَّ الكبير من الطاقة التي صنعت هذا التفوق. وسجَّل كل منهما ذلك تلميحًا أو تصريحًا فيما تركه من تراث مكتوب أو من ترجمات، إلا أن مساعيهما في هذا الباب باءت بالفشل إذ كانت السلطات في القاهرة والقسطنطينية لا يمكن أن تستجيب لمثل هذه التغيرات.

منذ تلك اللحظة وحتى الآن جرت أحداث كثيرة يصب أغلبها في التمكين للنموذج الغربي الذي نزل بعدئذ بقواته واحتل البلاد وأنشأ فيها المؤسسات المتغربة، ثم لم يترك البلاد ويرحل إلا بعد ضمانة ضرب المقاومة الإسلامية وتنصيب سلطات علمانية، فعاش العالم الإسلامي قرنين من القهر والتغريب؛ بالاستبداد أحيانًا وبالاحتلال أحيانًا، مما ضرب قدر وقدرة العلماء والمجتهدين على تقديم الاجتهاد الممكن للنوازل السياسية الجديدة.

يمكن اختصار معضلات الاجتهاد الإسلامي في باب السياسة في أربعة رئيسية هي:

Readonly

١ ـ معضلة الفهم والتصور

إذ يعاني جمهور المشايخ والعلماء من سوء فهم وتصور لما آلت إليه أحوال السياسة والنظم، وما استجد فيها من الفلسفات والتوجهات وما طرأ عليها من التعقيد والتركيب، وما أنتجه كل هذا من خصائص في بنية وأسلوب عمل المؤسسات السياسية، وذلك راجع إلى أمرين:

أولهما كما يقول ابن خلدون «لما يكون في التكاسل في النفوس المضطهدة»، وذلك أن الاستبداد يفرض حالة عامة من الركود وتعطيل الملكة الاجتهادية التي يلزمها قدر من الحرية والثقة يمكنها به البحث وطرح الأسئلة والتنقيب وراء الظواهر، ولا يكون هذا في جو القهر والإرهاب.

وثانيهما: ما تحرص السلطة على تعتيمه ـ فإن لم تستطع: تشويهه ـ من النماذج السياسية المغايرة، فالسلطة في الدولة الحديثة تحتكر إنتاج وترويج المعرفة، بما صار لها من احتكار لمؤسسات التعليم والإعلام والثقافة، وهو ما يترتب عليه الجهل والانفصال بين العلماء وبين المعرفة العميقة لهذه النماذج، وهي المعرفة التي تؤهل للاجتهاد في شأنها كنازلة جديدة. وأستطيع القول بأن نموذج الدولة الحديثة وما يطرحه من إشكالات لم يُطرق بوضوح وجرأة في البيئات العلمية التقليدية إلا بعد عصر الانترنت، وبشكل أقوى: بعد عصر الربيع العربي ومواقع التواصل الاجتماعي التي نقلت هذه النقاشات من دهاليز الأقسام المتخصصة إلى الساحة العامة التي تشتبك مع البيئة العلمية الإسلامية.

٢ ـ معضلة العجز

وهو العجز عن التطبيق؛ وهي مرحلة وصل الطهطاوي والتونسي وغيرهما

Readonly

إليها في بعض المجالات التي لم تكن السلطة تنتبه أول الأمر إلى آثارها ومآلاتها، ثم لم يستطع أحدهم تجاوزها فيما بعد، ولا ريب أن التطبيق هو رافد أساسي من روافد الاجتهاد، إذ التنظير مهما بذل من الجهد والنظرية مهما صحَّت فلا بد من اختبارها في الواقع والمجتمع، وبناء على الواقع يكون التصحيح والتعديل، فالاجتهاد عملية حية مستمرة.

وفي هذين القرنين تدنى مستوى قدرة العلماء على التطبيق تدريجيًا إلى أن أزيحوا تمامًا من كل قدرة بإلغاء القضاء الشرعي، وهو الأمر الذي لا يتوقف خطره عند إزاحتهم من ساحة العمل بل يمتد إلى أنه يعزلهم عن ساحة المجتمع وقضاياه وأساليب الناس في التعايش والتحايل على القوانين، وما يستجد في حياتهم من نظم حاكمة وعادات تأخذ طريقها لتكون تقاليد راسخة مع طول الزمن.

٣ـ معضلة الهروب إلى المعارك الفرعية

وذلك أن باب السياسة بابٌ خطير يكلف عداوة السلطة، فيضطر المجتهد إلى الهروب من باب المواجهة الصريح والاجتهاد في المسألة الكبرى إلى فروعها ولوازمها من المسائل الجزئية، وحينئذ تشتعل الصراعات الجانبية بين طوائف العلماء والآراء وتذهب فيها طاقة الاجتهاد، ثم ينفصل مجتمع العلماء عن مسائل الوقت بالكلية، لا سيما في نظام يستبدل بهم طبقة جديدة من الموظفين والإداريين تأكل من مساحة القضايا والشؤون التي يعالجها العلماء حتى تمَّ للنظام إزاحة العلماء بالكلية.

إن قضايا كالتفريق بين أحد وزوجته أو معارك الحجاب أو الخمور أو الانحلال الأخلاقي أو مكافحة التطبيع مع إسرائيل أو المناداة بمد يد الغوث للعرب والمسلمين المستضعفين في أي مكان... كل هذه القضايا هي في حقيقتها

Readonly

فروع عن القضية الأصلية: السلطة المستبدة التي تفرض على المجتمع بالقهر أمورًا لا يقبلها، لكن حيث كانت السلطة قاهرة فإن الهروب من مواجهة القضية الأصلية الصريحة إلى الفروع والهوامش يكون هو البديل المتاح المقدور عليه إذ مهاجمة وزير الثقافة أو صحافي علماني أو داعية نسوية أهون من تحدي السلطة.

بل إن الانشغال بقضايا التعليم والتربية وأعمال البر والخير ورعاية الأيتام وتزويج الفقراء وغيرها هو في حقيقته أيضًا هروب من مواجهة المتسبب الأصلي في هذه المآسي، وكل هذا مما يستهلك طاقة الحركة العلمية ويصرفها عن الاجتهاد في باب السياسة المحفوف بالمخاطر.

٤ ـ معضلة التوظيف

وذلك أن سلطة الدولة الحديثة قد نزعت من الفقهاء كل استقلال مالي والجانب الأعظم من المكانة المعنوية، ولم يعد ثمة مجال للفقيه خارج عن مساحة السلطة، وهو ما ينعكس على المجتهد الذي يؤْثِر كتمان ما يعلم والسكوت عن الحق الذي ينبغي أن يقال، ولربما تطور الحال إلى تأصيل الباطل والترويج له وإسباغ الشرعية عليه. وهذه الأمور مهما أسرفنا في إدانتها تظل حقيقة إنسانية وتاريخية تعطل الاجتهاد في باب السياسة.

هذه المعضلات الأربعة مجتمعة تجعل الاجتهاد في باب السياسة من أعسر وأخطر ما يمكن، بالرغم من أن باب السياسة هو أهم وأخطر الأبواب جميعًا وأكثرها تأثيرًا على المسلمين. ولا يمكن توقع فتح باب اجتهاد حقيقي في مجال السياسة إلا بوجود بيئة علمية آمنة من بطش السلطان ومستقلة عن سطوته العلمية المعرفية وعن أمواله ورواتبه ومكافآته.

Readonly

بغير هذا سيظل أحسن ما نحصل عليه: اجتهادات نظرية مكتوبة على هيئة بحوث راقدة في صفوف المكتبات، تفقد بعد قليل القدرة على الحياة ومواكبة الحوادث، وسيظل أسوأ ما نحصل عليه حالة مشيخة السلطان الذين يصنعون له من رغباته فتاوى وتأصيلات شرعية بدعاوى الاجتهاد!

ويبدو أن مسار التاريخ لا يترك لنا إلا احتمالًا واحدًا: الثورة هي التي ستصنع مجتهديها، وهم الذين يصنعون نموذجها الحضاري، وكل هذا في ظلال كفاح مرير لخلع منظومات القهر والتغريب التي تسيطر على بلادنا منذ مائتي سنة!

* * *

Readonly

محنة العلماء ومحنتنا في العلماء... كيف نفعل؟

نشر في «الخليج أون لاين»

٩ مايو ٢٠١٩

قال عمر بن الخطاب لزياد بن حدير: أتعرف ما يهدم الدين؟ قال: لا. قال عمر: زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، وحُكْم الأئمة المضلين.

وقد شهدت السنوات الماضية من المحن والزلازل العامة في الأمة ما جعل كثيرًا من الرموز تتساقط من بعد ظهور، وتنطفئ من بعد إشراق، وتصير موضع الذم والنقمة من بعد ما كانت تُفدى بالأرواح والأموال، حتى صار من أكثر ما يصلني من الأسئلة سؤال: لمن نسمع من المشايخ؟

ومع أن كثيرًا ممن سقطوا لديهم من العلم والمعاني ما لا غنى عنه إلا أن عموم الناس لا يستطيع أن يفرق بين مقام الاستفادة ومقام الاقتداء، فالغالب على الناس أنهم ينتمون لمن يثقون به، ولا يحبون ولا يقبلون له أن يسقط فيما يسقط فيه غيره، ومن هنا كانت مكانة العلماء ومقامهم إنما تُسْتَحَقُّ بما هم عليه من العمل بما لديهم من العلم.

ولذلك كانت مواقف العالِم أشهر وأظهر وأذكر من أكثر علمه، وإن أغلب العلماء المشاهير في تاريخنا الإسلامي الذين خلد علمهم إما كانوا في مواجهة ظلم السلطة ومنهم من قضى قتيلًا أو أسيرًا، وإما كانوا منصرفين عن أبواب السلاطين مستغنين عن الورود عليهم وحضور مجالسهم، حتى صار من عادات كتب التاريخ أن تشيد بالعالِم وتذكر موقفه من السلطان، وأن تزري بمن كان على غير ذلك.

وقد لاحظ المستشرق الأمريكي مايكل كوك، صاحب أوسع دراسة عن «الأمر

Readonly

بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي» أن مؤرخي التراجم يهتمون بإيراد وقائع مواجهة السلطان أكثر من اهتمامهم بتفصيل واقعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي بدأت بها هذه المواجهة، ذلك أن «المواجهات مع السلطان عند كُتَّاب السِّيَر وقائع جديرة بالاهتمام في ذاتها، تُضفي على شخصياتها هالة ساطعة»[١].

وهذا الكلام أشبه بكلام سيد قطب من قبله وهو صاحب العبارة الذائعة الشهيرة التي قالها في رثاء حسن البنا: «إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع حتى إذا متنا في سبيلها دبَّتْ فيها الروح، وكُتِبت لها الحياة». وهو أيضًا القائل: «إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئًا كثيرًا ولكن بشرط واحد: أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم، وأن يُطْعِمُوا أفكارهم من لحومهم ودمائهم، وأن يقولوا ما يعتقدون أنه حق! ويقدموا دماءهم فداء لكلمة الحق»[٢]. وقد صدَّق سيدٌ كلماته هذه فهو اليوم أشهر وأبقى من جميع معاصريه من الواردين على السلاطين المتمتعين بالقرب منهم.

وصرت إذا سُئلت: لمن نسمع بعد هذا السقوط المريع؟ أجيب: إن هذه المحن بقدر ما أسقطت كثيرًا بقدر ما كشفت عن معادن أخرى أصيلة، أولئك الذين ستجدهم في الشهداء أو الأسرى أو المنافي، وكان أول ما يخطر على البال منهم: الشيخ الكبير الجليل والأسير البصير حازم أبو إسماعيل.

من الناس من عرف الشيخ حازمًا داعية وحسب، ومن الناس من عرفه سياسيًّا فحسب، وقليلٌ من عرفوه في وجهيه: الداعية السياسي، والواقع أنه من الظلم أن

---

(١) مايكل كوك، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي، ترجمة: رضوان السيد وآخرون، ط١ (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠٠٩م)، ص١٣٧.

(٢) سيد قطب، دراسات إسلامية، ط١١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦م)، ص١٣٩.

Readonly

يُقتصر في معرفة هذا الرجل الكبير على أحد هذين الوجهين، إذ لا تكافئ عبقريته في فهم السياسة وألاعيبها ومشهدها الحافل بالمخادعات والمناورات إلا عبقريته في استخلاص المعاني الروحية والإيمانية والفكرية من القرآن والسنة، وهو من الدعاة النادرين الذين يتوازن في خطابهم مطلب العقل والفكر مع مطلب النفس والروح، ثم هو يصوغ هذا كله في عبارة بسيطة سلسلة مفهومة لأبسط الناس، وبهدوء يُغبط عليه!

لقد كان للشيخ حازم اليد العليا في تغيير مسار الثورة المصرية، فمن قبله كان أقصى طموح الإسلاميين أن يحوزوا ثلث مقاعد البرلمان فلا هم سينافسون على رئاسة ولا حتى على أغلبية برلمانية، ثم سارت بهم ألاعيب العسكر نحو تطويل الفترة الانتقالية التي أوشكت أن تُصَفِّي الثورة، ولولا حازم وما حققه من شعبية كاسحة في وقت مذهل ما أمكن إلزام العسكر في مصر بموعد تسليم السلطة (التي حددوها بعد تهديده الشهير في أحداث محمد محمود الذي كانت شرارتها مظاهرة دعا إليها بعنوان: جمعة المطلب الوحيد تسليم السلطة)، ثم إنه بترشحه للرئاسة وشعبيته الجارفة التي لم يكن له فيها منافس إنما كان السبب في تمهيد الطريق للرئيس الإسلامي، ولولا ذلك لكان مصير ثورة مصر كمصير ثورة تونس: إعادتها من جديد للنظام القديم وبشرعية كاملة!

اجتمع في حازم أبو إسماعيل ما تفرق في غيره، حتى كان كل طيف إسلامي يرى فيه شبهًا منه، إذ لديه العقل الحركي الإخواني، والسمت الظاهر السلفي، والروحانية الصادقة الصوفية، والرقة الدعوية، والثورية الجهادية، مع دقة قانونية وعقل نخبوي منظم، وكان فوق ذلك كله حصيفًا يمزج كل هذا ببعضه فلا ينفر منه أحد من هؤلاء على ما بينهم من الخلافات ومناطق الاحتكاك.

Readonly

ولئن كان هذا قد ظهر بقوة في مساره السياسي القصير بعد الثورة، فإن هذا نفسه لا زال حاضرًا في مواده الصوتية والمرئية، وقد قامت مجموعات من الشباب بجمع تراثه المسموع والمرئي فأنجزوا بهذا عملًا جليلًا، وزادوا على ذلك خدمةَ بعض المواد بتفريغها كتابة وتحويلها إلى جرافيكس ونحوه، وأزعم أن الذي سيستمع إلى هذا الإنتاج فإنه سيجد كلامًا جديدًا ومعاني لم يسبق أن وجدها عند أي داعية آخر.

ومن هذه النافذة فإني أحب أن أوجه نداء لمن يستطيع من الشباب، أن تنشأ منصة إلكترونية تجمع أعمال العلماء والمشايخ الأسرى، وكم في سجوننا العربية من أفذاذ كبار، وهذه السجون تحبس أجسادهم كما تحبس علومهم أن يُنتفع بها. وأحسب أن هذه المنصة ستوفر غناءً لأغلب الشباب وعموم الناس الذين يعانون من الصدمة في كثير من المشايخ، حتى إن كثيرًا منهم انزلق وانحرف كثيرًا.

لئن كان بعض أولئك المشايخ سببًا في انحراف كثيرين بما كان لهم من الشهرة والتصدر، فيجب أن يكون ثمة مجهود مقابل يشير إلى أولئك العلماء والمشايخ الثابتين الصامدين الذين لم يبيعوا دينهم وفضَّلوا أن يقاسوا التعذيب والسجن، فأولئك هم أسباب الثبات والصمود لعموم الناس وللشباب الذين لم يفقدوا بعدُ إيمانهم.

هذه المنصة قد ينبثق عنها مجلة إلكترونية، وإذاعة على الانترنت، وربما قناة فضائية أيضًا (فلا تعدم الأمة منفقين في وجوه الخير ومتطوعين لحمل هذا العبء) ستمثل بابًا من أبواب الحفاظ على الدين وتثبيت الشباب وهداية الناس وإظهار الوجه الحقيقي لعلماء الإسلام، كما ستمثل نافذة لأصوات العلماء الأسرى الذين لا يملكون أن يتكلموا!

Readonly

وهي في النهاية حديقة غناء باسقة مثمرة، فكيف ببستان يجتمع فيه حازم أبو إسماعيل، وصلاح سلطان، وعبد العزيز الطريفي، وإبراهيم السكران، وسفر الحوالي، وسلمان العودة، ومحمد موسى الشريف، وعوض القرني، ووليد الهويريني، وعلي العمري، وحسام أبو البخاري، وغيرهم ممن حيل بينهم وبين الأمة؟!

أسأل الله أن يجد هذا النداء من يستجيب له فيكون عملًا صالحًا في ميزان صاحبه أبد الدهر.

* * *

Readonly

مصانع الخيانة!

نشر في مجلة «كلمة حق»

أكتوبر، ٢٠١٨

روى الدكتور وليد سيف في مذكراته[١] أنه حين كان طالبًا في لندن تعرف على عجوزٍ كان في شبابه جنديًّا بريطانيًا خدم في فلسطين، يقول عنه: «صار بوسعه الآن بعد أن تحرر من التزامات الوظيفة أن يعبر عن تعاطفه مع الشعب الفلسطيني ويقر بدور بريطانيا في خلق نكباته ومآسيه... وإذ أجزم بصدق مشاعره في تلك اللحظات، فإني أجزم كذلك أنها ما كانت لتردعه أيام خدمته شابًّا في فلسطين عن النهوض بواجبات وظيفته بإخلاص وإتقان، مهما تكن جائرة بحق الشعب الفلسطيني. فالإنجليزي يُحسن الفصل بين عواطفه ومواقفه الفردية الذاتية من جهة، وبين مقتضيات وظيفته مهما تكن متعارضة مع الأولى من جهة أخرى. فالإخلاص لدولته ولعمله فيها مُقَدَّم على أي اعتبار ذاتي. وحديث الضمير مؤجل إلى ما بعد إنجاز المهمة. وليس عليه أن يلوم نفسه فيما لا يدخل في نطاق إرادته ومسؤولياته وتخصصه. فسياسة الدولة وقرارات الحرب والسلم من عمل الزعماء والساسة. واحترام الاختصاص والتراتب الوظيفيَيْن من عقائد الدين المدني. وكل ذلك نتاج حداثة غربية اندمجت فيها مفاهيم العقلانية (أو الترشيد) بالبيروقراطية (ومعناها الأصلي: التجرد من الاعتبارات الشخصية وتحكيم اللوائح والنظم في العمل والإدارة. وذلك بخلاف ما آل إليه المعنى عندنا إذ يفيد التعقيدات الإدارية المفرطة)، والاحترافية، والتخصص الوظيفي

---

(١) وهو لمن لم يعرف أفضل من كتب في الدراما التاريخية على الإطلاق، وهو قبل هذا أستاذ جامعي وأديب وشاعر ومفكر، وهو فلسطيني من طولكرم.

Readonly

المجتمعي. وبقدر ما أسهمت هذه المفاهيم مجتمعة في تقدم المجتمع الغربي وقوته، أسهمت كذلك في قسوته وجفوته ووحشته. فمطلب الكفاءة في الإنجاز يمكن أن يُضَحِّي أحيانًا بالاعتبارات الإنسانية والأخلاقية التي تلابس المهمة»[1].

هكذا طوَّرت «الحضارة» الغربية نظامًا يمكن فيه للجندي أن يرتكب المذابح بكل وحشية (أو: بكل كفاءة) ثم إذا بلغ سنَّ المعاش سمح لنفسه أن يتعاطف مع من ذبحهم بكل إخلاص (أو: بكل إنسانية)!!

* * *

هذه الصورة على بشاعتها وقبحها قد تبدو مفهومة في ميزان النظرة المادية المتجردة من كل اعتبار أخلاقي، لكن كيف يمكن أن يُقبل في أي ميزان أن يكون صاحب هذه المذابح رجل من أهل البلد نفسها، يعمل في خدمة المحتلين بكل وحشية (أو: بكل كفاءة؟!)... فلئن كان الإنجليزي يسمع ويطيع لحكومة هو انتخبها واختارها وهي تجعله في عافية ورفاهية وتؤمن له مستقبله ومستقبلًا لأولاده، فما هي حجة وعذر من يفعلها من أبناء البلد المحتل؟!!

ما هي حجة فلسطيني يفعلها خدمة للإنجليز؟ أو جزائري خدمة للفرنسيين؟ أو مغربي خدمة للإسبان؟!... وأيضًا: ما هي حجة أي إنسان يفعلها خدمة لنظام جاء بالقهر والعنف والدبابة ومن ورائه جاء برغبة النفوذ الأجنبي المهيمن على بلادنا؟... ثم ما هي حجة أي إنسان يفعلها وهذا النظام لا يُؤَمِّن له ولا لأبنائه طعامًا نظيفًا ولا تعليمًا مفيدًا ولا طبًّا صحيحًا ولا حياة طبيعية؟!

أحسب أني أعرف الإجابة: لقد فعلها هؤلاء جميعًا لأن «الدولة» استطاعت

---

(١) وليد سيف، الشاهد المشهود، ص٤٠٤، ٤٠٥.

Readonly

صناعة عقيدة غرستها في النفوس... لا يخلو الأمر من مكاسب يتمتع بها الخونة على سائر الناس لكن مجرد المكاسب لا تفسر وحدها هذا الإخلاص وتلك الوحشية (أو: الكفاءة) في خدمة النظام المحتل أو النظام المستبد.

لم يعد أولئك الذين يفعلون هذا يرون أنهم يخونون أو يظلمون، بل صاروا يحسبون أنهم يقومون بالواجب الوطني... ومنهم من تفانى فيه حتى أهلك نفسه، وهو مقبل غير مدبر!!

***

هذه الصورة رواها د. خليل حسن خليل في مذكراته الروائية، وقد سُجِن في عهد عبد الناصر من بعد ما كان يعطي المحاضرات لعناصر الاتحاد الاشتراكي بل ومن بعد ما كان منتدبًا للعمل في رئاسة الجمهورية، فسجل حوارًا بينه وبين ضابط السجن الذي كان تلميذًا له من قبل، سأله:

ـ هل تشترك في تعذيب المعتقلين؟

بهت الضابط عند سماع السؤال. تردد في الإجابة. ثم قال بصوت لا انفعال فيه ولا حسرة:

ـ طبعًا!

ـ أنت؟! الإنسان الرقيق. التلميذ النجيب، ابن صديقي الحميم. لقد رباك أبوك تربية مهذبة طيبة.

ـ كل هذا اختفى أثناء تدريبنا في الكلية. ثم تلاشى تمامًا حينما وضعوا النجمة على كتفي!

Readonly

ـ هل لا يدمي ضميرك، هذا التعذيب البشع الذي تباشره على الإنسان؟

ـ وهل يتعذب ضمير عشماوي حين يقصف برقاب المحكوم عليهم بالإعدام؟

ـ عشماوي يعدم الذين قضت المحاكم بإعدامهم.

ـ الفرق ليس كبيرًا!

ـ ألهذه الدرجة؟

ـ نحن ضباط، نأكل العيش والجاتوه من هذه الوظيفة، ونتيه بها على الخلق. ونؤمر بالتعذيب فنستجيب.

ـ أتنفذون أوامر التعذيب بالضبط، أم تضيفون إليه؟

ـ أنا أنفذ العلاج الذي يضعه القادة بالضبط. أعطي للمريض الجرعة والحقن دون زيادة أو نقصان.

ـ كم أنت عادل!

ـ أنا أؤدي واجبي.

ـ وزملاؤك؟

ـ لا شأن لي بهم.

ـ علمت أن بعضهم ينهش لحم المعتقل، ويمصمص نخاعه، وكأنه وحش يستمتع بالوليمة.

ـ لا أريد أن أتحدث عن غيري. إنما لأنك أستاذي، وكنت تعطيني دروسًا خصوصية بالمنزل مجانية، بحكم صداقتك لوالدي، سأقول لك:

التعذيب يثير في الإنسان غريزة غريبة. فبعض المعذبين يتشفى في المعتقل

Readonly

وكأنه عدوه، وكلما ألهب ظهره أو نفخ أحشاءه، كلما تملكته هذه الغريزة الحيوانية، وكلما اقترب من حرفة الجزارة! بفارق واحد، أن الخروف أو العجل يذبح ثم لا يحس بتقطيع أعضائه. وتبلغ الوحشية ذروتها، إذا بدت من المعتقل إشارة أو احتجاج أو تأفف. هناك يعتبر المعذب أنه أهين إهانة شخصية! لحقت بكرامته وعظمته وعظمة أسرته. فيتملكه سعار بربري، يصب أواره على المعتقل، وقد نفق كثير من المعتقلين بهذه الطريقة!

ـ أنت تستخدم كلمة «نفق»؟

ـ في مثل هذه البيئة يستوي الحمار والإنسان[1].

* * *

خطر لي مرة وأنا أقرأ التحقيقات مع الثائر البطل أحمد عرابي أن أفتح ملفًّا لأحفظ فيه أسماء الخونة الذين حققوا معه، فقد كانوا يبذلون في التحقيق جهدًا واضحًا في المحاصرة والتضييق وانتزاع الأقوال! فما أكملت لحظة حتى عرفت أن المهمة ثقيلة والأسماء طويلة وكثيرة...

لقد صار الظلم والخيانة مؤسسة وجهازًا ودولة، منذ عهد الطاغية الجبار محمد علي، حتى صارت وظائف كالشرطة والعسكر والقضاء والمخابرات والإعلام هي بنفسها معاقل لتفريخ وإنتاج وتصنيع الخيانة والعمالة للاحتلال الأجنبي والاستبداد الداخلي... حتى إن النادر القليل منهم مَنْ لم يتلوث بالمشاركة في هذه الأوحال! وأندر منهم من استقال من تلك المؤسسات فنجا بنفسه، وأندر من كل هؤلاء من فكر في المقاومة والإصلاح...

---

(١) د. حسن خليل حسن، الوارثون، ص٣٦٩، ٣٧٠.

Readonly

ذلك أن هذه الدولة وهذه المؤسسات جعلت الخيانة والعمالة والتعذيب والتزوير والبشاعة مدرسة فكرية، وجهة نظر، فلسفة ومنهجًا، دينًا متبوعًا... لقد أنتجت هذه الدولة ومؤسساتها عقيدتها التي جعلت كل هذا ينتقل من معنى الخيانة والعمالة والظلم إلى معنى الواجب الوطني والنظام والشرف!

نعم... صارت مهمة ثقيلة طويلة أن نتتبع أسماء من قبضوا على الوطنيين ومن حققوا معهم ومن حاكموهم ومن عذبوهم ومن شوهوا صورتهم بالأشعار والأغاني والمقالات... قائمة لا تكاد تحصى ولا تُحصر ولا تنتهي...

وإن بعض العزاء أن التاريخ يصحح سيرته بعد سنين طويلة، كما قد أبقى اسم عرابي علمًا على الثورة والجهاد، وأبقى اسم الخديوي توفيق علمًا على الخيانة والعمالة!

***

لقد أنشأ الاحتلال وما زرعه في بلادنا من أنظمة تابعة له، أنشأ أجيالًا تؤدي واجبها في حرب أبناء البلد دون هوادة، وبعض أولئك يقرأ الآن هذه السطور، لا بغرض التأمل في معانيها بل بغرض رصد وتحليل ما تحمله من أغراض ورسائل! ولقد ضرب الله مثلًا بكلماته وله المثل الأعلى فأخبرنا أن الآية نفسها يضل بها كثيرًا ويهدي بها كثيرًا، وأن القرآن ينزل على بعض الناس هداية ويزيد الآخرين كفرًا وفجورًا. وما ذلك إلا لأن البعض نظر فيها يطلب منها الهداية والآخر نظر فيها يبحث عن مواضع الجدل ويلتمس النقص والعيب وإثارة الشبهات.

في لحظة كتابة هذه السطور تشن حرب محلية على أبسط مظاهر الدين، أغلقت السلطات في موريتانيا جمعية تكوين العلماء التي أنشأها الشيخ محمد الحسن ولد

Readonly

الددو، وهي جمعية تخرج من يتأصلون علميًّا بحفظ القرآن والسنة ومتون العلم، وبعدها بساعات صدر قرار من الحكومة الليبية التي لم يستقر لها قرار ولا تملك توفير رواتب للناس بعدم استقبال طلاب الابتدائي لمدراس التعليم الديني، وقبل ذلك عصف محمد بن سلمان بسائر الأنشطة العلمية والدعوية في مساجد بلاد الحرمين... وأنى نظرت إلى بلد رأيت مثل هذا أو شيئًا منه.

هذه الغارات العنيفة يقوم بها من يقولون بأنهم مسلمون، تحت عنوان مكافحة الإرهاب والتطرف، هذا مع أن سائر هذه الأنشطة والمؤسسات تبتعد تمامًا عن كل ما قد يثير حساسية الأنظمة والحكومات وأوليائهم، بل هي لم تنشأ أصلًا إلا بموافقات وتصاريح أمنية ولم تمارس عملها إلا برقابة وتشديدات أمنية أيضًا، أي أنها أبعد ما تكون عن هذه التهمة. وعندئذ لا يبقى لنا إلا تفسير من اثنين: إما أن هؤلاء القوم (تذكر دائمًا أنهم منتسبون للإسلام) يرون القرآن نفسه كتاب تطرف وإرهاب، وأنه مادة يجب مطاردتها وملاحقة تدريسها وتحفيظها. أو أنهم لا يفكرون في هذا أصلًا وإنما يقومون بعملهم (بكفاءة) كما أُمِروا به، وطالما أنهم يقومون بوظيفتهم بكفاءة فلا معنى لأن يفكروا في شيء، ومن كان ينوي التفكير فليؤجله إلى لحظة سن المعاش كي يتعاطف مع من سجنهم وضربهم وآذاهم!

قبل أن ينشأ في بلادنا «صنم الدولة»، كان أهل العلم والفقه أصحاب مكانة وهيبة وتوقير، لا يجرؤ عليهم إلا من انخلع عامدًا من الدين والأدب، ولا يتجاسر عليهم إلا من عرف من نفسه وعرف الناس منه السقوط والانحطاط... أما حيث جاء صنم الدولة وانتصب معبودًا فوق كل شيء، فلا ريب أن رغباته أوامر، وأن كل فرد في جهاز هذه الدولة إنما هو «عبد المأمور»!.

Readonly

إن أمام المجاهدين عملًا طويلًا ثقيلًا لكسر هذا الصنم، وإعادة المرجعية العليا لتكون لله ورسوله، والعلماء هم أوائل المسؤولين عن إرجاع حجم «الدولة» لتكون خاضعة لله ولرسوله ولشريعته، وعليهم بذل المجهود كله في إفهام الناس أن كل ما خالف الدين هدر لا قيمة له ولا كرامة ولا احترام ولو صدر من الدولة، ولو قرره برلمانها ولو طبل له إعلامها...

إن حقيقة الصراع في كونه صراعًا على السيادة، على المرجعية العليا، هل تكون لله أم لغير الله! وسيظل أهل العلم والدين والجهاد يتعرضون لإيذاء هذه الدولة مهما حاولوا الابتعاد عنها، فإنها تعرف أن عملهم في حقيقته هو تعظيم الدين ليكون مرجعية فوقها، ولتكون هي خاضعة له... وهذا أمر لا يسمح به صاحب الباطل إلا مضطرًّا!

وهذا هو حقيقة التحرر والتحرير، وحقيقة الإخلاص والتوحيد... أن يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد، وألا يكون أحد من الناس عبدًا لنظام أو ملك أو رئيس أو وظيفة، يضطر معها إلى إلغاء عقله وتجميد ضميره لتنفيذ الأوامر بكل كفاءة!! أو يضطر معها للإيمان بأفكار رؤسائه وابتلاع كلامهم كي لا يعيش تعذيب الضمير وإلغاء العقل إذ ينفذ أوامرهم بكل كفاءة!!

حقيقة التوحيد والتحرر ألا يصرف الإنسان طاعته إلا لله... وإعادة غرس هذا في الناس مهمة عظيمة بعد تضخم أجيال آمنت «بالدولة» حتى حاربت في سبيلها أخلص أبنائها وصفوة عقولها.

***

Readonly

لئن كان بعض العزاء أن التاريخ سيصحح مسيرته بعد تبدل القوى وتغير الحال، إلا أن العزاء كله، وهذا هو ما يشفي الصدر حقًّا، أن الحساب الأخير عند الله تعالى، الله الذي لا يغفل ولا ينام ولا تخفى عليه خافية ولا يفلت منه أحد ولا تغيب عنه هفوة... فهذا هو العزاء حقًّا... وهذا هو شفاء الصدر حقًّا... وتلك هي الطمأنينة حقًّا!

فسبحان الله... الحق العدل المبين...

سبحان الذي قال:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٤].

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

ألا إنه لولا الله ولولا الدار الآخرة لكان نعيم هذه الدنيا في الانتحار والخروج منها... فلله الحمد الذي جعل لعباده آخرة وحسابًا وميزانًا دقيقًا، فلا يفلت من عقوبته ظالم ولا من عدله ورحمته مظلوم.

* * *

Readonly

مصير المواطن الصالح

نشر في مجلة «كلمة حق»

ديسمبر، ٢٠١٩

روى الشهيد سيد قطب في مذكراته قصة بليغة معبِّرة، وهي تتماس مع ما كنا كتبناه في مقال «نكبة الشعوب العزلاء»[١]، وهذه القصة الحقيقية وقعت في قريته موشا التابعة لمحافظة أسيوط، وكانت في العقد الثاني من القرن الماضي، والجدير بالذكر هنا أن هذه المذكرات التي تحكي طفولة سيد قطب وأيامه في القرية إنما كُتِبَتْ ونُشِرَت قبل أن يتحول إلى الفكر الإسلامي وقبل أن يتعرف على الإخوان المسلمين. وأهمية هذه القصة في أنها تختزل كثيرًا من الحقائق التي لا تزال حاضرة حتى الآن.

سأنقل القصة أولًا، ثم أعقب عليها بما يهمنا من الوقوف عنده.

قال سيد قطب:

«صحت القرية مروعة على صهيل الخيل وقعقعة السلاح، وخطوات الجند الثقيلة، يأخذون مشارفها جميعًا إلى الحقول، ويجوسون خلالها في جلبة وضوضاء على غير عادة لها من زيارة الجند في مثل هذا العديد وذلك الضجيج.

وكان أول من كشف الخبر أولئك الذين تقتضيهم أعمالهم أن ينهضوا مع الفجر مبكرين ليغادروا القرية جميعًا، فأوثقوهم بالحبال والسلاسل، وجعلوهم عندهم رهينة حتى لا يعودوا فيُنَبِئوا القرية النبأ، ويفسدوا التدبير الذي وضعته القوة الهاجمة على الناس وهم نيام.

---

(١) نشر في مجلة كلمة حق، نوفمبر ٢٠١٩.

Readonly

ونفذت الخطة نفسها مع خفراء المشارف، فأديرت أيديهم إلى ظهورهم، وكُمِّمت أفواههم بحيث لا يستطيعون الكلام ولا الصياح، ثم اقتيد الجميع في عجلة إلى دوار العمدة الذي أوقظ في البكور، وحُجِز في غرفة من غرف دواره، ريثما يجتمع إليه مشايخ القرية الخمسة الذين جاء بهم العسكر من بيوتهم، فصُنِع بهم هناك ما صُنِع بالخفراء.

وكانت القرية كلها قد استيقظت مروَّعة، لأن صهيل الخيل وقعقعة السلاح والهمسات الوجلة التي أخذت تتدسس إلى كل بيت ودرب قد فزَّعت الناس وملأت قلوبهم رعبًا. ماذا؟ ماذا؟ إنها حملة لجمع السلاح!

حملة من مائتي جندي يقودها ضابط تعهد للسلطات بجمع السلاح من قرى المديرية جميعًا، واختار هذه الطريقة المروّعة ليبدأ بها عمله، فلم تعلم القرية ماذا يبغي، ولا حتى العمدة والمشايخ، إلا بعد أن صار المقبوض عليهم بالعشرات، ومن بينهم مشايخ البلد الخمسة، وكلهم مكتوفو الأيدي بالحبال، تتلقاهم الأيدي بالصفع، والأرجل بالركل، دون أن يعلموا شيئًا عن حقيقة ما يُراد بهم... سوى أن الحكومة هنا، والحكومة تصنع هذا وسواه... فالذين عاصروا الحكم التركي لا يزال بعضهم يعيش.

كانت السلطات قد أصدرت أمرًا عسكريًّا بجمع السلاح، وعهدت في تنفيذه إلى رجال الإدارة، وهؤلاء عهدوا بتنفيذه إلى عُمَد البلاد كالمعتاد، فاجتمع بذلك عدد من قطع الأسلحة كالذي يجتمع كلما صدر أمر من هذا النوع، وهو عادة لا يساوي إلا نسبة صغيرة من الموجود في أيدي القرويين.

ولكي ندرك حقيقة الحال، يجب أن نعلم أن السلاح في القرية يملكه فريقان؛

Readonly

الفريق الأول: هم **أصحاب الحقول والمواشي وخفراؤهم الخصوصيون الذين يسهرون على أموالهم من اللصوص**، والفريق الثاني: هم **هؤلاء اللصوص الكثيرون** الذين يجدون هذه الحرفة ـ على ما فيها من مخاطر ـ أضمن للعيش من العمل المرهق في الحقول.

ونَقْصُ السلاح في أيدي أصحاب الحقول والمواشي معناه زيادة في ارتكاب الجرائم، والاعتداء على بيوتهم وحقولهم ومواشيهم، أما نقص السلاح في أيدي اللصوص فمعناه تجريدهم من بعض وسائل الرزق التي اختاروها لأنفسهم في الحياة!

كلا الفريقين إذن حريص على اقتناء السلاح، **ولما كان العمدة يخشى أفراد الفريق الثاني تارة، وتتفق مصلحته الخاصة مع وجودهم تارة، فإن جمع السلاح في كل مرة كان ينصبُّ على الفريق الأول بكل تأكيد.**

ولكن الأمور لا تجري في القرية بالعنف، ولا حسب الأوامر الرسمية، إنما تجري حسب المواضعات العرفية، فالعمدة يعلم بالضبط كم قطعة من السلاح في كل بيت، وما نوع كل قطعة، فإذا طلبت الحكومة جمع السلاح اتفق مع بعض من يملكونه على تقديم القطع القديمة منه، ولكي لا تكون المسألة مكشوفة، فإن بعض القطع الحديثة تُزَيِّن المقدار المجموع، ويُوَرَّد للسلطات كآخر ما استطاع العمدة أن يحصل عليه.

وطبيعي أن هذا كله لا يتم بالمجان، فلكل شيء ثمن، ولكل خدمة مقابل في الريف، فإذا خطر للسلطات أن ترسل بقوة وعلى رأسها ضابط لتولي هذا العمل، فالمرجع هو العمدة وبإشارته يتم كل شيء، وغداءٌ فخمٌ على أوزي وبعض أزواج الديكة والدجاج والحمام كفيلٌ مع الوسائل الأخرى بتسوية كل شيء، وإتمام المحاضر على خير ما يرام!

Readonly

أما هذه الطريقة المبتكرة، فقد تفتَّقت عنها عبقرية ذلك الضابط، الذي تعهد للسلطات بجمع السلاح جمعًا حقيقيًّا من جميع قرى المديرية، فاتخذ هذا الأسلوب البارع المفاجئ الذي روعت له القرية كلها في جنح الظلام.

ونعود إلى هؤلاء المشايخ الخمسة الذين أديرت أيديهم إلى ظهورهم، أُلْصِقَتْ وجوههم بالحائط دون أن يعلموا شيئًا مما يُطلب إليهم من مهام الحكومة التي اعتادوا أن يتلقوها بين الحين والحين، كجمع أنفار السخرة لإصلاح الجسور، ولتنقية الدودة من المزارع الكبيرة، أو قتل الجراد فيها، دون أن ينالوا على ذلك أجرًا، لأن أجورهم ـ إن حُسِبَت لهم أجور ـ تذهب إلى جيوبٍ أخرى، وتؤخذ بصماتهم على أوراق لا يدرون ما هي، ثم ينصرفون وبحسبهم أنهم قد انصرفوا ناجين، بعد أن يكونوا قد كُلِّفوا استحضار طعامهم من بيوتهم طوال مدة السخرة التي تنقص أو تزيد!

لم يفصح لهم أحد عن هذه المهمة المطلوبة منهم في هذه المرة، ولكن أفصحت لهم السياط التي أخذت تلهب ظهورهم من أيدي الجنود، عن أن اليوم ليس كالأيام، وإنما هو العذاب الأليم الذي لا يملكون له ردًّا وهم مسجونون!

ثم أخذ الرصاص يدوي فوق رؤوسهم هم والخفراء المُوثقون، والأهالي الذين اصطيدوا من مشارف القرية ومن طرقاتها حسبما اتفق حتى امتلأ بهم فناء الدوار!

هذا الرصاص للإرهاب، وبلبلة الأفكار، وإتلاف الأعصاب، وبينما هذا الفزع الأكبر يُخيِّم عليهم، ويكاد يُفقدهم صوابهم، أُمِر كلٌّ من المشايخ أن يُملي على الشاويشية أسماء مائتي رأس أسرة ممن يملكون سلاحًا في البلدة، وأن يُعَيِّن نوع قطع السلاح التي يملكونها!

Readonly

وإذا كان قد بقي فيهم إلى الآن عقلٌ أو ذاكرة، فقد أخذ كل منهم يُملي الأسماء، وكلما توقف برهة ليتذكر، نزلت السياط على ظهره وجنبيه، فارتفعت حرارة العدّ، ومضى كالمجنون يُملي الأسماء!

وانتهت العملية فإذا في يد كل جاويش بيانٌ عن مائتي عائلة تحمل سلاحًا، وأمام كل اسم نوع القطع التي يملكها رأس هذه العائلة.

ولسنا في حاجة إلى أن نقول: كيف كانت هذه البيانات، ولا مدى مطابقتها للواقع، فالشيخ المصلوب المجلود المهدد بالموت من الرصاص المتطاير فوق رأسه، لا يُطلب إليه في هذه الحال أن يتحرى شيئًا، ولكننا **نستطيع أن نؤكد أن أحدًا من كبار الأشقياء المرهوبين لم يرد اسمه في هذه القائمة، وإذا كانت بعض الأسماء قد وردت فإنما هي لصغار الأشقياء الذين لا عصبية لهم في البلد ولا نفوذ!**

وانتهت هذه المرحلة ووقف المشايخ الخمسة يلهثون من التعب والفزع والألم، أما العمدة فقد اشترى نفسه وكرامته من أول الأمر، لقد كان حصيفًا، رأى العين الحمراء، فسارع إلى وسيل مضمونة لإرضاء الحكام، هَدَتْه إليها تجربة طويلة وذكاء عملي ومقدرة على جميع الوسائل والاتجاهات!

ثم بدأت المرحلة الثانية، فانطلق الخفراء مع الجنود وهو مكتوفو الأيدي، يجوسون معهم خلال القرية ليدلوهم على البيوت، وليدقوا الأبواب يطلبون رؤوس العائلات، ويصروا على استحضار أكبرهم سنًّا، وكلما استحضروا منهم جماعة ذهبوا بهم إلى الدوار... وهناك يُصنع بهؤلاء ما صُنِع من قبلُ بالمشايخ والخفراء قبل أن يُسْأَلوا شيئًا وقبل أن يجيبوا، حتى إذا أُشْبِعوا ضربًا وترويعًا وإهانة صُرِّح لهم عما يُطلب منهم من قطع السلاح حسب البيانات. فأما إذا صادف أن كانت القطع المطلوبة من أحدهم مطابقة لما عنده فقد أحسّ بالفرج وبادر بالإقرار

Readonly

وطُلب أن يسمح له بإحضارها، ولكنه لم يُجَب إلى طلبه، إنما يُستدعى أحد أبنائه أو أحد أفراد عائلته، فيشاهده هكذا، ثم يلقى هو الآخر بعض الصفعات واللكمات، ثم يتلقى الأمر منه أن يستحضر قطع السلاح المطلوبة، فيخرج ركضًا لاستحضارها، حتى إذا تمَّت معاينتها وظهرت مطابقتها للبيانات المكتوبة أُفرج عن الرجل وابنه أو قريبة، فخرجا لا يدريان النور من الظلام لشدة ما لَقِيا من اللكم والصفع، ومن الفزع والروع، وانصرف أهله لعلاج جروحه وكدماته بالزيوت والمُسَكِّنات!

وأما إذا صادف أن اختلفت البيانات عما عنده من السلاح، أو لم يكن لديهم سلاح أصلًا، فالويل له والثبور، يُعاد جلده ولكمه وصفعه ما دام يُنكر، أو يقرّ بسلاح آخر غير السلاح المطلوب، وفي الحالة الأخيرة كان يُحْضَر السلاح الذي يملكه، ثم يظل يُطالب بقطع السلاح الأخرى التي أملاها الشيخ وهو في ذهول الروع والآلام!

عندئذ يضطر المسكين أن يعترف بما ليس عنده، وأن يطلب مهلة لإحضاره من مكمنه البعيد، وفي هذه المهلة ينطلق أبناؤه وأقاربه يبحثون عن قطعة سلاح مطابقة للبيانات، لشرائها حيث تكون، فإن لم يجدوها في القرية ركبوا أسرع دوابهم للبحث عنها في القرى المجاورة، فيسمح لهم الحراس بالخروج بحجة أنهم ذاهبون لاستحضار سلاحهم المودع عند أقاربهم في هذه البلاد، اطمئنانًا إلى أن رأس الأسرة رهين لدى القوة، وعذابه مرهون بالوقت الذي يقضونه غائبين.

وعندما يُوفَّقون إلى القطعة المطلوبة يؤدون الثمن الذي يطلبه صاحبها مهما ارتفع. وكثيرون انتهزوا هذه الفرصة فبالغوا في أثمان القطع المطلوبة، كما أن الكثيرين أيضًا ظهرت أريحيتهم في إنقاذ المكروبين بأرخص الأسعار.

عندئذ يبتسم الضابط العبقري وهو يشاهد قطع السلاح المطلوبة تُحضَر بعد

Readonly

الإنكار، ويردُّ ذلك إلى عبقريته الفذة التي أرشدته إلى اختيار أقوم طريق!

في نهاية اليوم كانت الأسلحة المجموعة تُصَنَّف أكوامًا أكوامًا، فهذه بنادق، وهذه غدارات، وهذه مسدسات، وهذه طبنجات، وهذه سيوف، وهذه سكاكين كبيرة، وهذه بلط، وهذه مزاريق، وكل «ماركة» من هذه الأنواع مرتبة وحدها، والضابط العظيم ينظر مرتاحًا منتفشًا كالديك إلى انتصاره الكاسح على أولئك القرويين الملاعين...

وكان في كل بيت من بيوت القرية مناحة صامتة، فهذا مشجوج الرأس، وذلك مرضوض الأضلاع، وذلك ملتهب الجلد، وهذا ممزق الأشداق، وكان نسوة وأطفال القرية يغدون ويروحون بالزيوت وكمادات الماء الساخن والبارد يسعفون بها المصابين.

وكان كثيرون من أهل القرية قد باعوا مواشيهم وطعام أطفالهم وحلي نسائهم ليشتروا بها قطع السلاح التي قيل إنها عندهم، وهم لم يحملوا في حياتهم سلاحًا. لقد كان هؤلاء هم جماعة الفقراء الذين أكمل المشايخ بهم العدد، وهم في مأمن من ردّ الجميل، إذ لا قوة لهم كالأشقياء، ولا جاه لهم كالأثرياء.

ويمرّ على هذه الحادثة أكثر من ربع قرن! والطفل لا يزال يذكرها كأنها حادث الأمس القريب، لقد فزع للهول كما فزع كل طفل وكل رجل وكل امرأة. وفي أثناء هذه السنوات يسمع أن هذا الضابط الوحش قد رُقّي فصار في وقت من الأوقات وكيلًا لمدير الأمن العام، اعترافًا بكفايته في صون الأمن وحفظ النظام، فيكمن في نفسه شعور بالأسى الدفين.

ثم يسمع إشاعات بعد ذلك أنه لاقى حتفه وهو يزاول شناعة من هذه الشناعات، فيحس أن كابوسًا ثقيلًا قد رُفِع عن صدره، وتنفس الصعداء».

Readonly

انتهى الاقتباس من مذكرات الشهيد سيد قطب... وبقي أن نُعَلِّق عليه بما هو مقصود المقال، فنقول وبالله التوفيق:

١ ـ أما الطغيان والجبروت والإجرام في السلطة المصرية فهو حديث طويل، وليس هو المقصود بالكلام هنا، ولكنه إجرام متأصل قديم، وحتى إشارة سيد قطب إلى «الحكم التركي» الذي لا زال يعيش بعض من أدركوه، فإنما المقصود به حكم أسرة محمد علي وليس الحكم العثماني، فقد انخلعت مصر من الحكم العثماني منذ ١٨٠٥ مع تولي محمد علي للسلطة، وهذا الهجوم الذي تنفذه السلطة على الناس إنما هو أسلوب محمد علي في جمع المصريين للتجنيد الإجباري، ويمكن العودة في تفاصيل هذه المآسي لكتاب «كل رجال الباشا» (ص١٤٥ وما بعدها)، ومن وقتها صار الشعب المصري كالعبيد لدى السلطة، حتى إن الرحالة الإنجليزي ريتشارد بيرتون ـ الذي زار مصر في منتصف القرن التاسع عشر ـ يتحدث عن تقليد مستقر في ضرب المصري بالقفا إذا دخل قسم الشرطة. (رحلة بيرتون، ١/ ٩، ١٠٥).

إن الشعب قد صار مجموعة من العبيد بإمكان ضابط الشرطة أن يستبيحه كيفما شاء، أي أن العيش في مصر مرهون بمزاج ضابط الشرطة غالبًا، فإذا خطرت له فكرة في إطار صلاحياته فبإمكانه أن ينفذها بما يحيل حياة الناس جحيمًا دون أن يبالي.

وبينما كانت تحتفظ القرى بنوع من الأعراف وحفظ المقامات واحترام الكبير، فإن السلطة لا تفهم هذا كله، إن حضور السلطة إلى القرية يعني انهيار كل القيم والأعراف والتقاليد، لتبرز الحقيقة الوحيدة: السيد والعبيد، وللسيد أن يفعل ما شاء بمن شاء كيفما شاء! لا معقب ولا رقيب.

Readonly

ليس هذا فحسب، بل إن كفاءة الضابط تقاس بما يُحدثه من الترويع، ومن تحقيق علاقة السيد بالعبيد، فقد وصل إلى أن صار مديرًا للأمن العام، ولم يلق جزاءه العادل إلا على يد مواطن «خارج عن القانون»!!.

٢ ـ وأما اللافت للنظر والمثير للغيظ معًا أن هذه السلطة المتوحشة لا تقيم الأمن، ولا تقضي على اللصوص، بحيث يضطر الناس إلى التسلح لحماية أنفسهم وأموالهم، ولكن الحكومة تمنع حيازة السلاح تحت مبرر أنها الجهة التي تحتكر السلاح وتتكفل بحفظ الأمن وإقامة العدل. فكأنها تمنع عنك حيازة الماء لأنها تتكفل لك بإروائك من العطش ومع ذلك فإنها لا تفعل، فإذا حاولت أن تشرب فأنت مهدد بالعقاب!

لن نخوض الآن في حق حمل السلاح الذي هو حق أصيل للبشر منذ وُجِدوا على هذه الأرض، ولم يكن معرضًا للنقاش إلا في عصر الحداثة هذا، مع أن بلاد الحداثة الآن تسمح بحمل السلاح وتتساهل في الترخيص به، إلا بلادنا، التي يُراد لشعوبها أن تعيش كالفراخ والدجاج تنتظر دورها على يد الجزّار. ولذلك كان التجريد من السلاح في مقدمة القرارات التي أصدرتها سلطات الاحتلال والتغريب منذ نابليون وحتى الآن.

لكن الذي يجب الخوض فيه والتركيز عليه، هو هذا الفارق بين الفريقيْن المسلحيْن في القرية، فثمة فريق يحمي السلاح ليدافع عن نفسه، وثمة فريق يحمل السلاح ليُهاجِم به فيسرق وينهب. أما الفريق الأول فهو خارج عن «القانون» في مسألة حمل السلاح وحدها، وأما ما سوى ذلك فهو مواطن صالح ملتزم بشروط السلطة: يؤدي الضرائب، يعمل بالسخرة، يتحاكم إلى المحاكم ...إلخ! وأما الفريق الثاني فهو خارج عن «القانون» دائمًا، حياته هي نفسها الخروج على «القانون»...

Readonly

فماذا كان المصير؟!

كان المصير أن هؤلاء الخارجين عن القانون هم الذين كانوا بمنأى عن السلطة، هم الذين كانت لهم من القوة والهيبة ما منع مشايخ البلد أن يُبْلِغوا عنهم حتى وهم في العذاب، لقد فضَّل مشايخ البلد أن يكتبوا أسماء الفقراء والتعساء ومن لم يحمل سلاحًا قط ليُكملوا به العدد ولا أن يقتربوا من فئة اللصوص المسلحين...

وهكذا، لم يدفع الثمن إلا المواطنون الصالحون الملتزمون بالقانون، بل ودفعه أولئك الضعفاء الذين لم يحملوا سلاحًا أصلًا لأنه ليست لديهم أموال يحرسونها أو ليست لديهم أموال يشترون بها سلاحًا، بينما نجا من هذا المصير أولئك الذين مزَّقوا القانون وخرقوه ووضعوه تحت أقدامهم وعاشوا حياتهم لا يعترفون به ولا يقيمون له وزنًا.

وهذا الوضع مستقر مستمر حتى يومنا هذا، فالسلطة في بلادنا تتحالف مع اللصوص والبلطجية ومنظمات الإجرام وتجار السلاح والمخدرات والأعضاء البشرية والآثار، وبينهما تحالفات وصفقات وخدمات متبادلة، بينما لا يُطبَّق القانون إلا على «المواطن الصالح»، فهذا المواطن الصالح يعاني من البلطجي واللص والمجرم ثم لا يجد طريقًا إلا أن يشتكي للشرطة، وعند الشرطة يعاني مرة أخرى، بحسب ما يجده من الظروف وما يكون من مزاج الضابط الذي سيتولى أمره.

في هذه الحال، يجب أن يسأل المرء نفسه: هل من المفيد أن تكون هذا «المواطن الصالح»؟.

٣ ـ وقعت هذه القصة في قرية موشا المنزوية في بلاد الصعيد، ولكنها تعبير حقيقي ممتاز عن السياسة الدولية، القوة الدولية التي تمثل السلطة العليا يمكنها

Readonly

أن تستبيح ما تشاء من العبيد بفارق القوة التي تملكها، وحتى السلطة المحلية التي تخدمها وتوفر عليها الوقت والجهد، يمكن أن يعنّ لها في بعض الأحيان أن تتجاوزها وتتدخل بنفسها لتنفذ ما تراه في صالحها.

إن عمدة القرية لم يكن متمردًا، ولا مشايخ البلد، بل هم ممثلوا السلطة العليا، هم الذين يديرون لها الأموال والثروة ويجمعون لها الضرائب والعاملين بالسخرة، ولكنهم يحتاجون في سبيل هذا لبعض المهارة والحكمة التي تفرضها الأعراف التي جعلتهم في موضع السلطة فيراعونها. السلطة القوية الغاشمة لا تعترف بهذا كله حين تريد. مثلما لا يتردد الضابط وجنوده في حبس العمدة ومشايخ البلد وإهانتهم، لا يتردد ترمب في إهانة وإذلال عملائه في السعودية ومصر رغم أنهم لم يفكروا في التمرد عليه، فهو ينهب بالمليارات ويفرض العقوبات ويهدد ويسخر، والعبيد يواصلون الخدمة ولا يفكرون في التمرد!

وحدهم الذين تسلحوا بأنفسهم، وغامروا بها، وخاطروا، وصاروا لا يبكون على شيء... وحدهم الذين ينجون من الإهانة والإذلال... فإما عاشوا كما أرادوا، وإما ماتوا موتًا سريعًا لا إهانة فيه ولا إذلال. وحدهم أولئك الذين استطاعوا الانتقام من الضابط الوحش الذي صار بوحشيته وكيلًا لمدير الأمن العام!

***

Readonly

Readonly

في طريق استعادة النظام الإسلامي من جديد

حمل حديثنا في الفصل السابق عن المحنة المعاصرة للنظام الإسلامي، حَمَل في طياته حديثًا مهمًّا عن الحل أيضًا، ولكن هذه المقالات ـ المتفرقة زمانًا ومكانًا ـ كانت تهتم بالتركيز على هذا الحل بالمقام الأول، فهي تفسير لما أُجْمِل من قبل، ونشر لما كان منطويًا في حديث المحنة، إذ هي تتوقف عند سؤال الغاية من سعينا، وماذا يكون أولًا: الحرية أو الشريعة؟ وما هي العوائق الأساسية التي تحول دون تحرر تفكيرنا؟ ثم لو تصورنا أن ثمة خليفة لهذه الأمة أو ثمة من يضع نفسه موضع التخطيط لها فكيف يبدأ ومن أين؟ وكيف نفسر النقص الشامل في كل أبواب العمل بينما أكثر الأسئلة التي تُطرح علي أي متحدث هو سؤال: ما العمل؟ وأي نوع من الرجال نحن في حاجة إليه (وهنا سنضرب المثل برجل مشهور في تاريخنا متعدد المواهب فريدها)، ثم نعرج على تحدي الجهاد العلمي، ونتوقف بعدها عن لحظة وباء كورونا باعتباره جائحة شاملة، وكيف قد يكون فرصة ممتازة لتحقيق خطوات مهمة في مسار تقوية الأمة.

نرى هذا كله عبر هذه العناوين:

ـ الحرية أولًا أم الشريعة؟

ـ العوائق الأربعة أمام عقل التحرر والمقاومة

ـ ملامح خطة عامة للأمة الإسلامية

Readonly

ـ ثغور فارغة وجيوش من العاطلين

ـ عبد الله عامر، المؤرخ النسابة رجل المخابرات والأعمال

ـ الجهاد العلمي

ـ وكم في «كورونا» من فوائد وعظات؟

ـ هل تستطيع الأمة أن تستفيد من «كورونا»؟

ـ حاجة السياسة التركية إلى الهوية الإسلامية

* * *

Readonly

الحرية أولًا أم الشريعة؟

نشر في «مدونات الجزيرة»

إبريل ٢٠١٨

في عقد التسعينات والعقد الأول من الألفية الجديد شهدت الساحة الفكرية هذا السؤال الذي يُطرح على الإسلاميين: أيهما تريدون أولًا، الحرية أم الشريعة؟

طرْح السؤال في البيئة العلمية الفكرية شيء، وطرحه في البيئة السياسية شيء آخر. فالبيئة العلمية الفكرية أقرب إلى المعمل الذي تُجرى فيه التجارب تحت ظروف خاصة ومجهزة بحيث يمكن رصد النتيجة بأعلى قدر من الدقة، فهو بحث موضوعي نظري. أما طرحه في البيئة السياسية فهو محاكمة مُبطَّنة، يجلس فيها القوي المسيطر موقع الخصم والحكم ويجلس فيها الضعيف في موقع المتهم، ويُطرح السؤال على صيغة: هل أنت من المؤيدين لحكمي الرشيد؟ أم أنك لا قدر الله من المعارضين؟! وهنا يتبارى المتهمون المستضعفون في تقديم إجابة توازن بين موقعهم الحقيقي من خريطة القوى وبين ما يؤمنون به من أفكار.

هذا السؤال: الحرية أولًا أم الشريعة؟ هو سؤال الثقافة الغالبة على الثقافة المغلوبة. سؤال ثقافة الليبرالية التي هي إنتاج الحضارة الغربية على المعتنقين للثقافة الإسلامية المغلوبة.

وقد أجاب الإسلاميون على هذا السؤال بطيف واسع من الإجابات، فقال بعضهم: الديمقراطية كفر والشريعة أولًا. وقال بعضهم: الديمقراطية هي جوهر الإسلام ومقصوده والحرية أولًا... وبين الإجابتين درجات كثيرة من إجابات تحاول إنتاج توازن بين مناطق التناقض والتعارض بين الحرية ـ كما تطرحها

Readonly

الليبرالية ـ والشريعة، ويجري تلوين كثير ومناورات كثيرة، فمنها ما يحاول إعادة تعريف الحرية في صورة تنسجم مع الإسلام، ومنها ما يحاول إعادة تعريف الشريعة في صورة تنسجم مع الليبرالية، وبينهما أطياف كذلك.

المهم المقصود من كلامنا الآن أن فريقًا عريضًا من الإسلاميين أجاب على السؤال بقوله: الحرية أولًا. حتى لو كانت حرية علمانية ليبرالية كالتي نراها في المجتمعات الغربية، فإن الإسلام سينتشر في البيئة التي تتنفس الحرية، ويكفينا أن يتمتع الدعاة بحرية الدعوة وستعمل جاذبية الإسلام بنفسها وبمجهود الدعاة على أن تستثمر مناخ الحرية لنصل في النهاية إلى: الشريعة.

لقد اعتنقتُ لبضعة أعوام هذه الإجابة... وإليك قصة نبذي لها وتخلصي منها، بل واعتباري إياها خرافة جاءت من خلط وتلبيس سأقصه عليك.

لم يكن السؤال المطروح على الإسلاميين سؤالًا فكريًا قادمًا من البيئة العلمية، بل كان سؤالًا مطروحًا في البيئة السياسية، وهو لم يُطرح أصالة على الفقهاء والمفكرين بل طُرِح على الحركيين، وحتى من تدخلوا فأجابوا من الفقهاء والمفكرين لم تكن إجابتهم حكمًا شرعيًا بل كانت فتوى محكومة بظروف الزمان والمكان والحال.

كان سؤال الحرية والشريعة في وقته وظروفه معناه ببساطة: هل تقبلون يا معشر الإسلاميين بحاكم علماني ليبرالي على النمط الغربي بديلًا عن المستبدين الذين يحكمونكم الآن؟ أم أن البديل الوحيد المقبول عندكم هو حاكم إسلامي يطبق الشريعة؟!

وحيث لم يكن للإسلاميين قوة ولا قدرة على نصب حاكم يطبق الشريعة،

Readonly

فقد قبلوا بصورة الحاكم العلماني الليبرالي الذي سيطلق الحريات العامة كمرحلة يثقون أنها ستوفر لهم الفرصة لنشر الدعوة وجذب الجماهير فينتقلون بعدها إلى المرحلة المنشودة: مرحلة الشريعة! الشريعة كثمرة من ثمرات الحرية واختيار الناس الحر النزيه.

فما المشكلة في هذا التصور؟

المشكلة بقدر ما هي بسيطة، بقدر ما هي فارقة وجوهرية وأصيلة... المشكلة ببساطة هي في تَوَهُّم أن ثمة من قد يمنحك الفرصة للاختيار بين الحرية والشريعة!

سؤال الحرية والشريعة يمكن أن يستفيض الفقهاء والمفكرون في الكتابة عنه وبحثه، على مستوى النظر. أما على مستوى الواقع فإن الذي يملك القدرة على الحكم لا يُعطي خيارات لأحد! فالجهة التي تملك أن تخيرك بين نظامين هي الجهة التي تستطيع أن تفرض أحدهما، ولماذا تُقدم الخيار للضعيف إن كانت قادرة على إنفاذ خيارها المفضل لديها؟!

أي أن الإسلاميين، وأي مستضعف في أي مكان في العالم، لن يستطيع أن يختار لأنه ـ وبكل بساطة ـ لن يتمتع بوجود فرصة اختيار، من يملك أن يختار هو من يملك أن يفرض، فالقادر على الحرب هو من يحصل على السلام، ومن يملك القوة على الأرض هو من يملك قراره على مائدة المفاوضات... بغير وجود القدرة على الاختيار تنعدم فرصة الاختيار نفسها.

ببساطة مخلة: يستطيع الإنسان أن يختار بين الطب والهندسة إن كان مجموعه بالأصل يُمَكِّنه من دخول هذه أو تلك، أما صاحب المجموع الضعيف فلا يملك الاختيار... وبصورة أكثر واقعية: لا يملك الضعيف أن يختار بين شيئين لا يستطيع

Readonly

فرض أحدهما أو انتزاعه، وإنما يملك صاحب القوة أن يفرض ما يشاء بالقدر الذي تسمح له به قوته وقدرته.

لهذا فمهما تنازل المرء عن أفكاره وراوغ فيها وقدم المراجعات الفكرية فلن يمنحه أحد شيئًا لا يستطيع انتزاعه بنفسه، ولعله لا يوجد من قدم تنازلات فكرية حاول بها حشر الإسلام في قالب الحداثة والحضارة الغربية مثلما فعل راشد الغنوشي بإخلاص مثير للشفقة والسخرية، ومع هذا لم يحصل على شيء في واقع السياسة، بل اضطر إلى تسليم الحكم بنفسه إلى النظام القديم الذي قامت ضده ثورة جاءت بالغنوشي نفسه إلى الحكم!

التنازلات الفكرية لم تؤد إلى مكاسب سياسية! لأن التنازلات الفكرية مهما عظمت لا تغير من موازين القوى في الواقع. والعكس صحيح أيضًا: فلا السبسي ولا السيسي ولا حفتر ولا بشار قدموا رؤى فكرية عظيمة أو اقتربوا فكريًا من الحداثة الغربية فكان ذلك سبب مكاسبهم السياسية، إنما حملتهم إلى مواقعهم خرائط القوى السياسية والعسكرية والمالية.

ولهذا تبدو سخافة الدعوات المتكررة إلى تقديم مراجعات فكرية ورؤى جديدة ونقد التراث وتجديد الأصول وإعادة النظر في مناهج التفكير... و... و...إلخ! فكل ذلك يتغافل عن حقيقة أن الفكرة المجردة لم تحق حقًّا ولم تبطل باطلًا، ولقد كان الأنبياء يُقْتلون ويُذبحون وهم يملكون الحق المطلق وهم خير البشر قاطبة، فيقتلهم ويبقى في الحكم شرار الناس وأراذلهم.

الوعي المطلوب والمراجعات المطلوبة هي التي تحاول فهم سنن الكون والبشر وطبيعة السياسة والاجتماع لنبصر بها أين أخطأنا وكيف نمتلك القوة وكيف

Readonly

نستعملها برشد وحكمة ونحوطها بقوة سياسية واقتصادية وإعلامية، لنغالب بها الذين قهرونا واحتلونا وأكلوا لحومنا وشربوا دماءنا وهرسوا أطفالنا وأذلوا بناتنا... الوعي المطلوب هو وعي السنن، وليس تقديم التنازلات من ديننا على مذبح الحداثة الغربية لننال منها بعض الرضا ثم نأمل في أن تنعم على بلادنا بحرية كالتي عندهم!

وليت شعري، كيف يتوهم عاقل أن يمنح العدوُّ عدوَّه أداة استقلاله وتحرره؟! كأن الغرب صار يوزع حرية وإنسانية في السوق العالمي للأعمال الخيرية!! والعجيب أن القائل بهذا هو الذي منذ وُلِد لم ير من الغرب في بلادنا إلا كل شر وجريمة!

كنت أظن أن الله أنعم على هذه الأمة بحفظ كتابه من التحريف والتبديل على يد الأمم الأخرى، ولكني أعرف حق المعرفة أن نعمة الله العظمى كانت بأنه حفظ كتابه من التحريف والتبديل الذي سيرتكبه المنهزمون نفسيًّا من هذه الأمة نفسها، فإن أولئك هم أقرب الناس وأجدرهم بارتكاب هذا... وأبرز دليل على هذا أن التوراة والإنجيل حرفهما اليهود والنصارى بأنفسهم لا أعداؤهم من الوثنيين أو عباد النار أو عباد البقر! ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩]. [راجع مقال: القرآن المحفوظ دليل المقاومة]

ولأن القرآن محفوظ، والسنة محفوظة، وقد تَكَوَّن حولهما تراث إسلامي ضخم وعريق، فإن محاولات تقديم تنازلات فكرية ترضي الحداثة الغربية وموازين القوى تثير من المشكلات داخل البيئة الإسلامية، فما هو إلا أن يتحول المجدد من سياسي يرى في نفسه الدهاء والمناورة إلى متهم لدى الجميع، فالغربيون يريدون منه مزيدًا من الأدلة على أنه معتدل يتخلى عن العنف وله موقف صلب من المتطرفين، والمسلمون من ناحية أخرى يرونه منفلتًا ضائعًا منحرفًا... فما هو إلا

Readonly

أن يتحول من سياسي يدير معركة سياسية مع النظم المستبدة ومراكز التأثير الغربية إلى مفكر إصلاحي يدير معركته مع المسلمين وشيوخهم وتاريخهم وتراثهم!! فلا انتصر في سياسة ولا بقي له الدين!

الخلاصة:

لم يكن الحل أن نختار بين أيهما أولًا: الحرية أم الشريعة. الحل أن نملك القدرة على الاختيار أصلًا، وحين نملك هذه القدرة سننتزع ما نريد بقوة الإمكانية والقدرة لا لأن أحدًا سيُنعم علينا بإعطائنا ما نريد.

سؤال الحرية والشريعة مجرد سؤال نظري، يمكن الثرثرة حوله طويلًا... لكن سؤال الواقع هو: ما الذي يجبرني على الدخول معك في تفاهمات أصلًا؟

***

Readonly

العوائق الأربعة أمام عقل التحرر والمقاومة

نشر في مجلة «كلمة حق»

سبتمبر ٢٠١٨

نحن في صراع مع النظام العالمي الذي بناه الغرب، وهذا النظام أنتج أفكاره وقيمه ومعاييره وجعلها ثقافة عالمية غالبة، يرسخ لها بسلاحه ونفوذه السياسي كما يرسخ لها بقوته الإعلامية والفكرية، وبقدر ما تترسخ أفكاره بقدر ما يترسخ نفوذه وسلاحه، وبقدر ما يترسخ نفوذه وسلاحه بقدر ما تنتشر وتهيمن أفكاره.

والمحنة التي يعانيها الفكر الإسلامي منذ مئتي سنة (التي هي عمر التفوق الغربي وهيمنته على بلادنا) هي محنته مع هذه الثقافة الغربية الغالبة، وانقسام المدارس الفكرية الإسلامية هو في الواقع انقسامها في استجابتها لهذا التحدي، فهناك من سعى للتوفيق والمصالحة وهناك من سعى للرفض والمواجهة، وفي كلٍّ درجات ومنازل وأطياف من الثبات ومن الانحراف.

وإن أمر التحرر والمقاومة هو من صميم هذه المحنة العاتية... فإن أقصى ما تريده الثقافة الغربية الغالبة أن يعتنقها أولئك المهزومون الضعفاء ليكونوا من أبنائها (أو بالأحرى: عبيدها)، ومن ثم فلن يفكروا في المقاومة أصلًا بل سيعتبرون لحظة احتلالهم هي لحظة الفتح الغربي لبلادهم! كذلك فإن أقصى ما تريده الثقافة الإسلامية أن تعود الأمة إلى دينها الصافي الأول كما نزل على نبيها دون شوائب ودون تأثر بالمكونات الأجنبية الدخيلة التي جاءت من عصور التخلف والاحتلال...

لهذا كله فإن المقاومة والتحرر والثورة هي في النهاية علامة على مدى نجاح

Readonly

المعركة بين الثقافتين والحضارتين: الغالبة والمغلوبة، فما دامت الأمة تقاوم وتسعى للتحرر فهي لا تزال وفية لنفسها ودينها وتاريخها، أما حيث فقدت روح المقاومة والتحرر فإنها تعبر عن مرحلة احتضار مفزعة.

لكن الأمر ليس دائمًا بهذا الوضوح، ليس المشهد منقسمًا بين متغربين يمارسون الدعوة للحضارة الغربية وإسلاميين يمارسون الكفاح والمقاومة والتحرر، لقد وُلِد من رحم المدرسة الفكرية التي سعت للإصلاح وبفعل أزمنة الاستضعاف ظواهر من دعاة ومفكرين ونخبة محسوبة على المدرسة الإسلامية لكنها تعتنق أصول الحضارة الغربية، بل وتمارس ما ترى أنه «تجديد» في الفقه والتراث الإسلامي، وهي في صف الثورات عمومًا، وفي صف المعارضة للأنظمة الحاكمة، لكن البديل الذي تدعو إليه والمجتمع الذي تنشده هو صورة من البديل والمجتمع والنظام الغربي.

أولئك لا يرون مشكلة أمتنا في الاستضعاف والاحتلال وحكم العملاء بقدر ما يرونها في تراثنا الفقهي ومسيرتنا التاريخية وإنتاجنا الحضاري، وأشد ما يزعجهم ويسيطر على كتابتهم هي المسائل التي تمثل تناقضًا بين الحضارتين كقضايا المرأة وأحكام الجهاد وأحكام أهل الذمة والحدود (وبالذات: حد الردة وحد الرجم)، ويرون أن أصل المشكلات إنما هي ما فعله معاوية، وبعضهم يمدها إلى الحسن بن علي باعتباره أول من تخلى عن الشرعية السياسية تحت وطأة الضرورة (رغم أن النبي ﷺ مدح فعل الحسن!!)، وبعضهم يمدها إلى سقيفة بني ساعدة، وبعضهم انصب تجديده على الأصول يحاول تفكيك المناهج الإسلامية المستقرة التي اجتمع عليها العلماء في الاستنباط والتعامل مع النصوص، وبعضهم يجدد اللغة

Readonly

لتفكيك معاني ومفاهيم المصطلحات القرآنية والنبوية المستقرة ليُخرجها من دلالاتها التي استقر عليها فهم المسلمين وبُنيت عليها الأحكام، وبعضهم يحاول التفلت برفع راية المقاصد التي لا تستنبط من الأحكام بل تهدر الأحكام وتخرقها، فكأن المقاصد فوق الأحكام وليست ثمرة لها!

النقاش مع هؤلاء يطول في المجال الفكري، لأن لهم آثارًا فكرية مريعة ومدمرة، وقد ذكرنا في مقال سابق كيف أن مهمتهم فاشلة، إلا أن الذي يهمنا الآن هو آثارهم المدمرة في باب المقاومة والتحرر والكفاح الذي تخوضه الأمة.

أولئك يجمع بينهم القول بأن الأمة ضلت في باب السياسة منذ معاوية أو منذ الحسن أو حتى منذ أبي بكر، وهم بهذا لا تفصلهم عن العلمانيين المتغربين سوى خطوة فكرية واحدة، كما لا تفصلهم عن الشيعة سوى نصف خطوة، فالعلمانيون يقولون ليس في الإسلام نظام سياسي. وهؤلاء يقولون فيه نظام سياسي لكن لم يُطبَّق أبدًا أو لم يُطبَّق سوى خمس عشرة سنة! والشيعة يقولون: كفر الصحابة وغيروا وبدلوا. وأولئك يقولون: لم يكفروا ولكن غيروا وبدلوا وانتصرت عليهم شهوات النفس ومطامع الدنيا... كذلك يجمع بينهم التعامل مع الديمقراطية والمنتج السياسي الغربي باعتباره أرقى ما توصلت إليه البشرية في تطورها، فهو إن لم يكن الحكمة التي علينا طلبها من أي أحد فهي على الأقل الحكمة التي فاتت صحابتنا وفقهاءنا وتراثنا وفارقت تاريخنا منذ بدأ وحتى الآن!!

وهذه النتيجة أفتك ما يصيب روح أمة وهي في مرحلة التحرر والكفاح والمقاومة، فليس يكافح إلا الذي ينطلق من إيمان جازم بأنه على حق وأنه يملك البديل الأحق لهذا الظلم الذي انطلق يواجهه، وحيث ليس لدينا نظام سياسي فإن

Readonly

غاية ما نفعله حتى لو انتصرنا أن نطبق النظام الغربي ونستورده. أي أن هذه المدرسة (وهي بالمناسبة أكثر المدارس «الإسلامية» تمتعًا بالأموال والشهرة الإعلامية الآن) تضرب عقيدة المقاتل وثقته بنفسه ورؤيته لنفسه بأنه من خير أمة، ثم تأخذ به ليتلقى الدروس في مصانع الحكمة الغربية التي يواجهها!

والمشكلة أن بعضًا من حركات التحرر والمقاومة تتأثر بإنتاج هذه المدرسة لما ترى من رموزها من المواقف الثورية والمعارضة للواقع الحاضر، وإني أشهد فيما أراه على الانترنت وفيما أراه من الواقع كثيرًا من الطاقات التي تعطلت، وبعضهم وصل الحال به إلى أن ارتد أو ألحد أو تشكك، وكان في يوم ما من الطاقات الثائرة الباسلة التي كادت تفقد حياتها في مواطن ثورية. كذلك أشهد خطابات لجهات وكيانات محسوبة على الثورات قد فقدت روحها الإسلامية الثائرة والمعتزة وصارت تميل إلى اللغة السياسية التي تكثر فيها الاستدراكات والاحترازات.

وهذا ما يجعل الأمانة ثقيلة ثقيلة ثقيلة على من وهبهم الله شيئًا في باب التفكير والتنظير ونشر الوعي لترشيد المقاومة، وفي محاولة مني لوضع خطة أمام هؤلاء الذين تحملوا هذه الأمانة للقيام بها في باب التحرر والمقاومة وجدت أن الأمر يتلخص في أربعة عوائق رئيسية:

الأولى: معرفة حكم الإسلام في المسألة مع التخلص التام من ضغط الواقع وسطوة الثقافة الغالبة.

الثانية: معرفة موقع هذا الحكم من المنظومة العامة للإسلام، وكيف سار تطبيقه في التاريخ الإسلامي، والمراحل التي مرَّ بها.

الثالثة: معرفة رؤية الحضارة الغربية لهذه المسألة نفسها في كتابات المنظرين

Readonly

والمفكرين والفلاسفة، وموقعها ضمن المنظومة الفكرية الغربية العامة.

الرابعة: معرفة التطبيق الغربي لهذه الفكرة في الواقع العملي، وهل جرى تطبيقها في نفس السياق الذي أراده الفلاسفة والمفكرون حين أنتجوها أم أن الفكرة المبهرة التي صيغت في الكتب لم يكن لها مجال واقعي، وظلت كاللعبة يُشار إليها للفت نظر الصبيان وتغرير المغفلين وإلهائهم؟!

إذا اكتملت في العقل هذه الأمور الأربعة اتضح طريق الهداية والنور لحركة المقاومة والتحرر أولًا، ثم لسائر الحركة الفكرية التي تقاوم في ثغور الكتابة والتنظير والتفكير.

سنضرب هنا بعض الأمثلة لتوضيح الصورة، وسنختاره من أشهر الشبهات التي تروج في إنتاج هذه المدرسة، وسنختارها من الشبهات المتعلقة بالجهاد والمقاومة والثورة:

[١]

تُزَيَّن الديمقراطية الغربية باعتبارها النظام الذي منح الشعوب حقوق الاعتراض، ومنع السلطة من الظلم وغلَّ يدها عنه، في مقابل التراث الفقهي والنصوص التي شرعنت الظلم وشلَّت الأمة عن الاعتراض عليه، كما في الحديث: «تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك».

لتفكيك هذه الفكرة ينبغي تجاوز العوائق الأربعة: فهم حكم الإسلام في هذه الطاعة للأمير الظالم، ثم فهم كيف جرى تطبيق هذا الأمر في تاريخ المسلمين، ثم البحث عن رأي الفكر الغربي في هذه الطاعة، ثم البحث عن التطبيق العملي لهذه الفكرة في التاريخ الغربي الحديث.

Readonly

١ ـ سنجد أولًا أن علماء الحديث مختلفون في صحة هذه الزيادة «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك». فبعضهم يقول: هي صحيحة، وبعضهم يقول: هي ضعيفة لا يؤخذ بها. سنمضي الآن مع من قالوا إنها صحيحة، فسنجد الفقهاء مختلفين في تنزيلها على قولين؛ الأول: أن الحاكم إذا ضرب ظهرك في عقوبة شرعية كحد الجلد في السرقة أو في الخمر وإذا أخذ مالك شرعًا كالزكاة فتلك من حقوقه التي لا يجوز لك أن تخرج عليه بسببها بل تظل على الطاعة والولاء واحترام النظام، والثاني: أن الحاكم إذا ظلمك فضرب ظهرك وأخذ مالك فلا ينبغي أن يثور بك الغضب فلا تقدر عواقب الخروج عليه، بل إن كانت المصلحة في الصبر واحتمال الأذى منه أكبر من المفسدة المترتبة على الثورة والخروج عليه فاحتسب ذلك عند الله واصبر.

وهكذا نجد معنى السمع والطاعة للأمير الظالم في أدنى حالاته يساوي معنى احتمال الأذى الخاص رعاية للمصلحة العامة.

٢ ـ فإذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي، وكيف فهم المسلمون الأوائل هذا النص وعملوا به، وجدنا أنفسنا أمام طوفان من الثورات والتمردات، لا سيما في الصدر الأول، وهم خير القرون وهم كذلك أفقه الأمة، فلقد سعى الأكثرون في تغيير المنكر بالسيف وإن لم يتيقنوا من قدرتهم على تغييره، وأكثر الصحابة إما قاتل مع علي أو مع معاوية، ومن اعتزل فإنما اعتزل لأنه لم يتبين له الحق، وسائر الأئمة الكبار تعرضوا لغضب السلاطين وكثير منهم أنشب ثورة أو شارك فيها أو حرض عليها أو أفتى بما يدعمها، وهذا أمر يطول استقصاؤه، حتى قال الشهرستاني بأن مسألة الإمامة (أي: أمر السياسة) هو أكثر ما سُلَّ فيه السيف في الإسلام. أي أنك أمام أمة ثائرة حتى إنه ليمكن تفسير الفقه المصلحي الداعي إلى السمع والطاعة في

Readonly

القرون المتأخرة بأنه رد فعل على نتائج الثورات التي لم ينجح أغلبها (كما هي سيرة كل ثورات البشر في كل تاريخ البشر) فكانوا أقرب إلى التهدئة، وهو ما يظهر في قول ابن حجر المشهور بأن الخروج «مذهب للسلف قديم».

والمعنى الذي نريد قوله هنا أن المسلمين لم يتحولوا بهذا النص إلى عبيد لمن حكمهم وتغلب عليهم، ولعل دولة الأمويين هي الدولة التي واجهت أكبر عدد من الثورات في تاريخ الإسلام، وهي أول دولة ظهر فيها الحاكم المتغلب (عبد الملك بن مروان)، برغم إنجازاتها الهائلة في الفتوح ونشر الإسلام ووحدة الأمة من الصين حتى فرنسا، والنهضة والإعمار.

٣ ـ فإذا حاولنا استطلاع وفهم هذه المسألة في الفكر القانوني الغربي، الذي يُعرض لنا كواحة للعدالة في مقابل تراثنا المظلم، وجدنا عجبًا... إن المدارس القانونية الغربية تُلْزِم بطاعة القوانين غير العادلة، لأن إتاحة الخروج عليها لكل من يرى أنها غير عادلة يساوي اختلال النظام واضطراب الدولة، أي أن الفكر القانوني الغربي يُنَظِّر ويُشَرْعِن لفكرة «تسمع وتطيع للنظام وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك». هذا فضلًا عن أن أصل نظرية السيادة في الفكر الغربي إنما تؤول عمليًا إلى مراكز القوى (أي: المتغلب) في لحظة كتابة الدستور، أي أن المتغلب القوي هو الذي يصنع نظرية السيادة أولًا ثم يصوغها في دستور ثم تتفرع عنه القوانين، التي تكون كلها ملزمة للشعوب ولا يجوز لهم خرقها ولو كان رأيهم أنها غير عادلة.

ومن فضلك لا تنسى أن المتغلب في التاريخ الإسلامي لم يكن يستطيع أن يغير المرجعية العليا الحاكمة (القرآن والسنة) ولا كان يستطيع ـ ولو توفرت له القدرة ـ أن يتغول على المساحات المجتمعية التي يتولاها العلماء والأعيان وغيرهم، لأنها محروسة أيضًا بنصوص مقدسة.

Readonly

٤ ـ فإذا ذهبنا إلى متابعة الواقع الغربي في تطبيق هذه الفكرة، فسنجد أن التاريخ الغربي كان مخلصًا في فرض القوانين بالقهر والقوة، وفي مقاتلة الخارجين عليها مهما كانت مبرراتهم أنها غير عادلة، بل ولما تغيرت الظروف وتغيرت هذه القوانين وحصل الاعتراف بأنها لم تكن عادلة لم يحصل ردُّ الاعتبار للقتلى ولا تعويض المضارين الذين ثاروا أساسًا على هذه القوانين التي اتضح بالفعل أنها غير عادلة. (انظر تفصيل هذا في مقال «طاعة الرئيس، والخروج على السلطة، في النظام الديمقراطي» للشيخ الفذ الأسير: إبراهيم السكران، سجين آل سعود، فرج الله عنه... ففيه طواف في المدارس القانونية والوقائع التاريخية الغربية).

وهكذا مع تفكيك هذه العوائق الأربعة نصل بوضوح إلى أن الديمقراطية المعاصرة لا تتميز لا من حيث النظر ولا من حيث التطبيق على الشريعة الإسلامية، بل هي أدنى وأحط، لأن المستقر عندها «الخضوع للنظام ولقوانينه غير العادلة» هو المختلف فيه لدى الفقهاء، بل هو مساوٍ لأدني تفسيراتهم للطاعة رعاية للمصلحة العامة... فضلًا عن أمور أخرى كثيرة.

[٢]

تُعْرض الديمقراطية المعاصرة في ثوبها اللطيف المُزَيَّن باعتبارها النظام الذي أنتج تداولًا سلميًّا للسلطة، يذهب رئيس ويأتي رئيس، في حين ارتكست مسيرتنا الحضارية منذ لحظة تنازل الحسن بن علي لمعاوية عن الخلافة رعاية لمصلحة الأمة ففرط بهذا في الحق الذي معه تحت وطأة الضرورة، وهو ما أدى إلى استمرار التوريث الذي لا زال ينكبنا حتى هذه اللحظة.

لنفكك هذا الكلام في ظل العوائق الأربعة التي ذكرناها:

Readonly

١ ـ فمن حيث حكم الإسلام فنحن أمام اتفاق معروف بأن منصب الإمامة منوط باختيار الأمة، فتركه النبي ولم يُسَمِّ من بعده خليفة لكي لا يكون نصب الخليفة نصًّا شرعيًّا، وهكذا قال أبو بكر في أول خطبته، وهكذا سار العمل في زمن الراشدين... ومنتهى القول في هذه المسألة أن مسألة التوريث هذه لم يقبلها الصحابة وكبار التابعين في زمن معاوية إلا تحت وطأة الاضطرار والخوف من وقوع الفتنة إذ يتعذر جمع الناس على خليفة يرضون به جميعًا، فسَلَّموا بأن تحكم العصبة الأقوى المؤهلة لقيادة الأمة، مع بقاء الحكم الشرعي نفسه واضحًا يردده الفقهاء منذ وُجِدوا إلى زماننا هذا.

أي أن الإسلام لم يشرعن التوريث، لم يحض عليه، بل ولا يقبل به إلا في حالة الاضطرار والضرورة... هذا من حيث حكم الإسلام نفسه... وهذا في وقتٍ كانت كل أنظمة الدنيا ملكية وراثية من الصين حتى غرب أوروبا، فالإسلام لم يكن متأثرًا بالواقع الأرضي بل كان متفوقًا عليه ومبتكرًا لنظام تختار فيه الأمة من يحكمها، وهي الفكرة التي كان مجرد طرحها في بلاط ملكي يثير الضحك ويلقي بصاحبها في الموت متهمًا بالجنون!!

أما من حيث أن التوريث هو سبب نكبة الأمة الآن، ففي هذا اختلاف شديد جدًّا، ولا يُسَلَّم بهذا القول، فالأمة عاشت حضارتها التي ازدهرت وكانت قوة عظمى عالمية ألف سنة في ظل الملك العضوض والتوريث، ككل أمم الدنيا شرقًا وغربًا وككل حضارات الدنيا التي ازدهرت في ظل النظام الملكي الوراثي. وقد احتلنا الغرب ونهبنا وقهرنا منذ كانوا في نظامهم الملكي الوراثي بداية من إسبانيا الكاثوليكية التي افتتحت عصر الكشوف الجغرافية. ثم إن أمتنا منكوبة الآن على يد الملوك والعسكر الجمهوريين معًا، فالنكبة تعم من ورثوا أولادهم ومن لم يورثوا.

Readonly

٢ ـ العائق الثاني: كيف سار هذا الوضع في التاريخ الإسلامي؟ والإجابة: سار مسيرة الأمر الواقع الذي يسوق إليه الاضطرار، والذي لا يلقى استسلامًا من بقية الأمة، بل سيرة الثورات والتمردات مستمرة، مع بقاء الضمير العام متطلعًا إلى نظام الخلافة الراشدة، ومع استمرار المحاولات بقدر ما أتاحت الظروف والإمكانات، ومن وقف بجانب الملوك إنما وقف بجانب استقرار النظام وتقديم مصلحة الأمة.

٣ ـ فما هو موقع موضوع التوريث من الفكر الغربي؟ والإجابة: أنه لم تخرج فكرة التمرد على النظام الملكي نفسه وصناعة النظام الجمهوري ليحكم دولًا كبيرة إلا قبل قرون قليلة (قرنان أو ثلاثة أو أربعة على الأكثر)، وما قبل ذلك إنما كان الحكم الديمقراطي علامة على المدن الصغيرة سواء أكانت مدن اليونان قديمًا (والتي انتهت تحت جحافل الرومان) أو المدن الإيطالية في العصر الوسيط والتي انتهت أيضًا تحت جحافل الملوك أو البابوات... ولذلك ظلت فكرة الحكم الديمقراطي نفسها وإن نجحت في إدارة الشأن الداخلي إلا أنها عاجزة عن التوسع والتمدد والنجاح في دولة كبيرة بل وظلت عاجزة عن حماية نفسها من تغول الدول الكبيرة المجاورة. وهكذا ظل نظام التوريث الملكي هو النظام السائد في الفكر والتطبيق التاريخي في أوروبا إلى ما قبل عصر الثورات الجمهورية التي يؤرخ لها بالثورة الفرنسية (قبل حوالي قرنين فقط).

على أنه يُنازَع أيضًا، وبقوة، في أن مسألة رفض الملكية والتوريث كانت تطورًا فكريًا وارتقاء غربيًّا في مدارج الإنسانية، بل الأمر مزيج من عوامل اقتصادية وسياسية ودينية صنعت شكل الدولة الحديثة ضد الكنيسة والملكية والإقطاع[1].

---

(١) انظر في تفصيل أن التطور الغربي لم يكن نابعا من الأفكار والفلسفة: تشارلز تيلي، «صناعة الحرب وبناء

Readonly

٤ ـ فما هو موقع موضوع التوريث من التطبيق الغربي؟ والإجابة: أن هذا أيضًا موضع شك كبير، ففي كثير جدًّا من المؤلفات الغربية حديث متكرر عن أن الديمقراطية وتداول السلطة هو مجرد مسرحية تدور أمام الشعوب بينما تتحكم بها مراكز القوى الحقيقية والخفية... تلك هي مراكز الأموال الضخمة التي تملك تمويل وتسيير وإنتاج وإخراج المسرحية السياسية، يستدلون على ذلك بكثير من الشواهد منها: أن السياسة فعليًّا لا تتغير مع تبدل الرؤساء إلا كما يغير أحدهم ثوبه، وأن العائلات الغنية الكبرى لا تزال هي التي تتوارث المال منذ أربعة قرون، فكأنها هي العائلات الملكية التي فضَّلت ألا تكون في واجهة المسرح وقدَّمت بدلًا منها عرائس تحركها من الخلف. وحركة الإنتاج الفكري التي تتحدث عن السيطرة المالية الاقتصادية على السياسة كلها ـ تقريبًا، وفيما أعلم ـ تؤول إلى الحديث عن مراكز القوى الحقيقية الخفية وشبكات المصالح والسيطرة التي لا تتغير بالانتخابات، ولا تُستدعى أمام البرلمان، ولا تحاكمها وسائل الإعلام... بل كل هذه الأمور إنما هي وسائلها التي تتحكم بها في المشهد.

إن الحديث أن الغرب بالديمقراطية المعاصرة تجاوز التوريث ووصل إلى تداول حقيقي للسلطة هو أمر مُتَنَازع فيه ومختلف فيه بقوة. وقد سجل صحافي أمريكي مشاهدات خطيرة في كتابه ذي العنوان الكاشف «أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها».

الدولة بوصفها جريمة منظمة»، ترجمة: أحمد العوفي، مدونة: نظر، بتاريخ: ٢٧ فبراير ٢٠١٦؛ مارك كوياما، «لم تكن الأفكار كافية»، مجلة: حكمة، بتاريخ: ١٢ إبريل ٢٠١٨. ومقال تشارلز تيلي مترجم عن مقال محرر ضمن كتاب «Bringing the State Back in»، ولكن فكرته بسطها المؤلف نفسه في كتابه «Coercion, Capital, and European States, A. D. 990 - 1992».

Readonly

والمقصود من كل ما سبق: أن التوريث الذي يُعيروننا به لم يكن شرعًا بل كان اضطرارًا، وليس هو بنفسه سبب النكبة (إذ حضارات العالم القديم ازدهرت في ظل أنظمة ملكية وراثية)، كما أن الغرب لم يتخلص عمليًا من التوريث، وهذا التداول في السلطة مشكوك في حقيقته من الغربيين أنفسهم.

[٣]

وأختم بهذا المثال، ولن أطيل فيه فقد طال المقال:

يُعيّروننا بأحكام الجهاد التي فيها جهاد الطلب، ويرون أنه اعتداء وعدوان على الأمم الأخرى ولو كانت مسالمة، بينما جاء النظام العالمي بسيادة الدول ومنع الآخرين من التدخل في شؤونها.

١ ـ فأما حكم الإسلام في المسألة نفسها فهو متعلق بمسألة «هل الأصل في العلاقة بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى: السلم أم الحرب؟»، فالجمهور على أنه السلم، وقال الشافعية بأنه الحرب، وفي المسألة تفاصيل كثيرة ليس هذا موضعها، لكنها جعلت بعض المعاصرين يجعلون المسألة على العكس فيقولون بأن الجمهور على أنها الحرب أو على أنها الدعوة... ويُطلب الأمر في كتب الفقه لكن الذي نقصده الآن أن المسألة فيها خلاف بين الفقهاء.

ومنبع هذا الخلاف ـ فيما أرى ـ أن وقائع السيرة والتاريخ تحتمل الرأيين، فمن طبائع الواقع أن الباطل لا يطيق وجود حق إلى جواره، فسرعان ما تنشب بينهما المعركة... ومن ثم فإن غزوات النبي ﷺ وفتوحات الراشدين حين تُحلَّل فقهيًّا فإنها لا تخلو من سبب عدائي من الطرف الآخر، ويأتي الخلاف من تقدير الفقهاء: هل لو لم يقع هذا السبب العدائي كانت ستتحرك الجيوش للغزو والفتح أم لا؟

Readonly

على كل حال هو نقاش نظري... لكن المضمون العملي الكامن فيه هو: هل على الدولة الإسلامية مسؤولية أخلاقية لإنقاذ الشعوب الأخرى من الظلم والاضطهاد الواقع عليها من الأنظمة الباطشة؟ فيكون الفتح إنقاذًا لها ولو لم يقع من هذا النظام الباطش بشعبه خطر على المسلمين والدولة الإسلامية؟

٢ ـ العائق الثاني: كيف جرى تطبيق هذا في تاريخ الإسلام؟ والإجابة: سبقت خلاصتها في السطور السابقة... فقد توسعت دولة الإسلام توسعًا كبيرًا وغزت جيوشها أطراف الصين وحتى جنوب فرنسا، ووصلت إلى موسكو شمالًا وإلى وسط إفريقيا جنوبًا... وكانت ـ كما نرى ونعتقد ـ أوسع عملية تحرير للشعوب في تاريخ البشر، ونحن الفاتحون الذين أقاموا العواصم الحضارية في أقصى الشرق والشمال وفي أقصى الغرب والجنوب بينما قصص الاحتلال هي قصص امتصاص موارد البلاد ودماء الشعوب لتتضخم عواصم الإمبراطورية... وفي عموم التاريخ الإسلامي كانت عواصم الشرق والغرب أزهى حضاريًّا من مكة والمدينة وأحيانًا أيضًا: بغداد ودمشق (وهي عواصم الدولة الإسلامية).

٣ ـ العائق الثالث: كيف يرى الغرب مسألة جهاد الطلب؟ والإجابة: وثائق المنظمات الأممية فضلًا عن إنتاجات المفكرين حافلة بأن الغرب لديه مسؤولية أخلاقية في نشر ما يراه حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية والقيم الإنسانية.

٤ ـ العائق الرابع: كيف كان تطبيق جهاد الطلب عمليًا في التاريخ الغربي؟ والإجابة: سل خمسة قرون تبدأ من الإسبان في عصر الكشوف الجغرافية وحتى لحظة قراءتك لهذا المقال: عن استعمار إفريقيا والأمريكتين واتخاذ ملايين البشر عبيدًا وطواف السفن من ماجلان وكولومبوس حتى القواعد

Readonly

العسكرية البحرية في المحيطات والبحار حول العالم... الجواب واضح.

إنما المأساة هنا في أن ترى «مفكرًا» ينادي على الغرب (يسميه: المجتمع الدولي) أن يتدخل لإنقاذ شعب من حاكمه الجلاد، كما في سوريا مثلًا، ويرى في توجيه الضربات العسكرية للنظام ومساندة الثورة عليه عملًا جليلًا وإنسانيًّا ونبيلًا... ثم هو هو نفسه يريد أن «يجدد» الإسلام فيحذف جهاد الطلب لأنه لا يناسب المعايير المعاصرة والتقدم الإنساني الذي وصلت إليه البشرية!!.

لئن كنتَ ترى أن تدخل القوي لإنقاذ الضعيف واجب إنساني... فما الذي جعله بردًا وسلامًا للأمريكان ووثائق المنظمات الدولية حرًّا ونارًا على المسلمين وتراثهم الفقهي؟!!

الخلاصة:

أكثر تشغيبات الذين يريدون «تجديد» الإسلام وتنقيح تراثه الفقهي وتطويره بما يتلاءم مع العصر تفيد أنهم هم في الحقيقة منسحقون أمام الثقافة الغالبة، ومن شدة انسحاقهم تشوهت لديهم معرفة ثقافتهم ومعرفة الثقافة الغالبة معًا... وهذا أمر لا بد لا بد لا بد أن تتحرر منه حركات المقاومة والتحرر، فلا مقاومة ولا تحرر إلا بنفسية تؤمن بأنها الأصلح والأحق وأنها على الخير والهدى، وحتى يتحقق ذلك فالأمانة التي على واجب العلماء والفقهاء والمفكرين والكتاب أن يحللوا كل مسألة في ضوء هذه العوائق الأربعة لتتضح الصورة التي نؤمن بها أننا خير أمة أخرجت للناس، وأننا جند الله وقدره الغالب ولو بعد حين!

***

Readonly

ملامح خطة عامة للأمة الإسلامية

نشر في مجلة «كلمة حق»

فبراير ٢٠١٨

منذ سمعت أبيات الشعر هذه حتى حفظتها في لحظتها، كانت قوية ومعبرة عن حال الأمة إلى الحد الذي تخترق فيه القلب والعقل معًا:

قد استردَّ السبايا كلُّ منهزمٍ ... لم يبق في أسرها إلا سبايانا

وما رأيت سياط الظلم دامية ... إلا رأيتُ عليها لحم قتلانا

وما نموت على حدِّ الظُّبا أنَفًا ... حتى لقد خجلت منا منايانا

كان أكثرها قسوة هذا البيت الأخير، فهو يُصَوِّر الأمة وكأنها في هروب جماعي من تكاليف البذل والجهاد والعطاء، والعدو من ورائها بسلاحه يقتنص ويلتقط وينتقي القتلى والأسرى والسبايا، حتى إن تلك الميتات قد خجلت أن تقع.

وبعيدًا عن لغة الشعر والأدب، ومدى مبالغاتها ومفارقتها للحقيقة، فالمهم الآن أن الأمة لم تعد تموت وهي مدبرة، بل هي تخوض أشرف المعارك وتحاول التحرر رغم الثقل الشديد للاستبداد المحلي والطغيان العالمي وما أسفرت عنه سنين الاستبداد والاحتلال من فجوة هائلة علمية وعسكرية وسياسية واقتصادية. فلئن كانت الأمة لا تزال تعاني القتل والأسر ـ كما يصور البيت الأول والثاني ـ فإنها لم تعد تهرب من المواجهة، بل يموت شبابها وهم مقبلون لا مدبرون، يدفعون ثمن التحرر من أرواحهم ودمائهم وأموالهم وأهلهم...

على أن كثرة التضحيات لا تناسب الحصاد والثمرات، لا سيما ونحن لا

Readonly

نزال في بداية طريق التحرر، ولا تزال عصور الملاحم قادمة، فالعدو الذي ربض على أرضنا ويتمتع بخيراتنا سيبذل كل ما لديه من طاقة بكل ما فيها من التوحش والشيطانية لئلا نتحرر[١].

أسباب عديدة تجعل التضحيات أكثر بكثير من المردود، منها الجهل بالواقع وبالسياسة وبالنظام العالمي وأساليبه وبالتاريخ والتجارب السابقة، ومنها حظ النفوس في السلطة والإمارة والوجاهة، ومنها الغلو والإفراط الذي يشوش الرؤية ويستثير الأعداء، ومنها افتقاد الخطة والمشروع والاكتفاء بمنطق رد الفعل... أمور كثيرة، نركز منها في هذا المقال على: الخطة العامة للأمة الإسلامية.

١ ـ نظرة عامة كبرى

تعاني الأمة استضعافًا عامًّا، من أقصى مشرقها إلى أقصى مغربها، إلا أن التفكير في الإصلاح لن يكون بالسعي وراء كل فرد في هذه الأمة المليارية لنصلحه، إن اتساع المكان وكثرة البشر فضلًا عن تجارب الأمم لا تقول بهذا.

يصوغ بعضهم «نظرية العواصم»، ومعناها ببساطة في موضوعنا هذا، أن كل هذه الأمة المليارية يمكن إصلاح أحوالها عبر إصلاح أحوال مناطق معينة رئيسية مركزية منها، فنحن إن اجتهدنا في تحديد أهم البلدان التي تصلح بصلاحها مناطق واسعة سنكون قد اختصرنا الطريق كثيرًا. ثم لو استطعنا تحديد العواصم المركزية الملهمة في تلك البلاد فسنكون قد اختصرنا الأمة المليارية في مدن محددة.

---

(١) راجع مقال: مكافحة الوهم:

https//:melhamy.blogspot.com/2017/11/blog-post.html

وطبقات الاستبداد:

https: //melhamy.blogspot.com/2017/11/blog-post-23.htm

Readonly

بعد تفكير وبحث طويل مع العديد من عقول الأمة الذين التقيتهم عبر السنوات الماضية، كانت الآراء تؤول إلى هذه المدن الست: القاهرة، مكة، اسطنبول، دمشق، بغداد، الجزائر.

هنا مفاصل الأمة ومراكزها وعواصمها، إن استطاعت الأمة تحرير هذه العواصم وإقامة دول مستقلة تملك قرارها وتستطيع حماية نفسها، فهي قد خطت أكثر من نصف الطريق نحو التحرر النهائي للأمة. ولو تتبعنا التاريخ لوجدنا أن هذه العواصم هي أواخر ما سقط من الأمة في رحلة الاحتلال الغربي التي بدأت قبل ٥٠٠ عام ولا تزال مستمرة، لكنها أخذت في قضم أطراف الأمة، حتى كان سقوط كل عاصمة من هذه ضربة هائلة.

تبدو اسطنبول الآن أقرب هذه العواصم للتحرر ولامتلاك قرارها، وكانت ليلة الانقلاب العسكري الفاشلة في تركيا ليلة للأمة كلها. مثلما كانت ليلة فوز الرئيس مرسي وليلة الانقلاب العسكري عليه ليلة للأمة كلها. وقد التقيت من أقليات الصين وإفريقيا وأوروبا ما أدهشني وأفزعني في الوقت نفسه: لم أكن أتخيل أن الانقلاب على مرسي في مصر قد ألقى بآثار بعيدة على المسلمين في الصين وأدغال إفريقيا والأقليات في أوروبا وروسيا والأمريكتين أيضًا.

تلك العواصم ذات أثر هائل بعيد في كل الأمة، بما لها من عمق تاريخي وحضور ثقافي وقوة بشرية وموقع استراتيجي... وهو أمر يعرفه العدو ربما أكثر مما نعرفه نحن، ولذلك فمعركة التحرر في هذه العواصم هي أصعب وأعسر المعارك الحضارية الكبرى. ولذلك لا يجدي الهروب منها بحال فإنها واقعة لا محالة، ولا بديل عنها، اللهم إلا إذا تخيل أحد أنه بالإمكان ـ تجنبًا لمعركة التحرر ـ هداية مليار

Readonly

ونصف المليار شخص كل على حدة، هذا مع أنهم إذا اهتدوا فسيخوضون المعركة أيضًا مع الاحتلال الأجنبي الرابض!

٢ ـ الفرصة السانحة

لئن كانت تلك العواصم مؤثرة في الأمة كلها، فإن من حقائق الواقع أنه قد صارت لكل بلد منها مع طول فترة انقسام الأمة ظروفها ومشكلاتها وأوضاعها التي تجعل بعضها أقرب من بعض إلى لحظة الثورة والتحرر والتغيير. ولذلك بقدر ما تبدو عواصم كدمشق والقاهرة أقرب إلى إمكانية التحرر، تبدو عواصم أخرى أبعد في المدى المنظور كبغداد والجزائر، ويثور الخلاف حول مكة ما إن كانت قريبة أم بعيدة.

في تقديري أن أهم عاصمة مرشحة الآن لحصول التغيير فيها هي القاهرة، بل إن مجرد انفلات القاهرة من الهيمنة الأجنبية الغربية هو بحد ذاته مسكب واسع للأمة وخسارة واسعة لعدوها[١].

ولهذا فالمعركة حولها ستكون هائلة، لكن كثيرًا من الأوضاع الطبيعية والظرفية تجعل الأمر أسهل من أوقات كثيرة مضت:

فمن الأوضاع الطبيعية: أن القاهرة تختزل كل مصر، ولذلك ثورة مصر تندلع في القاهرة وتنتهي في القاهرة، لا كغيرها من البلدان التي ربما تقضي الثورة سنين قبل أن تصل إلى العاصمة. ومن الأوضاع الطبيعية أن الثورات فيها لا تطول لطبيعة القاهرة وناسها وطبيعة موقعها الجغرافي العالمي الذي يجعل كثيرًا من الأطراف تحرص وتنحو إلى التهدئة.

---

(١) راجع مقال: القاهرة عاصمة الثورة الإسلامية:

https: //melhamy.blogspot.com/2016/08/blog-post-20.html

Readonly

ومن الأوضاع الظرفية وجود ثورة لم تنطفئ ولا يزال طيفها يداعب الخيال ويغري بالتكرار لدى كثيرين، ووجود حالة سخط شعبية عارمة على السيسي ونظامه، ولا تزال قوات الأمن والجيش غير محترفة ولا يمكنها الصمود في معركة شعبية غير سلمية، والبديل المتوقع في مصر ليس خطرًا جذريًّا على المصالح الأجنبية والنظام العالمي بما يجعل الدفع الأجنبي مائلًا نحو استكشاف البدائل واختبارها لا نحو إشعال معركة دموية حفاظًا على السيسي.

مجرد اهتزاز النظام العسكري في مصر يساوي ما يشبه انقلابًا في الخريطة السياسية الإقليمية، ويلقي بآثاره على غزة وليبيا والسودان والخليج والشام وتركيا، أما لو توقعنا بأن الثورة استطاعت تحرير مصر فسنكون في مستوى آخر من الآمال والتطلعات، ويكفي فقط أن يتكون محور مصري تركي ليكون هذا بداية وجود الأمة كفاعل على المستوى الدولي، [راجع خلاصة هذه الدراسة].

٣ ـ ما يلزم حركة التغيير

أحسب أن لو كان للأمة خليفة يستطيع تجنيد طاقة الأمة في معركة بعينها لم يكن أمامه إلا معركة مصر في الوقت الحالي. ولو أن كل صاحب طاقة ومجهود في خدمة الإسلام أنفق من طاقته في معركة الثورة المصرية لعاد عليه هذا بأكثر مما يعود على المستثمر ما ينفقه في المشروع التجاري والمالي.

أهم ما تحتاجه حركة التغيير في مصر قيادة ثورية راشدة، تجمع بين الفهم للواقع وضغوطه وإكراهاته مع تمتعها بحلم كبير وأمل واسع وثقة في الأمة وقدراتها، فالأمة لم تخذل قيادة ناصحة راشدة من قبل، بل الأمة تفاجئنا في كل مرة بما لم نكن نتوقع.

Readonly

ويجب أن يكون لهذه القيادة جهاز أمني، يجمع المعلومات ويضعها في صورة الواقع، فلا تكون كالتي تضرب وتخبط خبط عشواء لا تدري أين تضرب ولا من تصالح، من تعادي ومن تصادق ومن تتجاهل، فلا تقع بهذا تحت طائلة التضليل والإشاعات، ولا تحت قصف الإعلام ونباحيه، ولا تحت خيالات وتصورات المتفلسفة والمنظرين الذين تكونت أفكارهم من الكتب والأكاديميات وحدها، فأولئك ولو كانوا مخلصين وقامات علمية إلا أن حظهم من معالجة الواقع ضئيل ومضلل أيضًا.

إذا وُجِد هذان فما سواهما أهون وأيسر، فالطاقات المطلوبة موجودة في الأمة لكنها كالمتناثرة لا تجد الخيط الجامع لها، ولا الملتقى الذي تتكامل فيه... وصحيحٌ أن الناس كإبل المائة لا تجد فيها راحلة، إلا أن أمتنا أكثر من مليار ونصف المليار، ولهذا فرواحلها ملايين الرواحل.

إذا تمكنت هذه القيادة من تقديم خطاب إسلامي جامع، يجمع بين الرشد والنضج وبين التمسك والحماسة له، وسارت برؤية تهدف إلى تمكين المجتمع وإخراجه من عبودية «السلطة/ الدولة»[1] فهنا يكون قد بدأ طريق نهوض الأمة الإسلامية.

بهذا التصور يمكن لجميع المتشوقين لنهضة الأمة أن يكون لهم عمل ودور، كلٌّ في مجاله وتخصصه، في جمع المعلومات وتكوين خريطة المجتمع والنافذين فيه وشبكة العلاقات المهيمنة عليه وامتداداتها الخارجية والداخلية، في

---

(١) راجع مقال: طبقات الاستبداد

https: //melhamy.blogspot.com/2017/11/blog-post-23.html

Readonly

فهم وترتيب الأولويات المتعلقة بإصلاح كل مجال، في صياغة الخطاب الدعوي والإعلامي والسياسي والخارجي لمختلف الشرائح والفئات... كل هذه الملفات ستشتد الحاجة إليها وسيتلهف عليها كل ساعٍ للإصلاح، وكلما صيغت الحلول على أنماط مجتمعية لا على قرارات سلطوية كلما كان تنفيذها أيسر وأسرع، وكلما رفع عبئها عن تلك القيادة المنتظرة.

ولعلنا في يوم قريب نهجر قول الشاعر الذي افتتحنا به المقال، لننشد مع الشاعر الآخر:

يا أمة الإسلام فجرك نوَّرا ... والروض في ساحات مجدك أزهرا
سُحُب المعالي في سمائك أمطرت ... غيثًا، وأجرت في رحابك أنهرا
نشرت رياحك في جوانب كوننا ... أمنًا، وإيمانًا، وفكرًا نيِّرا
لبست به الأشجار ثوبًا مورقًا ... وغدت به الصحراء روضًا أخضرا

* * *

Readonly

ثغور فارغة، وجيوش من العاطلين

نشر في مجلة «كلمة حق»

إبريل ٢٠١٨

ليس ثمة سؤال يواجهه كاتب أو متحدث اليوم أكثر من سؤال: ما العمل؟!

سؤال ينسال في التعليقات على كل منشور، يقال بعد كل خطبة، يثار بعد كل محاضرة، يلقي في كل ندوة ومجلس... جمهرة الناس في حال من التيه والفراغ والحيرة، والكل يسأل: ما العمل؟!

على الجانب الآخر تنظر في كل ثغرة تحتاجها الأمة فتجد فراغًا رهيبًا، بداية من ثغور الجهاد التي تشكو قلة المال وقلة الرجال، وحتى ثغور العلم الشرعي التي تشكو ندرة الفقهاء المتمرسين... مرورًا بسائر ثغور العلوم الطبيعية والجمعيات الخيرية والمؤسسات الاقتصادية والمبادرات الأخلاقية. في أي موقع رأيت بعض العاملين المخلصين فسألتهم عن أحوالهم وإمكانياتهم بالنسبة إلى المسؤوليات الملقاة على عاتقهم كانت الإجابة كاشفة عن الفارق الواسع بين المتاح والمطلوب فضلًا عن المأمول.

وهكذا نحن في مشهد غريب: جيوش من الناس يسألون: ما العمل؟ وثغور فارغة تشكو وتتشوق للعاملين!!

هو أثر طبيعي لغياب الخلافة والخليفة، فالقيادة تستطيع تجنيد الموارد وتوجيه الطاقات وجمع المتفرق، بل مجرد وجودها يجعل من أراد العمل يقصدها بتقديم ما يستطيع، أما غياب القيادة فشرٌّ وبيل، إذ هو تفرق وتشرذم وعداوات تندلع لأتفه سبب ثم هو ـ وهذا هو الأهم في سياقنا الآن ـ تيه وفراغ حتى لمن أراد أن يعمل، إذ

Readonly

لا يعرف ماذا يعمل ومن أين يبدأ وإلى أين يتوجه مع كثرة الثغور وكثرة التحديات والحاجات والضرورات. لهذا حرص الإسلام على أن ينتظم شأن المسلمين في أقل أمورهم «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأَمِّروا واحدًا»، وكان هذا بداية خروجهم من الجاهلية والفوضى إلى معنى الأمة والنظام والدولة والحضارة.

لكن غياب القيادة العامة للأمة، وانهيار كثير من المشاريع والجماعات التي حاولت أن تكون طلائع بعث الأمة ليس هو نهاية المطاف، ولا هو داعية يأس مع قسوته ومرارته، بل نحن في وضع يجب علينا أن نكافح عن الإسلام في الخطوط الأخيرة، فالهجمة الآن هي على الثوابت الكبرى، من كان يصدق أن يتجادل مسلمان في مسألة: هل يدخل الملحد النار؟! كما وقع عند موت ستيفن هوكينج!

نعود إلى السؤال: ما العمل؟!

لقد وزع الله المواهب كما وزع الأرزاق، وإجابة السؤال يعرفها كل إنسان في نفسه من نفسه. وحيث أن الثغور كلها تشكو الندرة في العاملين فلا يكاد يوجد مسلم إلا ويستطيع أن يفعل شيئًا يصب في النهاية لمصلحة الأمة، لكن المهم الآن هو التركيز على «واجب الوقت» إذ الواجبات كثيرة كثيرة حتى حين كانت الأمة في ذروة قوتها... وواجب الوقت الآن هو معركة تحرير الأمة من الاستبداد والاحتلال، وكلاهما في عصرنا هذا شيء واحد: الاستبداد هو مقدمة الاحتلال، والاحتلال هو العمق الاستراتيجي والسند الأكبر للاستبداد. وأي مجهود يُصرف في غير معركة التحرير هذه فهو أقرب إلى الهباء، بل لعله يكون إثمًا.

أمور كثيرة تحتاجها معركة التحرير هذه، سأضع منها هنا أمورًا في غاية الأهمية رغم أنه يمكن الحصول عليها بسهولة وبلا مخاطر أيضًا.

Readonly

١ ـ المعلومات

ما يعرفه أعداء الحركات الإسلامية عنها أكثر مما يعرفه أفرادها عنها، ولو تصورنا مصارعة بين مصارع قوي لكنه مغمى العينين وآخر ضعيف ولكنه مبصر لكانت الغلبة للضعيف المبصر، فكيف لو كان الحال أن القوي هو المبصر والضعيف هو المغمى العينين؟! ذلك مثل الحركات الإسلامية وحركات المقاومة والحركات الثورية مع أعدائها... هناك فارق ضخم في المعلومات. وهذا سبب كثير من تجارب الفشل، تخوض الحركة الإسلامية أو الثورية معركة وهي لا تعرف عدوها من صديقها، لا تعرف حتى بعض الاختراقات التي تجري في صفوفها، لا تعرف مفاصل النظام الذي تواجهه، لا تعرف ـ مثلًا ـ من هم أهم خمسين شخصية فيه؟ أين يقع أهم خمسين مكانًا يشهد الاجتماعات المؤثرة أو على الأقل ما أهم خمسين موقعًا ينبغي السيطرة عليه أو حراسته أو مراقبة من يتردد عليه؟ ما هي خريطة القوى الاقتصادية والسياسية التي تتحكم في صناعة القرار؟ ما خريطة الأجنحة داخل أروقة السلطة وما الخلافات التي بينهم وكيف يديرون معركتهم ...إلخ!

مثلًا: ما هي أهم المناطق التي إن اشتعلت أدى هذا إلى ثورة في عموم القطر؟ كيف يمكن إشعال ثورة فيها؟ ما هي احتياطات النظام لمواجهة حركة ثورية مقاومة في لحظات الطوارئ، كيف يمكن فهمها واكتشافها؟ من الذي يمكن أن ينحاز إلى الثورة في لحظة ما بالترغيب أو الترهيب، وكيف يمكن أن يُساوَم أو يُجَنَّد أو يُسقط؟

أمور كثيرة للغاية، وقد تكون كلها معروفة أو مكشوفة لكن كل معلومة منها عن واحد فحسب ولا يحتاج الأمر إلا إلى الجمع والتصنيف. تثور أحيانًا فكرة صناعة منصة ثورية على الانترنت ليضع كل من يعرف معلومة يحتمل أنها مهمة معلومته

Readonly

عليها، ثم يتولى فريق التصنيف والتحليل والفلترة لإزالة المعلومات المشوشة والمغلوطة والمبالغ فيها ونحوه.

٢ ـ ابتكارات علمية

مع التقدير الكامل لأن حالة البحث العلمي منهارة في بلادنا، وأن أمر إيجاد ابتكار علمي متعثر ومتعسر أيضًا، إلا أن أصل أي ابتكار علمي هو كونه «فكرة»، والفكرة يفتح الله بها على من يشاء من عباده، ولعل رجلًا في زاوية ما من الأرض يجد ويسعى حتى يرى الله منه الصدق فيفتح عليه بشيء بسيط لكنه يغير الموازين.

إن بين أمتنا وأعدائها فجوة علمية هائلة، وتظهر هذه الفجوة بقوة في مسألة كالطيران والسلاح الكيميائي التي نرى آثارها في سوريا وفي كل منطقة تكاد تخرج فيها الأمة عن هيمنة النظام العالمي، حينئذ لا يملك المقاتلون على الأرض مهما كانت بسالتهم أن يفعلوا شيئًا... تلك النقطة تحتاج سعيًا وبذلًا هائلًا على مستوى التفكير لدى المتخصصين في الطيران والهندسة والاتصالات والكيمياء لا أقول ليهاجموا بل فقط ليعيدوا توازن الردع بين أي حالة مقاومة وثورة وبين الاستبداد المسنود بالاحتلال.

وكلما كان الابتكار العلمي سهل التنفيذ سهل الانتشار كلما كان أقوى وأفضل، لأن كل ما من شأنه أن يكون بسيطًا ومنتشرًا بين أفراد الأمة كانت الأمة في حاجته أكثر... لأن دخول الأمة كلها في معركة التحرير هو خطوة لا بد منها في كل حال... بل إن تاريخ هزيمة الأمة هو تاريخ انفصال طليعتها الثورية المقاومة عن عموم الجماهير، وهذا الانفصال هو الأمر الذي توصي تقارير المراكز البحثية الغربية بتوسيعه وتعزيزه وتأكيده لكي يسهل على العدو سحق الثورة والمقاومة، التي هي بالنسبة للأمة كالسمك بالنسبة للماء... إن انفصل عنها هلك وصِيد.

Readonly

٣ـ ترجمات

يقع على المترجمين عبء هائل، ودورهم ضروري لا غنى للأمة عنه. إن الإنتاج الغربي في العلوم الأمنية والعسكرية ومكافحة التمرد (أي: الثورات وحركات مقاومة الاحتلال والاستبداد) إنتاج ضخم، وأقل القليل منه هو ما ترجم إلى العربية، بل إنهم ترجموا بعضه إلى العربية بأنفسهم ليكون مرشدًا لضباط الأمن والعسكر العرب... ولا شك أن بعضه سري غير منشور، لكن المنشور فيه فوائد كثيرة للغاية، وبعضه يدرس في الجامعات الغربية التي هي من مصانع إنتاج الساسة وصناع القرار ومستشاريهم.

ثمة نهر كبير ينتظر الترجمة من التقارير التي تصدرها وكالات الأمن والاستخبارات ومن تقارير باحثين متخصصين في مكافحة الإسلاميين (ربما يندهش البعض إن عرف أن ثمة تخصص في أمريكا اسمه «تدجين الإسلاميين»، رأيت هذا في السيرة الذاتية لأنجيل راباسا الذي كتب تقرير راند ٢٠٠٨م: صعود الإسلام السياسي في تركيا) ومن مذكرات العسكريين والأمنيين والسياسيين الذين أداروا معركتهم في أرضنا وبلادنا التي احتلوها كما في أفغانستان والعراق وغيرها... هذا فضلًا عن وثائق المخابرات التي تنشر بعد رفع السرية عنها بعد عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة بحسب قوانين النشر وأهمية الوثيقة.

ولا يقتصر الأمر على الترجمة من الإنجليزية وحدها... الفرنسية والألمانية وحتى الروسية والصينية، ففي تلك البلاد تحديات أخرى ومدارس أخرى وأفكار أخرى، وبعضها تتطلع لتكون قوة عظمى ولترسم لنفسها النفوذ والمستقبل والاستراتيجية، وظهر فيها منظرون سياسيون وقيادات عسكرية وأمنية خاضت

Readonly

حروبًا ومعارك إما مع المسلمين كما في تركستان الشرقية والشيشان وكشمير، أو مع غيرهم في محيطهم الاستراتيجي.

تلال هائلة من الكتب القيمة التي تنتظر الترجمة، والتي يتوقع أن تكون ترجمتها مثيرة لأفكار قوية في النهوض والمقاومة؛ فالحكمة ضالة المؤمن. وكثير من القيادات الثورية والمقاومة ليس لديهم الإمكانية ولا الوقت ولا الطاقة لمتابعة المهم الذي يصدر في لغته الأصلية.

المهم... المهم... المهم أن يُختار الكتاب بعناية لتكون أفكاره إضافة حقيقية لمعركة تحرير الأمة... إنه من المؤسف المثير للمرارة والشفقة والحسرة أن تكون غالبية الترجمات روايات خيالية ومسرحيات وأشعار وأمور هي إن لم تضر فلن تنفع، وإن نفعت فنفعها ترف يوجد ما هو أولى منه ألف ألف مرة! فإن الغريق والحريق والمسحوق لا يبحث في الترف حتى ينجو من محنته أولًا.

٤ ـ ملخصات وفهرسة

فمن لم يكن من أهل الترجمة، فليكن من أهل التلخيص أو من أهل الفهرسة، وهو أمر يستطيعه كل من يجلس على الفيس بوك وتويتر ويوتيوب بالساعات الطوال لا يفعل شيئًا مفيدًا... فكما نحن أمام كم هائل ينتظر الترجمة فإن لدينا كمًّا هائلًا من الكتب والمواد المترجمة التي يتعذر الاستفادة منها لتنوعها وتشعبها وربما حجمها الكبير.

نحن إذا كنا نتحدث عن مصر ـ كمثال ـ فإن الحركة الثورية في مصر يجب أن يكون لديها إلمام بعدد من الأمور لكي تحسن خوض معركتها منها: العلوم الأمنية والعسكرية لا سيما ما يتعلق بمصر وما كتبه صناع القرار والأمنيون الذين عملوا

Readonly

في مصر منذ نابليون وكرومر ومايلز كوبلاند، طبيعة الشعب المصري وخصائصه، تاريخ حركات المقاومة لا سيما حركات المقاومة في مصر نفسها، العلوم الاجتماعية التي تتعلق بإدارة ثورة كعلم الاجتماع السياسي وعلم نفس الجماهير.

في كل باب من هذه الأبواب توجد الكثير من الكتب والمؤلفات، حتى ما هو موجود باللغة العربية... ربما يضيق وقت العاملين في الثورة والمقاومة عنه، فيمكن لكثير من الشباب الذين يسألون: ما العمل؟ أن يعكفوا على تلخيص هذه الكتب وإخراج خلاصاتها ليكون فهمها أسهل وأسرع.

كذلك مهمة الفهرسة... وتلك مهمة تسهل على التنفيذيين الذين لا يحبون إرهاق عقولهم، إن كثيرًا من هذه الكتب تحتوي معلومات هامة، لكن عدم وجود فهارس فيها يجعل الاستفادة منها متعذرة... والفهرسة أمر يعرفه من طالع الكتب الشرعية، حيث يتولى محقق الكتاب صناعة فهرس للآيات والأحاديث والأعلام (الشخصيات) والبلدان والمعارك... ويتفنن آخرون فيضيفون أنواعًا كثيرة من الفهرسة. فإذا كان لدي كتاب من ٣٠ مجلدًا ـ مثلًا ـ وأردت أن أبحث عن اسم معين، فإن فهرس «الأعلام» يخبرني بالصفحات التي ذكر فيها هذا الاسم، وبمراجعتها يتكون عندي بسرعة «رأي المؤلف في فلان هذا، وكم مرة ذكره، وفي أي المسائل استشهد به... وأمور أخرى»... المهم أني لم أضطر لقراءة الثلاثين مجلدًا.

وكمثال: لدينا الكثير من مذكرات صناع السياسة الأمريكية، ومترجمة أيضًا، لكن الواحد منها لا يقل عن خمسمائة صفحة... وهي غير مفهرسة، وعلى سبيل المثال: لو أردت أن أفهم كيف تعامل الأمريكان مع شخصية مثل السيستاني بعد احتلال العراق فينبغي علي قراءة مذكرات المسؤولين صفحة صفحة: رامسفيلد،

Readonly

وكونداليزا رايس، وجورج تينت، وديك تشيني، وبريمر، وغيرهم... بينما لو وُجد فهرس للأعلام لكل كتاب لكان يسيرًا الاطلاع على مواضع الصفحات ثم فهم الموقف.

مهمة الفهرسة هذه مهمة عظيمة لو وُجِد لها الرجال.

الخلاصة: العمل كثير كثير كثير... والثغور كلها تشكو الحاجة... وكثير من العمل يمكن أن يؤدى بلا مخاطرة!

نعم، ليس كل من هتف: ما العمل؟ سيعمل حين تأتيه الفرصة... فإن ميدان القول غير ميدان العمل! وقد قال المتنبي:

إذا اشتبهت دموعٌ في خدودٍ تبيَّن مَن بكى ممن تباكى

* * *

Readonly

عبد الله عامر...
المؤرخ النسابة رجل المخابرات والأعمال

نشر في «مدونات الجزيرة»

نوفمبر ٢٠١٧

عبد الله بن عثمان بن عامر، هو أبو بكر الصديق... استعملت الاسم المجهول في العنوان للتشويق، ولأني أحسب أن تلك السطور ستروي لك قصة مجهولة من سيرة أبي بكر.

مما لا يكاد يُلتفت إليه في سيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه هو دوره وقيمته في لحظة بدء الدعوة... لقد كان أبو بكر من أعظم نعم الله على نبيه محمد (ﷺ)، ولا يكاد أن تكون دعوة ولا داعية معه مثل أبي بكر إلا وكان نجاحه مسألة وقت... كيف هذا؟

يورد أهل السير أن أبا بكر كان أعلم قريش بأنسابها وأيامها، وأنه كان تاجرًا، سمح الأخلاق، إلفًا مألوفًا.

العلم بأنساب قريش وأيامها (أي: تاريخها) هو عِلْمٌ بخريطة قريش ومواقع النفوذ فيها، وعلم بالبطون والعشائر وأصولهم ومنازعاتهم ومحالفاتهم، ومعاركهم وثاراتهم، وطموحاتهم ومخاوفهم، وطباعهم وأخلاقهم، وما يُمْدَحون به وما يعاب عليهم، وما يتفاخرون به وما يستترون منه. ويعرف معادن رجالهم وأصحاب الشأن فيهم.

ومثل هذا حين يكون صاحب دعوة ورسالة يعرف بيسر وسهولة كيف يدخل

Readonly

بها على كل قوم، ومن منهم يُصطفى لها ومن منهم يُتَجَنَّبها، ويعرف كيف يخاطب كل قوم بها من جهة ما يجذبهم إليها. ثم هو بعد ذلك يعرف من أين يُتوقع أن يأتي الخطر والصد والرد والمواجهة، ومن المرشح أن يقف ضد تلك الدعوة والرسالة فيحاربها ويعاديها. ثم هو يعرف كيف تكون أساليب الرد عليه وتذكيره بالمثالب والمعايب واستعمالها في الحط منه والنكير عليه.

هنا نرى أبا بكر يمثل جهاز الأمن والمعلومات للدعوة الإسلامية الوليدة، الجهاز الذي يوفر لها المعلومة الصادقة الدقيقة، ولهذا ما إن سمع أبو بكر بالدعوة وصدقها حتى انطلق فجاء في الأيام الأولى بتسعة من المسلمين، ستة منهم من العشرة المبشرين بالجنة، بالإضافة إلى إسلام أسرته. أولئك النفر الذين أسلموا على يد أبي بكر هم أعمدة الإسلام الذين حملوه حتى فتح المشرق والمغرب. ما كان له أن يفعل هذا لولا ذلك العلم بالناس ومعادنهم!.

وقد جرت الاستفادة من خريطة أبي بكر في خطاب الدعوة للناس، سواء في باب استمالتهم أو في باب رد عاديتهم، فمما روي في استمالتهم أنه كان يصحب النبي حين كان يعرض نفسه على القبائل، فتقدم إلى قبيلة فسألهم: «ممن القوم؟

قالوا: من ربيعة.

قال: وأي ربيعة أنتم أمن هامها أم من لهازمها؟

قالوا: بل من هامها العظمى.

قال أبو بكر: فمن أي هامتها العظمى أنتم؟

فقالوا: ذهل الأكبر.

قال لهم أبو بكر: منكم عوف الذي كان يقال له لا حر بوادي عوف؟ قالوا: لا.

Readonly

قال: فمنكم بسطام بن قيس أبو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا.

قال: فمنكم الحوفزان بن شريك قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا.

قال: فمنكم جساس بن مرة بن ذهل حامي الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا.

قال: فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا.

قال: فأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا.

قال: فأنتم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا.

قال لهم أبو بكر رضي الله عنه: فلستم بذهل الأكبر بل أنتم من ذهل الأصغر».

وتسجل ذات الرواية بعد قليل دخولهم على قوم آخرين في «مجلس عليه السكينة الوقار، وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات، فتقدم أبو بكر فسلَّم وقال: ممن القوم؟ قالوا: من بني شيبان بن ثعلبة. فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم».

وأما في رد عاديتهم فقد كان شاعر الإسلام حسان بن ثابت إن أراد هجاء من يسبون رسول الله، راح إلى أبي بكر ليعرف أنسابهم وأيامهم، فيتخير من الألفاظ والوقائع والمعاني ما لا يقترب به من نسب رسول الله، إذ للنبي في قريش نسبًا، فتعلم من أبي بكر ما يحتاج إليه ثم انطلق ليوقع بهم هجاء كان أشد عليهم من السهام.

في عصرنا هذا كان غياب الجهاز الأمني للحركة الإسلامية وحركات المقاومة هو أقوى وأخطر ثغراتهم التي أفضت إلى هزيمتهم وإفشالهم، وقد روى بعض رجال تلك الحركات أنه كان من شرط السماح للإخوان المسلمين في عصر مبارك بالبقاء

Readonly

هو ألا يكون لهم أي جهاز جمع معلومات ولو اقتصر فحسب على أحزاب المعارضة الأخرى، (راجع للمزيد مقال: ما الذي ينقص الحركات الإسلامية لتنجح).

ومن المثير للأسى أن حركة تغيير أو مقاومة أو ثورة تفكر في مواجهة نظام وهي لا تعرف خريطة رجاله وتحالفاتهم وعلاقاتهم وخصوماتهم، ولا تعرف أهم خمسين اسمًا، أو أهم خمسين شركة، أو أهم خمسين موقعًا... مثل تلك الحركة حركة عمياء! وكانوا قديمًا يضربون المثل بالملاكم القوي الضخم الذي يفقد قوته كلها إن وُضِعت الغمامة على عينه، فكيف إن كان الأعمى هو الملاكم الضعيف الذي يواجه الملاكم الضخم المبصر؟!

وكان ما لدى أبي بكر من العلم بالأنساب والأيام يجعله مركز شبكة العلاقات العامة للدعوة الإسلامية، كان يجتمع إليه صفوة الناس في قريش ونخبتهم على اختلاف قبائلهم، ورغم أن أبا بكر من قبيلة ضعيفة في قريش (قبيلة تيم بن مرة) إلا أن أثره كان ممتدًّا لسائر قريش. ولو دققنا في أسماء التسعة الأوائل الذين أسلموا على يده لوجدنا فيهم: عثمان بن عفان (من بني أمية بن عبد شمس)، والزبير بن العوام (من بني أسد)، وسعد بن أبي وقاص (من بني زهرة)، وأبو سلمة بن عبد الأسد (من بني مخزوم)، وغيرهم. وليس من دعوة إلا وهي تحتاج رجالًا في مواقع النفوذ والتأثير من مراكز قوى المجتمع، وتحتاج من يستطيعون الحديث عنها وشرحها والتنظير لها.

ثم إن موقع أبي بكر في عالم المال، لكونه واحدًا من مشاهير تجار قريش، يمثل بمصطلح العصر «رجل الأعمال»، وهو بما له من قوة مالية أنفقها كلها في سبيل الدعوة، وتحرير من أسلم من العذاب والرق. وكان النبي ﷺ يذكر له مواساته بالمال. وسيبدو واضحًا أن عددًا من أولئك الأوائل كانوا تجارًا: عثمان

Readonly

بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وجميعهم ممن كانت لهم مواقف مشهودة في نصرة الإسلام بأموالهم. وهذا الجانب أهم من أن نطيل الكلام فيه، فلا تكاد تكون قصة فشل في تاريخنا المعاصر إلا وكانت أزمة التمويل جانبًا منها. فالممولون يتحكمون بالمنع والعطاء في التأثير والتوجيه وصناعة الفصائل والحزبيات والأجنحة والانشقاقات، حتى إن الثورات وحركات المقاومة تدفع من دمائها وأرواح شبابها في معارك خاسرة تحت ضغط الأموال.

بقي أن أبا بكر مع هذا كله كان إلفًا مألوفًا، حسن الخلق... وإن الناس يحبون القرب من أهل المال وإن كان فيهم كبر وغلظة وجفاء، وكثير من الناس يحبون القرب من أهل العلم وإن كان فيهم كبر وغلظة وجفاء، فكيف إن اجتمع في رجل واحد: العلم والمال مع التواضع واللين وحسن الخلق؟!

تلك الجوانب من شخصية أبي بكر وأثرها في الدعوة ينبغي أن نركز عليها أكثر من التركيز على رقته ورحمته وبكائه حين يقرأ القرآن، فهذه مع أهميتها لكل مسلم إنما تعود على شخصه فحسب، ولم ينتفع الإسلام برقة أبي بكر وبكائه قدر ما انتفع بفهمه لخريطة واقعه وشبكة علاقاته وأمواله. ولا أحسب أن الأمة تعاني من نقص أهل الرحمة والرقة والبكاء قدر ما تعاني من نقص الكفاءة في تلك الثغرات الكبرى الخطيرة.

أراد أبو الحسن الندوي أن ينعي حال الأمة فجعل عنوان كتابه «ردَّةٌ ولا أبا بكر لها»، ولعله لو عاش زماننا هذا واكتشف أن كثيرًا ممن بنى آماله عليهم لم يكونوا كما توقع لكتب كتابًا آخر فسماه «دعوةٌ ولا أبا بكر فيها»!!

* * *

Readonly

الجهاد العلمي

نشر في مجلة «الوعي الإسلامي»

إبريل، مايو، ٢٠١٤

«إننا ـ معشر الأوربيين ـ نأبى في عناد أن نقر بفضل الإسلام الحضاري علينا، ونميل أحيانًا إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير أحيانًا تجاهلًا تامًّا، والواجب علينا من أجل إرساء دعائم علاقات أفضل مع العرب والمسلمين، أن نعترف اعترافًا كاملًا بهذا الفضل، أما إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا على كبرياء زائف»[1].

أثر الإسلام:

إن الأمة الإسلامية تدين بوجودها الحضاري كله لهذا الدين، فهو الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وحولهم من حفاة عراة عالة دهماء يرعون الغنم إلى سادة قادة يقودون الأمم، فالعلوم والمعارف التي ابتدعتها الأمة أو طورتها إنما هي في جملة الفضل العظيم الذي جاءها به هذا الدين.

ثم إن ما جاء في الكتاب الكريم وفي أحاديث النبي ﷺ من الحض على طلب العلم وعلى التفكر في خلق السماوات والأرض والنفس، وبيان أن مهمة البشر إعمار هذه الأرض... كل ذلك كان وراء الانبعاث الحضاري الذي شهدته الأمة، وكان من آثاره المهمة هو تسليح الأمة بالمنهج العلمي، منهج النظر في العلوم، أو ما يسمى «فلسفة العلوم» بحيث استطاعت الأمة أخذ العلوم دون أخذ الفلسفات

---

(١) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ص٨.

Readonly

الحاضنة لها من الشرق أو الغرب، وظل المتأثرون بالفلسفات الأخرى قلة قليلة وسط تيار الأمة الكبير.

لكن ثمة إضافة ينبغي التنبه لها، ذلك أن كثيرًا من عبادات الدين وشعائره ونصوص القرآن والسنة كانت ذات دفع مباشر للبحث والتعمق في بعض العلوم، ومن ذلك مثلًا أن التوجه إلى القبلة في الصلاة كان هو الدافع الأكبر وراء بحث المسلمين وتقدمهم في مجالات الفلك والجغرافيا والخرائط لتحديد وجهة الصلاة، كما أن نصوص تفضيل بعض الأطعمة ونصوص التداوي بالعسل والتمر وبعض الأعشاب وآيات القرآن التي تقسم بالتين والزيتون وتصف العسل بأنه شفاء للناس، كان دافعًا وراء بحث المسلمين في الطب والأدوية والنبات والكيمياء.

ويبدو أثر الإسلام أكثر وضوحًا في عدد من العلوم التي ابتكرها المسلمون ولم يُسبقوا إليها، فلقد كان ذلك ضمن مجهودهم لخدمة الشريعة بخدمة نصوصها ضبطًا وتوثيقًا أو فهمًا وتحقيقًا.

الإسهام الأكبر

كانت اليد العظمى التي قدمتها الحضارة الإسلامية للعالم هي اعتماد الطريقة التجريبية العملية كأساس للعلم، وقد كان الأمر قبل ذلك قائمًا على الفلسفة والمنطق والدراسة النظرية، ولم تعد هذه المعلومة موضع شك أو جدل، إذ ما من كتاب أرخ للحضارة الإسلامية إلا وذكر هذا الفضل لها، واعترف بأن أفكار روجر بيكون وفرانسيس بيكون في التأسيس للطريقة التجريبية لم تكن إلا تتلمذًا على مؤلفات المسلمين[1].

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤٣٥، ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٩٦، زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب ص١٤٨.

Readonly

ولَكَم كان التجريبيون ساخطون على تراثهم النظري الفلسفي اليوناني وغيره لما سببه من تخلف غربي امتد قرونًا، حتى لنجد فرانسيس بيكون يعتبر الدراسة النظرية كسلًا وخمولًا ومجونًا وتصنعًا، وكان يكره الرياضيات وهاجم جاليليو، وكان معاديًا لأرسطو، وقبله تمنى روجر بيكون لو أحرق كتب أرسطو جميعًا[1].

كان هذا هو الإسهام الأكبر، وأما العلوم ذاتها فإليك نُتَفٌ عنها اجتهدنا في حشدها سريعًا في المساحة المتاحة.

وحديثنا في هذا المقال عن العلوم البحتة أو العلوم التطبيقية، فأما ما أسسه المسلمون في العلوم النظرية فآثرنا عدم ذكره الآن، لكن المسلمين أسسوا فيه لعلوم عجيبة مثل علم مصطلح الحديث والجرح والتعديل فبه انفردت الأمة عن غيرها بضبط وتوثيق وتحقيق الأقوال إلى أصحابها، وكعلم الاجتماع وطبائع العمران وغير ذلك، وكذلك أضاف المسلمون إسهامات واسعة في الفكر والفلسفة واللغة والأدب والشعر والتربية والأخلاق والقانون والتشريع والفنون.

أولًا: علوم ابتكرها المسلمون

ونأخذ منها الكيمياء والميكانيكا والجيولوجيا.

فقبل أمة المسلمين لم تكن الكيمياء علمًا بل ضربًا من التخريف، يحلم الإنسان أن يصل إلى المادة التي تخلد الإنسان في الدنيا «إكسير الحياة» أو المادة التي تجعل التراب ذهبًا «إكسير الذهب»، وبهم صارت علمًا وتجربة، فحللوا المواد

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص١٤٣، برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ٨٣، ه. ج. ويلز: موجز تاريخ العالم ص٢٤٣، رونالد ستورمبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ص٦٨ وما بعدها.

Readonly

كيميائيًا وصنفوها إلى أحماض وقلويات واستنبطوا محاليل، وعرفوا أحماضًا، وركبوا عقاقير، وتوصلوا إلى مواد كثيرة مركبة، كما عرفوا تنقية المعادن، وكل ذلك كان فتحًا جديدًا في ساحة العلم، وهو ما مهد لفتح آخر في علم الصيدلة وتركيب الأدوية وتحضير العقاقير وفحص خصائص المواد وآثار اختلاطها.

وفي الميكانيكا ـ الذي سماه المسلمون «علم الحيل» ـ كانت إبداعات المسلمين تترى في الاستفادة من قوانين القصور الذاتي والتغذية العكسية، فأبدعوا في صناعة الساعات والتقاويم والروافع وتطبيقات الحركة بعد زمن أو الحركات المتتابعة، حتى كان من مخترعاتهم مصباح يسرج نفسه فيخرج فتيلته ويشعل زيته ويواصل عمله دواليك، ومنها أيضًا إنسان آلي يساعد على الوضوء، وحامل مصحف ينفتح ويغلق بضغطة واحدة وغير هذا كثير.

وفي الجيولوجيا فسر المسلمون ظواهر الزلازل والبراكين والينابيع والسيول والأعاصير والعواصف والمد والجزر، وصنفوا أنواع الصخور والجبال وكيفية تكونها، وأنواع النيازك والأحجار الكريمة، وتحدثوا عن زيت الأرض (النفط) ووسائل التنقيب عنه، وهم أول من تحدثوا عن علم البلورات، وبحثوا في التاريخ الجيولوجي للبلدان (الأحافير وطبقات التربة).

ثانيًا: علوم طورها المسلمون

ونأخذ منها الفلك والفيزياء والهندسة والجغرافيا والطب.

ففي الفلك كان المسلمون أول من قالوا بدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، واشتهروا بإبداعاتهم في تطوير الاسطرلاب (آلة رصد السماء ومواضع الأجرام فيها) وصناعة أنواع متخصصة ومبتكرة واستعمال ذات الاسطرلاب في فوائد جديدة، كما

Readonly

أبدعوا في وضع الأزياج (جداول حسابية لحركة الأجرام السماوية) وتصحيح ما أخطأ فيه سابقوهم، واستطاعوا رصد حركات آلاف الأجرام من النجوم وغيرها واكتشاف عدم الانتظام في حركة القمر، ولذلك عرفت كثير من النجوم بأسمائها العربية مثل سهيل والدب الأكبر والدب الأصغر والجوزاء وغيرها.

وفي الفيزياء طور المسلمون وصححوا قوانين الحركة، واكتشفوا الأوزان النوعية والكثافة لكثير من المواد، وهم أول من اكتشفوا أن الهواء مادة وله وزن وكثافة، وكانوا روَّاد علم الصوت إذ قالوا بأنه ينشأ عن اهتزاز جسيمات ويتنقل في هيئة كرية، وإذا اصطدم بجبل أو نحوه فذلك سبب الصدى، والمسلمون هم من اكتشفوا قوانين الحركة، والجاذبية وعجلتها (معدل زيادة السرعة)، وعلى أيدي المسلمين قفز علم البصريات قفزات واسعة في جوانب تفسير عملية الإبصار وحركة الضوء في الأوساط المختلفة وتشريح العين ووضعوا الأساس النظري للكاميرا (التي هي تحريف عن اللفظ العربي «القُمْرة»).

وعلى يد المسلمين انتقلت الهندسة من علم نظري رياضي إلى علم تطبيقي عملي، وكان أهم ما أنجزوه في النظريات تصحيحاتهم على علماء اليونان كإقليدس وأرشميدس وحل المعادلات المعقدة، بل فتحوا الطريق أمام التفاضل والتكامل، وهم أول من استخدموا الصفر الذي يراه البعض أعظم اكتشاف علمي؛ إذ أمكن به حل المسائل المطولة وبه انفتح باب علمي كبير وهو معرفة الأرقام السالبة. والمسلمون هم من ابتكروا علم الجبر وحلوا معادلات الدرجة الثالثة، وأسسوا لعلم الهندسة التحليلية، وابتكروا حساب المثلثات المستوية والكروية، ويحتار الباحث في تصنيف العمارة الإسلامية هل يتحدث عن إبداعها لدى الحديث عن

Readonly

الهندسة أم لدى الحديث عن الفنون، فالفنُّ والهندسة كلاهما تضافرا ليصنعا نهضة معمارية علمية فنية خلابة.

وفي الجغرافيا أثبت المسلمون أن الأرض كروية، وكانت خرائطهم هي الأتم والأدق والأشمل، وهم أول من رسموا أعماق إفريقيا، وأول من قالوا بأن المحيط الهادي يتصل بالهندي ووصفوا طريق رأس الرجاء الصالح، بل إن بعض الخرائط تمثل حتى الآن لغزًا علميًّا في دقة وصفها ـ كخريطة بيري ريس العثماني لسواحل أمريكا الجنوبية ـ والمسلمون هم أول من قاسوا قطر الكرة الأرضية واكتشفوا وجود الأمريكتين (العالم الجديد) وهم أول من وضعوا خطوط الطول والعرض على الكرة الأرضية.

وفي الطب كان المسلمون أول من اخترعوا أدوات الجراحة، ووضعوا قوانين لها وطرقًا مبتكرة في إجرائها، ووضعوا علم المناظير الجراحية، وكانوا أول من عرفوا التخصص الطبي، وكانوا أول من اكتشف كثيرًا من الأمراض وأسسوا لعلم «الطفيليات» وناقلات العدوى، وأول من شرحوا أثر البيئة والأجواء على الأمراض والعلاج، واكتشفوا الدورة الدموية.

***

والمقام لا يتسع لأكثر من هذا، بل هذا الأمر مما يضيق عنه كل مقام، وما زال القارئ مدعوًّا لمطالعة الكتب والأبحاث عن إسهامات المسلمين في علوم النبات والزراعة والري واستنباط المياه ورفعها والتلقيح والهندسة الوراثية وغيرها وغيرها... ففي كل هذا صفحات تبعث الفخر.

ولكن... ما فائدة اجترار هذا الآن؟ وكيف تنتفع الأمة بما قد مضى عليه قرون؟!

Readonly

تلك كانت مقدمة ضرورية للحديث عن أن ساحة الجهاد في هذا العصر أحوج ما تكون إلى هذا النوع من الجهاد... الجهاد العلمي.

لم تخل الحروب يومًا من الحاجة إلى العلم، حتى في زمن السيوف والرماح والخيول، فكانت الجودة في صناعة السلاح مما يُهتم به ويُثنى عليه، فيسمى السيف مهندًا لما للهنود من مهارة في صنعه، ويصنع بنصل ونصلين، ويختار للقوس نوع الوتر وحد السهم، ويُفتش في الجياد والخيول عما يُطمئن إلى قدرتها على الركض والانصياع لفارسها. واستعمل البيزنطيون مادة لهب عرفت باسم «النار البيزنطية» التي كانت لا تنطفئ بالماء بل يزيد لهبها ولقد عانى منها المسلمون كثيرًا حتى اكتشفوا سرها بعد ثلاثة قرون فطوروها وانتصروا بها[1] وهي التي تطورت فيما بعد إلى البارود، كما واضطر المسلمون إلى البحث عن مواد غير قابلة للاشتعال ليغطوا بها حركة المركبات القديمة في اقتحام الأسوار لئلا تؤثر فيها السهام المشتعلة.

إلا أن كل هذا يتضاءل حتى لا يُكاد يُرى إلى جوار ضرورة العلوم للجهاد في العصر الحديث، ذلك العصر الذي صارت أسلحته جميعًا «مخترعات علمية»، وصار استعمالها معقدًا إلى الحد الذي لا بد من تدريب عليه لإجادته، وصار الصاروخ يوجه من مقر بعيد عبر أقمار صناعية معلقة في الفضاء، وتطير الطائرة بغير طيار بتحكم من مركز قابع على بعد مئات الآلاف من الأميال... حتى أبسط الأمور صارت صناعة علمية كالبنادق ومناظير الرؤية الليلية ونوعية لباس الجنود!

---

(١) يعود الفضل في اكتشاف سر هذه النار إلى غزوة تسالونيك ـ المدينة الثانية بعد القسطنطينية ـ التي قادها الأمير المسلم غلام زرافة عام (٢٩١ هـ)، ثم طورها المسلمون في معاركهم مع الصليبيين بعدئذ خصوصًا في عصر الدولة الأيوبية. انظر: محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ص٩٣ وما بعدها، د. علي الصلابي: الدولة الأموية ٢/ ٣٨، ٣٩.

Readonly

لا مفر من حيازة العلم، فهو واجب في نفسه ولا يتم واجب الجهاد إلا به فهو أيضًا واجب لازم لغيره، وتكاد تكون كل لحظة مهدرة في مسار تحصيل العلم تساوي ـ في أقل الأحوال ـ مئات الأرواح من المسلمين، فاللحظة الحضارية لا تقاس بالسنين وإنما بالقفزات العلمية، وأسبق الناس إلى العلم أقدرهم على تحسين موقعه في ميزان القوى لسنين.

إلا أننا في لحظة أخرى فارقة، ذلك أن الأمة التي تشتعل شرقًا وغربًا بجهاد ـ يتفاوت في شدته وتطوره ـ مرير، وتعاني لحظات التهديد الكبير في دينها ودنياها، تلك الأمة هي الأقدر على تثوير طاقتها واستثمار كل المجهودات في الدفاع عن دينها وذاتها وبقائها.

ومن سنة الله تعالى أن سنة التدافع هي التي تفجر الطاقات المكنونة فتمنع من البغي ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ففي ظل الحروب تتطور العلوم، بل الحروب هي الأسباب الأكبر لتطويرها لما ينبعث في كل قوم من حاجتهم للنصر، حتى لا تكاد تجد قومًا في انبعاثهم الحضاري إلا هم مندفعون نحو تطوير علومهم لتصب في صالح القوة العسكرية، ثم تحتاج القوة العسكرية إلى تطوير العلوم، وهكذا تدور الدائرة المغلقة حتى تخفت الإرادة ويتحقق الرخاء فيبدأ الفتور الذي يعود على العلوم العسكرية بالضعف ثم على الأمة جميعًا، فتسقط على أيدي قوم أقل منها في علوم الحضارة وآدابها، وأقوى منها في الأمور العسكرية.

ومهما كان القوم متخلفون في العلوم والحضارة إلا أن غاية النصر تدفعهم

Readonly

إلى الأخذ بها، فحتى المغول الذين يُضرب بهم المثل في التوحش كانوا إذا دخلوا مدينة أخذوا منها أرباب الصنائع وأرسلوهم إلى عاصمتهم ثم أبادوا الباقين، وكافة المهتمين بتاريخ العلوم يعرف ماذا أحدثت الحرب العالمية الثانية من قفزات علمية هائلة في الاتصالات والصناعات، بل هذا الاختراع الذي غير وجه الدنيا (الانترنت) هو بالأصل اختراع عسكري أمريكي لصناعة شبكة حواسيب لا مركزية.

على عكس ما يتوقع الكثيرون فإن الأمم تنهض وهي تحارب لا وهي مسترخية، والأمثلة على هذا أكبر من أن تحصى، فالمصريون أثناء الحملة الفرنسية ـ ومع الفارق الرهيب ـ استطاعوا إنشاء معمل للبارود، واستطاعوا إعادة تصنيع واستعمال ما بقي من المدافع التالفة، واستعلموا الأدوات البدائية من حجر وأخشاب ومثاقيل الموازين وما ضُرِب عليهم من قنابل الفرنسيين ليعيدوا صناعتها كقنابل تُطْلَق من المدافع، وكان أبطال المشهد هم أصحاب الحرف من السباكين والنجارين والحدادين والعربجية، حتى ليقول ضابط فرنسي «لقينا مقاومة لا قبل لنا بشراستها وتنظيمها من قبل»، ويشهد أحد مهندسي الحملة بأن ما فعله سكان القاهرة «لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل، فقد صنعوا البارود وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصُنّاع، وفعلوا ما يصعب تصديقه ـ ومن رأى ليس كمن سمع ـ ذلك أنهم صنعوا المدافع»، بل يشهد كليبر ـ قائد الحملة الفرنسية آنذاك ـ بأنه لم يكن يتصور الوضع على هذه الدرجة من الخطورة[1].

وها هي إسرائيل لم تزل تتطور وهي تحارب، وها نحن لم نزل نتخلف ونحن

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ٣٢٦ وما بعدها، جوزيف ماري مواريه: مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر ص١٥٥ وما بعدها، الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم ٢/ ١٧٣.

Readonly

نتسول السلام، ولم تفلح عقود السلام في إنشاء تطورات عسكرية في حين تقفز البلاد التي تحارب لتجرب الجديد من سلاحها فينا وعلى أرضنا، ثم تلقي إلينا بما صدأ منها لتستلب أموالنا ثم لا نفعل به شيئًا.

وإليك النموذج الصارخ: حماس في غزة، وسلطة رام الله في الضفة... هؤلاء قوم اختاروا المقاومة فصنعوا صواريخ محلية ويعملون على تجارب طيران واخترقوا مواقع إسرائيلية، وأولئك تسولوا بالسلام فلم يفعلوا شيئًا.

وذات الكلام يقال على الجهاد في الشام، وعلى الجهاد في كل مكان، فهناك يصنع الشباب من المركبات البالية ما يعد مخترعات عسكرية مطورة بأدوات بدائية وتحقق أهدافًا مؤثرة.

ثم نحن إذا استنفدنا الجهد وبقي الفارق كبيرًا، فإننا على رجاء من رحمة الله وفضله على أوليائه[1].

على أنه يجب التنبيه على أمر في غاية الأهمية والخطورة، وذلك أننا لسنا مجبرين على المضي في ذات المسار، ففارق السنين لن نقضي في ردمه سنين، بل نحتاج إلى الإبداع الذي يقطع المسارات في لحظات، هذا الإبداع هو الذي يقفز بالحركة قفزات غير متخيلة كما حدث عبر التاريخ.

لقد أبطلت الطائرات (الفكرة المبتكرة) عمل الأسوار والخنادق والحصون

---

(١) قص الشيخ عبد الله عزام في كتابه «آيات الرحمن في جهاد الأفغان» ست قصص تعمل فيها الطيور في دعم المجاهدين، إما بتنبيههم قبل القصف، أو بحمايتهم منه، أو بالتشويش على طائرات الروس... وقد سمعنا كثيرًا مثل هذا في حروب رمضان ١٣٩٣ (أكتوبر ١٩٧٣م) وفي جهاد غزة والشام والعراق وغيرها، بل لا يكاد يخلو جهاد من مثل هذا مهما كان صغيرًا ومحدودًا.

Readonly

فجعلت كل جهود الأقدمين بلا قيمة تقريبًا، تمامًا كما أبطلت الدبابات والمركبات عمل الخيول، وكما أبطلت البنادق عمل السهام والرماح، وأبطلت المدافع عمل المجانيق ...إلخ.

ورغم ما يفرضه الغرب من حصار علمي على العالم الإسلامي، ورقابة حتى على المواد الإلكترونية التي قد تستعمل في تصنيع أسلحة عسكرية، إلا أن الإبداع قادر على اختراق كل هذا، فالعقول بيد الله وهو الفتاح الوهاب العليم.

لقد استطاع عبد القدير خان أن يصنع القنبلة النووية الباكستانية على غير مثال سابق ـ بما يعد اختراعًا جديدًا ـ إذ كان الدعم العلمي معدومًا، ولولا إرادة وعزم وذكاء لما تمكنت باكستان من تحقيق توازن ردع أو توازن نووي ليس مع الهند فقط بل مع أي دولة أخرى[1]، وهذا دليل على أننا قادرون على الوصول إلى حيث انتهى الآخرون بل وأبعد منهم إذا انطلقنا من حيث انتهوا لا من حيث بدأوا.

ثم ولو افترضنا أن الفجوة غير قابلة للردم ـ وهذا لا يمكن أن يكون صحيحًا ـ فإن الإبداع قادر على اصطناع مساحات جديدة غير متوقعة، فلئن استحال إنتاج قنابل نووية ـ على سبيل المثال ـ فالأسلحة الكيماوية والبيولوجية هي نوع من توازن الردع، وهذه مساحة واسعة بعدد ما في الكون من مواد وبعدد ما خلق الله من عقول تركب وتخلط وتوازن وتبتكر.

ثم إن النظم الإلكترونية التي هي كالشرايين في أرجاء العالم الحديث تمثل بالنسبة للضعفاء فرصة ومساحة جديدة للإبداع، ليس فقط على سبيل الاختراق

---

(١) أما كون القنبلة قد أفسدها عمل الساسة فهذا حديث آخر يأتي في مقام: كيف نحمي إنجازاتنا من العملاء والأغبياء.

Readonly

وتعطيل أجهزة العدو بل على سبيل ابتكار أنظمة وبرامج جديدة تساهم في تعديل ميزان القوى والتحكم في هذه المنظومة... بل تكاد تكون هذه المساحة بكرًا تنتظر كل إسهام فعال.

ولئن كان مراهق فلسطيني اكتشف ثغرات في الفيس بوك ـ المعدود من المواقع العالمية الكبرى ـ واخترق بدون أي برامج صفحات رسمية لمسؤولين إسرائيليين[1]، فكيف إذا تضافرت عقول وقلوب ومؤسسات؟!!

إن أوامر الله بالإعداد ووعده بالنصر، وسيرة النبي وتعاليمه، وتاريخ الأجداد وعلومهم وجهادهم... ثم حال الأمة هذا، ليدفع بكل نفس لديها الحد الأدنى من العزة والكرامة أن تشتد في طلب الغاية حتى تدركها.

***

(١) تقرير أذاعته قناة الأقصى في شهر مارس ٢٠١٤م.

Readonly

وكم في «كورونا» من فوائد وعظات!

نشر في مجلة «كلمة حق»

إبريل ٢٠٢٠

أليس من العسير أن يجد الكاتب شيئًا يكتبه في أمرٍ يتكلم فيه العالم كله؟

بلى هو كذلك... إلا أن الذي يُهَوِّن الأمر قليلًا هو تنوع الهموم، فكلٌّ يُغني على ليلاه، وكلٌّ يلتمس من الأحداث ما يجد فيه سلواه أو يجد فيه هداه... وهذه سطور مسلم في زمن القهر والهزيمة، قد أظلته جائحة كورونا، ففيها من الهمَّ والشجوى ومن الدرس والعبرة ما ليس يراه من لم يكن كذلك!

وهي ـ وإن طالت ـ مختصرة مجملة، فإن ظننتَ أن فيها سطحية مبتذلة، فكرِّر النظر وأعد التأمل، فقد أودعتها خلاصة نظر طويل، فإن تبينت المعنى ثم أنكرته فلا تثريب عليك، التثريب ألا تتبيّنه ثم تسارع مستنكرًا.

الهول الأعظم

كيف يكون الهول الأعظم إذا كان هذا هو ارتياع العالم من فيروس لا يُرى، ولا يقتل في الحال، بل وقد تعافى منه كثيرٌ ممن أصيبوا به؟

كيف سيكون حال الناس حين تتزلزل الأرض وتنشق السماء وتنتثر الجبال وتُحشَر الوحوش وتهيج البحار وينقلب حال الأرض كله هولًا عظيمًا؟!

ذلك الذي يخوف الله به عباده...

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

Readonly

لقد كان الله حاضرًا وخالقًا ومدبرًا في كل لحظة، هو الذي خلق البذرة وخلق الماء وخلق الأرض ووضع في كل ذلك قوانين الزرع والنماء، فلما جاء الإنسان فبذر وسقى فخرج له زرعه ناضرًا زاهيًا، ظنَّ أنه الذي فعل هذا كله، وظنَّ أنه المتحكم فيه القادر عليه، فإذا به تأتيه العاصفة فتقلب له أرضه وزرعه، وتقلب معها تصوراته وأفكاره، وتفضح ضعفه وعجزه!

وما أشبه هذا بحال البشرية اليوم، تلك التي صار العلم فيها يُعبَد من دون الله، حتى ليُقال عن شيء فرضه الله صراحة «لا نؤمن به حتى يثبته العلم»، أو عن شيء حرَّمه الله صراحة «لا نكفّ عنه حتى يثبت العلم ضرره»، حتى هذا الخسوف والكسوف يثير صخب العلمويين حتى يسخرون ممن يهرع إلى الصلاة، لسان حالهم: تلك آية من آيات العلم لا من آيات الله!

وغدًا بعد زوال هذه الجائحة، وسواءٌ أزالتْ بأمر الله من تلقاء نفسها، أو زالت بأمر الله بأن هدى بعض عباده لدوائها، سيرجع إلينا أولئك العلمويون ليقولوا: انتصر العلم!... وهكذا حتى تأتيهم عاصفة أخرى تفضح ضعفهم وعجزهم، ويحق فيهم قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

الإلحاد في كورونا!

آمن الناس بكورونا، ولم يؤمنوا برب كورونا...

مع أنهم لم يروه جهرة، ولا سمعوا له صوتًا ولا أنزل لهم كتابًا ولا أرسل

Readonly

إليهم رسولًا، وما هو إلا أن أخبرهم الأطباء به، ثم أبصروا آثاره في بعضٍ منهم... هذا الذي يثير الحرارة ويصيب بالصداع والغثيان وينشب في الرئة صار حقيقة لا شك فيه! وأما الذي خلق الرأس والحرارة والرئة والبدن وكورونا نفسه فلا يزالون يتجادلون فيه!!

لقد راوغ الملحدون كل مراوغة في التماس طريقة يثبتون بها الخلق دون الاضطرار إلى الإيمان بالخالق، فتحدثوا عن الصدفة، وعن التطور، وعن غيرها من الأسباب، بل جادلوا في قانون السببية نفسه، حتى صار يصحّ في عقول كثيرين منهم أن هذا الكون العظيم الرهيب، بل هذه الخلية الواحدة المعقدة ليس لها خالق، أو أن خالقها قد تركها (أي: خلقها عبثًا) كصانع الساعة الذي يضبط حركتها ثم يتركها... وفاضت في هذا كتب وهلكت فيه أعمار وشغلت فيه ساعات من التلفاز والمسرح وأنواع الفنون.

فمن ذا يصدق الآن رجلًا يزعم أن كورونا ليس موجودًا، وأن الذين أصيبوا به إنما هم أناس ارتفعت حرارتهم وانهار تنفسهم بمحض الصدفة، لظروف خاصة شملت المصابين به عبر العالم، وأن انتشاره لا ينتقل بالعدوى وإنما انبثق من تلقاء نفسه في جسد كل مصاب، وأنها مجرد مؤامرة من الأطباء الكذابين الذين يستغلون خوف الناس من المجهول بغرض طلب الزعامة لأنفسهم؟!

هذا الذي قيل في الله وقيل عن رسله، مع أن الدلائل التي ساقها الله في كتابه المسطور وفي كونه المنظور، والتي جاء بها رسله، لم يأت بمثلها الأطباء عن كورونا، وإنما هم لا يزالون يكتشفون ويتبينون ويبحثون ويفحصون... لكن الذين في قلوبهم مرض، كفروا بالله وكذبوا رسله، وآمنوا بكورونا وصدقوا الأطباء!

Readonly

النبوءة!

أخبرنا الأطباء أن اسمه: كورونا (المستجد)...

هل يكون من الدروشة أن يذكرنا هذا بحديث النبي ﷺ: «وما فشت الفاحشة في قوم فأذاعوا بها إلا ابتلاهم الله بالأوجاع والأسقام التي لم تكن في أسلافهم»؟!

نعم، سيكون هذا من الدروشة والخرافة عند من يؤمن بالعلم، ذلك الذي لا يرى سببًا منطقيًّا واضحًا للربط بين انتشار الزنا والمجاهرة به وبين ظهور الأوبئة الجديدة... ولكن مهلًا: ما هو العلم؟!

أليس هذا العلم نفسه هو الذي لم يكن يعرف أن أكل الخفافيش والقطط والكلاب قد يسبب هذا النوع من الأمراض؟ بلى، هو على الأقل العلم الذي لم يقطع بعد بالسبب الذي انتقل به الفيروس من الحيوانات إلى البشر... فلا زال العلم يكتشف، وقد تكاثرت علينا أقوال «العلماء» حتى اضطربت وتناقضت!

لا بأس إذن... إذا عرفنا أن العلم لم يبلغ من الإحاطة بالأمور ما يعصمنا به من الأضرار، فلماذا يُصِرُّ بعضهم على اعتباره مصدرًا وحيدًا للمعرفة، ومعيارًا وحيدًا للحكم على الأمور؟!

إن في تاريخنا رجلًا أميًّا وجَّه أتباعه قبل نحو ألف وخمس مئة عام إلى تصرف الحجر الصحي حين ينزل الوباء في بلد ما، وفرض عليهم التطهر بالماء خمس مرات في اليوم في بيئة صحراوية الماء فيها عزيز نادر، ووجَّههم إلى غسل أيديهم عند الاستيقاظ من النوم «فلا تدري أين باتت يدك»، ووجههم إلى استعمال اليد اليمنى في المأكل والمشرب والطهور واستعمال اليسرى لمعالجة الأذى، ونهاهم عن الشرب من فيّ السقاء، وعن التنفس في الإناء، وعن ترك الآنية مفتوحة مكشوفة،

Readonly

ونهاهم عن أكل الميتة والدم وأكل لحم الخنزير والكلاب وذوات المخالب والأنياب، وعن البول في موارد الماء، وعن إنقاص الماء أو تغويره... وقد بُنِيت على هذه التوجيهات أساطيل من الفقه المكتوب الذي يرقى الآن لأكثر مما يوصي به هذا «العلم الحديث»!

إذا كان رجلٌ أميٌّ قبل خمسة عشر قرنًا قد قال بهذا كله... أليس من العلم نفسه أن يعتبر مصدرًا للمعرفة؟! إن لم يكن إيمانًا بأنه رسول الله فعلى الأقل وقوفًا أمام هذه الظاهرة العجيبة لهذا الحكيم العبقري الذي سبق العصور وخرق الأزمان وتفوق على العلوم؟

إنما هو أمرٌ قاله الله في كتابه بهذه البساطة المُعجزة المبهرة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]... هذه الآية تطرح على البشرية كلها سؤال: مصدر المعرفة؟ من الذي يملك أن يقول هذا حلال فكلوه وهذا حرام فاجتنبوه؟ من الذي يستطيع أن يهدي إلى الحق؟ اسمع قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥].

وإذن، فإذا كان العلم لا زال يكتشف ويبحث ويحاول الربط بين الظواهر بوسائله التي لا تزال قاصرة غير قادرة على أن تعصمنا من الضرر، ثم إذا كان هذا علم رجل أمي قبل خمسة عشر قرنًا... فما الذي يجعل قول هذا الرجل الأمي عن انتشار الفاحشة وإذاعتها وكونه سببًا في ظهور الأوبئة محتاجًا إلى ختمٍ علمي كي يُعتمد ويُتَّبَع؟!

ولو تنزلنا وسلَّمنا جدلًا وفرضًا بموقف العلمويين هذا، فأيهما أحسن للإنسان

Readonly

وأحسن للناس جميعًا: رجل يتبع النبي محمدًا ﷺ فإذا أصابه الطاعون اعتزل في بيته محتسبًا عند الله أجر الشهيد، أم رجل اتبع العلم فلم يجد عنده مؤنسًا من اليأس ولا ترغيبًا في أجر ولا رادعًا من عقوبة، فخرج يترك لعابه على الأبواب والمتاجر والمصاعد والمواصلات يريد أن ينشر المرض بين الناس عامدًا، لسان حاله يقول: إذا متُّ ظمآنًا فلا نزل القَطْر؟!

أيهما أحسن للمرء ولبني الإنسان كلهم؟

حرية البذرة الخبيثة!

بدأ كورونا في الصين، وعلى نحو ما هو معروف للجميع فإن الصين قد سكتت وصمتت وحاربت من يتكلم عنه خشيةً على تجارتها واقتصادها حتى فشا فيها المرض، ثم فشا في بقية البلاد، فاستيقظ العالم وإذا بالمرض قد انتشر فيه جميعًا...

وتحاول الصين الآن أن تهرع لمساعدة البلاد المنكوبة بما تستطيع، وهي تجد تجهمًا وهجومًا شرسًا عليها وعلى ما تسببت فيه جراء طغيانها وقهرها وكبتها وغموضها وتعميتها على العالم بشأن المرض، والآن هي اللحظة المثلى لكل ديمقراطي ليبرالي أن يتكلم عن الخطر الشديد الذي تسببه دولة ديكتاتورية شمولية لا على نفسها بل على العالم كله، وأن العالم كله يدفع ثمن وجود نظام ديكتاتوري واحد.

ونحن معه في هذا ونُسَلِّم له به... ها هو العالم كله يذوق ويلات قبوله وسكوته على وجود نظام طغياني جبار، تسبب بسياسته غير الشفافة هذه في قتل آلاف البشر على بعد آلاف الأميال!

ولو عاد الزمن بأكثر الموتى وأهاليهم، وعلموا شيئًا من أمر الغيب، لكنت

Readonly

ترى أن محاربة الصين وتغيير نظامها ولو بالقوة هو عمل ينبغي أن يكون على رأس أولويات العالم...

مهلًا لحظة... أراهم هنا يتحدثون عن «جهاد الطلب»... أليس كذلك؟!

أليس جهاد الطلب نفسه هو مطاردة الظلم والطغيان والشر في عقر داره، في غير احترام لمعنى السيادة على شعبه؟!

نعم... نعم، أعرف أن الأمة الآن لا تحلم بجهاد الطلب بل هي أعجز من جهاد الدفع، وأنا أكتب لكم هذه السطور من موقعي كلاجئ مشرد، لا يدري هل يُسْجن غدًا أو يُقْتَل بعد غد... نعم، أعرف هذا... وأعرف معه أيضًا أننا ينبغي أن نفهم ديننا ونستوعب معانيه لا أن نسارع لرفضها واستنكارها لأنها لا توافق الذوق السياسي المعاصر، فإذا فهمنا ديننا افتخرنا به، وذلك أول طريق العزة... فالظاهرة التاريخية ـ كما يقول ريتشارد كوك وكريس سميث في كتابهما: انتحار الغرب ـ أن كل الذين غيروا العالم إنما هم الذين اعتقدوا في أنفسهم القدرة على إنقاذه. وها قد جئت بالمعنى من قول الكافرين، لأني أعرف أن نفوسًا لن تستوعبه إذا قلته من كتاب رب العالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]!

لقد أخبرنا ربنا أن عقابه حين ينزل لا يصيب الظالمين وحدهم، وإنما يشمل معهم المظلومين ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥]، قال ابن عباس: «أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب»، وصوَّر لنا نبينا هذا الوضع أجمل وأشمل ما يكون التصوير، وذلك في حديث السفينة المشهور، وفيه أن الذين في أعلى السفينة لو تركوا الذين في أسفلها يتصرفون على هواهم ويخرقون السفينة فإنهم يهلكون جميعًا، فأما إذا تصدوا لهم (ولم يحترموا

Readonly

حريتهم في التصرف في نصيبهم!!) فإنهم ينجون جميعًا!... واقرأ هذه المعاني في أساليب متنوعة في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي باب الجهاد.

هذه الآيات وأمثالها، وهذه الأحاديث وأمثالها كانت تأسيسًا لثورة المسلمين على الطغاة منهم، وعلى الطغاة من غيرهم، من هنا كانت مطاردة المسلمين للمنكر في الأرض كلها رحمة للعالمين، جهادًا في سبيل الله، وقد أحسن الأستاذ الراحل جلال كشك حيث قال: «الجهاد ثورتنا الدائمة»!

الخوف من الموت

انقلب حال العالم، ومكث الناس في بيوتهم، وتعطلت الطائرات والاجتماعات وحتى الحفلات ومباريات الكرة... يخاف الإنسان من الموت ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. وها قد ظهر لكلٍّ منا أن كثيرًا من الأمور يملك أن يتخلى عنها، بعضها هين وبعضها مع نوع من الألم والمعاناة، إلا أن خطر المرض الذي يُحتمل معه الموت أكبر من ألم الترك.

يشبه هذا مشهدًا قديمًا...

مشهد المدينة المنورة حين نزل أمر الله بترك الخمر، فإذا بأزقة المدينة تسيل بالخمر التي كسَر المسلمون أوانيها. وكذا مشهدها حين نزل أمر الله بحجاب النساء فكانت النساء تشققن مروطهن فيحتجبن بها... إلا أن أسلافنا من الصحابة الأجلاء لم يكونوا يخشون من الموت، بل كانوا يخشون النار...

كانت الخمر عادة عربية راسخة، وكذا كانت ثياب النساء... وانتهى هذا حين كان داعي التغيير أقوى من داعي العادة والميل والشهوة، سيظل هناك من يذنب ويعصي في كل الأحوال (كما سيظل في الناس من يخترق حظر التجول بالتأكيد)، لكن هذا هو الشذوذ النادر وليس هو الأصل العام.

Readonly

إذن نستطيع، ويستطيع الناس، في ظروف ليس بالهائلة المريعة أن تنقلب حياتهم... ونحن نرى هذا بأنفسنا في أنفسنا حين يأتي رمضان، ينقلب شأن اليوم كله، فإذا بالطعام ـ وهو أرسخ العادات كلها ـ نتحمل الحرمان منه وانقلاب مواعيده، ذلك أن داعي طاعة الله وصوم الشهر الكريم أكبر في نفوسنا من ألم الجوع في النهار.

إن شهواتنا تحبس قدراتنا وطاقاتنا وإمكانياتنا، تحرمها من الظهور والنمو والفعالية... وإن أطماعنا في الحياة والأموال والرفاهية تثقلنا وتعوق حركتنا، ولذلك فطن الإمام ابن حجر إلى أن من فضل الطاعون «تقصير الآمال، وتحسين الأعمال، واليقظة من الغفلة، والتزود للرحلة».

على أننا مهما حاولنا تذكير أنفسنا بهذه المعاني فلن نفلح في أن نعيشها، وليس يعيشها إلا المجاهدون، أولئك الذين يقترب الموت منهم في كل لحظة، فالواحد منهم متخفف من دنياه مقبل على آخرته، قصير الأمل قليل الطمع... ولعل هذا من معاني كون الجهاد «ذروة سنام الإسلام»، إذ هو يرفع صاحبه ليكون في ذروة اليقظة وذروة الاستعداد.

العلم والسلاح

بدا العالم وكأنه هشٌّ في مواجهة انتشار كورونا، المنظومات الصحية في الدول الغربية «المتقدمة» تضطرب وتفقد توازنها... وظهرت طبيعة الدول التي لا تحفل بشأن الأخلاق، وتكرر استيلاء دولة على شحنة مساعدات طبية قادمة لدولة أخرى، كما تكررت شكوى دول أوروبية من التجاهل الأوروبي لمعاناتها، كذلك أبدى ترمب انزعاجه من أن يتوصل أحد إلى علاج كورونا ثم لا يكون الأمريكان

Readonly

أول من يستفيد منه، وأصدر قراره بتسريع إجراءات هجرة الأطباء إلى أمريكا ليترك هؤلاء أهلهم وديارهم ويذهبوا لعلاج الأمريكان.

هذه المشاهد المريعة التي يجب أن تعيد إلينا التفكير في طبيعة النظام الدولي، وخرافات القانون الدولي والعلاقات الدولية والتعاون الدولي وسائر هذه المفاهيم التي تظهر في أوقات الرخاء كقيود حريرية تُسْتَعبَد بها الشعوب.

وهذا الذي حصل بين الدول حصل مثله في الشعوب... الشعوب الأوروبية «المتقدمة» التي افترست المتاجر، وأحيانًا اقتحمتها وسلبتها ونهبتها، فضلًا عن التعامل الشنيع مع المسنين والعجائز إما كمرضى أو كمقيمين في دور العجزة أو حتى كزبائن لا يستطيعون المزاحمة. وهو ما يجب أن يعيد إلينا الثقة بأنفسنا وينقض عند كثير منا ما أصيبوا به من عقدة الخواجة وتوهم أن القوم ينطوون على أخلاق أصيلة لديهم منحها إياهم رقيهم الحضاري... والحق أنها أخلاق زائفة تسود في لحظة الأمن والطمأنينة واستتباب النظام... وإلا فمن الذي احتلنا ويعيش حتى الآن على ثرواتنا المسروقة؟

هذه المشاهد تكلم فيها كثيرون، لكن من بينها مشهد لم يحظ بالقدر الذي يستحقه من النقاش، ذلك هو: تزاحم الأمريكان على متاجر شراء السلاح جراء شعورهم باحتمال حدوث الفوضى واحتياج الواحد منهم إلى حماية نفسه وممتلكاته. ويناظره على مستوى الدول: تهديدات ترمب المتعلقة بعلاج كورونا.

وقد أثار البعض في عالمنا سؤالًا يبدو رصينًا ولكنه ينطوي على نظرة حالمة ساذجة، ذلك هو المفاضلة بين إنفاق المال على التسلح وإنفاقه على التجهيزات الطبية، الاهتمام بتطوير السلاح أو الاهتمام بتطوير المعامل والأجهزة الطبية...

Readonly

يقولون: ها قد بدا للعالم أن الإنفاق على السلاح وتطويره لم ينقذكم من الوباء، وكان الأولى أن تنفقوا على الطب والأبحاث.

هذه نظرة حالمة ساذجة، ويجب أن يكون واضحًا أن الإنفاق على العلم يخدم السلاح والطب معًا، والأغلب أن الدول التي أنفقت على اختراع السلاح وتطويره هي التي تتمتع بأفضل وضع في التجهيزات الطبية، بينما المتخلفون الذين يسرفون في شراء السلاح هم أنفسهم الذين يسرفون في شراء الأجهزة الطبية، ويتمتعون في نفس الوقت بجيوش ضعيفة ومنظومات طبية ضعيفة... على أننا سنسير وراء إغراء المفاضلة بين الطب والسلاح، ونسأل: إذا لم يكن لدينا خيار ثالث فأيهما أوجب: الإنفاق على اختراع السلاح وتطويره أم الإنفاق على الأبحاث الطبية؟

ربما في عالم الأحلام والعالم الإنساني الواحد الذي يعمه السلام سيكون علينا الإنفاق على الأبحاث الطبية، أما في عالمنا هذا الذي تنهش فيه الدول بعضها والبشر بعضهم، فلا بد أن يكون الجواب هو الإنفاق على السلاح... فالقوي المسلح هو الذي يستطيع أن يسلب الضعيف تجهيزاته الطبية ويحتكر لنفسه نتائج الأبحاث الطبية التي قام بها، وسيجبر القويُّ المسلحُ الطبيبَ الضعيف على علاجه وعلاج عصابته قبل أن يعالج الطبيب أباه وأمه وأهله، هكذا سيكون الأمر تحت قوة السلاح!

تنمو الحضارة بثلاثة أضلاع: العلم والسلاح والمال، وتظل متفوقة طالما أن الأضلاع الثلاثة تعمل على تقوية بعضها البعض؛ العلم يطور السلاح ويبتكر موارد المال، والسلاح يحرسهما ويأتي للعلم بالخبرات وللمال بالموارد الجديدة، والمال يغذيهما بالخبرات وبالإنفاق على تطورهما... وحين ينهار ضلع من أولئك، أو لا تعمل المنظومة بما يجعل الأضلاع الثلاثة تخدم بعضها البعض تبدأ الحضارة في

Readonly

الانهيار، وساعتها تقع الحضارة الزاهية المتفوقة علميًّا تحت أقدام الغزاة مهما كانوا أقل في درجة التطور العلمي والرقي الحضاري.

في ساعة الفوضى سيكون اللص أقرب إليك من الفيروس، وأقدر على الفتك بك وبأهلك ومالك من المرض نفسه، وساعتها لن ينفعك جهاز التنفس الصناعي ولا علم الطب الذي في رأسك، ستنفعك القوة التي في يدك، والتي تستطيع أن تحميك... هذا ما يدركه الناس بفطرتهم فيتحركون إليه كلٌّ بحسب قدرته، فمنهم من آخر قدرته أن يُخَزِّن الغذاء والدواء وأن يسحب ما يستطيع من أمواله المحبوسة في البنوك، ومنهم من قدرته أن يقاتل عن نفسه أو يقاتل ليسلب من غيره مأكله ودواءه وماله.

على أن الأمريكان من ضمن الشعوب المحظوظة التي تتمتع بحق التسلح، بينما بلادنا العربية المنكوبة بأنظمتها هي ضمن البلاد المنكوبة بأنظمتها الأخرى التي تجعل هذا الحق مسلوبًا من الشعوب، ومن ثمَّ فإن الشعوب في حالة الاستقرار أسرى بيد السلطة تظلمهم وتهبهم كيفما شاءت (بالقانون الذي تُفَصِّله طبعًا)، وفي حالة الفوضى أسرى بيد الخارجين على القانون الذين تسلحوا رغم أنف السلطة أو بمخادعتها. (للمزيد في هذا، اقرأ: مصير المواطن الصالح، نكبة الشعوب العزلاء)

وفي الواقع، ما لم تحصل شعوب أمتنا على حق التسلح هذا، فستظل الأمة ضعيفة ومقهورة وفي واقع احتلال وهزيمة، والحكومات المخلصة للشعوب الناهضة النامية تعرف أن قوتها في قوة شعبها المسلح، فالشعوب المسلحة عصية على الاستبداد وعصية على الاحتلال كذلك، وهكذا كانت شعوبنا المسلمة قبل عصر «الدولة الحديثة»، وكان المتطوعون في قصة كل جهاد ضد الاستبداد أو

Readonly

الاحتلال، حتى جاءت هذه الدولة الحديثة بجيشها الرسمي فصارت هزيمة الجيش تساوي سقوط الدولة (وكانت قبل ذاك تساوي بدء المقاومة الشعبية) ودخول العاصمة يساوي احتلال البلد كله (وكانت قبل ذلك تساوي بدء انتفاضة الأنحاء).

النكبة في المجتمع الإسلامي

بنى الإسلام نظامه الاجتماعي على منهج تتعدد فيه مراكز القوى، فالسلطة قوية، والمجتمع قوي كذلك، وبينهما شبكة من العلماء يتمتعون باستقلالية ونفوذ تجعلهم في منطقة وسط بين السلطة وعموم الناس. ولكي لا تجور السلطة على الناس حرص الإسلام على أن يكون المجتمع شديد التماسك والتعاضد والتكافل، وجعل صلاحيات السلطة محدودة ومُسَمَّاة، وجعل شرعيتها مرتبطة بالتزامها الشريعة، وجعل للناس حق الأمر بالمعروف وإنكار المنكر باليد واللسان فضلًا عن القلب. ولشدة حيوية المجتمع الإسلامي وقدرته على الثورة كان المجتمع مأمورًا بالسمع والطاعة للحكام في غير معصية وطالما كان انحرافهم بسيطًا. (للمزيد في هذا انظر كتاب «منهج الإسلام في بناء المجتمع»، وانظر: كيف نفهم أحاديث طاعة الأمراء).

هذا المنهج في بناء المجتمع بقدر ما يجعل المجتمع قويًّا عصيًا على أن يُستبدَّ به بقدر ما يجعله أقدر على علاج مشكلاته وأسرع في الحركة لمعالجة نكباته، ومنها الأوبئة والطواعين... وهذا على عكس نظام الدولة الحديثة الذي يجعل السلطة تحتكر كل شيء وتنظم كل شيء وتراقب كل شيء، وليس للمجتمع ملجأ إلا هي.

والدول «المتقدمة» التي تعمل منظومة الدولة الحديثة فيها لخدمة الشعب ما إن تنزل بها كارثة أو نكبة حتى تسارع فتناشد المواطنين والمتطوعين ـ والمجتمع

Readonly

الدولي أيضًا ـ بمساعدتها في احتواء هذه النكبة وتقليل آثارها، أي أن المنظومة الحديثة غير قادرة وحدها على استيعاب الطوارئ والمشكلات رغم ما لديها من الصلاحيات الواسعة والترتيبات المتطورة والإدارات التفصيلية المزودة بالخطط والمقترحات والاستعدادات.

فإذا كان هذا حال الدول «المتقدمة» في النكبات، فكيف يكون حال دولنا نحن التي صُمِّمت أساسًا لا لخدمة الشعوب بل لقهرها، لا لمصلحة الناس بل لمصلحة السيد الأجنبي، (لذلك قدَّم النظام المصري مساعدات للصين ـ التي تساعد دول العالم ـ ولإيطاليا بينما المصريون أنفسهم في أمس الحاجة إلى المساعدة مع انهيار منظومتهم الطبية التي لا يجد فيها الأطباء حتى الكمامات!!!)... كيف يكون حالنا؟

إنه لا سبيل أمام الشعوب في مثل هذه النكبات إلا أن تحيي من جديد قيم التكافل والتعاضد والتماسك، صلة الأرحام ومعنى العشيرة والقبيلة وأهل الحي وأهل الشارع، هذه الدوائر الصغيرة القريبة تستطيع أن تنقذ نفسها لأن الدولة لن تفكر في إنقاذها أصلًا... يجب أن يوجد في كل حي أو قرية متطوعون ينتدبون أنفسهم لتنظيم أمر القرية أو الحي وموارده ووضع نظام لمعرفة المصابين وكيف يمكن إيواؤهم وعزلهم صحيًّا، والتصرف بما تحت أيديهم من إمكانيات ومبان ومركز صحي، وهم أعرف بمن فيهم من الأطباء والممرضين ومن يملكون المساعدة في التسجيل والرعاية والنقل، ومن يستطيع منهم أن يكفل الفقراء والمحتاجين الذين يتضررون بتوقف الأعمال، إلى آخره إلى آخره... والعهد بالناس أنهم إذا انطلقوا استطاعوا إدارة أمورهم بأفضل مما تستطيعه السلطة المحترفة فكيف بالسلطة الفاسدة التي هي المرض الأكبر والوباء الأخطر؟!

Readonly

لقد أثنى النبي على الأشعريين، إذ كانوا حين تنزل بهم النازلة من المجاعة أو من غيرها يجمعون ما لديهم، ثم يقسمونه بحسب الحاجة على بعضهم، وهذه هي الصورة المثالية للمجتمع المسلم، إنها الصورة الضرورية التي تنتج عن مجتمع يلتقي أهل شارعه في اليوم خمس مرات، يعرفون حقوق الجار، لا يبيت أحدهم شبعانا وجاره جائع، يخرجون الصدقات والزكوات للفقراء المحتاجين، والأقربون أولى بالمعروف، مجتمع تتوطد فيه صلات الرحم، تنتشر فيه أعمال البر والوقف والتزاور... الإسلام بنى مجتمعًا مكينًا راسخًا، ولا بد أن تعود هذه الصورة طاعة لربنا أولًا وإنقاذًا لأنفسنا وأهلنا ثانيًا.

هذا هو الحل...

ولو استطاعت شعوبنا أن تفعله، فلربما كانت هذه هي الخطوة الأولى في بداية استقلال الأمة وعودة عزها ومجدها.

* * *

Readonly

هل تستطيع الأمة أن تستفيد من كورونا؟!

نشر في مجلة «كلمة حق»

يونيو ٢٠٢٠

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]، ومن هذه الآية فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهما أن العسر الواحد لن يغلب يسريْن، وهذا الوباء الذي اجتاح العالم وأصاب من أمتنا يجب أن يحملنا التفكير فيه على أن نبحث عن مواضع اليسر التي جاءت معه.

وأكثر من رأيتهم من الباحثين، بمن في ذلك من لا يُتَّهَمون في دينهم وإخلاصهم للأمة، إنما بحثوا وفكروا فيما يقدمونه من التوصيات والمقترحات التي ينبغي أن تقوم بها الحكومات والأنظمة، ولئن كان هذا محمودًا من البعض في حال بعض الأنظمة، فإنه لا يكفي بحال أن يُقْتَصَر عليه، ذلك أن مجال الأمة أرحب وأوسع من مجال الأنظمة الحاكمة، كما أن بعض هذه الحكومات كالتي لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا.

ومن ثَمَّ فهذه السطور مجرد تفكير فيما يمكن أن نستثمره في هذه النازلة.

يجب أن ينطلق التفكير أصلًا من قاعدة أننا أمة واحدة، وإنما هذه الفرقة التي بيننا مجرد عارضٍ طارئ علينا لم نصنعه بأنفسنا وإنما صُنِع لنا في أزمنة هزيمتنا. وعليهِ، فكل فرصة تقربنا وتردم هذه الحدود المصطنعة بيننا فهي نعمة كبيرة، وكل انعتاق من القيود الثقافية والسياسية والاقتصادية التي اصطُنِعت لنا فهو باب نهضة مأمولة، ومن ثَمَّ فيجب على الذي يفكر أن يضع في حسبانه عموم الأمة طولًا

Readonly

وعرضًا، فهذا فوق كونه واجبًا دينيًا فإنه ضرورة، إذ إن الذي سيتحدد بهذه القيود فإنما يُضَيِّق على نفسه.

العلم والتعليم

تحت وقع هذه الجائحة، اضطرت المدارس والجامعات إلى الاعتماد على التعليم عن بعد عبر شبكة الانترنت، ومع ما رافق هذا من الاضطراب والارتباك إلا أن الأمر تمَّ إلى حد أقل ما يُقال عنه أنه مقبول، وسيتحسن مع الممارسة والخبرة وازدياد العقول التي ستدخل إلى المجال وتعمل على تحسين التطبيقات والإمكانيات. وأقيمت بالفعل مؤتمرات علمية متخصصة افتراضية، فضلًا عن الندوات والاجتماعات الحكومية والسياسية. فيما قبل هذه الجائحة كان الأمر عسيرًا، بل إن تنظيم سفر يستهلك الوقت والأموال كان أيسر لدى الأكثرين من محاولة تعلم برنامج تواصلي، وكانت فكرة المؤتمر الافتراضي فكرة ممجوجة عمومًا.

هذه الوسيلة ستتيح لنا كأمة الاستفادة من طاقات مغمورة ومطمورة ومهجورة لا تعد ولا تحصى، ففي أمتنا جموع غفيرة من العلماء والدعاة الذين اضطرتهم ظروفهم الاقتصادية والسياسية والأمنية أن يسكنوا أقاصي الأرض أو يسكنوا زوايا القرى والنجوع والحارات والأدغال، هذه الطاقات كلها يمكن أن يُعاد تفعليها من جديد وتستثمر من جديد في التعليم والدعوة والتثقيف، وذلك أن الجميع صار الآن مضطرًّا للتواصل عن بعد حتى استعمله وأجاده.

ولا يقتصر الأمر هنا على العلم الشرعي أو العمل الدعوي، وإن كان هذا هو أشرف الأعمال لما فيه من تعريف الناس بالله وبالدين وبمعنى الحياة ودورهم فيها، وإنما يمتد هذا ليشمل كثيرًا من العلماء والباحثين المتخصصين في الفروع

Readonly

العلمية المختلفة، والذين اضطرتهم ظروف متعددة لأن يكونوا بعيدًا عن مجالهم الطبيعي... وساعتها سننقذ مواهب عظيمة في تبسيط العلوم وتقديمها بطرق مشوقة ومبدعة مثل: الفيزياء والكيمياء والرياضيات والهندسة وتعليم اللغات وكذلك العلوم الإنسانية والاجتماعية. إننا كثيرًا ما نعاني من أن المواد المهمة لا يجد الطالب في مدرسته أو جامعته من يحسن شرحها وتوضيحها، فالقدرة على التعليم موهبة.

وفي مرحلة لاحقة قد يتطور هذا إلى إنشاء مدارس افتراضية وجامعات افتراضية وأكاديميات افتراضية، وتتاح الفرصة لاستضافة خبراء كبار في مجالاتهم لم يكن ممكنًا فيما قبل الاستفادة منهم، وهذا كله سيعرفنا على صفوة جديدة من أهل العلوم والخبرات المتميزين الذين سيتعرفون بدورهم على تلاميذ نوابغ في عرض الأمة الإسلامية كلها، وإذا ما التقت الطاقات المحجوزة عن بعضها فإنما نتوقع أن تخرج عنهما الكنوز العجيبة كما قال تعالى عن التقاء البحرين: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

هذا فضلًا عما سيوفره هذا من فرص العمل المختلفة، وما سيسفر عنه من الصعود الطبيعي للطاقات المتميزة وما سيزيحه هذا من المنتفشين الأدعياء الذين لا يُستفاد منهم والذين ما وصلوا لمواقعهم هذه إلا بالرشاوى أو الوسائط أو أسباب الفساد... فإذا حضر الماء بطل التيمم، وحيث وُجِد مالكٌ فلا يفتي غيره.

ولا أشك أننا سنجد في هذه الحالة فرصة عظيمة في تعلم علوم ممنوعة على أمتنا، وهي كثيرة ليس أولها ما في التقنية والهندسة الوراثية وليس آخرها العلوم الأمنية والعسكرية والفضائية، تلك العلوم التي يحتفظ بها العالم المتقدم (!) لنفسه

Readonly

ويحجزها عن الضعفاء لكي يحافظ على فجوة التخلف بيننا وبينه، بل إن التعارف الذي قد يحدث بين عالِمَيْن أو مجموعة علماء قد ينشأ عنه علومٌ جديدة فضلًا عما قد ينشأ عنه من المخترعات والمبتكرات والأفكار المبدعة التي تستطيع أن تنقل أمتنا من حال إلى حال! فنكسر بهذا حاجز التخلف المفروض علينا والذي حُبِسْنا فيه.

وأقل القليل أنه يمكن تحصيل ثقافات ممنوعة في واقعنا، إما بقرارٍ مقصود أو لظروف غير مقصودة، كثقافة التسلح والعيش في الجبال والغابات والصحاري والاهتداء بالنجوم ومعرفة الوقت وغيرها من الثقافات التي ضربتها المدنية الحديثة المعاصرة... وهو ما ستحتاجه الأمة قطعًا في ظل حالة الحروب والاضطرابات التي تسودها والتي تجعل المستقر الآمن طريدًا في البر والبحر بين عشية وضحاها... نسأل الله السلامة لنا وللمسلمين أجمعين.

الاقتصاد والأموال

هذا مجال أصعب من مجال العلم والتعليم، وذلك أن المال والاقتصاد من أركان السيطرة العالمية والتحكم في الشعوب، ومع ذلك فإن ثمة ما يمكن فعله وكلٌّ بحسب ما يستطيع...

إن أبسط الأمور أن يتبادل الناس الخدمات والحاجات بمجرد الوعد المبني على الثقة بين طرفين، فإذا أردت ـ مثلًا ـ درسًا على يد الشيخ الفلاني وكان المقابل أن أقوم له بخدمة أخرى أستطيعها أو أن أدفع ثمن هذا الدرس إلى قريب له في بلدي، فهذه عملية بسيطة، تحققت بها المنفعة المتبادلة دون أن نحتاج إلى المرور على التحويلات البنكية وتحويلات العملة وكافة العمليات التي تزيد من كوننا تحت هيمنة الدولار العالمي وتحت تحكم الرقابة المصرفية.

Readonly

إلا أن نشأة النقود ارتبطت بتوسع العالم وتعدد الأشخاص والخدمات والاحتياج إلى وسيط سهل للتبادل، فهل يا ترى يكون ممكنًا التفكير في إنشاء بنك افتراضي يستند إلى تخزين الأرصدة الافتراضية من الخدمات، والتي يمكن من خلاله تحصيل منافع في مقابلها؟!

فإذا افترضنا مثلًا أنني كتبتُ بحثًا يحتاجه مركز بحثي ما، مقابل مبلغ ما، فإن هذا البنك يحتوي على رصيدي من أجوري التي هي أموال افتراضية مقابل الخدمات التي قدَّمتها، وأستطيع بدوري أن استعمل هذا الرصيد الافتراضي في شراء سلع أو بضائع من متجر ما هو نفسه ضمن شبكة البنك من العملاء.

سيرتبط هذا بقدرة البنك على توسيع عدد العملاء الجهات التي تتعامل معه، وبالثقة التي يُكَوِّنها لعملائه، وسيرتبط أيضًا بقوة سياسية أو ربما اجتماعية تمثل سندًا له! والتفكير في هذه الأمور سيحتاج جهدًا ولكنه ليس صعبًا ولا مستحيلًا، لا سيما إذا تجرأت دولة من بين الدول الناهضة لتبني هذه التجربة. بل أزعم أن تجربة كهذه يمكن أن تتبناها جماعات متوسطة أو كبيرة، أو مجموعة من الشركات المتحدة أو المتعاونة أو حتى مجموعة من البشر المستوعبين لهذه الفائدة بشرط تحقق الثقة وإحكام النظام الذي يُسَيِّر هذه العملية.

إن نجاح مثل هذه التجربة قد يخرج أمتنا من سلطة الدولار، ويعصم اقتصاديات بلادنا وأموال شعوبنا من عمليات التحكم والهيمنة فضلًا عن المضاربات التي تشهدها البورصات العالمية، وأقله أن يحمي أموالنا ومجهودنا أن يكون هباء ومرهونًا بقرار يعبث به أحد في عاصمة غربية (إن من يعرفون النظام المالي العالمي يعرفون أن العالم كله يعمل خادمًا لأمريكا، وأن الشعوب هي التي تدفع ثمن رفاهية

Readonly

القلة المترفة من عرقها ودمائها، وأن أمريكا تصدر أزماتها لدول العالم لتحلها نيابة عنها، فتأخذ المغانم وتُحَمِّلهم المغارم... وهذا موضوع شرحه يطول).

سيكون وجود نظام مالي على هذه الشاكلة دعمًا قويًّا لسائر الأنشطة الاقتصادية والتجارية التي تجري في أمتنا، وإذا نما نجاح مثل هذه التجربة فستكون بيئة في غاية الخصوبة لإنتاج رجال أعمال مخلصين لأمتهم ومنتجين ومبدعين، مما يحفظ طاقتنا المالية من أن يعبث بها الأجانب أصحاب الاستثمارات الساخنة الذين تخصصوا في خراب اقتصادياتنا الناهضة.

مفهومٌ بالقطع أن النجاح المرجو لن يبلغ الكمال إلا بأن تتبناه دولةٌ ما سياسيًّا، وتقف وراءه بقوتها وثقلها الأمني والعسكري، ولكن يمكن فعل الكثير والمهم حتى فيما قبلَ تَبَنِّي دولة ما لهذه التجربة.

التواصل

معظم الناس تعرف لأول مرة على برنامج «زووم» تحت ضغط هذه الجائحة، وقد أظهرت بعض الإحصائيات تضاعف عدد مستخدمية آلاف المرات، وظهرت العديد من الدراسات والمقالات التي تتحدث عن مدى الثقة التي يمكن لمستخدم البرنامج أن يعتمد عليها في انتهاك خصوصية واستعمال بياناته. وبدأ صعود برامج الاجتماعات من هذا النوع، سواءٌ بإحياء برامج وطرائق كانت قد نُسِيَت أو حتى اختفت، أو بدخول برامج جديدة على الخط ضمن شركات كبرى (مثل جوجل) أو متوسطة.

ولا شك عندي أن هذا القطاع من برامج التواصل سيواصل النمو والازدهار والتوسع، ويتنافس أهله في المزايا، ثم يتنافس الكبار على احتكاره، ثم يأتينا بقيوده

Readonly

وقوانينه، فتُلغى الحسابات وتُغلق الغرف وتوضع القيود على الاجتماعات، وتحتوي وثائق الاستعمال التي توافق عليها قبل البدء بالبرنامج على بنود جديدة تنتهك حقوق المستخدم وخصوصيته وتجعله تحت رحمة الشركة المنتجة للبرنامج، وربما فرضت عليه الاحتكام لقوانين بعينها في بلد بعينه.

يجب أن يحملنا هذا كله، بعد تجربتنا في مواقع التواصل الاجتماعي الأخرى، على أن تساهم الشركات الإسلامية في هذا الباب بإنتاج برامج التواصل الاجتماعي، ومن الآن... من قبل أن يحتشد عالمنا في مكان واحد، مثلما احتشد في الفيسبوك وتويتر ويوتيوب وإنستجرام، حتى صار إنتاج مواقع تواصل أخرى يكاد يكون عديم القيمة والفائدة.

إذا وُجِد البرنامج الإسلامي للتواصل في مرحلة مبكرة، فإنه سيحقق الكثير من المزايا لأصحابه، ليس أولها الأموال الوفيرة ولا آخرها أنه يمكن أن يكون قوة ناعمة في عالم الانترنت، كما أنه سيوفر مكانًا آمنًا للمسلمين وبيئة حاضنة غير خاضعة لاشتراطات غير المسلمين. ولا يعني هذا بطبيعة الحال أنه لن يتعرض لتحديات ومشكلات، فعالم مواقع التواصل وبرامج التواصل هو عالم خلفي للسياسة والقوى الدولية، ولئن أسعف الحظُّ بأن تتبنى دولة ما ـ أو مجموعة دول ـ إسلامية هذا البرنامج، فإنه سيكون خطوة قوية في عملية استقلالهم... فإذا تصورنا أن تركيا وماليزيا وباكتسان وإندونيسا وإيران تبنوا مثل هذا البرنامج كخطوة للحفاظ على بيانات شعوبهم لاستثمارها داخليًا فإن هذا يسارع بتقوية اقتصادهم وتغمية جوانب اجتماعية كثيرة عن عدوهم، ويزيد من التكتل السياسي والاقتصادي فيما بينهم أيضًا.

ومع هذا كله، وقبل أن تستغرقنا الأحلام، نستطيع القول إن مجرد وجود برنامج تواصل إسلامي حتى ولو لم يكن واسع الانتشار وحتى ولو لم تتبنه دولة

Readonly

ما، فإنه خطوة مهمة وكبيرة، وإن مجرد التواصل بين المسلمين في بيئة لا يسيطر الأجنبي على كل تفاصيلها، ولا يتحكم في غلقها وفتحها وطرد الناس منها، إن هذا كله أمرٌ مهم تنتفع به الأمة.

ويبدو إنتاج برنامج إسلامي للتواصل أسهل الأمور التي يمكن تنفيذها في بدايتها، إذ لا يحتاج سوى مجموعة مبرمجين مع رأس مال مع مهارة إدارية في تنفيذ وإنتاج البرنامج، وهذه أمور متوفرة بكثرة في عالمنا الإسلامي، وبقية التحديات ستأتي تباعًا وعند كل مرحلة سيبعث الله لها رجالها، ما دامت النية قد صحَّت، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

العلاقات الاجتماعية

أحد الأركان التي بُنِي عليها الطغيان الحديث، الدولة الحديثة المركزية، كانت في تفكك العلاقات الاجتماعية، ومن أهم ما ساهم في هذا التفكك ظاهرة نشوء المصانع مع الثورة الصناعية، لقد عمل وجود المصنع على إفراغ القرى من السكان كما عمل على تضخم المدينة، ووقع ما يسمونه في التاريخ وعلوم الاجتماع «ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة»، فحين صار العمل في المصنع يأتي بعائد أفضل من العمل في الزراعة أو في التجارة البسيطة تحول المصنع إلى بذرة مدينة تنشأ من حوله، ينهمر إليه شباب القرى، وتفرغ منه قراهم... ويستدعي هذا جهازًا إداريًّا يتضخم بازدياد لإدارة هذه الأعداد بما يجعل منهم تروسًا ذات كفاءة لإدارة المصنع الضخم... واستدعى هذا كله تضخم المدينة، وبالتالي تضخم السلطة المهيمنة على المدينة...

وبقدر ما فرغت القرى من أهلها بقدر ما ضعف ارتباط أهلها بها، وضعفت

Readonly

الروابط الاجتماعية فيما بينهم، وانحلت العصبيات القديمة التي كانت تمثل مركز قوة سياسي واقتصادي واجتماعي، وكانت هذه القوة تنافس وتحتك وتشتبك حتى بقوة السلطة الحاكمة.

أما الآن، فقد انحلت العصبيات، وقدَّمت القرى أبناءها عبيدًا في المصانع الجديدة، كما أن المدن الجديدة التي نشأت بعد الثورة الصناعية كانت شبيهة جدًّا بالعنابر التي يعمل فيها عمال المصانع، مجرد وحدات سكنية متشابهة ومكررة وتزداد توسعًا، لا يُراد منها إلا أن تكون كالزرائب لعمال المصانع يقضون فيها ساعات نومهم بعد أن ينتهك جسدهم طيلة العمل في الصباح، لذلك لم تكن المدن الحديثة تحمل الطابع الفني المعماري الذي حملته مدن العصور الوسطى وعصر النهضة والتنوير، بل كانت مجرد وحدات سكنية باردة وخالية من أي روح أو طابع ثقافي، بل ونُزِعت منها الأسماء لتُعرف بالأرقام، وحتى الشوارع صارت في مدن كثيرة تُعرف بالأرقام لا بالأسماء!.

ونشأ عن هذا التضخم تضخم الجهاز الإداري للدولة، التي صارت تسيطر على كل التفاصيل، كأنها إدارة مصنع كبير، وهؤلاء الأغراب الذين عملوا في المصانع ثم سكنوا المدن إنما كانوا أغرابًا أفرادًا قد تركوا موضع عصبيتهم وقوتهم وجذورهم، وليس بينهم وبين أمثالهم من الترابط الاجتماعي وعلاقات الرحم ما يجعلهم يفكرون في أن يكونوا قوة أمام إدارة المصنع، أو أمام قوة الدولة... لذلك اتسع فارق القوة والسيطرة والتحكم والاستبداد بين سلطة تزداد قوة وتحكمًا وبين مواطنين أشبه بالعمال والعبيد قد فرغوا من كل قوة.

هذا الكلام السابق، إنما هو مدخل للقول بأن الطغيان الحديث كان في أحد

Readonly

أركانه تطورًا لظاهرة الهجرة من المدينة إلى الريف تحت ضغط الواقع الاقتصادي الصناعي... ولذلك فإن النظر إلى وباء كورونا من هذه الزاوية سيلفت نظرنا إلى أمر آخر، وهو احتمال أن تنقلب هذه الظاهرة بالعكس.

منذ ظهر الانترنت ظهرت معه وظائف كثيرة يمكن أن يؤديها المرء وهو جالس في بيته أو في قريته، وقد ساهم هذا كثيرًا في التحرر من عبودية الواقع وعبودية السلطة لفئات كثيرة، والآن مع اضطرار كثير من الشركات والأعمال لإعطاء موظفيها إجازة اكتشفت كثيرٌ منها إمكانية أن تعتمد على موظفيها وهم في البيوت، وأنه لا حاجة ليكونوا دائمًا في مقر الشركة، وبعضهم يحتاج أن يكون في مقر الشركة يومًا أو يومين خلال الشهر كله.

لو استمرت هذه الظاهرة التي يتزايد فيها الاعتماد على العمل عن بعد، وبرأيي فإنه يجب علينا نحن المسلمين كما يجب على كل الأمم المقهورة أن تسعى في هذا وتحرص عليه، فإنه قد يكون بداية لعودة الهجرة من المدن إلى الريف، واستعادة لما انحل من العصبيات القديمة بإعادة تكوين هذه الروابط.

ونحن المسلمون مأمورون من خلال نصوص صلة الرحم وحقوق الجار بأن نحرص دائمًا على زيادة التكتل الاجتماعي بين الناس، وكلما كان المجتمع متكتلًا كان أقرب للإسلام، بل نحن إذا نظرنا إلى عبادات الإسلام وشعائره لوجدنا أن لها آثارًا اجتماعية قوية[1]...

ثمة آثار كثيرة وخطيرة سترتب على ظاهرة الهجرة العكسية من المدن إلى

---

(١) للمزيد في هذا الأمر: راجع هذه المحاضرة

https://www.youtube.com/watch?v=HEg - ax7G - xs

Readonly

الريف، إذا حدثت، ويبدو مجملها في صالح الأمة وفي صالح الشعوب المقهورة ضد السلطات الحاكمة ورجال الرأسمالية الكبار الذين لطالما تضخموا اعتمادًا على تضخم المدن ولا يتسع المقام الآن لسرد تفاصيل.

لكن القاعدة السائرة أن كل قوة للأمة في مقابل قوة السلطة هي في صالح الشعوب وهي ضد الطغيان وكهنته وسدنته.

ونسأل الله تعالى أن يلطف بنا وبأمة محمد ﷺ، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، وأن يجعل الموت راحة لنا من كل شر.

* * *

Readonly

الباب الثاني
في أروقة الصراع بين الإسلام والغرب

ـ الإسلام وفرنسا

ـ مقارنات كاشفة

ـ من سجلات الهزيمة

* * *

Readonly

Readonly

الإسلام وفرنسا

زخر العام ٢٠٢٠ بتجدد الأزمة بين المسلمين وبين فرنسا، وابتدأ ذلك بدعم الدولة للرسومات المسيئة لنبينا محمد ﷺ، وهو ما أدى لقيام فتى شيشاني بقتل مدرس نشر هذه الرسوم، فقتلته السلطات الفرنسية، ثم انطلقت حملة مقاطعة المنتجات الفرنسية والتي لا تزال مستمرة حتى لحظة كتابة هذه السطور، وقد أعاد هذا كله إلى الأذهان تاريخ العلاقة القديم بين الإسلام وفرنسا، وقد ساهمتُ في هذه الأجواء بتلك المقالات التي نشرت تباعًا في مجلة المجتمع الكويتية، والتي تحاول إلقاء الضوء على الجذور التاريخية والامتدادات المعاصرة للعلاقة بين فرنسا وبين العالم الإسلامي، عبر هذه العناوين:

- قصة الاستشراق الفرنسي
- فرنسيون أنصفوا الإسلام
- كيف تتشكل صورة الإسلام في فرنسا: خبرة مستشرق فرنسي
- هل يتغير موقف الشعوب الغربية إذا عرفوا محمدًا ﷺ؟
- أفاضوا في مدح النبي وماتوا كافرين!

* * *

Readonly

قصة الاستشراق الفرنسي

نشر في مجلة «المجتمع الكويتية»

أكتوبر ٢٠٢٠

في فرنسا، وإلى الجنوب من باريس، توقفت الفتوحات الإسلامية عند مدينة بواتيه، المعروفة في التاريخ العربي باسم «بلاط الشهداء» (١١٤ هـ = ٧٣٢م)، بعد الهزيمة التي أنزلها شارل مارتل بجيش عبد الرحمن الغافقي، وهي الهزيمة التي اكتسب بها شارل مارتل سمعته الكبيرة في التاريخ الأوروبي باعتباره البطل الذي أوقف الزحف الإسلامي.

على أن بعض المستشرقين الفرنسيين، مثل جوستاف لوبون، تحسر بعد أكثر من ألف سنة على حصول هذه الهزيمة، وتمنى أن لو كان المسلمون قد حكموا فرنسا، يقول: «لنفرض جدلًا أن النصارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جوًّا شمال فرنسا غير بارد ولا ممطر كجو إسبانيا، فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربا؟ كان يصيب أوربا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث في أوربا التي تكون قد هذبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتملي، ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع الخطيرة التي ضرجت أوربا بالدماء عدة قرون»[١].

لكن هذا الرأي كان هو النشاز والشذوذ، فمنذ ذلك الوقت وكانت فرنسا رأس حربة في عموم تاريخ العلاقات الإسلامية الغربية، كما كانت أيضًا رأس المبادرة في

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٣١٧.

Readonly

حركة الاستشراق التي هدفت إلى دراسة العالم الإسلامي وتقديم صورته للغربيين.

استهدف الاستشراق هدفيْن كبيريْن؛ الأول: دراسة أحوال المسلمين للاستفادة بما عندهم من النظم والعلوم بغرض الانتصار عليهم، والثاني: تقديم صورة المسلمين للشعوب الأوروبية التي كانت في ذلك الوقت غارقة في الجهل والظلام حتى إنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة في عموم أوروبا في تلك العصور الوسطى سوى بعض الكهنة والأساقفة داخل الكنيسة.

كانت المجاورة بين فرنسا والأندلس من أهم العوامل التي ساعدت عددًا من الفرنسيين على الاحتكاك بالحضارة الإسلامية والتعرف إليها عن قرب، كذلك فإن شمال فرنسا كان هو الموطن الأول الذي خرج منه النورمان، أولئك الذين سيطروا لفترات على إيطاليا وألمانيا، وأولئك هم الذين أنهوا الوجود الإسلامي في جزيرة صقلية بعد قرنين من الزمن، إلا أنهم ـ أي النورمان ـ انبهروا بالحضارة الإسلامية فكان بلاطهم عربيًّا وثيابهم عربية، وتسمى ملوكهم بألقاب عربية مثل «الملك المعظم روجار المعتز بالله»، واستضافوا العلماء العرب كالإدريسي صاحب الخريطة المشهورة. ومع ذلك فإنهم اضطهدوا المسلمين وضيقوا عليهم في دينهم، حتى أفنوهم تمامًا في عهد فريدريك الثاني.

ومن فرنسا انطلقت الحروب الصليبية، التي هي أشهر الحوادث التاريخية في العلاقات الإسلامية الغربية، وكانت فرنسا المخزن الأكبر لإمداد الحروب الصليبية بالمال والرجال، وكان ملوك فرنسا وأمراؤها هم الأكثر حضورًا وبروزًا في سائر فصول الحروب الصليبية، حتى لقد عُرِف الصليبيون على اختلاف أعراقهم وبلادهم في الرواية الإسلامية بأنهم (الفرنجة).

Readonly

وقد مثَّلت هذه الحقبة الصليبية المنفذ الأكبر لتعرف الفرنسيين ـ وسائر الغرب ـ على الإسلام وحضارته ونظمه وتقاليده، ولما فشلت الحملات الصليبية واستطاع المسلمون تحرير أراضيهم، بدأت محاولات دراسة التجربة من فرنسا، لتحديد أسباب الإخفاق وتحديد سبل العودة مرة أخرى إلى ديار المشرق.

وابتدأ الاستشراق على يد رجل فرنسي، هو البابا سلفستر الثاني، الذي درس في قرطبة وإشبيلية وفاس، وعرف علوم العرب، ثم تولى البابوية فأنشأ مدرستين للعلوم العربية، إحداهما في روما ـ مقر بابويته ـ والأخرى في موطنه: مدينة ريمس، ثم أضيف إليها مدرسة شارتر، فهو أول من يوصف بالمستشرق.

وأول معهد لدراسة اللغات الشرقية في أوروبا نشأ في جامعة فرنسا، أنشأه البابا هونوريوس الرابع (١٢٨٥م)، وهذا قبل خمس وعشرين سنة من الانطلاقة الرسمية للاستشراق في مجمع فيينا الكنسي الذي أوصى بإنشاء كراسي للغات الشرقية (١٣١١ ـ ١٣١٢هـ)، وهو المجمع الذي كان تحت إشراف البابا كليمنت (إكليمنص) الخامس، وهو فرنسي أيضًا.

ومثلما كانت فرنسا صاحبة السبق في إنشاء كراسي للغات الشرقية، فقد سبقت إلى إنشاء كراسي للغة العربية على وجه الخصوص، لم يسبقها بذلك إلا إسبانيا التي أنشأت كرسيًا للغة العربية بعد مجمع فيينا في سالامانكا، أما فرنسا فقد أنشأ الملك فرانسوا الأول كرسيًا للغة العربية والعبرية في مدرسة ريمس عام ١٥١٩.

وحين بلغ الاستشراق نضوجه في القرن التاسع عشر، لم يكن ثمة مستشرق أكثر شهرة من الفرنسي سلفستر دو ساسي الذي يُعَدُّ عميد الاستشراق الأوروبي، وتلاميذه الألمان هم مؤسسوا المدرسة الاستشراقية الألمانية، وقد سخَّر هذا

Readonly

المستشرق إمكانياته لخدمة الاستعمار الفرنسي، وتذكر بعض المصادر أنه كان هو الذي ألقى خطاب القوات الفرنسية بعد احتلالها للجزائر، وقد روى رفاعة الطهطاوي ـ في تخليص الإبريز ـ قصة تدل على خبثه ومكره حيث استطاع خداع امرأة مسلمة حتى قبلت تنصير ولدها ثم ارتدت عن الإسلام. كما روى ما يدل على غزارة علمه وتمكنه واتساع معارفه[١].

وكان المستشرقون حاضرون في الموجة الثانية من الحروب الصليبية التي بدأت بالحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨م) حيث لم يحضر نابليون إلا بناء على تقارير كتبها مستشرقون زاروا مصر واطلعوا على أحوالها، ثم لما حضر نابليون بجيوشه كان معه مجموعة من العلماء المستشرقين الذين فحصوا أحوال مصر فحصًا عظيمًا دلَّت عليه موسوعتهم «وصف مصر»[٢].

ولما أخفقت الحملة الفرنسية في السيطرة على مصر دخلت من الباب الخلفي حيث استطاعت فرنسا اكتشاف محمد علي باشا، وساهمت في تنصيبه واليا على مصر بدسائسها في مصر وفي الآستانة، فكان عهد محمد علي وأسرته عهد النفوذ الفرنسي في مصر، حيث افتتحت في مصر المدارس الفرنسية وجيء بالقانون الفرنسي ليحكم المعاملات التجارية وغيرها من الأمور المدنية فيما سوى الأحوال الشخصية، وزادت البعثات إلى فرنسا، وكان مؤسس جيش محمد علي رجل فرنسي هو الجنرال سيف الذي ادعى الإسلام وتسمى باسم سليمان باشا الفرنساوي، وبقي النفوذ الفرنسي عظيمًا غالبًا على مصر حتى جاء الاحتلال الإنجليزي الذي ما كان

---

(١) رفاعة الطهطاوي، تخليص الإبريز، ضمن: الأعمال الكاملة، ٢/ ٧٠، ٢/ ١٠٣ وما بعدها.

(٢) عن تاريخ الاستشراق الفرنسي، انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ١/ ١٣٨ وما بعدها؛ يوهان فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص٧٨ وما بعدها، ٢٠٧ وما بعدها.

Readonly

له أن يستقر لولا التمهيد الذي أحدثته أسرة محمد علي بتجريف وإبادة مقومات المجتمع المصري وكسر مواطن قوته وتحطيم موارده المعنوية.

ومع أن الإنجليز احتلوا مصر سبعين سنة فيما بعد، إلا أن اللغة المهيمنة على الطبقة الحاكمة والمترفة كانت هي اللغة الفرنسية.

وإذا كان هذا هو التأثير الفرنسي في بلد لم تحتله سوى ثلاث سنوات، فيمكن أن نتوقع ـ بل نحن نرى ـ كيف هو التأثير الفرنسي في الأقطار التي احتلتها سنينًا وقرونًا مثل المغرب العربي والدول الإفريقية، بل إن تركيا التي لم تقع تحت الاحتلال الفرنسي إنما وقعت عمليًا تحت سطوتها الثقافية في أواخر العصر العثماني وفي عصر الاتحاد والترقي ثم في عصر الكمالية، وإلى الآن تزخر اللغة التركية الحديثة بالألفاظ الفرنسية.

كان الاستشراق الفرنسي هـو الوجه العلمي للهيمنة الفرنسية، مثلما أن حركة الاستشراق كلها إنما هي وسيلة من وسائل الهيمنة الغربية، فالاستشراق ـ كما يقول إدوارد سعيد ـ هو «المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق، والتعامل معه معناه التحدث عنه، واعتماد آراء معينة عنه، ووصفه، وتدريسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه: وباختصار بصفة الاستشراق أسلوبًا غربيًّا للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه»[1].

ولقد اصطبغ الاستشراق بظروف نشأته التي كانت ردة فعل هوجاء غير عقلانية أمام التفوق الإسلامي، فتولى هو شيطنة المسلمين والتنفير منهم فيما يسميه د. محمد الشرقاوي بأنه أكبر عملية تزييف وعي في التاريخ الإنساني.

---

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق ص٤٥، ٤٦.

Readonly

لم يتغير هذا الحال بعد نضوج الاستشراق واختلاط المستشرقين بالمسلمين في مرحلة ما قبل الاستعمار أو ما بعده، وإنما تحول دور الاستشراق ليكون التمهيد العلمي والبوابة الفكرية لإحكام الهيمنة على الشرق وإخضاعه، بالبحث عن ثغراته، وبتبرير العملية الاستعمارية وإعطائها شرعيتها ومسوغاتها. ذلك أنه لم يكن مجرد حركة علمية بحثية موضوعية، إنما هو وسيلة ضمن وسائل وأداة ضمن أدوات وجزء من الشبكة الاستعمارية نفسها، إن ثمة روابط قوية متماسكة بين الخطاب الاستشراقي «وبين المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمنحه القوة، وقدرته الفائقة على الاستمرار... إنه كيان له وجوده النظري والعملي، وقد أنشأه من أنشأه، واستُثْمِرَت فيه استثمارات مادية كبيرة على مرّ أجيال عديدة. وقد أدى استمرار الاستثمار إلى أن أصبح الاستشراق، باعتباره مذهبًا معرفيًّا عن الشرق، شبكة مقبولة تسمح منافذها بتسريب صورة الشرق إلى وعي الغربيين، مثلما أدى تكاثر ذلك الاستمرار نفسه، بل وتحوله إلى مصدر حقيقي للإنتاج والكسب، إلى تكاثر الأقوال والأفكار التي تتسرب من الاستشراق إلى الثقافة العامة»[1].

تشبه هذه الحالة، مثلًا، أن تكون الأفلام والمسلسلات المصرية هي الرافد الوحيد الذي يعطي صورة عن المجتمع المصري. إن الصورة التي تتكون عبر هذا الرافد تنتج بطبيعتها النفور من المجتمع المصري وازدراء أخلاقه واحتقار رجاله ونسائه، ولا يخفى على أحد أن الذي يزور مصر يجد صورة أخرى ومجتمعًا آخر. هذا مع أن هذه الأفلام والمسلسلات إنما هي نتاج الطبقة النخبوية المصرية التي تتحكم في صناعة الصورة وتقديمها، وهي رؤية نخبوية تغريبية للمجتمع المصري. وإن مجتمعًا يظهر بهذا القدر من الانحلال وفساد الأخلاق وانتشار العنف والجريمة

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق، ص٥٠.

Readonly

فيه سيكون مقبولًا أن يجري احتلاله واستعباده بدواعي التحضير والتحرير والترقية والتنظيم.

هذا هو الذي صنعه الاستشراق بصورة الأمة الإسلامية لدى الشعوب، وفَّر للاستعمار الصورة التي تبرر الاحتلال والتدمير وتشرعن الهيمنة عليه لضرورات التحرير والتحضير.

لم يمنع هذا التاريخ من العلاقات الفرنسية مع العالم الإسلامي أن يظهر في المستشرقين الفرنسيين من عرف الحقيقة أو بعضها، فبعضهم أسلموا مثل ناصر الدين آتييه وموريس بوكاي، وبعضهم وقف موقفًا منصفًا من الإسلام وحضارته ومجتمعاته، مثل جوستاف لوبون، ولويس سيديو، ومارسيل بوازار، وجاك ريسلر، ودومينيك سورديل، وبلاشير، وإميل درمنجهم، وغيرهم.

* * *

Readonly

فرنسيون أنصفوا الإسلام

نشر في مجلة «المجتمع الكويتية»

نوفمبر ٢٠٢٠

نستأنف في هذا المقال ما كنا قد ختمنا به المقال السابق، حيث كان حديثنا عن الاستشراق الفرنسي، وكيف أنه كان ذراعا علميًّا للهيمنة الفرنسية، ووسيلة السياسة الفرنسية لتسهيل احتلالها البلاد الإسلامية سواء من خلال قيامهم بالدور العلمي في فحص ودراسة هذه البلاد وأحوالها لإيجاد أفضل الطرق وأقلها تكلفة لعملية الاحتلال والسيطرة، أو من خلال قيامهم بالدور الإعلامي الذي يبرر ويشرعن عملية الاحتلال من خلال تشويه أهلها وثقافتهم وأخلاقهم.

ومن بين طابور المستشرقين الفرنسيين الطويل خرج عدد قليل من أولئك الذين أنصفوا الإسلام ونبيه وحضارته، فمنهم من اصطفاه الله وكتب له الخير فأسلم واعتنق الدين، ومنهم من بقي على حاله.

وعمومًا فإن الكتابات المنصفة تصدر عن الغربيين بعد أن تنطوي صفحة الصراع المشتعل، حين ينتصرون في المعركة ويحسمونها لصالحهم، عندها لا يعود الشعور بالخطر قائمًا، وتصير الأمة المغلوبة كالجثمان الممدد أو الفريسة العاجزة، لا يُخشى منها، وعندئذ يمكن أن تبدأ دراستها بطريقة أكثر علمية وموضوعية، مثلما تجري دراسة الآثار في المتاحف، لا يستنكف أحد أن يعترف بعظمة حضارة قد دثرت وماتت.

لذلك فإن التأمل في تاريخ إنصاف الحضارة الإسلامية في الكتابات الاستشراقية سيفضي بنا إلى إدراك أن هذا الإنصاف لم يحصل إلا بعد العلو الغربي،

Readonly

وأما ما قبل ذلك فقد كان الجهر بإنصاف الإسلام أمرًا خطيرًا، فمن ذا الذي يجرؤ ـ ولو بدافع العلمية والموضوعية ـ أن يمتدح عدوه الذي يستشعر منه الخطر؟!... إنه أمر لا يقوم به إلا أفذاذ الناس الذين يرفعون قدر الحق والحقيقة فوق كل اعتبار وكل مصلحة، ويكونون مستعدين لدفع الثمن الباهظ بمخالفتهم تيار السياسة وتيار الإعلام وتيار التحريض الشعبي. إن الذي ينطق بالحق في وقت الهزيمة والقهر وقلة النصير وشدة الخطر إنما هو في مرتبة عليا، بل هو في الإسلام «سيد الشهداء».

ومع هذا كله، ومع استيعابنا لهذه الظروف التي تسمح بالكلمة المنصفة، فإنه لا بد أن نُقَدِّر أيضًا أولئك الذين أنصفوا ديننا ونبينا وتاريخنا، فلم يزل هذا الإنصاف مغامرة غير آمنة في كل الأحوال، لا سيما في فرنسا، ومن يتابع أعمال المستشرق المعاصر فرانسوا بورجا يرى بنفسه بعضًا من هذه المعاناة التي يلقاها، والتهم التي يُرمى بها، ليس ذلك إلا لأنه جال كثيرًا من بلدان العالم العربي ورأى الصورة التي تحجبها فرنسا، وتلمس التاريخ الذي لا يُدَرَّس فيها.

وبعض أولئك الذين حاولوا إنصاف الإسلام وحضارته ورسالته سلك مسالك متنوعة وحذرة في إزجاء المدح الواضح، وامتلأ حديثه بالاستدراك والاستثناء وطرح الاحتمالات، كأنه يحاول أن يجد طريقًا لا يخون به العلم ولا يزعج به الحالة السائدة.

في هذه السطور القادمة التقطنا بعض هذه الشهادات المنصفة التي صدرت عن مستشرقين منصفين، وغرضنا منها أن نبين: أن الباحث إذا أخلص لوجه الحقيقة وتجرد لها فإنه سيصل بمشيئة الله إليها، حتى لو كانت بيئته وثقافته تنطلق من المعاداة.

Readonly

١ ـ تحدث المستشرق الفرنسي وعالم الاجتماع المعروف جوستاف لوبون عن الفتوحات الإسلامية فقال: «وكان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم... فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا مثل دينهم... وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم، التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم»[١].

ويعد كتاب «حضارة العرب» لهذا المستشرق شهادة ضخمة على أن الأمة الإسلامية كانت خير أمة أخرجت للناس، وإن لم يخلُ من أخطاء وهنَّات، إلا أنه كتاب إذا قرأه الجاهل كان له بمثابة الصدمة التي يعرف بها قدر هذه الأمة.

٢ ـ وصف الشاعر الفرنسي الشهير ألفونسي دي مارتين نبينا ﷺ بقوله: «إنه فيلسوف، خطيب، نبي، مشرع، مقاتل، فاتق أفكار، باعث عقائد في شريعة لا صور فيها ولا تماثيل، مؤسس عشرين مملكة على الأرض ومملكة روحية، ذاك هو محمد. ومهما تكن المعايير التي نقيس بها العظمة الإنسانية، فإننا نتساءل: أي إنسان كان أعظم منه؟»[٢].

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م)، ص٦٠٥.

(٢) ألفونسو دي لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ترجمة: د. محمد قوبعة، (الكويت: مؤسسة جائزة البابطين، ٢٠٠٦)، ص١٢٤.

Readonly

٣ ـ قال المستشرق والقانوني الفرنسي مارسيل بوازار عن تسامح الإسلام مع غير المسلمين وحفظه لحقوقهم: «الإسلام يتراءى أكثر تسامحًا كلما قَوِيَ واشتدَّ على الصعيدين الداخلي والخارجي، وتنص الآية القرآنية التي تمنع الإكراه على اعتناق الدين عن تأكيد لا يتزعزع، وقوة الأُمَّة تُوَفِّر للمؤمن ألا (يُخِيفَ) اليهودي ولا المسيحي، وأن يحترم ـ بالتالي ـ شخصهما ودينهما ومؤسساتهما... وينبغي من جهة أخرى الإشارة إلى أن الشعوب الإسلامية بمختلف نزعاتها، الدينية أو الفلسفية، قد قاست ما قاساه المعاهدون حين بلغ جو التعصب ذروته [في السلطة]، إن لم تكن قاست أكثر مما قاسوا. وتنقل الكتب مثلًا أن أحد المسلمين لم ينج من القتل على أيدي زمرة تخالفه الرأي إلا بعد أن ادعى أنه ذمي».

ويتحدث عن قيمة الدين في صمود هذه الأمة وتماسكها رغم كل ما أريد لها من التمزيق فيقول: «كان الدين حافزًا فعالًا على تأليف كيان متميز لم تصدعه صروف الدهر، والاحتكاك بمختلف الحضارات على مر العصور... ولقد تمكن المجتمع الإسلامي ـ الذي قام على الدين ـ من الصمود في وجه التفكيك السياسي، ولم تتأثر الروابط الدينية على الحدود والتخوم بين الدول كبير التأثير».

ويرى بوازار أن هذا الأمر لا يقتصر على الماضي بل «إن القرآن لم يقدر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية فحسب، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة»[1].

٤ ـ ويؤكد المستشرق الفرنسي كارا دي فو على أن «السبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم على الغرب؛ إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة

---

(١) مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام، ترجمة: د. عفيف دمشقية، ط١ (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٠ م)، ص٢٠٢، ٧٣، ٧٤، ١٠٩.

Readonly

العلمية إلى المقام الأسمى، في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق من أحابيل البربرية وأغلالها»[١].

٥ ـ ويقول المستشرق والقانوني الفرنسي جاك ريسلر عن شمولية الإسلام: «إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات، إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال، والأرقاء، والحيوانات، والصحة، والملبس ...إلخ»[٢].

٦ ـ ويقول المفكر والقانوني الفرنسي دومينيك سورديل في استعراضه لأخلاق المسلمين: «لا يمكن إنكار أن الإسلام مارس فضائل حقيقية وخاصة منها الفضائل الاجتماعية، وهي استجابة لنداءات القرآن، نعثر فيها على أساليب تضيف إلى وصايا الله، وتبدو كأنها استمرار للبر؛ وذلك كما تحدد الآية الرائعة التالية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) كارا دي فو، «الفلك والرياضيات»، ضمن: توماس أرنولد (إشراف)، تراث الإسلام، تعريب: جرجيس فتح الله، ط٢ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٢م)، ص٥٦٤.

(٢) جاك ريسلر، الحضارة العربية، ترجمة: خليل أحمد خليل، (بيروت: عويدات للطباعة والنشر، د. ت)، ص٥١.

Readonly

فالتعاون وحسن الضيافة والكرم والأمانة للالتزامات ـ التي تؤخذ تجاه أعضاء المجتمع والاعتدال في الرغبات والقناعة ـ تلك هي الفضائل التي لا تزال تميز المسلمين، وهي مثالية حقيقية، تريد أن ترتقي بقوى الطبيعة البشرية، والتي تكفي لإعطائهم عزة نفس وكرامة كان يجهلها عرب الجاهلية»[١].

٧ ـ يقول هنري دي كاستري ـ الكاتب والعسكري الفرنسي الذي خدم في الجزائر ـ والذي قال: «أنا قد قرأت التاريخ، وكان رأيي ـ بعد ذلك ـ أن معاملة المسلمين للمسحيين تدل على ترفع عن الغلظة في المعاشرة، وعلى حسن مسايرة، ولطف مجاملة، وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين إذا ذاك، وخصوصًا أن الشفقة والحنان كان عنوان الضعف عند الأوربيين، وهذه الحقيقة لا أرى وجهًا للطعن فيها على وجه العموم»، ويقرر أنه «لو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار، للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين، مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحه في جميع أرجاء المسكونة»[٢].

٨ ـ ونختم بكلمة إنصاف للمستشرق الفرنسي المعروف أندريه ريمون والذي تخصص في دراسة البلاد العربية تحت الحكم العثماني، أنصف فيها العثمانيين وكيف كان العالم الإسلامي هو الملجأ الذي استقبل اليهود الفارين من التعصب المسيحي الكاثوليكي، يقول:

«إن إنشاء الإمبراطورية العثمانية كان له بصفة عامة أثر إيجابي على مركز اليهود. وقد لجأ العديد من اليهود إلى البلاد الإسلامية للاحتماء بعد طردهم من

---

(١) دومينيك سورديل، الإسلام، ترجمة: سليم قندلفت، ط٢ (دمشق: دار حوران، ٢٠٠٣م). ص١٠٧.

(٢) هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح، ترجمة: أحمد فتحي زغلول، ط١ (الجيزة: مكتبة النافذة، ٢٠٠٨م)، ص٧٩، ١٣١.

Readonly

إسبانيا أو هروبهم منها وذلك خلال الفترة بين عامي ١٤٩٢ م و١٤٩٦ م ثم في القرن السادس عشر... وقد مارس اليهود في المدن العربية الكبيرة حيث تمركزت جاليتهم أنشطة متنوعة: من المعروف أن أشغال المعادن الثمينة وأعمال الصرافة هي مهنتهم التقليدية. وفي القاهرة كانت حارة اليهود تقع في قلب المدينة بجوار الصاغة، كما كان اليهود يعملون أيضًا في دار سك النقود. وكانوا يقومون بدور نشيط في التجارة الخارجية إذ كانوا يصدرون المنتجات المحلية ويستوردون المنتجات الأوروبية، وذلك بفضل علاقاتهم مع اليهود الأوروبيين. وتمكنوا بفضل رؤوس الأموال التي جمعوها من القيام بأنشطة بنكية في البلاد التي كانت البنوك فيها غير متطورة»[١].

* * *

(١) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، ط١ (القاهرة: دار الفكر للدراسات، ١٩٩١ م)، ص ٨٤، ٨٥.

Readonly

كيف تتشكل صورة الإسلام في فرنسا: خبرة مستشرق فرنسي

نشر في مجلة «المجتمع الكويتية»

ديسمبر ٢٠٢٠

في عام ٢٠١٦ أصدر المستشرق الفرنسي فرانسوا بورغا كتابه «فهم الإسلام السياسي»، وفيه حاول أن يوجز رحلاته في الديار الإسلامية، حيث اكتشف هناك زيف الصورة التي يعتنقها الفرنسيون. واكتشف أيضًا أن هذه الصورة ليست لمجرد ضعف الثقافة أو لأن الفرنسيين لا يعرفون إلا الغرب، بل لأن ثمة شبكة من المؤسسات السياسية والإعلامية والأكاديمية تعمل على ترويجها وفرضها وتثبيتها كصورة وحيدة. ونفس هذه الشبكة هي التي تُرَوِّج تحليلاتها وتفسيراتها وتقدم «الفهم الوحيد الصحيح» لما يحدث في بلاد المسلمين، ليس هذا فحسب، بل إنها تسعى سعيها المحموم لمطاردة أي صوت آخر يحاول أن يقدم صورة أخرى أو تحليلًا آخر لما يجري هناك.

ومن ثَمَّ كان على المتحدث في شأن الشرق أن يلتزم بهذه الرواية الرائجة، فإذا تجرأ وقدَّم رواية أخرى تنصف المسلمين أو تحاول فهمهم، كان عليه أن يدفع الثمن، ومن الجدير بالذكر أن تهمة التعاطف مع الإسلام تساوي «باختصار: الخيانة»[1].

خرج الكتاب مزيجًا بين السيرة الذاتية وبين أدب الرحلات وبين الفكر

(١) ص٢٠، ٢٢، ٢٣.

Readonly

والتحليل السياسي! ومع أن فهمه لعموم المشاعر الإسلامية كان جيدًا إلا أن فهمه للحركات الإسلامية يعاني قدرًا غير قليل من التشوش والضبابية.

يبدأ بورغا كتابه باقتباس من رسالة الروائي الفرنسي الشهير إميل زولا، يقول: «إنهم يُهَيِّجون فرنسا، يختبؤون وراء عاطفتها المباحة، يكممون الأفواه بتكدير القلوب وإفساد العقول. لا أعرف جريمة مدنية أعظم من ذلك». ثم يشرع في بيان أن التوتر مع العالم الإسلامي يعود إلى المشكلات السياسية، لا الدينية، فالمسلمون يريدون الانعتاق من الاستعمار وقيوده التي لا تزال مستمرة، وهذا ما لا يريد الغربي أن يفهمه لأنه منكفئ على نفسه ولا يرى في العالم غير فرنسا أو الغرب فحسب، وبدلًا من أن ينشط الغربي لفهم هذه الظاهرة الإسلامية فإنه يستعمل سوء الظن ليفسر به حركة هؤلاء «الأشرار» الآخرين.

يحاول بورغا التمييز بين المسلمين وبين الإسلاميين، فالمسلمون كأي أمة يريدون أن يعيشوا كما تمليه عليهم ثقافتهم وشريعتهم، فميلهم إلى الهوية الإسلامية هو فعل طبيعي، ليس فيه بالضرورة رفض مطلق للغرب ولا رغبة في إفناء الشعوب الغربية، ولكنها حركة استقلال وتحرر وانخلاع من الثقافة الاستعمارية التي لا تزال مفروضة عليهم بفعل الهيمنة الغربية، وهذه الحركة موجهة إلى العلمانيين والقوميين أيضًا باعتبارهم ممثلي الثقافة الغربية ونتاجًا لحقبة الاستعمار. هذه الرغبة في الاستقلال والتحرر لا بد لها من الانتماء إلى الإسلام وحضارته وتقاليده وقيمه، لأن أصحابها مسلمون، وهذه الرغبة هي التي تسود العالم الإسلامي، ولا يمكن إدانتها.

وأما الإسلاميون فهم أولئك الذين ترجموا هذه الرغبة إلى عمل وحركة، ومن

Readonly

الطبيعي أنهم سيعملون بقوة تحت الشعارات الإسلامية وسيتبنون خطابًا إسلاميًّا، ولكن التنوع الكبير بين هؤلاء الإسلاميين (بدءًا من الغنوشي وحتى البغدادي) في طرق العمل وطبيعة الأفكار، يجب أن يلفت النظر إلى أن الخطاب الإسلامي إنما هو مظلة واسعة للغاية، فمن الخطأ حصر الإسلام في شكل نمطي واحد كما يحدث في الغرب، ولفهم هذا التنوع يجب أن ننظر في الظروف والدوافع التي هيمنت على كل حركة حتى صار كلًّا من الغنوشي والبغدادي ينتسبان إلى الإسلام ويستعملان الخطاب الإسلامي.

يستخلص بورغا من خلال دراسته ورحلاته إلى قناعة مفادها أن ردة فعل حركة إسلامية ما «غالبًا ما تكون ذات طبيعة انفعالية، أي أن باعثها المؤسس يتمثل في عنف ابتدائي»[1]، وبعبارة أخرى: أن ظهور التطرف والإرهاب لا يتحمل الإسلاميون وحدهم مسؤوليته، لا سيما إن كانت البداية عملًا عنيفًا جاء من الطرف الغربي كالاحتلال العسكري أو من ممثلي الغرب المحليين كالقمع والاضطهاد! ومن هنا يختلف بورغا مع معاصره الفرنسي جيل كيبيل (وهو واحد من أشهر الباحثين في الحركات الإسلامية) إلى درجة التناقض، إذ يرى كيبيل أن ما في الإسلام من قيم وأفكار إنما هي منتجة للتطرف بطبيعتها، وأنه حيثما وُجِد الإسلام فسيوجد التطرف!

يختصر بورغا أفكاره فيقول: «إذا ما اعتقدنا أنه ينبغي إصلاح الفكر الديني الراديكالي بغية إحلال السلام، نكون قد سلكنا طريقًا خطأ، فالسبيل إلى إحلال السلام في المنطقة لا يمر عبر إصلاح الخطاب الديني، وإنما نبدأ بإحلال السلام في المنطقة لكي نصل إلى إصلاح الخطاب الديني»، ويضيف: «لا يصدر العنف

(١) ص١٨.

Readonly

(الإسلامي) من الإسلام. إنه نتاج التاريخ الحديث للمسلمين، تاريخ كتبته أياد عدة، منها أيادي الجارة الغربية الكبيرة (أوروبا)»[1].

طفق بورغا عبر هذا المدخل يسرد كيف انفتح على العالم الإسلامي، والبلاد التي زارها، وروى كثيرًا من المواقف التي تعرَّض لها مما له دخل بهذه الفكرة أو مما يُروى للطرافة والغرابة أحيانًا:

كانت رحلته الأولى إلى إسرائيل، وذلك قبل أن يبدأ الاهتمام بأحوال الشرق، وكانت معرفته المستقاة من المدرسة ومن الصحافة الفرنسية تقول بأن الإسرائيليين كانوا هم الذين نجحوا في زرع الورود وسط الصحراء، التي كانت مجرد أرض لم يفعل العرب إلا التجول فوق كثبانها على ظهور جِمالهم طوال هذه القرون. هناك استفاق على كلمة شاب فلسطيني يقول له «لقد أخذ اليهود بلدي مني». لم يكن يعرف شيئًا عما جرى ولا لديه أدنى علم بالتاريخ الذي يحكي كيف صارت إسرائيل! وبهذا يمكن أن نتصور كيف يفهم الفرنسي الجاهل صورة الوضع إذا سمع بخبر هجوم على الذين نجحوا ولأول مرة في زراعة الورود في قلب الصحراء!!

وفي رحلته وعمله بالجزائر اكتشف ولأول مرة أن الاستعمار الفرنسي وجرائمه حاضرة في الجزائر حضورًا طاغيًا ومؤثرًا في كل شيء، ويكاد يكون أثر هذا حاضرًا في كل ردة فعل يقوم بها الجزائريون، بينما هذا التاريخ لا يدرس في فرنسا ولا يعرف الفرنسيون شيئًا عما فعله أسلافهم في الجزائر، ومن ثَمَّ فإن كل ردة فعل غاضبة في الجزائر يفسرونها على أنها ناتجة عن الطبيعة المتطرفة الأصيلة المغروسة في نفوس المسلمين، بل إن أولئك المسلمين إنما هم ناكروا جميل،

(١) ص١٩، ٢٥.

Readonly

وذلك أنهم يتعاملون بعداء مع فرنسا مع أنها هي التي أدخلتهم العصر الحديث وبنت لهم المدارس وشقت لهم الطرق وألحقتهم بالثقافة العصرية!!

وحين وقع الانقلاب العسكري في الجزائر على الجبهة الإسلامية للإنقاذ وبدأت حرب الجيش على الإسلاميين، بكل ما شملته من جرائم ومذابح، فإن فرنسا قدَّمت الدعم الكامل ـ هي وسائر الغرب ـ للجيش في معركته، ولم تأبه أن تسأل عن الديمقراطية المذبوحة! يرى بورغا أن هذه واحدة من اللحظات النموذجية التي يمكن من خلالها تفسير وفهم الحركات الجهادية. ولكن من سيسمح بذلك، إن بورغا نفسه كان يعاني غاية المعاناة لأنه يحاول تقديم الصورة الحقيقية في مناخ تعمل فيه الشبكة السلطوية كلها وبكل طاقتها في ترويج وترسيخ روايتها الوحيدة عن «الإرهاب الإسلامي».

هذه الشبكة جذبت إليها حتى الأحزاب اليسارية في فرنسا، التي من المفترض أنها تدافع عن العدالة وعن الطبقات الفقيرة وعن الظروف غير الطبيعية التي تدفع إلى العنف، لقد كانت حاجة هذه الأحزاب إلى الأصوات التي تذهب إلى أحزاب اليمين أهم عندها من الإخلاص لمبادئها!

يذكرنا حديث بورغا عن الشبكة المهيمنة على إنتاج المعرفة في الغرب بما قاله إدوارد سعيد، وتذكرنا معاناته ببعض ما لقيه مستشرقون حاولوا الإنصاف منذ رايسكه وحتى الآن. إننا لن نفهم الاستشراق حقًّا إذا لم نفهم أنه الذراع الأكاديمي لسياسات الهيمنة، وليس مسموحًا ولا هو ممكن أن يتحول الاستشراق ليكون دراسة موضوعية تنتهي نتائجها إلى اتهام السياسة الغربية، وتحسين صورة العدو «الإسلامي».

Readonly

ليست المشكلة في جهلٍ سببه ضعف التواصل أو ندرة المراجع أو قلة الباحثين، المشكلة في شبكة الطغيان التي تصنع الصورة اللازمة لاستمرار الحرب والنهب والعداء، وعموم الناس في الغرب هم ضحايا بوجه من الوجوه، إلا أن منهم من إذا عرف الحقيقة فضَّل ما هو فيه من الترف والمكاسب ـ التي هي من دماء الشعوب المستضعفة ـ على أن ينقلب مدافعًا عن الحق ومتحملًا ثمنه، وهو بهذا ينحاز إلى شبكة الطغيان طواعية ليكون جنديًّا في صفوفها!

من المؤسف أننا لا نملك الكثير لإنقاذهم من جهلهم، فهذا الجندي الجاهل الذي يهاجمنا بسلاحه في ديارنا ليس له إلا الصدّ والردّ والدفع بكل ما يندفع به! ومثلُ هذا الجندي الجاهل هذا الفرنسي الغافل في بلاده، لن يستيقظ إلا إذا مُسَّت بعض رفاهيته بمقاطعة المسلمين لمنتجاتهم، وبما يستطيعون من وسائل المقاومة الأخرى.

وهنا نفهم، لماذا كانت الفتوحات الإسلامية هي أوسع عملية في التاريخ لإنقاذ البشر من هيمنة الطغاة!

* * *

Readonly

هل يتغير موقف الشعوب الغربية إذا عرفوا محمدًا ﷺ؟

نشر في مجلة «المجتمع الكويتية»

يناير ٢٠٢١

روى فايز الكندري، الأسير الكويتي المحرر من سجن جوانتانامو، في كتابه شديد الروعة «البلاء الشديد والميلاد الجديد»، أن أحد الجنود الأمريكان في معسكر قندهار بدا أنه مثقف وذو أدب، حاول التعرف على الإسلام، فكان يستمع باهتمام بالغ إلى شرح أفكاره، ويتعامل باحترام كبير مع الأسرى، حتى إنه إذا أراد أن ينصرف ليستكمل جولته استأذن من الأسير في الانصراف! ولما رآه الرقيبُ العسكري هذا الجنديَّ واقفًا مع الأسرى، استدعاه إليه، ووبَّخه على ذلك، وهدده بالعقاب إذا رآه مرة أخرى في هذا الموقف.

انقلب الجندي بعدها إلى وحش، صار نارًا على الأسرى، أو بتعبير فايز الكندري «رضي أن يكون آلة في هذه المنظومة الظالمة التي لا تراعي أبسط الحقوق الإنسانية، فألغى عقله في معرفة الحق والباطل والظلم والعدل، وألغى قلبه الذي يطالبه بأن يكون إنسانًا يُعامل الآخرين بإنسانية»[1].

أتّخذُ هذه القصة مدخلًا للإجابة على بعض استدراكات القراء التي وصلتني على المقال الماضي، إذ قُلْتُ بأن الشعوب الغربية ضحية للخطاب الإعلامي الكاذب عن المسلمين والذي تنتجه شبكات السلطة والنفوذ الغربية ـ كما عرضنا

(١) فايز الكندري، البلاء الشديد والميلاد الجديد، ط١ (بيروت: جسور للنشر والترجمة، ٢٠٢٠م)، ص١٠٩، ١١٠.

Readonly

ذلك من خلال تجربة المستشرق الفرنسي المعاصر فرنسوا بورجا[1] ـ إلا أنه حتى إذا أتيح لبعضهم معرفة الحق فلن تكون مجرد المعرفة كافية لانتقاله من معسكر الغالبين إلى معسكر المغلوبين مُضَحِّيًا في ذلك بامتيازاته وترفه ومتحملًا تكاليف معاكسة التيار.

ولهذا فإن حملة مقاطعة المنتجات الفرنسية هي أقل ما يفعله المسلمون لاستعادة كرامتهم، إذ تلك هي الوسيلة التي يمكن أن تكون مؤلمة ومفيدة في تنبيه هؤلاء إلى خطورة النيل من نبينا ﷺ، وبها يضع المسلمون أنفسهم ضمن شبكة القوى وشبكة المصالح التي تؤثر على اختيارات هذه الشعوب.

لكن يبرز السؤال هنا: لماذا تكون معرفة الحق غير كافية وحدها لاتباعه عند أغلب الناس؟ ولماذا يرضى أغلب الناس بمخالفة الحق ـ بل ومحاربته ـ في سبيل منفعتهم الذاتية؟!

ذلك واحدٌ من الأسئلة التي كم هلكت فيها العقول وفاضت الكتب في محاولة الإجابة عنها، ولن يمكن أن نقدم الإجابة ولا أن نختصر ما قيل في هذا المقال، وإنما نهدف من هذه السطور القادمة إلى بيان أن الشعوب الغربية تهيمن عليها مناهج فكرية ونظم سياسية وُلِدت في مسارات تاريخية بعينها، تجعل من المستبعد أن يتغير موقف هذه الشعوب مهما اجتهدنا في إيصال الصورة الصحيحة لديننا ونبينا إليهم.

من بين الفروع التي يدرسها علم النفس السياسي، فرع عن علم نفس الطاعة،

---

(١) محمد إلهامي، «كيف تتشكل صورة المسلمين في الغرب: خبرة مستشرق فرنسي»، مجلة المجتمع الكويتية، ديسمبر ٢٠٢٠م.

Readonly

وتبرز في هذا الفرع تجارب ستانلي مليجرام الشهيرة التي توصلت إلى أن ٦٥٪ ينفذون ما يُطلب منهم فعله مهما كان هذا الطلب يؤذي الآخرين أو حتى يقتلهم.

تتضاعف نسبة الطاعة في حالات أخرى، من أهمها حين يكون الذي يُصدر الأمر جهة فوقية، فالاعتقاد في أن الذي يطلب أو يأمر أوسع علمًا أو أكثر مالًا أو أرفع شأنًا يجعل الطاعة تزداد، وأما إذا كان الآمر يمثل السلطة التي تملك الجزاء والعقاب، فنسبة الطاعة تزداد إلى حدودها القصوى، ولا يبقى إلا النادر الذي يفكر في التمرد أو يقوى على تنفيذه. وأسفرت التجارب أن الإنسان وهو يقوم بهذا العمل غير الإنساني يُنْتِج مبرراته لنفسه، وهذه النقطة الخطيرة أشار إليها رئيس سابق لجهاز الاستخبارات الأمريكية ـ كما أورد ذلك ستيفن جراي في كتاب «أسياد الجاسوسية الجدد» ـ في درسه للمتدربين على قيادة شبكات التجسس، فقد أخبرهم أنه ليس من المُجْدي كثيرًا بحث المداخل والدوافع لتجنيد العميل، بل يجب إيقاعه في الخيانة فعلًا، ثم سيتولى هو بنفسه إيجاد المبرر لنفسه[1].

كذلك تتضاعف نسبة الطاعة حين تكون المسافة بعيدة، فالذي يمارس القصف بالطائرة أو بالصاروخ لا يشاهد نتيجة عمله على الضحية، ومن ثَمَّ فلا يفكر في الرفض أو التمرد، بينما تزيد احتمالية التمرد لو أنه سيقتل بالسكِّين. وتكمن الفائدة العملية من هذه النتيجة في أن تقسيم الجريمة إلى مجموعة من الأعمال تجعلها أسهل عليهم جميعًا، فالذي يأمر بقصف المدنيين ـ مثلًا ـ لن يتألم لأنه لا يفعل أكثر من كتابة قرار، والذي يوصل القرار إلى الهيئة التنفيذية لن يشعر بأي ألم جراء مشاركته في هذه المذبحة، ومثله الذي يرتب خطة القصف، وكذلك الذي

---

(١) ستيفن جراي، أسياد الجاسوسية الجدد، ترجمة: مركز التعريب والبرمجة، ط١ (بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠١٦م)، ص٢١٨.

Readonly

يشحن الطائرة بالصواريخ، وكذلك الطيار الذي يلقي القنبلة، وبطبيعة الحال لن يشعر بالألم كل الفريق العلمي والصناعي الذي أنتج القنبلة.

وتتضاعف نسبة الطاعة أيضًا حين تكون الضحية قد جرى تشويهها أو نزع الإنسانية عنها، مثلما يحدث في السجون ـ مثلًا ـ من إلغاء اسم السجين واستبدال رقمٍ به، أو الحديث المتكرر عن غبائه أو عن خبثه وخطورته ...إلخ! إن هذا يجعل عملية الإيذاء مبررة بل وضرورية، إن لم تكن شيئًا مطلوبًا ومرغوبًا فيه لتخليص البشرية أو الوطن من عنصر الشرّ هذا أو على الأقل: لتجنب خطورته وخبثه!

إذا جمعنا بين هذه الأمور الثلاثة: تأثير الجهة الفوقية والسلطة، وتأثير تقسيم العمل إلى أجزاء صغيرة، والتشويه المتكرر للعدو، وطبقناها على حالتنا هذه، فسنجد أنه من الصعوبة جدًّا أن يتغير موقف الشعوب الغربية من النبي ومن المسلمين:

فنحن إزاء شبكة سلطوية قوية مُنْتِجة لصورة المسلمين في الغرب، تتمثل في نخبة متميزة من السياسيين والوزراء والمثقفين والأكاديميين والصحافيين وحتى الممثلين، والكلمة من هؤلاء تجد طريقها بغير صعوبة إلى عقول عموم الناس هناك وقلوبهم، فليس من طبائع البشر أن يناقضوا قولًا يتفق عليه ويردده زعماؤهم وأعيانهم وكبارُهم.

ثم إنه ليس مطلوبًا من عموم الناس هناك ارتكاب جرائم مباشرة ضد المسلمين، بل على العكس، ليس مطلوبًا إلا الإبلاغ عمن يعتقدون أنه يمثل خطورة وتطرفًا، مع تقديم الدعم الاجتماعي لإجراءات الحكومة، وهو ما يكفي فيه مجرد السكوت والوقوف في مكان المتفرج الذي لن يرتكب شيئًا بيده. وأما الأجهزة الحكومية التي ستنفذ قرارات السلطة فإن العمل مقسَّم فيما بينها بحيث لن يشعر أحدٌّ ما بنوع

Readonly

من ألم الضمير، لأنه مجرد منفذ لجزء صغير من سياسات كبرى هو لا يستوعبها ولا يعرف نتائجها على الضحية.

وحتى إذا شعر البعض بتأنيب الضمير، فإن الميراث الطويل من خطاب الكراهية الذي يتحدث عن الخطر الإسلامي قد صنع فعلًا حالة من الخوف المرضي من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، وهذا الأمر يعمل كمُخَدِّرٍ ومُنَوِّمٍ للمشاعر المتعاطفة مع الضحايا، كما يعمل كحافز ومثير للمشاعر المتضامنة مع الدولة والسلطة والأجهزة التي تنفذ واجبها في حماية المجتمع من الأخطار المحتملة!

وإذا افترضنا أن مواطنًا صالحًا في فرنسا أو في غيرها من بلاد أوروبا كان يكتفي بموقع المتفرج، أو حتى تسيطر عليه عاطفة التضامن مع الضحايا، فإن هذا المواطن بمجرد أن يتولى وظيفة في الشرطة أو الجيش أو نحوها من الأجهزة التي تتولى هذه الحرب ضد المسلمين، الأغلب أن هذا المواطن يتحول تحولًا مفاجئًا إلى جندي مخلص في هذه الحرب، على ذات النحو الذي فعله الجندي الأمريكي الذي ذكرناه في بداية المقال. فتلك هي نتيجة التجارب النفسية العديدة التي أجراها العديد من خبراء علم النفس الاجتماعي، وتناولها كثيرون مثل سولومون آش، وستانلي مليجرام، وفيليب زمباردو، وديفيد باتريك هوتون، وباتريك بوكانان، وحنة أرندت، وزيجمونت باومان، وغيرهم[1].

---

(١) للمزيد، انظر «الإذعان للسلطة» (Obedience to Authority) لستانلي مليجرام، وعلى حد علمي فإن هذا الكتاب لم يترجم للعربية، ولكن تجربته ونتائجها تناولها العديد من الكتب والدراسات الأخرى، و«تأثير الشيطان» لفيليب زمباردو، و«علم النفس السياسي» لديفيد باتريك هوتون، و«الذرة الاجتماعية» لباتريك بوكانان، و«آيخمان في القدس» و«تفاهة الشر» كلاهما لحنة أرندت، و«الحداثة والهولوكوست» لزيجمونت باومان.

Readonly

إن نسبة نادرة يمكنها أن تقاوم الحالة الاجتماعية السائدة، لا سيما في مجتمعات تهيمن عليها العلمانية والإلحاد، وتضمر فيها الهيمنة الأخلاقية، بحيث يمكن لأي عمل مهما كان وضيعًا أن يوجد له المبرر الذي يجعله ضرورة أو حتى يجعله مرغوبًا فيه.

وأندر منها نسبة الذين يقاومون السلطة أو يتمردون عليها، وهذا أمرٌ نلمحه في حديث النبي ﷺ: «ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك منكم فلا يكونن لهم عريفًا ولا شرطيًّا ولا جابيًا ولا خازنًا»(١). فمما ننتبه إليه من هذا الحديث أن مقاومة عنصر الجهاز الأمني أو العسكري أو المالي لأوامر السلطة الظالمة أمرٌ لا يكاد يُستطاع، فجاء النهي النبوي عن الدخول فيه من الأصل.

كان هذا كله عاملًا واحدًا، وهو «علم نفس الطاعة» الذي يحمل الشعوب على أن تظل في مواقعها العدائية حتى وإن وصلت إليهم الصورة الصحيحة عن النبي وعن المسلمين، مع أن هذا افتراضٌ جدلي على سبيل التنزل، إذ كيف يمكن منافسة الشبكة السلطوية المهيمنة على شعب ما فضلًا عن التغلب عليها لإعادة تشكيل وعي الشعب.

وبقي أمر آخر نؤجله إلى المقال القادم إن شاء الله، وهو أمر المنهج الوضعي الذي ساد في أوروبا منذ عصر التنوير، وكيف ساهم هذا المنهج في الانفصال بين العلم والعمل، وبين العلم والأخلاق، بمعنى: أنه صار طبيعيًّا ومتكررًا أن يتوصل عالِمٌ ما أو مستشرق ما إلى الإعجاب القوي بالنبي ﷺ وبالحضارة الإسلامية ثم لا يشعر أنه مُلزم باعتناق الإسلام واتباع هذا النبي. كيف نشأ هذا المنهج في التفكير وكيف ساد؟... هذا ما يكون في المقال القادم إن شاء الله وقدَّر.

---

(١) رواه ابن حبان (٤٥٨٦) وغيره، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٦٠).

Readonly

أفاضوا في مدح النبي وماتوا كافرين!!

نشر في مجلة «المجتمع الكويتية»

فبراير ٢٠٢١

ليس كل من عرف محمدًا ﷺ أحبَّه، ولا كلَّ من عرفه آمن به واتبعه. فالقول بأن الشعوب الغربية لن يتغير موقفها كثيرًا إذا عرفت نبينا ـ ﷺ ـ ليس نوعًا من التشاؤم أو هو ضرب من الوهم، بل هو أقرب لتقرير واقع، وتطبيق لفهم طبائع النفس والاجتماع.

وليس أقرب دليلًا على هذا من أن قريشًا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه، وهم أعرف الناس به، فهم أهل النبي وعصبته، وفيهم وُلِد وكبر وعُرِف قدره وشرفه وخُلُقُه. بل تحول فجأة من «الصادق الأمين» إلى: ساحر وكاهن وشاعر ومجنون!!

فالجهل هو الحاجز الأول، ولكنه ليس الحاجز الأهم، والمعرفة وحدها لا تدفع صاحبها إلى اتباع الحق، وإلا فما كان يُتَصَوَّر أن يكفر إبليس وهو الذي عاش دهرًا مع الملائكة، ورأى من الملكوت ما لم يره البشر. إن بين العلم وبين العمل حواجز من الشهوات والمصالح التي لا تهدمها إلا مجاهدة النفس وتحمل العواقب ودفع التكاليف، ولذلك «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» كما في الحديث الصحيح.

وكنا في المقال السابق على صفحات هذه المجلة قد طرحنا سؤال «هل يتغير موقف الشعوب الغربية إذا عرفوا محمدًا ﷺ؟»، وللإجابة على هذا السؤال افتتحنا موضوعيْن:

Readonly

الأول: هو ما يُسمى «علم نفس الطاعة» وهو من فروع علم النفس السياسي وعلم النفس الاجتماعي، حيث قد ثبت أن تأثير السلطة في الجماهير يبلغ من القوة بحيث أنها تفضل الطاعة والخضوع مهما كانت قناعتهم بخطأ القرار. وذلك ما تناولناه في المقال الماضي.

والثاني: هو سيادة المنهج الوضعي في التفكير والبحث العلمي في الغرب، وهو ما نشير إليه سريعًا في هذه السطور، وبالله التوفيق.

كان من نتائج انقلاب الغرب على المسيحية، وإقصاء الدين من الحياة، أن دخل إلى الحياة العلمية ثم ساد فيها منهج الوضعية. حيث تمثل هذا المنهج في العديد من الفلسفات والأفكار والمذاهب، حتى صار أساسه راسخًا وثمراته كثيرة وغزيرة.

الوضعية، بتبسيط شديد يناسب المقام هنا، هي المقابل والنقيض للمعيارية، ولكن ما هي المعيارية؟

المعيارية: هي بمثابة الميزان والنموذج والمِثال الذي نسعى للوصول إليه. نريد مثلًا أن نصل إلى نظام سياسي يحقق العدل ويقوم بالحق وينشر الفضائل، إن تصوُّرنا للعدل والحق والفضائل هو المثال والنموذج والمعيار الذي نحاول الوصول إليه، وعلى ضوئه نستكشف القصور والأخطاء والنقص في واقعنا، فنسعى في تحسينه وتعديله، ونكافح في سبيل ذلك أولئك الظالمين والمجرمين الذين يتسببون في هذه الأوضاع الفاسدة ويغلقون طريق الإصلاح. وهكذا، كل دين أو فلسفة أو مذهب، له تصوّره عن العدل والخير والحق والجمال والأخلاق، ومن خلالها اختار شكل الإصلاح والكفاح، ومن خلالها بنى قوانينه وتشريعاته ونظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

Readonly

ما يهمنا هنا، أن العلم الصادر عن منظومة معيارية، يهتم بدراسة مجاليْن معًا: يدرس «ما هو كائن»، ويدرس أيضًا «ما يجب أن يكون»، ويحاول أن يصل إلى أفضل السُبُل لإصلاح ما هو كائن كي ينسجم ويصل إلى ما يجب أن يكون. إنه علمٌ ذو ميزان ومعيار، فليس مقبولًا أن تخرج نظريةٌ علميةٌ تدعو إلى مخالفة القيم والمبادئ والأخلاق الأساسية في هذا الدين أو هذه الفلسفة.

أما الوضعية، فهي التي تحاول أن تدرس ما هو كائن، ولا تهتم أصلًا بمجال «ما يجب أن يكون»، لسبب بسيط: أنها قد أقصت وأزاحت وحاربت الدين، بما في ذلك سائر ما يتعلق به من أمور غيبية (ميتافيزيقية)، لقد قضتْ على وجود المعيار والميزان نفسه. وبهذا صار كل شيء مقبولًا وممكنًا وطبيعيًا.

إذا انطلقت مجموعة من الرحالة والجغرافيين ـ مثلًا ـ إلى رحلة مجهولة في مكان ما، واكتشفوا قومًا من البشر لهم عادات وتقاليد وطقوس، سيهتم الرحالة «المعياري» أن يقيس أوضاع هؤلاء إلى المعيار والميزان الذي يعتنقه، فإذا رأى أنهم يأكلون لحم البشر فسيرسخ في نفسه أنهم قساة، وإذا رآهم يتزاوجون رجالًا ونساء بغير عدد ولا تحفظ فسيرسخ في نفسه أنهم في إباحية وفوضى جنسية، وإذا رآهم ينقسمون إلى طبقات تتفاوت في الحقوق والواجبات فسيرسخ في نفسه أنهم في ظلم... وهكذا! أما الرحالة «الوضعي» فلن يرى فيهم إلا قومًا «مختلفين»! لهم عادات وتقاليد وأنظمة «مختلفة»! وما ذلك إلا لأنه ليس ثمة ميزان ولا معيار.

هذا المثال المبسط للغاية، وجد تطبيقات خطيرة له في سائر مناحي الحياة الغربية، ومن تلك المناحي: العلم. وأبرز مجالات العلم التي يبدو فيها هذا واضحًا: الأخلاق. فلطالما كان علم الأخلاق علمًا يدرس ما يجب أن يكون، فتحول تحت

Readonly

ضغط الوضعية المادية إلى علم يدرس ما هو كائن، فالأخلاق في المنهج الوضعي ليست إلا «عادات قوم ما في زمانٍ ما ومكان ما»، ليس أكثر من هذا.

ومن بين تطبيقات كثيرة وخطيرة لهذا الاتجاه، يهمنا في مقالنا هذا التركيز على ما وقع في الانفصال بين العلم والعمل.

لقد صار مألوفًا تمامًا في الحياة الغربية أن تجد الباحث ينفق عمره في دراسة موضوع ما، ويصل إلى عدد من النتائج المهمة والممتازة، ولكنه لا يرى نفسه مكلفًا باتباع النتائج التي وصل إليها، ولا اعتناق الأفكار التي أثبت هو صحَّتها، ولا الكفاح في سبيل ما برهن هو على أنه حق!! وكذلك زملاؤه في البيئة العلمية، لا يستنكرون عليه أنه لم يفعل!

لقد توقف عمل العالِم الباحث عند الفحص والدراسة وجمع الأدلة والبرهنة عليها وتقديم التفسير العلمي وتكوين صورة الموضوع المحكمة. عند هذه النقطة يرى هو ـ كما يرى زملاؤه ـ أن المهمة قد اكتملت. أما موقفه هو مما توصل إليه ومدى تطبيقه هو لقناعاته هذه في حياته، فأمرٌ آخر يُعَدُّ من قبيل الحرية الشخصية التي لا يُسأل عنها!

لقد فاضت كتب كثير من المستشرقين بالثناء على النبي محمد ﷺ، وإنجازه المُعْجِز في تحويل العرب من أمة مطمورة مغمورة متنازعة لا يتوقف القتال فيها إلى بناة حضارة وإمبراطورية عظيمة في زمن خاطف ولمحة بارقة، وفاضت كتب كثير منهم بالثناء على الإسلام وقيمه وحضارته وما قدَّمته الحضارة الإسلامية للعالم من بدائع الأفكار والقيم والتشريعات والقوانين وروائع العلوم والعمارة والفنون. ومع ذلك فإن أكثر هؤلاء لم يدخل الإسلام!

Readonly

بل إن كثيرًا من جوانب عظمة الإسلام لا يلتقطها إلا هؤلاء، لنشأتهم في حضارة أخرى وقدرتهم على المقارنة بين الإسلام وبين ما هم فيه، فإذا الذي تعوَّدنا عليه لا يثير اهتمامنا ولا نعرف قيمته، بينما يبدو هذا عندهم شيئًا بارزًا ومتألقًا ومثيرًا للإعجاب. ومع ذلك فأكثر هؤلاء لم يدخل الإسلام!

انتشر في العالم الإسلامي مستشرقون لا يُحصى عددهم، وبعضهم لديه من العلم بالإسلام ومذاهبه وعلمائه ما ليس عند أكثر المسلمين، ولكنه لم يسلم. بعضهم قدَّم رؤى وتصورات عن المسلمين وعن الحركات الإسلامية في غاية الدقة والقوة، وأكثرهم لم يُسْلِم.

إن هذا الأمر المقبول تمامًا في الواقع الغربي هو نفسه من أقبح القبيح في ديننا، إذ يشدد الإسلام على ضرورة اتباع الحق مهما كانت التكاليف، وعلى التضحية في سبيله مهما ارتفع الثمن، والذين يعرفون الحق ولا يتبعونه هم «المغضوب عليهم» وهم أشر الناس، وإذا قال المرء ما لا يفعل فقد أصابه المقت العظيم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]. ولا يمكن لمن أمسك بكتاب في فضل العلم أو آدابه من تراثنا الإسلامي إلا وجد فيه كلامًا عن ضرورة العمل، حتى لقد ألَّف الخطيب البغدادي ـ المحدث والمؤرخ المشهور ـ كتابًا شهيرًا جعل عنوانه «اقتضاء العلم العمل»، حشده بالنقول من القرآن والسنة وكلام السلف الصالح عن ضرورة العمل، وأن العلم إنما يُطلب للعمل.

ولقد نفر علماؤنا من مناقشة العلم الذي لا يترتب عليه عمل، وأنكروا على من يسأل الأسئلة التي لم تقع ولم تحدث، إذ العلم عندهم ليس رياضة نظرية لتمرين العقول وتنشيط الأذهان، بل هو هداية ونور لإصلاح العقول والقلوب والأبدان.

Readonly

وقد نُقل عن الكثير من العلماء النهي عن العلم الذي لا يُستفاد منه، والاستغراق في الدقائق والمُلَح والنوادر والغرائب التي لا يُنتفع بها.

هذا المنهج القبيح المستنكر في ديننا وتراثنا صار هو الأمر الطبيعي في الحضارة الغربية، ولست أحصي عدد المرات التي كنت أقرأ فيها لبعض المستشرقين في بداية تعرفي على كتبهم، فكنتُ أتوقع الواحد منهم سيعلن إسلامه في السطر القادم، من روعة ما يكتبه وقوته، ثم ينتهي الكتاب، ثم ينتهي أجله هو وقد مات كما كان، كأنما لم يعرف الإسلام!

لهذا نقول: إن الشعوب الغربية تحتاج أكثر من «معرفة» نبينا ﷺ، فإن المعرفة وحدها لن تنقل أكثرهم إلى الإيمان، بل ولن تثني أكثرهم عن الإساءة له ﷺ. الشعوب الغربية ـ والشرقية وسائر الشعوب ـ تحتاج أن ترى المسلمين أقوياء أعزاء، حينها تتغير نظرتهم على الحقيقة. فإن تعذَّر اجتماع القوة والعزة فالعزة وحدها قادرة أن تجتذب منهم، فإن العزيز مهما ضعف ومهما افتقر يصير موضع إعجاب وتقدير، وأقل أحواله أن يصير موضع تساؤل واهتمام!

آخر ما تحتاجه الشعوب الغربية أن نخاطبهم بديننا خطاب المستضعف الذليل الذي يتوسل لهم أن يستمعوا وأن يتعرفوا على ديننا ونبينا، إن المبذول مملول، ولذلك قال ابن تيمية في بيان حكمة قتل سابِّ الرسول: «الكلمة الواحدة من سب النبي ﷺ لا تحتمل بإسلام ألوف من الكفار، ولأن يظهر دين الله ظهورًا يمنع أحدًا أن ينطق فيه بطعن أحب إلى الله ورسوله من أن يدخل فيه أقوام وهو منتهك مستهان»[1].

---

(١) ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (الرياض: الحرس الوطني السعودي، د. ت)، ص٥٠٥.

Readonly

Readonly

مقارنات كاشفة

في مارس ٢٠١٩ اقتحم استرالي مسلح مسجدين للمسلمين وأطلق عليهم وابلًا من الرصاص، سقط على إثر ذلك نحو خمسين قتيلًا وخمسين جريحًا، طبقًا للإحصاءات الرسمية، وقد ألقي القبض على المسلح وحُكِم عليه فيما بعد بالسجن مدى الحياة، وقد ظهرت السلطات النيوزيلاندية بمظهر استثنائي غير معتاد في التعامل الغربي مع الحوادث المتكررة الموجهة ضد المسلمين، فأظهرت رئيسة الوزراء تعاطفًا غير مسبوق مع الضحايا وقدمت التعازي والاعتذارات للمسلمين هناك. وفي نفس الوقت فإن السفاح المسلح قد ترك كتابًا يبرر فيه لجريمته ويشرحها ويتحدث عن خطورة المسلمين وعن انتشارهم في البلاد الغربية، ويقول بأنه تلقى مباركة من بعض الجهات مثل فرسان مالطة.

فتحت هذه الحادثة بابًا واسعًا للنقاش حول الإسلام والغرب، وحول أحوال المسلمين في الدول الغربية، وحول الفوارق بين الدولة الإسلامية والدولة العلمانية بعد بروز السلطة النيوزيلاندية بهذا المظهر الاستثنائي، كما فتحت الحادثة ملف العنصرية الغربية.

وفي هذه الأجواء كتبتُ هذه المقالات التي تتناول هذه الموضوعات، والتي ركزت على الفوارق الجوهرية والمقارنات الكاشفة بين الإسلام وبين الغرب، ثم أضفت إلى ذلك مقالًا كُتب في ظروف أخرى عن الفارق بين النظرة إلى العلم لدى

Readonly

الحضارتين الإسلامية والغربية؛ لأنه يصب في نفس الفكرة العامة لهذه المقالات فهو يزيد الفارق وضوحًا.

تناولتُ هذه الموضوعات عبر هذه العناوين:

ـ سفاح نيوزيلاندا لم يفهم قوانين القتل

ـ أيهما أفضل: الدولة الإسلامية أم الدولة النيوزيلاندية

ـ فلسفة العلم بين الحضارتيْن: الإسلامية والغربية

ـ كيف عامل المسلمون عبيدهم

***

Readonly

سفاح نيوزيلاندا لم يفهم قوانين القتل

نشر في «الخليج أون لاين»

مارس ٢٠١٩

كان من المثير في ذلك الكتاب الذي كتبه سفاح نيوزيلاندا أنه سأل وأجاب، فقال: «هل تعدُّه اعتداءً إرهابيًّا؟ إنه هجوم إرهابي، لكنني أعتقد أنه عمل متحيز ضد قوة محتلة». وقد صرَّح في كتابه هذا أنه تلقى مباركة فرسان المعبد على هذه العملية قبل تنفيذها! ومع هذا الاعتراف الواضح الصريح بكونه عملًا إرهابيًّا، وبهذه المباركة، إلا أن أحدًا لن يفكر في تصنيف «فرسان المعبد» كمنظمة إرهابية!.

هذه ملاحظة نضعها في البداية كي تكون حاضرة، ذلك أن الذين يوصفون بالإرهاب ويوضعون على قوائم التصنيف الإرهابي الدولي إنما هم أناس في بلادهم يقاتلون العدو المحتل الصريح أو النظام الذي صنعه المحتل قبل رحيله ولا يزال يحفظ بقاءه بكل الوسائل والأساليب.

لكن كلمة فرسان المعبد تعود بنا رأسًا إلى عصر الحروب الصليبية، وهو العصر الذي تكوَّنت فيه هوية أوروبا ككتلة مسيحية بيضاء، وشهد تشكل الأفكار الرئيسية التي تلتقي عندها الأطياف الأوروبية، لقد كانت الحملات الصليبية طريقة أوروبا للتعبير عن نفسها ولتحديد عدوها الرئيسي: الإسلام!

يتحدث ليوبولد فايس، الذي أسلم وسمَّى نفسه: محمد أسد، عن هذه الفكرة فيقول: «لقد أعطت تجربة الحروب الصليبية أوروبا وعيها الثقافي وكذلك وَهَبَتْها وحدتها. ولكن هذه التجربة نفسها كان مقضيًا عليها منذ ذلك الحين فصاعدًا بأن تهيئ اللون المزيف الذي كان على الإسلام أن يبدو لأعين الغربيين به، ليس فقط

Readonly

لأن الحروب الصليبية كانت تعني إراقة الدماء... بل كان أولًا، وقبل كل شيء، أذى عقليًّا نتج عنه تسميم العقل الغربي ضد العالم الإسلامي عن طريق تفسير التعاليم والمثل العليا الإسلامية تفسيرًا خاطئًا متعمدًا، لأنه إذا كان للدعوة إلى حملة صليبية أن تحتفظ بصحتها فقد كان من الواجب والضروري أن يوسم نبي المسلمين بعدو المسيح وأن يصور دينه بأكلح العبارات».

ويلاحظ أسد أن نشيد رولاند صار هو «النشيد الوطني» لأوروبا رغم أن موضوعه يصف ملحمة قبل ذلك العصر بثلاثة قرون، وأن هذه اللحظة كانت تمثل «بزوغ فجر الأدب الأوروبي تمييزًا له من الآداب المحلية [الأوروبية] السابقة: لأن العداوة للإسلام إنما صاحبت ظهور المدنية الأوروبية»، ويخلص أسد إلى أن الشخصية الجماعية لأوروبا تشكلت على هذا النحو: «إن خيال الحروب الصليبية لا يزال يرفرف فوق الغرب حتى يومنا هذا، كما أن جميع اتجاهاتها وإرجاعها نحو الإسلام والعالم الإسلامي لا تزال تحمل آثارًا واضحة جلية من ذلك الشبح العنيد الخالد»[1].

لم تكن المشكلة ـ كما يقرر المستشرق الألماني رود بارت ـ في نقص المعلومات، ذلك أن «العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق واسع، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعًا ما، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير. وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا لتلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي

(١) محمد أسد: الطريق إلى الإسلام ص١٩.

Readonly

المتخذ من قبل، وكانوا يتلقفون كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام»[١].

لم يكن الأمر مجرد سوء فهم أو نقص معلومات، بل كان اختيارًا للعداء وتكوينًا للهوية، وعلى نحو ما يقول إدوارد سعيد: «زادت الثقافة الأوروبية من قوتها ودعمت هويتها من خلال وضعها لذاتها في مقابل الشرق باعتبارها ذاتًا بديلة أو حتى دفينة»[٢].

لهذا فكل من كان مسلمًا لا يعتبر لدى الغرب غربيًّا، كان هذا قديمًا وحديثًا:

منذ محاكم التفتيش في الأندلس حيث جرى التعامل مع كل المسلمين باعتبارهم غزاة دخلاء وجميعهم إما أُجبر على التنصير أو على الطرد خارج أوروبا، مع أن الأندلسيين كانوا في عمومهم من أبناء هذه البلاد الذين اعتنقوا الإسلام.

وحين غزا الغرب إفريقيا واستعبد شعوبها كانت الرسالة المعنوية التي بررت وفلسفت هذه الاحتلالات هي «عبء الرجل الأبيض»، حتى التعبير عنها بكلمة «عبء» ينبئ عن النزعة العنصرية التي تصف مهمة يقوم بها الرجل الأبيض وهو كاره! وكان هذا العبء متمثلًا في نشر (3C) وهي: المسيحية والتجارة والحضارة! لكن اللافت للنظر هنا أن الإفريقي الزنجي الأسود كان يُغرى بالمسيحية لكي يحصل على التحرر، فإذا اعتنق المسيحية قيل له: المسيحية تحرر روحك، بينما يبقى الجسد في عبودية السيد الأبيض!

ويستمر ذلك حتى عصرنا الحاضر الذي شهدت فيه أوروبا مذابح المسلمين

---

(١) رودي بارت: الدراسات العربية الإسلامية ص٩، ١٠.

(٢) إدوارد سعيد: الاستشراق ص٤٦.

Readonly

في البوسنة ثم كوسوفا، وقد حدثني مسؤول منظمة إغاثية عملت في كوسوفا أن مسؤولًا إنجليزيًّا في اجتماع معهم قال: لن تسمح أوروبا لكيان مسلم داخلها! ثم ها هو الموقف المعاصر من تركيا ودخولها إلى الاتحاد الأوروبي الذي يرونه ناديًا مسيحيًّا! بل حتى عهد بوش الابن ـ كما تروي كونداليزا رايس في مذكراتها ـ كانت المنظومة المدفعية الأمريكية الرئيسية المعدة لمواجهة السوفيت تسمى Crusader (صليبية)!

كنت أندهش قديمًا حين أقرأ قصص بعض الغربيين الذين اهتدوا إلى الإسلام، كثيرون منهم عبَّر عن موقفه بأنه لم يفكر من قبل في الإسلام باعتباره دينًا إفريقيًا أو آسيويًا، كان يظنه دينًا منغلقًا على أتباعه لا يرحب بالأوروبيين. هذه النظرة إلى الدين هي ذاتها النظرة العنصرية البيضاء التي تجعل الأديان محصورة في أعراق بعينها أو جغرافيا محددة. سفاح نيوزيلاندا كتب في كتابه هذا أنه يحتقر على وجه الخصوص الرجل الأبيض الذي يدخل في الإسلام، وصفهم بقوله: «أولئك الذين ينتمون إلى شعبنا ويديرون ظهورهم لتراثهم ولثقافاتهم وتقاليدهم، ويصبحون خونة لدماء قومهم».

حتى بعد أن دخلت أوروبا في عصر العلمانية، وتحررت من الكنيسة، ظلت الروح العدائية ضد الإسلام فعَّالة بروح الحملات الصليبية، يُعَبِّر عن هذا المعنى أناس كثيرون باختلاف مواقعهم:

ـ ليوبولد فايس الذي أسلم وصار اسمه محمد أسد يقول: «ما يفكر الغربيون فيه ويشعرون به نحو الإسلام اليوم متأصل في انفعالات وتأثيرات إنما وُلِدَت في إبان الحروب الصليبية»[1].

---

(١) محمد أسد: الطريق إلى الإسلام ص١٧.

Readonly

ـ برنارد لويس المستشرق اليهودي الصهيوني العتيد يقول: «الروح العدائية (ونستطيع حتى أن نقول الصليبية) في فرنسا ما بعد الثورة (العلمانية) وخططها ضد العثمانيين ونواياها في استعادة مجد اليونان رغم العلاقات السياسية الطيبة في الظاهر بينها وبين العثمانيين»[١].

ـ القائد العسكري البريطاني ألنبي حين دخل القدس (ديسمبر ١٩١٧م) قال: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

ـ دخل القائد الفرنسي جورو إلى دمشق فركل قبر صلاح الدين قائلًا: «ها قد عدنا يا صلاح الدين»!

ـ وحتى بوش الابن الذي قال عن حملة أمريكا الجديدة: حربًا صليبية، ثم زعم أنها فلتة لسان!

لم تكن فلتة لسان، إنما هو مسار واحد مضطرد، لكننا لا نقرأ التاريخ، فقبل أن تحتل بريطانيا مصر كان قد نادى عليها رئيس الحكومة الفرنسية جامبيتا أن تسارع باحتلال مصر لكي لا تنجح ثورة عرابي الإسلامية فمن واجب بريطانيا أن تقوم بدورها في الحملة الصليبية الحاضرة مثلما فعلت فرنسا في الجزائر وتونس[٢]، وهو ما كان. وبعد ذلك الزمن بثلث قرن كان بيكو (الطرف الفرنسي في اتفاقية سايكس بيكو) هو النصير الأول لحركة «سورية فرنسية» التي ترى أن لفرنسا حقوقًا تاريخية في سوريا وفلسطين منذ زمن الحملة الصليبية، وأنه لهذا ينبغي أن تواصل «مهمتها التاريخية» هناك[٣].

---

(١) برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا ص٦٢.

(٢) ريمون فلاور: مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر ص ١٩١.

(٣) ديفيد فورماكين: سلام ما بعده سلام ص٢١٤.

Readonly

المواقف كثيرة، لكن أغرب وأعجب ما رأيته في هذا السبيل هو ما رواه الشيخ أمين الحسيني مفتي القدس في مذكراته، حيث كان يحاول مع الألمان إعلان دعمهم لوحدة الدول المغربية التي تقع تحت الاحتلال الفرنسي في ظل الحرب العالمية الثانية، ففوجئ بوكيل وزارة الخارجية الألماني للشؤون الشرقية يخبره بأن هذا ليس من مصلحة ألمانيا، فحاول أمين الحسيني التلويح بورقة لجوء تلك الدول للشيوعية طلبًا للاستقلال، ففوجئ به يقول له: «هذه الدول الأوروبية ترى أن الإسلام أشد خطرًا عليها من الشيوعية، لأن الشيوعية تمكن معالجتها وصد خطرها برفع مستوى المعيشة في الشعوب وتوزيع العدل الاجتماعي وغير ذلك من الوسائل، بينما ترى هذه الدول في الإسلام عقيدة زاحفة يُخْشَى خطرها على أوروبا التي نخرت المدنية الفاسدة عظامها، وأضعفت نواحيها الخلقية والروحية والعسكرية، فهم يخشون إذا تألفت هذه الدولة المغربية المتحدة أن يكون لها شأن عظيم، ويتوهمون أنها لا تلبث أن تثب على أوروبا مرة أخرى ويعيد التاريخ نفسه».

هل كان سفاح نيوزيلاندا شذوذًا عن الحالة الغربية؟

أبدًا... إنما كان متهورًا لا يعرف كيف يتمم الذبح بشكل قانوني أنيق، وبعد حملة إعلامية تُتَمِّم شيطنة المقتولين، كان متهورًا وفجًّا، كان يمكنه أن يلتحق متطوعًا بأي جيش غربي (بالجيش النيوزلندي نفسه المشارك في احتلال العراق) ليمارس القتل والقصف وينعم بالبطولة والأوسمة والنياشين، كان يمكنه أن يلتحق متطوعًا بشركة أمن خاصة كمرتزق مرموق ليمارس نفس القتل والتعذيب منعمًا براتب فخم ومزايا عظيمة، كان يمكنه ـ كبعض أصدقائه الذين ذكرهم في كتابه ـ أن يلتحق بمؤسسة رسمية فيعمل من خلالها وتحت غطاء القانون فتكون أعماله مجرد أخطاء غير مقصودة من شرطي شعر بالتهديد فتصرف وفق ما يستدعيه الخطر!

Readonly

كان متهورًا... لم يتعلم بعد فن صناعة العدو وفن قتله!

ومع هذا، فسيقضي أيامه في سجنه المهندم الأنيق، سينفق عليه من ضرائب الذين قتلهم، بينما ستعاني أسر المقتولين ضياعًا حقيقيًّا إن ظلوا في تلك البلاد بلا عائل، أو عادوا إلى البلاد التي خرجوا منها بحثًا عن حياة كريمة.

***

Readonly

الدولة الإسلامية أم الدولة النيوزيلاندية

نشر في مجلة «كلمة حق»

إبريل ٢٠١٩

أبدأ بالإقرار والاعتراف أن تعامل الحكومة النيوزيلاندية مع مذبحة المسجدين كانت فوق المتوقع، وأنها تعاملت مع الموضوع كما ينبغي لحكومة علمانية ليبرالية تؤمن بالتعدد والتنوع، أي كما ينبغي للصورة العلمانية الليبرالية كما ترسمها وتتمناها التنظيرات المعجبة بها والمؤيدة لها.

وقد أثار هذا مزيدًا من الجدل حول الدولة التي نأملها وننشدها في واقعنا، إن مما يتمناه الإنسان السويُّ أن يعيش الناس بأمان وسلام، وأن يجد المتطرف منهم رفضًا عامًّا من الناس ومن السلطة، وأن يجد الضحايا تعاطفًا عامًّا من الناس والسلطة معًا... فهل هذه الصورة الجميلة الحافلة بالمشاعر الإنسانية موجودة في الدولة الإسلامية التي تُبَشِّرون بها وتسعون إليها؟

بعضهم زاد في إحراجنا فطرح أسئلة من عينة: هل يمكن للخليفة أن يرفع الصليب أو يلبس الطاقية اليهودية إذا وقع اعتداء على الأقليات المسيحية واليهودية كما رأينا رئيسة الحكومة هناك ترتدي الحجاب ويذيعون الآذان في وسائل الإعلام ويفتتحون البرلمان بالقرآن الكريم؟

سيحتاج توضيح الموقف الإسلامي إلى عدة أمور أحاول سردها في هذه السطور، سائلًا الله التوفيق والإعانة.

Readonly

نيوزيلاندا استثناء علماني

لو كانت سيرة البلاد العلمانية مع الشعوب ومع الجرائم ضد الأقليات كسيرة هذه الحكومة النيوزيلاندية، فلربما كنا اقتنعنا أن العلمانية تستطيع التعبير عن نفسها بهذه الصورة الجميلة المشبعة بالتنوع الإنساني واحترام الأقليات وإعلاء قيم التسامح، بينما الواقع غير ذلك، لقد كانت هذه الصورة نموذجًا استثنائيًا كما يشهد الجميع، وكما تابع الجميع بانبهار وإعجاب. إن حوادث المساجد خبر أسبوعي تقريبًا في أوروبا وأمريكا ولم يحدث شيء مما فعلته الحكومة النيوزيلاندية، ويمكن ببساطة متابعة تقارير المنظمات الإسلامية أو المنظمات المهتمة بالتنوع وحقوق الأقليات لتتبع هذه الأحداث.

وبناء عليه، وكما تقرر في سائر العلوم، النادر لا حكم له، والاستثناء لا يُبنَى عليه ولا يُستدَلُّ به. فليس لأصحاب مذهب العلمانية أن يفخروا باستثناء خالف الأصل.

نيوزيلاندا بعيدة عن الصراع بينما تظهر حقيقة الأخلاق في الصراع

من المعروف المتقرر الذي شهدت له قرون التاريخ أن الغرب يتعامل في بلادنا بازدواجية أخلاقية، وعلى سبيل المثال، فلو كنتَ مصريًّا معارضًا واستطاع النظام أن يسجنك فستُعَذَّب بآلات تعذيب مصنوعة في بلاد الغرب وستُقْتَل برصاصة انطلقت من سلاح غربي، أما إذا استطعت الإفلات لنفس هذه البلد الغربية فربما تحصل على حق اللجوء الإنساني، وربما على إعانة شهرية باعتبارك لاجئًا هاربًا من منطقة تعاني من انتهاكات حقوق الإنسان، وفي كلا الحالَيْن فإن رئيس هذا البلد الغربي سيكون قد دعم الانقلاب العسكري الذي صنع بك كل هذا، وهو يلتقي بشكل دوري بزعيم الانقلاب ويعقد معه الصفقات.

Readonly

الازدواجية الأخلاقية الغربية ليست غريبة علينا، ولهذا فإن الجريمة التي تقع هناك في أرضهم تُعامَل بشكل مختلف تمامًا عن الجريمة التي تقع في بلادنا، وقد تقرر منذ قرون «النهضة الأوروبية» وعصر الاستعمار العالمي الذي اجتاح إفريقيا وآسيا والأمريكتين أن معاملة أولئك للشعوب المختلفة لا علاقة لها بمعاملتهم لمن استطاع الإفلات من أرض الاحتلال إلى أراضيهم.

لو كنَّا نعرف الغرب من خلال سياساتهم الداخلية فحسب لكان إعجابنا بهم يتضاعف أضعافًا مضاعفة، ولكن حيث أنهم احتلونا في بلادنا فقد ظهرت حقيقة أخلاقهم وحقيقة سياساتهم وحقيقة قناعاتهم الجميلة التي تخفي تحتها كل أنواع التوحش الاستعماري.

حسنًا... ما علاقة هذا كله بنيوزيلاندا؟

نيوزيلاندا بلد في أقصى الأرض، ليست قريبة من ديارنا وبلادنا، ليس لها ميراث استعماري نختبر فيه حقيقة أخلاقهم، ولهذا فيجب أن نعرف أن هذا المشهد الجميل الذي رأيناه إنما هو مشهد السياسة الداخلية، مشهد يشبه تهنئة أوباما للمسلمين بعيدهم وإفطاره مع وفد لهم في رمضان، بينما أنواع نيرانه تقصف المسلمين في أفغانستان وباكستان والعراق واليمن والصومال وغيرها.

إننا نرى نِصف الصورة فقط... ولا ينبغي لنصف الصورة أن تنسينا أن ثمةَ نصفٌ آخر يحكم عليها فيصدِّقَها أو يكذِّبَها، نصف الصورة الآخر هو السياسة الخارجية...

بالتفتيش ستجد أن قوات نيوزيلاندا مشاركة ضمن التحالف الدولي في العراق، ومن قبلها في قوات إيساف في أفغانستان، ولكن لكونها دولة صغيرة ومنزوية في أقصى الأرض فهي غير حاضرة في الذهن الإسلامي.

Readonly

نيوزيلاندا يمكن أن تتغير

نيوزيلاندا دولة ديمقراطية، لقد وقفت اليوم بقوة ضد سفاح المسجدين وعبَّر كثير من أطيافها عن تعاطفهم وتضامنهم مع المسلمين، لكن السؤال: من يضمن ألا تتغير نيوزيلاندا؟ أو يصعد فيها اليمين المتطرف ومن ثم يستحيل سفاح اليوم بطل الغد؟!

الدول العلمانية الديمقراطية تتأسس على أن الشعب هو مصدر السيادة، هو صاحب الأفكار النهائية التي يجب أن تعبر عنها الدولة وتنفذها السلطة، الفكرة النظرية للدولة العلمانية الديمقراطية أنها لا تستمد أفكارها وقيمها من مصدر خارجها كالدين الذي يعتمد على الغيبيات وله أفكاره المقدسة، الدولة العلمانية ـ كما هي في الحالة النظرية ـ تعبير عن رأي الشعب، الشعب يقرر كيف يُحْكَم عبر ممثليه الذين يضعون الدستور، والذين يملكون حق التشريع في البرلمان، والذين يشكِّلون الحكومة التي تنفذ القوانين، وهكذا.

هذه هي الصورة النظرية التي لا تحدث عمليًا بمثل هذه الكفاءة، بل ثمة خروقات هائلة للديمقراطية تجعلها مسرحًا يتحكم فيه أصحاب القوة والنفوذ والأموال... لكن هذا حديث آخر لن نخوضه الآن.

الذي نخوضه الآن هو مسألة الأفكار الحاكمة لنيوزيلاندا كدولة ديمقراطية، إذا تغيرت أفكار الناس من الليبرالية التي ترحب بالتنوع والتسامح والتعدد إلى اليمين القومي العنصري، ماذا سيحدث؟... يفترض بالديمقراطية التي تعبر عن رأي الشعب وعن توجه المجتمع أن تفرز حكومة وبرلمانًا وقوانين في نفس هذا التوجه، وحينها سيتحول الموقف من المهاجرين والملونين إلى الموقف القانوني الديمقراطي السليم، إن أغلبية المجتمع لا ترحب بهؤلاء ولا تريد لهم البقاء فيه.

Readonly

احترامًا للديمقراطية ولرغبة الأغلبية يجب أن يخرجوا طوعًا أو كرهًا.

تشهد أوروبا الآن موجة من صعود التيارات اليمينية، الكلام الذي كان يُمكن أن يُدان قائله بتهمة العنصرية قبل سنوات يُقال الآن تحت قبة البرلمان وعلى ألسنة رؤساء حكومات أحيانًا، ولكنها الديمقراطية يا صديقي.

وإذن، فليس يضمن أحد أن تكون هذه اللحظة الجميلة في تاريخ نيوزيلاندا مجرد لحظة تاريخ عابرة وستنتهي، ثم تأتي من بعدها لحظة أخرى يكون فيها سفاح المسجدين بطلًا سابقًا لعصره وصاحب بصيرة نافذة في توقع الخطر الذي لم ينتبه إليه المجتمع إلا متأخرًا، كما حدث في كل البلاد التي تراجعت عن قوانين كانت سائدة ومستقرة فيها.

ربما يسأل سائل: لا أحد يضمن الغيب ولا يضمن المستقبل، ولا حتى في «الدولة الإسلامية» التي تبشر بها وتسعى إليها، فلماذا تريد أن تضمن الغيب في نيوزيلاندا ولا تريد لنا أن نطمئن على مصير الأقليات في «الدولة الإسلامية»؟.

أقول: الإجابة ستأتيك بعد قليل إن شاء الله. لكن يهمني الآن تثبيت أن حالة التنوع والتسامح التي أعجبنا بها جميعًا لا تستند إلى حقيقة صلبة دائمة، وأرجوك: لا تنس أن شعب نيوزلاندا أصلًا هو بقايا البيض الأوروبيين الذين أبادوا السكان الأصليين لهذه البلاد قبل ثلاثة قرون!

هل خرجت نيوزيلاندا عن طبيعتها كدولة علمانية ليبرالية ديمقراطية؟

ذكرنا أن الدولة العلمانية الليبرالية تقوم في أساسها النظري على الحياد تجاه الأديان، إنها دولة تقف على مسافة واحدة من كل المعتقدات، ترى المسلم مثل المسيحي مثل اليهودي مثل الهندوسي مثل الملحد... كلهم مواطنون!

Readonly

كلهم مواطنون خاضعون لنظام الدولة وقوانينها... أرجوك انتبه لهذه النقطة جيدًا!

كل أولئك مواطنون خاضعون لنظام الدولة وقوانينها، بمعنى: ليست ثمة مشكلة للدولة إذا عبد الهندوسي البقرة، لكن لا يجوز للهندوسي الاعتراض على ذبح البقر وسلخه وتقديمه طعامًا لذيذًا شهيًّا للآكلين، وليست ثمة مشكلة للدولة إذا امتنع المسلم عن شرب الخمر لكن لا يجوز له الاعتراض على بيع الخمر وتصنيعه وتقديمه شرابًا حلوًا سائغًا للشاربين، ولا بأس عند الدولة أن يتزوج المسيحي في الكنيسة لكن لا يجوز للأب في الكنيسة الاعتراض على مسيحي أراد أن يتزوج زواجًا مدنيًا أمام موظف الدولة.

هنا الدولة صارت في حقيقتها دينًا آخر: عبادتها الخضوع للقانون واحترام الدستور وتحية العلم ودفع الضرائب والمشاركة في الجيش الوطني وأمورًا أخرى... فيما عدا ذلك فيمكن أن تمارس معتقداتك التي لا تتعارض مع نظام هذه الدولة.

من هنا ففي لحظة التعاطف العلمانية الليبرالية النموذجية يمكن لرئيسة الحكومة أن تلبس الحجاب الإسلامي وتذيع الآذان وتفتح البرلمان بالقرآن، تعبيرًا عن تعاطفها مع الضحايا المسلمين، مثلما يمكن غدًا أن ترتدي الطاقية اليهودية وتذيع التراتيل وتفتح البرلمان بالتوراة، مثلما يمكن أن تقف في احترام أمام بقرة وتستضيفها في البرلمان وتذيع الأناشيد الهندوسية... هذه لحظة مجاملة للضحايا! وهي مشهد إنساني جميل من منظور الرؤية العلمانية التي ترى الجميع مواطنين...

يشبه ـ مثلًا ـ في بلادنا أن يرتدي الرئيس زيًّا شعبيًّا لمنطقة ما إذا زارها، أن يرتدي جلبابًا فلاحيًّا وعباءة كما كان يفعل السادات، أن يرقص رقصة شعبية كما

Readonly

يفعل عمر البشير، أن يظهر رئيس في ثوب رياضي ضمن مناسبة رياضية... وهكذا!

وعليه فلا ينبغي أن يحرجنا أحد بالحديث عن الخليفة المسلم ممثل الدولة الإسلامية: هل سيرفع الصليب أو يرتدي الطاقية اليهودية إن وقعت مثل هذه الجريمة ضد نصارى أو يهود في الدولة الإسلامية. مثلما نحن لا نفكر أيضًا في أن نطلب من بابا الفاتيكان أو أحبار اليهود تقبيل القرآن الكريم أو أداء الصلاة الإسلامية من باب التعاطف مع المسلمين... فتلك متناقضات دينية وسياسية معًا!

تدري متى يمكن القول إن حكومة نيوزيلاندا خرجت عن طبيعتها العلمانية وتعاطفت مع المسلمين على نحو ما يطلبه البعض من الخليفة أن يرفع الصليب؟

يحدث هذا إذا غيرت نيوزيلاندا طبيعتها السياسية والقانونية، فأتاحت مثلًا لأولياء الدم أن يقتصوا من القاتل عملًا بالشريعة الإسلامية وتعطيلًا للقانون النيوزيلاندي الذي يمنع العقوبة بالإعدام؟ أو أن تعطي للمسلمين كوتة في برلمانها يضمنون بها ألا يُشَرَّع قانون في نيوزيلاندا لا يتوافق مع شريعتهم؟

ساعتها نقول بأن نيوزيلاندا خرجت عن طبيعتها العلمانية بتعاطفها مع المسلمين...

ساعتها يمكن للبعض أن يحرجنا بالسؤال: هل يمكن أن يرفع الخليفة المسلم الصليب أو أن يحضر قداس الجنازة في الكنيسة تعاطفًا مع الضحايا النصارى؟

الخلاصة: مسألة ارتداء الحجاب وإذاعة الآذان وافتتاح البرلمان والقرآن هي مجاملات طبيعية في السياق العلماني الليبرالي.

إذن، لماذا اندهشنا وأعجبنا بهذه المشاهد؟

الإجابة ذكرتها سابقًا: لأن نيوزيلاندا كانت استثناءً حتى في هذا السياق

Readonly

العلماني نفسه الذي لم يجامل المسلمين من قبل بمثل هذه الأمور، وإن لم تكن متناقضة مع الرؤية العلمانية.

فماذا عن «الدولة الإسلامية» التي تنشدها؟

رغم أن كثيرًا من الكلام ينبغي قوله، لكن كي لا يطول المقال ويكون مملًّا، ندخل الآن في موضوع الدولة الإسلامية وكيف يكون موقفها إذا اقتحم مسلم متطرف كنيستين فارتكب فيهما مذبحة؟

يجب أن نقرر بداية أن المجتمع المسلم لا يُنتج خطابًا استئصاليًا للأقليات، لسبب بسيط ولكنه في غاية القوة والمتانة والرسوخ، أن حقوق الأقليات محفوظة بالنصوص المقدسة في الإسلام: القرآن والسنة، وعليهما بُني الفقه الإسلامي، وبهما عمل الخلفاء الراشدون وعامة الخلفاء والسلاطين في الدول الإسلامية المتعاقبة.

ليس من أحد يملك أن يغير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. ولا قول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ولا أن يبدل قول رسول الله ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا». (رواه البخاري)، ولا قوله ﷺ: «من ظلم معاهَدًا أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة». (السلسلة الصحيحة: ٤٤٥)، ولا أن يحذف تاريخ الخلفاء الراشدين وعامة تاريخ الخلفاء من بعدهم، ولا أن يحرق كتب الفقه والأصول والتفسير والعقائد.

في هذه المصادر جميعًا لا وجود لمعنى الاضطهاد والاستئصال والطرد للأقليات الدينية، وأبرز دليل على هذا أن عالمنا الإسلامي لا يزال يشهد وجود

Readonly

الأقليات الدينية الباقية فيه حتى الآن، ولا تزال الكنائس العريقة والكُنُس اليهودية العتيقة قائمة فيها، ولقد شهد لهذه الحقيقة التاريخية مستشرقون ومؤرخون غير مسلمين بما يطول المقام جدًّا لو اقتبسنا منه شيئًا، ولكن ندعو الجميع لجولة في مثل هذه الكتب: الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد، وحضارة العرب لجوستاف لوبون، وشمس الله تسطع على الغرب لزيجريد هونكه، وقصة الحضارة لول ديورانت، وفضل الإسلام على الحضارة الغربية لمونتجمري وات، والإسلام والمسيحية في العالم المعاصر لمونتجمري وات أيضًا، وإنسانية الإسلام لمارسيل بوازار. (وإذا أردت الاختصار فانظر: وشهد شاهد من أهلها ـ د. راغب السرجاني، الإسلام في عيون غربية ـ د. محمد عمارة).

هذا فضلًا عن ازدهار أوضاع اليهود والنصارى في التاريخ الإسلامي بما يتضاءل معه كل مكسب لأقلية مسلمة في حكم ديمقراطي ليبرالي علماني معاصر... وهذا أيضًا موضوع يطول الحديث فيه، وسترى بعضًا منه في الكتب السابق ذكرها.

لكن لماذا أبدأ بهذا التقرير: تقرير أن حقوق الأقليات محفوظة بالنصوص المقدسة وبالبناء الفقهي الطويل؟

لأن هذا أصل كل الإجابات على المشكلات:

أ. حين تكون الحقوق محفوظة بالنصوص المقدسة فإن الذي يعتدي على أهل الذمة والمعاهدين فهو يرتكب جريمة بميزان الدين نفسه، فيتصدى له المسلمون أنفسهم قبل غيرهم لا دفاعًا عن أهل الذمة فحسب بل دفاعًا عن دينهم بالمقام الأول. لن يكون المجرم ساعتئذ مجرمًا بميزان القانون وحده، بل مجرمًا بميزان الدين نفسه، الدين الذي يرى كل مسلم أنه مُكَلَّف بالدفاع عنه... لن تكون المسألة

Readonly

هنا مسألة تعاطف إنساني يمكن أن يقدمه البعض ويمتنع عنه البعض ويرفضه البعض (كما فعل السيناتور النيوزيلاندي فرايزر أنينج).

ب. حين تكون الحقوق محفوظة بالنصوص المقدسة فلن يكتب المجرم على سلاحه تواريخ انتصارات المسلمين على الروم والصليبيين، ولن يجد منظمة دينية تبارك عمله كما باركت منظمة فرسان المعبد عملية السفاح... لأن الجماعة الإسلامية لا تجد في تراثها مبررًا للانتقام من النصارى ثأرًا لمعارك وقعت قبل مئات السنين، ولا تجد في تراثها مبررًا للفتك بمسالمين ملتزمين بأحكام الإسلام في الدولة الإسلامية (دعنا نتذكر معًا أن المسلمين المقتولين في مسجدي نيوزيلاندا كانوا ملتزمين بقوانين الدولة النيوزيلاندية).

جـ. حين تكون الحقوق محفوظة بالنصوص المقدسة لن تكون الدولة الإسلامية استثناء في السياق الإسلامي، كما هو حال نيوزيلاندا في السياق العلماني، لأنه لن يكون ثمة فقه خاص أو مخترع لدولة ما، بل سيكون تطبيق الإسلام هو اتباع النبي محمد وخلفائه الراشدين، هو النموذج الذي جرى في الشرق والغرب بطول التاريخ.

د. حين تكون الحقوق محفوظة بالنصوص المقدسة لن تكون أحوال أهل الذمة تابعة لأهواء الحكام، وتبدل المواقف والأحزاب السياسية، وتغير رغبات الجمهور... هذه هي الإجابة التي كنتُ قلتُ لك: ستأتيك بعد قليل، وهنا افتراق ضخم ضخم بين النظام الإسلامي والدولة العلمانية الديمقراطية المعاصرة.

في النظام الإسلامي لا يملك أحد تغيير الشريعة، حق التشريع نفسه لله، نطق به القرآن والسنة، واستنبط منه الفقهاء وفي إطاره تكون الفتاوى المناسبة للنوازل

Readonly

المتجددة... وهكذا لن يظهر في سياق نظام إسلامي أبدًا من ينتهك حقوق الأقليات مستندًا إلى الإسلام. ذلك أن الحاكم لا يملك أن يغير ويبدل في الشرع، ولن يتنافس حزب مع حزب آخر (هذا لو سَلَّمنا بأن نظام الحكم الإسلامي سيعتمد نظام الأحزاب في التنافس... ولكن هذه نقطة هامشية الآن) في مسألة طرد الأقليات أو إجبارها على الإسلام أو التضييق على حقوقها ونزع ما كفلته الشريعة لهم.

لن يوجد في الإسلام رجل قتل أهل الذمة اليوم فصار مُدانًا ثم قد يأتي عليه زمن يكون فيه بطلًا صاحب بصيرة بعدما تغيرت القوانين ونظرة الناس إليها. صلاحيات السلطة في النظام الإسلامي لا تتناول تغيير ما جاءت به الشريعة، وهذه هي الضمانة الأهم والأقوى والتي هي على شرط المستقبل.

كان ابن تيمية يستنقذ أسارى المسلمين من المغول فعرض عليه قائدهم أن يأخذ أسرى المسلمين فحسب فرفض ابن تيمية إلا أن يستنقذ معهم الأسرى من أهل الذمة. وبعده بخمسة قرون فكَّر عباس حلمي الأول في إبادة الأقباط أو نفيهم من مصر إلى السودان تقليلًا لنفوذهم الذي تعاظم في عهد جده محمد علي باشا فوقف لهم شيخ الأزهر إبراهيم الباجوري قائلًا: الإسلام يأبى عليك هذا، ولم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ.

هذان موقفان من سياق طويل للتعبير عن قوة الضمانة والحصانة الممنوحة للأقليات الدينية في نظام الإسلام. الحاكم لن يستطيع مغازلة الشعب باضطهاد الأقليات، ولا يتوقع أن الشعب المسلم نفسه يكون ذات يوم فرحًا بهذا!

هل معنى هذا أني أقول بأن الأقليات في العالم الإسلامي لم ولن تشهد اضطهادًا قط؟!

Readonly

لم أقل هذا ولا أحد يقول به، وإلا فهو مجتمع الملائكة، وإنما نحن بشر... لكن الذي أقوله بوضوح أن أي مقارنة بين تاريخنا الإسلامي وتاريخ أي أمة في شأن اضطهاد الأقليات سيذهب على الفور إلى الانتصار للتاريخ الإسلامي (وهذا أمر أثبته كثيرون من المؤرخين غير المسلمين)، ثم أقول: بأنه لا يوجد نظام قانوني معاصر ولا في المستقبل يحفظ حقوق الأقليات سيكون أثبت وأرسخ من النظام الإسلامي، ذلك أنه متعلق بالدين نفسه ومحفوظ بقوة النص المقدس في القرآن والسنة، بينما عامة النصوص الأساسية للنظم المعاصرة سواء أكانت دينية (كاليهودية والنصرانية وغيرها) أو وضعية (كالدساتير) يمكن تغييرها، إما للصلاحيات الواسعة الممنوحة للأحبار والرهبان لتغيير وتعطيل أحكامها أو للصلاحيات الواسعة الممنوحة لممثلي الشعب بالتعديل والتغيير والتعطيل بل وكتابة دستور جديد.

النظم القانونية هي مرآة واقع القوة، تتغير وتتبدل بحسب ما تفرض موازنات القوة. بينما النظام الإسلامي يتمتع بحصانة الدين وقوته في نفوس أتباعه. ولهذا بقيت الأقليات في بلاد الإسلام في ذروة قوة الإسلام وقدرته على استئصالها، بينما أبيد المسلمون من مناطق كثيرة مع غلبة عدوهم عليهم (كما في الأندلس وصقلية وكثيرًا من شرق أوروبا وإفريقيا) بل وتتهدد الأقليات المسلمة في الأنظمة التي عناوينها العلمانية والتسامح والتعددية.

لقد أحصيت في كتاب «تاريخ الأقباط» للمقريزي، وهو كتاب يتناول ثمانية قرون من التاريخ المصري، تسعة فقط من الفتن التي وقعت بين المسلمين والنصارى، فهل يمكن لأقلية كهذه أن يوصف حالها بالاضطهاد؟! وهذا إحصاء بالمجمل بينما التفاصيل تزيد التأكيد على الوضع المتميز لأقلية الأقباط في مصر. وهم نموذج من الأقليات عبر تاريخ الإسلام.

Readonly

والآن... ألا ترون بعد هذا كله أن النموذج الإسلامي الذي نبشر به ونسعى إليه ونكافح لأجله أرقى من النموذج النيوزيلاندي الذي هو نفسه استثناء على أصل السياق العلماني؟!

* * *

Readonly

فلسفة العلم بين الحضارتين الإسلامية والغربية

نشر في مجلة «البيان» السعودية

شوال ١٤٣٩ = يونيو، يوليو ٢٠١٨

محاولة رسم مسار العلم في الحضارة الغربية المعاصرة يسوقنا إلى ثلاثة أحداث فاصلة:

١ ـ أما البداية فهي غارقة في أساطير اليونان، التي تشكل المورد الفكري الأول للحضارة الغربية المعاصرة، وبالتحديد عند أسطورة بروميثوس، سارق النار، إذ تتحدث تلك الأسطورة عن أن الآلهة والملوك لم يكونوا يريدون أن يحصل البشر على العلم والمعرفة لئلا يشكلوا تحديًا أو تهديدًا لهم، فلما تحايل بروميثوس على رغبات الملوك والآلهة ومنح البشر العلم والمواهب بل وسرق لهم النار المقدسة من الآلهة، كان العقاب هو الفتنة وصندوق الشرور الذي حملته باندورا، حيث عوقب البشر بالنفاق والأمراض والفقر والجوع كي لا يتمتعوا بما ظفروا به.

هكذا كان العلم انتزاعًا بشريًّا من الآلهة، وخصمًا من سلطتها، فبقدر ما يتحصل الإنسان من العلم بقدر ما يخصم من سلطة الإله ويزيد في سلطته.

٢ ـ وأما المرحلة الوسيطة، فتلك هي العصور الوسطى، حيث امتلكت الكنيسة حق المعرفة المقدسة، فلقد ابتدأ الصراع مبكرًا بين الكنيسة والتراث الحضاري الفلسفي الوثني السابق عليها، وأغلقت مدرسة أثينا، وضربت بيد من حديد على الفلسفة الإغريقية في الإسكندرية، ورأت الكنيسة أن الطريق الوحيد لتطهير الروح هو طريقها إلى الله، والضلال هو البحث عن الحقيقة في غير

Readonly

الكتاب المقدس، والتفكير والتمحيص في أمور دنيوية[١]، حتى لقد قال بولس: «ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة؟»[٢]. ثم تطور الأمر عبر المعركة الشهيرة المعروفة بين الكنيسة والعلم والتي انتهت على كل حال إلى أن يكون كل منهما عدوًّا للآخر وتهديدًا له.

وبهذا مثلت الكنيسة تحققًا لأسطورة بروميثوس حين ابتدأ الصراع بينها وبين الموجة العلمية الصاعدة، فصار كل تقدم علمي خصمًا من رصيدها وإضافة لرصيد العلمانية والعقلانية.

٣ ـ وأما المرحلة الأخيرة والتي لا تزال الحضارة الغربية تحياها، فهي انتصار الإنسان والعقل والعلم على الكنيسة والدين والخرافة. لقد عملت أجواء العداء بين الكنيسة والعلم على أن تتحد معاني العقل والعلم والإنسان لتقف كمعنى واحد وكتلة صلبة أمام معاني الكنيسة والدين والخرافة التي صارت أيضًا كتلة واحدة صلبة.

لهذا كان اكتشاف نيوتين لقوانين الحركة مساويًا لأن العقل قد استطاع معرفة كيف يجري الكون، لم يعرف هذا «بفضل الله» بل بقدرته الذاتية، ليس هذا فحسب، بل إن معرفته بهذه القوانين هي ضربة لفكرة الإله أصلًا، حيث لم يعد الكون يتحرك بمشيئة الله أو رعايته، بل طبقًا لقوانين صارمة. تلك ستكون القاعدة في كل اكتشاف جديد، سيكون خصمًا من رصيد الإله وضربًا لفكرة وجوده وإضافة إلى رصيد العقل وترسيخًا لقدراته.

---

(١) نادية حسني، العلم ومناهج البحث، ص١٣.

(٢) زيجريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص٣٦٩.

Readonly

كان التقدم العلمي يزيد من الثقة في العقل وقدراته، ومع كل تقدم جديد تزداد الثقة، حتى صار العقل هو السبيل الوحيد لمعرفة «الحقيقة»، تلك الحقيقة التي لا بد أنه سيصل إليها يومًا ما، بالمزيد من اكتشاف القوانين التي تسير الكون. وفي ظل الصراع المحموم بين الفكرتين ستكون البيئة العلمية أشد قبولًا للأفكار المغذية والداعمة للصراع والمنتصرة للإنسان على حساب الإله، فمثلًا: ستجد أفكار داروين قبولًا أشد من أفكار مندل، لأن الأولى أكثر قوة وحسمًا في استبعاد الإله من الخلق إذ فكرة التطور المنحدر من خلية واحدة تضيق المشكلة لتجعل البحث منحصرًا في كيف وُجِدت الخلية الأولى، بينما أفكار مندل تبقي الأمر معقدًا لأن غاية ما تثبته أن السلالات يمكن تحسينها لا أنها تنقلب خلقًا آخر. وهكذا كان للمعركة الفلسفية دورها في الميدان العلمي.

على كل الأحوال جرت قصة العلم في أوروبا منذ القرن السابع عشر لتكون قصة الثقة المتزايدة في العقل، العقل الذي يستطيع ـ بنفسه أو بالحواس، تبعًا للمدرسة العقلية أو التجريبية ـ أن يصل إلى الحقائق، حتى صار تاريخ العلم هو تاريخ «ظفر العقل البشري بالتحرر»، وصار مستقبله يمضي نحو «الحتمية العلمية الشاملة»[١]، تلك الحتمية التي يعبر عنها جوليان هكسلي بوضوح حين يقول: «الإنسان كان يخضع لله في عصر الجهل والعجز، أما الآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان من قبل في عصر الجهل والعجز يلقيه على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله»[٢].

---

(١) يمنى الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص١٢، ١٣.

(٢) محمد قطب، واقعنا المعاصر، ص٨٩.

Readonly

لما انتصر العلم على الكنيسة، والعقل على الدين، والإنسان على الإله ظهرت مشكلة لم تكن بالحسبان... لقد انتهت المرجعية! لم يعد ثمة شيء مقدس! وحيث انتهى المقدس فقد انهارت معه كل القيم والمثاليات والأخلاق. يقول فاكيلاف هافل (رئيس جمهورية التشيك): «إننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ البشري، فلم يعد الناس يحترمون ما يدعى القيم الميتافيزيقية العليا، والتي تمثل شيئًا أعلى مرتبة منهم، شيئًا مفعمًا بالأسرار، وأنا لا أتحدث هنا بالضرورة عن إله شخصي، إذ إنني أشير إلى أي شيء مطلق ومتجاوز، هذه الاعتبارات الأساسية كانت تمثل دعامة للناس وأفقًا لهم؛ ولكنها فقدت الآن، وتكمن المفارقة في أننا بفقداننا إياها نفقد سيطرتنا على المدنية، التي أصبحت تسير من دون تحكم من جانبنا، فحينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بعده الإنساني»[١].

هنا كان من واجب العلم والعقل والإنسان أن يبحث عن إعادة تعريف كل شيء من جديد، ومنه تعريف الإنسان نفسه، وحيث أنكر وجود الإله، فالإنسان هو جزء من الكون المادي وخاضع لقوانينه، ومن ثم لا بد أن تكون العلوم الإنسانية الاجتماعية خاضعة لقوانين حتمية صارمة تمامًا مثلما خضعت المادة لقوانين حتمية صارمة تكشفها الفيزياء والكيمياء، يقول أوجست كونت مؤسس المذهب الوضعي: «ما دمنا نفكر بشكل وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين، فالمنهج الوضعي الذي نجح في علوم الطبيعة يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير»[٢].

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية، ص٢١٩.

(٢) محمد محمد أمزيان، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، ص٤٠.

Readonly

وكان من أخطر ما ظهر هنا «الوضعية» في مقابل «المعيارية»، فحيث لا يوجد إله ولا مقدس لن يوجد المثال أو المعيار، وإذا أخذنا «الأخلاق» كمثال، فسنجد أن كل التاريخ الفكري يتعامل مع علم الأخلاق باعتباره من العلوم المعيارية؛ بمعنى أنه لا يدرس ما هو كائن، بل ما ينبغي أن يكون[١]؛ ولذا فمهمته هي وضع الشروط التي يجب توافرها في الإرادة الإنسانية وفي الأفعال الإنسانية؛ لكي تصبح موضوعًا لأحكامنا الأخلاقية[٢]. حتى جاء القرن التاسع عشر وظهرت مدرسة في فرنسا تنظر إلى علم الأخلاق باعتباره تفسير ما هو كائن، لا باعتباره معيارًا لما ينبغي أن يكون[٣]، وصارت الأخلاق لديهم تساوي «القواعد السلوكية التي تسلم بها جماعة من الناس في حقبة من حقب التاريخ»، فنزعوا عن القيم الأخلاقية فكرة الثبات والدوام[٤].

أما قصة العلم في الحضارة الإسلامية فلها شأن آخر، مفترق عن قصة الحضارة الغربية في المنشأ والوسط والمنتهى، نسوق هنا خلاصته بإيجاز[٥]:

ونبدأ في ذلك بضرب المثال، إن علم «الاقتصاد» طبقًا للرؤية المادية التي تتأسس عليها الحضارية الغربية هو: العلم الذي يحاول التوفيق بين الموارد المحدودة في الكون والحاجات غير المحدودة للإنسان. فيكون طبيعيًّا في هذا السياق أن يظهر مفكر اقتصادي مثل مالثوس يقول بأن الحروب والنزاعات إنما هي «حلول» تعيد الطبيعة بها تنظيم نفسها ومواردها، وإن الجوع والمرض والموت إنما

---

(١) د. زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة، ص٢٠٥.

(٢) د. مصطفى حلمي، الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، ص١٥.

(٣) د. زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة، ص٢١٠ وما بعدها.

(٤) د. مصطفى حلمي، الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، ص١٧، ١٨.

(٥) انظر للتفصيل: محمد إلهامي، نحو تأصيل إسلامي لعلم الاستغراب، ص٦٢ وما بعدها.

Readonly

هي «موانع إيجابية» في مقابل «الموانع السلبية» التي هي تأخير الزواج والشذوذ الجنسي، وهو ما أعطى ـ بشكل عملي ـ مبررًا قويًّا لكثير من الحروب وعمليات الإبادة، حيث اعتبر بعض القادة الغربيين في كثير من حروبهم أن هذا قدر محتوم؛ لأن الطبيعة تعيد تنظيم نفسها، كذلك اقترح مالثوس أن أجرة العامل يجب ألا تتجاوز حد الكفاف كي لا يتكاثر كما يحلو له، واقترح أن لا تنفق الدولة على العاطلين لئلا يشجعهم ذلك على الكسل وعلى إنجاب أبناء يزيدون من «الأفواه» أكثر من زيادة «الطعام»، واقترح أيضًا وقف الإعانات عن الفقراء، ووضع العوائق أمام الزواج المبكر لخفض نسبة المواليد. وكانت مثل هذه الاقتراحات مبررات ذهبية للبرلمان البريطاني ليبرر تخفيض إعانات الفقراء وإعانات البطالة وإعانات المرضى والمحتاجين، ولأصحاب المصانع للحفاظ على حد أدنى للأجور، لقد تلقوا آراء مالثوس كما يقول ول ديورانت: «كوحي إلهي مقدس»[1].

بينما الأساس الإسلامي لعلم الاقتصاد قائم على أن الله عليم خبير حكيم، لم يكن ليخلق خلقًا ثم لا يجعل لهم رزقًا، كما أن الله هو الرزاق، وأن كل دابة في الأرض إنما على الله رزقها، وأنه ما يظهر من فساد في الموارد فإنه بما صنعت أيدي البشر، وأن السماوات والأرض مكنوزة بالثروات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَاتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ومن ثم يكون الحل في الضرب على أيدي ذوي الأطماع والمفسدين والسائرين في الناس بما يضخم ثرواتهم على حساب مصالح البشر، فيقف الإسلام ضد الربا

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ٤٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٣، ٤٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٩، وانظر: رونالد ستورمبرج، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، ص٣٣٨؛ رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني، البيئة ومشكلاتها، ص١١٢، جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ص٢٧.

Readonly

والغش والاحتكار والتطفيف، ويفرض الزكاة ويحث على الصدقة ويصنع مؤسسات التكافل والوقف، ولا يمكن أن يصدر عن عالم مسلم مثل الذي صدر عن مالثوس أو فرانسيس بيلاس[1] وأمثالهما. فبأثر من الخلاف في التصور يكون الخلاف في البحث عن الحلول وإدارة وتنظيم المؤسسات ووسائل الرقابة وأدوات العقاب.

يمكن استخلاص مسألة العلم في الإسلام من ثلاث آيات تجمع السنة، تلك هي:

أولًا: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

ومن هذه الآية نفهم أن:

١ ـ العلم أساس للدين والدنيا، وهو أول حدث في حياة الإنسان، وبغيره لا يكون مؤهلًا لمهمة الاستخلاف في الأرض، وبغيره لا تتحقق مصالحه.

٢ ـ ومصدر العلم هو الله، وموضوعه: خلقه، فلن يتعارض العلم مع الدين أبدًا، فإن وقع ثمة تعارض ظاهري فلسوء فهم الدين أو العلم.

٣ ـ وأنه نعمة من الله تستوجب الشكر، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ومن شُكرها بذلها في مرضاته وإصلاح الأرض قيامًا بواجب الاستخلاف، وأن لا تستعمل فيما هو محرم أو باطل أو إفساد في الأرض.

٤ ـ وحيث كان العلم نعمة الله، فكل ازدياد منه موجب لمزيد من الشكر، لا كما هو الحال في أسطورة بروميثوس التي تجعل العلم شيئًا انتُزع من الآلهة على

---

(١) فرانسيس بيلاس: اجتماعي إنجليزي، محسوب على الليبرالية المتطرفة (!)، من أقواله: «إن توفير المزيد من الخدمات الاجتماعية للفقراء من العمال سيشجعهم على الإهمال والكسل، وسينتهي بالمشروعات القائمة إلى الخراب». رونالد سترومبرج، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، ص٣٣٨.

Readonly

غير رغبتها، ولهذا يزيد الخشوع والخضوع لله بزيادة العلم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، بينما كل ازدياد في العلم ـ في التصور الغربي ـ موجب لمزيد من الكبر والغرور والتحدي وحب السيطرة.

٥ ـ العلم للعمل، فلقد علم الله الأسماء لآدم ليقوم بواجب الخلافة في الأرض، ولهذا فالعلم ـ في الإسلام ـ مهتم بالعمل والتطبيق، وحائد عن الإسراف في التنظير وما لا ينبني عليه عمل، ولهذا ابتدأ المسلمون مبكرًا المنهج التجريبي وانطلقوا من الجزئيات ليُحكموا الكليات بالتجربة والقياس والبرهان، بينما أسرف اليونان في النظر والتأمل والتنظير، وحاولوا الوصول من الكليات (المجهولة) إلى الجزئيات فتخبطوا كثيرًا[1].

٦ ـ العلم ـ بما أنه صادر عن الله، ويُتَقَرَّب به إلى الله، ويحاسب الله عليه ـ هو مظنة الإخلاص والعدل وتحري الحق والإنصاف، وهذا كله ضد الهوى والظلم والانحراف، فيتحقق بذلك البصر المطلوب والبحث المتجرد، فاتباع الهوى مذموم وهو طريق الضلال ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وهذا هو مفتاح المشكلة العويصة: استخدام العلم لخدمة الغرض المسبق، ولَيّ حقائق العلوم أو طمسها لتحقيق الغرض، وتلك مشكلة ما زالت بغير حل، ولا يُتوقع أن يكون لها حل مهما حاولت العلوم وضع الشروط والضوابط المنهجية لعملية البحث خصوصًا في العلوم الإنسانية.

ثانيًا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

---

(١) أنور الجندي، معلمة الإسلام، ١/ ٣٥٥ وما بعدها.

Readonly

ومن هذه الآية نفهم أن:

٧ ـ العلم ليس منحصرًا في المادة وما تدركه الحواس وحدها، فمجال الروح مما لا يحيط الإنسان به، إلا أنه لا يمكن نفي وجوده أو تجاهله.

٨ ـ العلم عملية مستمرة، ومساحة واسعة فيها المزيد والجديد، والمسلم حين يستعصي عليه أمر في العلم يلجأ إلى الله ويضرع إليه أن يهديه إليه.

ثالثًا: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن هذه الآية نفهم أن:

٩ ـ الخضوع لأوامر الله فيما أحل وحرَّم واجب وضرورة، وقد حرم الله علينا علومًا بعينها؛ مثل السحر لما يسببه من ضرر وتفريق بين الناس، وحرم علينا استعمال العلوم في تزيين الحرام؛ كاستعمال الفصاحة والبلاغة في تزيين الباطل، وكاستعمال علوم التصوير والإضاءة والإخراج في خدمة الإباحية.

١٠ ـ ضرورة التحرر والانعتاق من التقليد؛ إذ كل البشر معرضون للجهل والخطأ والضلال، ويبقى الله وحده مصدر العلم الحق، ولذا أنكر الله على من جاءهم العلم من عنده فتركوه وتمسكوا بتراث آبائهم وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣ ـ ٢٥].

١١ ـ ويترتب على هذا أن العلوم ـ خصوصًا العلوم الاجتماعية ـ هي علوم معيارية لا وضعية، بمعنى أنها تدرس ما يجب أن يكون وكيف نصل إليه، لا ما قد كان أو ما هو كائن مكتفية بتفسيره، وهذا لا يكون إلا في حالة وجود وحي، أي وجود علم فوقي معصوم من الخطأ، ولذا لا تجد أبدًا ـ في الحضارة الإسلامية ـ

Readonly

من بحث في علم الاجتماع أو التاريخ أو السياسة إلا وبحثه يهدف إلى الوصول إلى «المعيارية» أي النموذج الذي أمر الله به، بينما منذ طلق الغرب الدين بزغ لديه فكرة دراسة العلوم على منهج وضعي لا يهتم إلا بتفسير ورصد ما قد كان وما هو كائن، ولذا ظهرت أمثلة شنيعة من علوم تنفي الأخلاق وتمجد القسوة وتؤيد إهلاك الضعفاء والفقراء والمعوقين.

١٢ ـ وحيث كان الوحي ضرورة لا غنى عنها، كان تضييع الدين مُفسدًا مُهلكًا.

١٣ ـ وهذا يحدد أولوياتنا في الدراسة، فالعلوم الاجتماعية «هي المعنية أولًا بعملية إسلامية المعرفة، بحيث تستحق أن تُمنح الأولوية بسبب من ارتباطها الوثيق بالمنظور الفكري والأخلاقي، وبسبب من أنها إلى حد كبير كانت ولا تزال بمثابة البوابات أو القنوات الكبرى التي تسرب منها الخلل والتضارب والفوضى وثنائية التوجيه وضيق الخناق على المعطيات الإسلامية»[1].

* * *

(١) د. عماد الدين خليل، مدخل إلى إسلامية المعرفة، ص٢١.

Readonly

كيف عامل المسلمون عبيدهم: شذرات من كتب الرحالة الغربيين

نشر في مجلة «المجتمع الكويتية»

يوليو ٢٠٢٠

إذا كنتَ تائهًا في بعض الأدغال أو الصحاري فليس من نعمة أغلى عندك وأثمن من أن تجد لافتة بائسة تدلك على الاتجاه! هذه اللافتة وحدها هي الهداية والإنقاذ من التيه والنجدة من الضلال، فإذا وجدتَ مع ذلك متطوعًا لديه الوقت يعرض عليك المساعدة فأنت الآن في ذروة النعيم، ولعلك تريد أن تبذل له بعض عمرك وأيامك نظير هذا الإنقاذ من الحيرة والضلال!

لا بد أنك مررت بمثل هذا الموقف أو بشيء شبيه منه، يمكنك أن تستعيد هذه المشاعر، فإنما هذا مَثَل الكتاب ومَثَل الرسول! إن الآية الواحدة تعصمك من التيه عقودًا وقرونًا حين تكشف لك الحق، ولولاها لهلكت الأعمار والعقول والأجيال قبل أن تصل إلى الحق ولعلها لا تصل! وإن الرسول الذي شرح الآية وبذل حياته في محاولة الهداية وتقديم القدوة والأسوة يوفر عليك مثل هذا في الوصول للفهم الصحيح للآية وتطبيقها.

لقد ظلت أوروبا حتى وقت قريب تنظر للأعراق الأخرى نظرة دونية، ويتجادل علماؤها وفلاسفتها فيما إن كان بعض الناس بشرًا أم أنهم ليسوا كذلك. وإذا وقع الاتفاق على أنهم بشر فهل هم في نفس المرتبة مع الأوروبيين، أم أنهم في مرتبة أدنى ويحتاجون بالضرورة إلى الأوروبي ليقوم بمهمة تحضيرهم واستعمالهم. وهذا نقاش قديم اشترك فيه طابور طويل من الفلاسفة والقساوسة والمنظرين

Readonly

والسياسيين منذ أفلاطون وأرسطو مرورًا بجون لوك وجوبينو، ولا يزال يتجدد في أيامنا هذه مع صعود اليمين ونظريات العرق الأبيض.

وفي عصر الاحتلال الأوروبي للعالم، الذي هو عصر النزعة العلمية (العلموية)، قدمت هذه العلوم خدماتها للساسة في تبرير وشرعنة احتلال الشعوب، بإنتاجها نظريات التفوق الطبيعي للأوروبي الأبيض ونظريات التدني والانحطاط الأصيل لبقية الشعوب. وهذا مجال واسع اشترك فيه طابور طويل من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع والمستشرقون مثل: صمويل مورتون وكارل فون ليناس.

ولا يمكن الحديث هنا عن نظريات علمية مجردة أو آراء موضوعية ناتجة عن مجرد التأمل والتفكير والبحث، بل إن الغرائز والشهوات والأطماع والمصالح السياسية والاقتصادية تضغط على الإنسان وتشكل أفكاره وتؤثر في نظرياته، إن الأمر يؤول في النهاية إلى «اتباع الهوى» وأخلاق الشح والأثرة والظلم والاستبداد، ولكن هذه الدوافع تتزين بالنظريات العلمية والآراء الفلسفية.

هنا تبدو القيمة العليا والنعمة العظمى بوجود نص إلهي مقدس يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وبوجود رسول يقول: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح»، ثم إن هذا الرسول قضى حياته لترسيخ هذه المعاني حتى صار القرشي عمر بن الخطاب يقول عن الأسود الحبشي بلال «سيدنا»!

ولهذا فلم تتطور نظريات وبحوث المسلمين ـ من مؤرخين وأدباء ورحالة ـ نحو العنصرية التي تحط من إنسانية الأقوام الآخرين، غاية ما هنالك أن يوجد من حاول تفسير بعض الظواهر الاجتماعية أو التاريخية أو النفسية من خلال اللون والبيئة والمناخ والحجم، بينما لم يكن ثمة من نزع عنهم الإنسانية أو رآهم في مرتبة

Readonly

أقل من البشر أو في مرحلة مما قبل التاريخ، بل شهد التاريخ الإسلامي صعودًا قويًّا لطبقات العبيد الذين أُسِروا إلى مراتب السياسة والجيش، منذ العصر الثاني للدولة العباسية مرورًا بالمماليك والإنكشارية، فضلًا عن صعودهم بما حققوه في العلم والعبادة، حتى انتشر ذكرهم حتى في كتب الزهد والرقائق.

لولا وجود هداية النص وهداية القدوة لما وصلنا إلى ترسخ معنى المساواة بين الناس، إذ مهما اجتهد بعض الفلاسفة والمنظرين والمفكرين في إثبات أن البشر جميعًا متساوين في الإنسانية فإن هذا لن يعدو أن يكون قولًا ضمن أقوال، ورأيًا ضمن آراء، حتى لو سُجِّل في حقبة ما ضمن وثائق عالمية لا تساوي ـ عمليًا ـ ثمن الحبر الذي كتبت به!... بغير وجود النص المقدس والعقيدة الدينية التي تأمر بالمساواة وتحرص عليها لن يكون ثمة عاصم من انزلاق الفكر إلى الآراء والنظريات البغيضة التي تجيز استعباد الإنسان والحط منه!

وفي هذا المعنى يقول الرئيس المجاهد علي عزت بيجوفيتش: «إن المساواة والإخاء بين الناس ممكن فقط إذا كان الإنسان مخلوقاً لله، فالمساواة الإنسانية خصوصية أخلاقية وليست حقيقة (مادية)، إن وجودها قائم باعتبارها صفة أخلاقية للإنسان، كسمو إنساني أو كقيمة مساوية للشخصية الإنسانية، وفي مقابل ذلك إذا نظرنا إلى الناس من الناحية المادية فالناس غير متساوين... فطالما حذفنا المدخل الديني من حسابنا سرعان ما يمتلئ المكان بأشكال من اللا مساواة: عرقيًّا وقوميًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا. إن السمو الإنساني لم يكن من المستطاع اكتشافه بواسطة علم الأحياء أو علم النفس أو بأي علم آخر»[1].

---

(١) علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: د. محمد يوسف عدس، ط١ (القاهرة: دار الجامعات، ١٩٩٧م)، ص١٠٠.

Readonly

ولهذا فقد لاحظ المستشرق الفرنسي الشهير جوستاف لوبون «أن العرب يتصفون بروح المساواة المطلقة وفقًا لنظمهم السياسية، وأن مبدأ المساواة الذي أعلن في أوربا قولًا لا فعلًا راسخ في طبائع الشرع (الإسلامي) رسوخًا تامًّا، وأنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ولا يزال يؤدي»[١].

يفتح موضوع العنصرية نقاشات طويلة، فللكاتب أن يفرد حديثه عن عظمة الإسلام في التعامل مع الأقوام الذين دخل الإسلام بلادهم المفتوحة، أو عن عظمة الفقه الإسلامي في التعامل مع حقوق العبيد والأرقاء، أو عن تاريخ العبودية وجرائم الاحتلال الغربي في إفريقيا لأربعة قرون على الأقل، أو حتى عن أوضاع السود والملونين في أمريكا حتى الآن، إلا أن ثمة بابًا في هذا الموضوع لا يزال لم يُفتح بعد، وذلك هو ما تواتر وتكاثر في روايات غير المسلمين ـ من المستشرقين والمؤرخين والرحالة الأجانب ـ عن تعامل المسلمين مع عبيدهم وأرقائهم. فقد أنتج هؤلاء في القرون الثلاثة الماضية كثيرًا من المؤلفات والتقارير التي مهدت لمرحلة الاحتلال ورافقتها ولا تزال مستمرة حتى الآن.

وقد سجَّل كثيرٌ من هذه المؤلفات أحوال البلاد العربية والإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فمنها ما كان تشويهيًّا ومنها ما كان منصفًا، ومنها ما كان واقعيًّا، ومنها ما زادت فيه جرعة الخيال، إلا أنها في كل الأحوال مصادر تاريخية لا غنى عنها. ثم إنها تتميز في موضوعنا هذا بكونها شهادة «شاهد من أهلها»، فهي

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠٠ م)، ص٣٩١.

Readonly

بيان وحجة على لسان أعدائنا لتاريخنا العظيم الذي هو شعبة من تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقول الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

سنحاول في هذه السطور القادمة التقاط شذرات بسيطة من مناطق متفرقة، على سبيل فتح الباب أو حتى فتح الشهية، لعل باحثًا يتفرغ له فيخرج منه بسفر عظيم.

تركيا

أفرد المستشرق البريطاني الشهير توماس أرنولد فصلًا عن تحول العبيد المسيحيين إلى الإسلام في العهد العثماني، وذلك في دراسته الشهيرة الضافية «الدعوة إلى الإسلام»، وكانت مادة هذا الفصل خليطًا من الأقوال والتحليلات التي تحاول تفسير لماذا اندفع العبيد النصارى إلى اعتناق الإسلام، فالأمر المؤكد أن الذين اعتنقوا الإسلام حتى وهم في العبودية كانوا أكثر بكثير جدًّا ممن بقوا على المسيحية، وقد ذهب المؤرخون النصارى مذاهب كثيرة في تفسير هذا التحول وفي التحسر عليه كذلك، والتقط بعضهم أن السر في ذلك هو ما للعبيد من حقوق مرعية، يقول: «كان للرقيق كما كان لسائر المواطنين حقوقهم، بل قيل إنه كان للعبد أن يقاضي سيده إذا أساء معاملته، وأنه إذا تحقق القاضي من اختلاف طباعهما اختلافًا بينًا إلى حد تعذر الاتفاق بينهما فله أن يرغم السيد على بيعه».

وقد نقل أرنولد بعض أقوال الغربيين المتحسرين على إسلام العبيد النصارى لما يرونه من حسن معاملة المسلمين، فمن ذلك: «في الوقت الذي لم يقض على أجسامهم بما أظهره لهم من رعاية وتقوى، صمم بدهائه الشيطاني على أن يقتل

Readonly

أرواحهم بتجريدهم من إيمانهم. ويمكن أن يشهد على هذه الحقيقة تلك الجموع من المؤمنين الذين لا يدخلون تحت حصر؛ ذلك أنه على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا على غاية الاستعداد بأن يموتوا في سبيل العقيدة المسيحية... قد نفث فيهم، بإنقاذهم من الموت الجسدي، وحملهم إلى الأسر، فأفسدهم بمرور الزمن، ودفعهم بخسة إلى أن يُنكروا إيمانهم بالمسيح».

وسجل رحالة إنجليزي في القرن السابع عشر أنه «كان قليل منهم يعود إلى وطنه؛ وأقل منهم من كان له من الشجاعة والثبات ما يمكنه من الاحتفاظ بدينه المسيحي»[1].

الكويت

أقام ضابط الأمن السياسي البريطاني ه. ر. ب. ديكسون، حوالي ربع قرن في منطقة شمال الجزيرة العربية وشرقها، وكان له دور سياسي مهم في خضم النفوذ البريطاني المهيمن على المنطقة، وجاء كتابه «عرب الصحراء» بمثابة تقرير شامل عن حياة سكان هذه الأنحاء، ويقع هذا الكتاب ـ كما يرى كثيرون ـ ضمن الكتب التشويهية في كثير من الأمور مما اضطر دار النشر إلى حذف بعض الفصول والفقرات التي اشتدت فيها جنايته على الشخصيات والموضوعات، ومع ذلك، فنراه يقول في شأن تعامل العرب مع عبيدهم: «الغالبية من الناس يعاملون عبيدهم من العاملين في خدمتهم بالأعمال المنزلية معاملة حسنة، ولا أبالغ إذا قلت إن بعضهم يعاملهم كأطفالهم تمامًا، فلهم حرية التزاوج بالطريقة المناسبة وبمساعدة أسيادهم، ولهم الحق بالتناسل بمقدار ما يشاؤون، ويعامل أطفالهم كما يعامل أطفال أسيادهم،

---

(١) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن وآخران، (القاهرة: مكتبة النهضة العربية، ١٩٧١م)، ص٢٠٠ وما بعدها.

Readonly

يلعبون معًا ويعيشون معًا، ولا أبالغ إذا قلتُ: إن سيدات البيت يعاملن هؤلاء معاملة أفضل، وحتى في بعض الأحيان لا تختلف عن معاملة أخت لأختها»[1].

الحجاز

من أشهر الرحلات الاستشراقية وأشملها رحلة تشارلز داوتي إلى الجزيرة العربية، فإنها حافلة بالتفاصيل، وقد ترجمت في أربعة مجلدات إلى اللغة العربية، قضى فيها صاحبها عامين في أنحاء الجزيرة العربية (١٨٧٦ ـ ١٨٧٨م)، ومن أعجب ما ورد فيها مما يخص حديثنا هنا أن داوتي رأى عبيدًا أفارقة في الجزيرة يحمدون الله على فضله أنهم صاروا عبيدًا، وذلك أن هذه العبودية كانت طريقهم لاعتناق الإسلام وسكنى أرض الحرمين، يقول:

«ظروف العبيد هي دومًا أمور مقبولة في الجزيرة العربية، وغالبًا ما تكون ظروفًا سعيدة؛ والعبيد هنا ينشأون باعتبارهم إخوان مساكين وفقراء لأبناء الأسرة، وهو نوعٌ من مكافأة الرب لرب الأسرة المسلم المتدين، وهم العم لهؤلاء العبيد أثناء عبوديتهم، وهو أيضًا الأب بالنسبة لهم... ورب البيت هنا إذا كان من النوع الذي يخشى الله ويخافه يعتق عبيده خلال بضع سنوات قلائل؛ وهو لا يعتقهم ويرسلهم لحال سبيلهم خاويّ الوفاض؛ ولكن في الجزء المرتفع من الجزيرة العربية (حيث لا يمتلك العبيد فيه سوى الأغنياء) يقوم ذلك الرجل الطيب بتزويج العبد المعتوق سواء أكان ذكرًا أم أنثى ويعطيه شيئًا من ثروته ومقتنياته... هؤلاء الأفارقة لا يحسون بأي قلق أو ضيق لأنهم كانوا عبيدًا في يوم من الأيام ـ إنهم في أغلب الأحيان يكونون أسرى من الحروب ـ بالرغم من أن تجار العبيد كانوا يختطفونهم من والديهم. كان

---

(١) ديكسون، عرب الصحراء، ط٢ (دمشق ـ بيروت: دار الفكر ـ دار الفكر المعاصر، ١٩٩٨م)، ص٤٥٦، ٤٥٧.

Readonly

الرعاة الذين يتبنون أولئك العبيد ويشترونهم يضمونهم إلى عائلاتهم، ويقومون بتختين الذكور منهم ـ وكان ذلك يُقَوِّي من روح هؤلاء العبيد المعنوية، حتى فيما يتعلق بعاطفة الحنين إلى الوطن القوية ـ لقد نظر الله إليهم في محنتهم، وبوسعهم أن يقولوا: هذا فضل الله، لأنهم استطاعوا عن طريق ذلك الذي حدث لهم أن يدخلوا في الدين المنقذ. ومن هنا فهم يعتقدون أن هذا البلد، الجزيرة العربية، هو الأفضل حيث أعتقوا فيه، وأن الحياة المدنية في هذا البلد أفضل من بلدهم، وأن هذه هي بلاد الحرمين الشريفين، أرض محمد (ﷺ) ولذلك شكر هؤلاء العبيد الله على بيع أجسادهم في أسواق العبودية»[1].

ليبيا

توقف المؤرخ الإيطالي إتّوري روسّي متعجبًا، وهو يرصد وضع تجارة الرقيق في طرابلس الغرب (ليبيا) في منتصف القرن التاسع عشر، ومجهود أوروبا وبالذات الإنجليز في محاربة هذه التجارة و«إنقاذ» العبيد، وخلص بعد الاستعراض إلى القول: «الغريب أن عملية الإنقاذ هذه قد تعرضت لصعوبات جمة، من قبل هؤلاء العبيد أنفسهم، الذين عاد عدد كبير منهم إلى أسياده، بعد تحريرهم وإعتاقهم، كما تعود البهائم المعتادة على النير وحمل الأثقال. عاجزين عن أن يشقوا لأنفسهم طريقًا خاصًّا مستقلًّا، وقد تخلوا في غير أسف عن تلك الحرية التي لم يرغبوا فيها، رغم ما كان يُوَفَّر لهم من حماية ومساعدة. ومن الحق أن يقال: إن وضع هؤلاء العبيد، لم يكن سيئًا قاسيًا، وأن أصحابهم كانوا يعاملونهم معاملة إنسانية في العادة،

---

(١) تشارلز داوتي، ترحال في صحراء الجزيرة العربية، ترجمة: صبري محمد حسن، ط٢ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩)، الجزء الأول، المجلد الثاني، ص٣٨٤، ٣٨٥.

Readonly

كما أن أوضاع العبيد في البيئة الإسلامية لم تكن مهينة، كما يمكن أن تبدو على ضوء الأفكار الحديثة، في المساواة بين البشر»[١].

مصر

كان جوزيف بتس بحارًا إنجليزيًّا لكنه وقع في أسر الجزائريين عند السواحل الإسبانية في حروب القرن السابع عشر، فبقي أسيرًا وزار مع سيده مكة، وكتب رحلته إلى الحج، وفي أثنائها مروره بمصر، فوصف فيها حال العبيد والجواري على هذا النحو:

«في الجزائر أعترف أن إجبار الرقيق على التحول للإسلام ليس أمرًا شائعًا، رغم أنني ـ علم الله ـ قد عانيت بما فيه الكفاية منهم، لكن في مصر وتركيا ـ دعني أؤكد ـ أن الأمر يختلف. فالجواري والعبيد الذين هم في مرحلة الشباب يلحقون مباشرة بالمدارس لتعلم القراءة والكتابة فهم مخلوقات جاهلة بائسة، وحقيقة فإنهم بعد تحولهم للإسلام تسير أمورهم في هذه الأنحاء على نحو أفضل، وقد يتفوقون كأبناء سادتهم إن كانوا أذكياء، ويقال إن هؤلاء المتحولين للإسلام يلقون حظوة أكثر من الأتراك الأصلاء... ويفخر العبيد والجواري الذين بيعوا هنا أن يوسف (عليه السلام) قد تم بيعه في مصر»[٢].

وبعد قرنين من رحلة بتس، أي في منتصف القرن التاسع عشر، وصل إلى

---

(١) إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى ١٩١١، ترجمة: خليفة التليسي، ط٢ (طرابلس: الدار العربية للكتاب، ص١٩٩١م)، ص٤٥٢.

(٢) جوزيف بتس (الحاج يوسف)، رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة والمدينة المنورة، ترجمة ودراسة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٥ م)، ص٣٧، ٣٨.

Readonly

القاهرة أشهر رحالة إنجليزي في عصره وهو ريتشارد بيرتون الذي ملأت رحلاته ثلاثة وأربعين مجلدًا وكان يجيد خمسًا وعشرين لغة، وكانت رحلته للحج في ثلاث مجلدات، الأول منها هو ما كان في وصف الأحوال في مصر، وجاء فيه:

«لقد عرف الإنجليز لتوِّهم أن العبيد ليسوا بالضرورة أكثر الناس بؤسًا وأحطهم مرتبة. فهناك من لديه الشجاعة الكافية ليخبر الشعب الإنجليزي أن الرقيق في بلاد الشرق عامة، يأكل أفضل بكثير من الخدم أو حتى أفراد الطبقات الدنيا ممن ليسوا عبيدًا، وهذا أمر حقيقي. فالشريعة الإسلامية تلزم المسلمين بمعاملة رقيقهم برقة بالغة، والمسلمون ـ بشكل عام ـ حريصون على الأخذ بتعاليم نبيهم. فالرقيق يعد فردًا من أفراد الأسرة... وعندما لا يكون العبد راضيًا بمعيشته ففي وسعه أن يجبر سيده على بيعه بالطرق المشروعة. والعبد في بلاد الشرق لا ينعي هم الطعام أو السكن أو اللباس أو الاستحمام، كما أنه معفى من دفع الضرائب، ومعفى من الخدمة العسكرية ومن دفع أي مبالغ لسيده»[1].

إن المتأمل في الأحوال العامة للعبيد في عموم تاريخنا الإسلامي سيجد أنهم كانوا في حال أفضل من حال السجين في السجون المعاصرة، بما في ذلك السجون الغربية. وكلما أطلنا التفتيش في تاريخنا وتراثنا ـ بشرط أن نتخلص من ضغط الثقافة الغالبة ـ كلما ازددنا إيمانا أن نبينا إنما هو «رحمة للعالمين»، وأن البشرية تنتظر صحوة هذه الأمة لتزيل ما رسخ في أقطار هذه الأرض من الجرائم والمظالم.

***

(١) ريتشارد ف. بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٤ م)، ص٦٣.

Readonly

من سجلات الهزيمة

هذه مجموعة مقالات يجمع بينها أنها تصف أحوالنا في زمن الهزيمة، وكيف تتسرب الهزيمة إلى النفوس حتى تتشربها، فتقتدي بالغالب، وترى في شره خيرًا، بل تعيد إنتاج خطابه وأفكاره إلى المهزومين من جديد، فنُهْزَم مرة أخرى على أيدي أناس من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا! بل يصل الحال إلى أن ينهزم الغرب أو ينقد أهلُه أنفسهم بينما تجد بعضنا لا يُسَلِّم بأن الغرب يمكن أن يُهزم، فيمارس بذلك ما وقع فيه قوم إبراهيم من قبل «عبادة الأصنام المكسورة»!.

وقد امتد زمن الهزيمة الذي أنتج فيه المهزومون ثقافة الغالب عبر العقود الماضية، فالتقطنا من قديمهم نموذجًا من طه حسين وأحمد أمين، والتقطنا من معاصريهم نموذج عزمي بشارة، وهو النموذج الخطير الذي يعمل على إفساد التيار الإسلامي في الواقع المعاصر من خلال إمبراطوريته المالية والتعليمية التي وفَّرتها له دولة قطر مع الأسف الشديد، ومسسنا بالنقد الخفيف بعض المخلصين ـ نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدًا ـ ممن يتصور أن تجربتنا الحضارية عانت من أزمة دستورية هي سبب نكبتها، ثم تناولنا بعض الأدوات التي صنعتها المنظومة القاهرة المعاصرة في بلادنا حتى أفسدت العقول والسلوك، مثل ثقافة كرة القدم، وثقافة الإسراف، وثقافة الإعلام الزاخر بالشائعات، وثقافة التعامل مع التقنيات الحديثة التي هي بمثابة احتلال لذيذ!

Readonly

تجد هذا أخي القارئ في هذه العناوين:

ـ سطوة الغالبين: من مذكرات طه حسين وأحمد أمين

ـ زمن «الجاهلية» الجميل!!

ـ هل نحتاج «قراءة ثانية» للإسلام؟

ـ أزمة تصور، لا أزمة تجربتنا الحضارية

ـ عبادة الأصنام المكسورة

ـ كيف صارت حانة اليوناني استاد كرة؟!

ـ ثقافة الإسراف: الجذور والمسار والثمار

ـ الحروب الإلكترونية: الاحتلال الرائع

ـ اختبر نفسك: كيف تتفاعل مع الشائعة

* * *

Readonly

سطوة الغالبين

نشر في مجلة «المجتمع الكويتية»

إبريل ٢٠٢١

لا تحسبنَّ الخضوع لسطوة الثقافة الغالبة محصورًا في العامة والدهماء، بل هو أمرٌ لا يكاد ينجو منه أحد إلا من عصمه الله بعقل قوي وإرادة حديدية، وأولئك هم أولياء الحق الذين ينهضون به ويغالبون القوى السائدة، أولئك هم السابقون الأولون إلى كل نبيٍّ وكل مُصْلِح!

للغالب سطوة، وأعظم سطوته ما كان غير منظور ولا محسوس... فلو أنك ذهبت إلى بلد يرسف أهله تحت الاحتلال أو تحت الاستبداد، ثم سألتَهم الرأي لوجدت أقلهم يقول: نرضاه، وأكثرهم يقول: نرفضه. ولكن إذا دققت في قناعاتهم وما ترسخ في نفوسهم من الأفكار والأنظمة والثقافة لوجدتها ذات ثقافة المحتل والمستبد، قد انطبعت فيهم حتى أنهم لا يشعرون بها، بل يحسبون ما ترسخ فيهم من هذه الآراء إنما هو من طبائع الحياة وسنن الكون، لا أمرًا خاصًّا بالمستبدين والمحتلين.

يُقضَى على المرء في أيام محنته حتى يرى حَسَنًا ما ليس بالحسن

وكثيرًا جدًّا ما ترى المرء يعتنق فكرة ويرفضها في نفس الوقت، يعتنقها لأنها جاءت من الغالب فلبست سطوته واكتست بريقه، ويرفضها إذا وُجِدت عند المغلوب لأنها تلطخت بضعفه وهزلت بهزاله! وقد يكون رفض الرجل وقبوله لنفس الفكرة في ذات الصفحة التي يكتب فيها رأيه، ولا ينتبه هو لما يقع فيها من التناقض.

وهذا المسلك النفسي تردد في كلام أهل الحكمة، فيُنسب إلى عليٍّ رضي الله

Readonly

عنه قوله: «إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه». ويُنسب إلى الشافعي قوله:

إن الغنـي وإن تكلّـم بالخطـأ ... قالـوا: أصبـت. وصدَّقـوا مـا قـالا
وإذا الفقيـر أصـاب، قالـوا كلهـم ... أخطـأتَ يـا هـذا وقلـتَ ضـلالا
إن الدراهـم فـي المجالـس زينـة ... تكسـو الرجـال مهابـة وجـلالا
فهـي اللسـان لمـن أراد فصاحـة ... وهـي السـنان لمـن أراد قتـالا

وأريد في هذه السطور أن ألفت النظر إلى أن هذا المسلك النفسي لا يقتصر على عوام الناس بل يشمل أيضًا أهل الفكر والثقافة منهم، وسأضرب المثال بثلاثة رجال كانوا في زمانهم نجومًا في الفكر والأدب، سجَّلوا في مذكراتهم هذه المواقف المتناقضة ولا يشعرون بتناقضهم فيها.

(١) أحمد أمين

ونبدأ بأحمد أمين...

وهو ذلك الأديب المعروف، المشهور بسلسلته عن فجر الإسلام وضحاه وظهره ويومه، فضلًا عن رئاسته لجنة التأليف والنشر، ومقالاته التي كانت تنشر في صحافة العصر والتي جمعها في «فيض الخاطر» في عشر مجلدات.

لقد درس أحمد أمين بالأزهر فسجَّل نفوره من طريقة الأزهريين وقتها في التشقيق والتفريع والتطويل في شرح العبارة الواضحة وإيراد الإيرادات ثم الردِّ عليها، وكيف أن هذه الطريقة تشرد بالذهن وتعسر في الفهم حتى يصير انتهاء الدرس متنفسًا وأملًا[١].

(١) أحمد أمين، حياتي، (القاهرة: كلمات عربية، ٢٠١١م)، ص٥٤، ٥٥.

Readonly

ولكن أحمد أمين، درس فيما بعد في مدرسة القضاء الشرعي (وهي مدرسة سُلِخَتْ من الأزهر وكانت من وسائل إضعافه)، وكان مديرها عاطف بك بركات وهو من قرابة سعد زغلول، وتستحق هذه المدرسة أن نتوقف عندها في مقام آخر لنرى دورها في علمنة الأزهريين وتغريبهم وإفساد القضاة الشرعيين، لكن الذي يهمنا الآن أن أحمد أمين كان معجبًا بعاطف بركات إعجابًا عظيمًا، وكان من مواطن إعجابه به قدرته العجيبة على التشقيق والتفريع والتطويل والجدل في الموضوع مهما كان بسيطًا وواضحًا، إلى الحد الذي يستسلم فيه محدثه له ضجرًا من طول جداله[1]!

صفحاتٌ معدودات فصلت بين حديث أحمد أمين عن نفوره من طريقة الأزهريين وتطويلهم فيما لا طائل منه، وعن إعجابه بالقدرة السجالية والتفريع والتشقيق والجدل لدى عاطف بركات!

كان الأزهر في زمن غروبه وانحطاطه تحت سلطة الاحتلال الإنجليزي، بينما كان عاطف بركات وقريبه سعد زغلول نجومًا بين نخبة العصر، فزمانهم في إقبال وزمن الأزهر في إدبار، فصار التشقيق والتفريع وابتكار الإيراد والردّ عليها مثلبة للأزهريين منقبة للعلمانيين.

وقد أُعْجِب أحمد أمين أيّما إعجاب بتمسك صاحبه عاطف بركات بالقانون، تمسكًا لا هوادة معه ولا تسامح فيه، وسجَّل له في هذا مواقف هي في الحقيقة ليست إلا نوعًا من الظاهرية الحرفية الجامدة والتشدد الذي لا معنى له، كرفضه قبول طالب في المدرسة تزيد سنُّه عن السنّ القانونية، وبلغ في إبائه أن أصرَّ على تعديل القانون وقبول كل من كان في سنّه، وكرفضه منح درجة مالية

(١) حياتي، ص٩٧.

Readonly

لشيخ أزهري مع موافقة الجميع على ذلك لأنه يرى غيره أحق منه[١].

ومع ذلك فقد تدخل عاطف بركات لمرتين على الأقل فتحايل على القانون ليحقق مصلحة تلميذه أحمد أمين، فحين تخرج وترتيبه السادس على زملائه لم يعبأ بالترتيب وعيَّنَه مع الثلاثة الأوائل مُدَرِّسًا مُتَجاوِزًا حقَّ الرابع والخامس ومؤثرًا لأحمد أمين وهو السادس! وحين رُفِض تعيين أحمد أمين في وظيفة المُدَرِّس الثابت للقِصَر الشديد في نظره تحايل له عاطف بركات ليُعَيَّن قاضيًا ـ وهو أمر لا يحتاج لاختبار، بل يكون بمرسوم ـ فيكون موظفًا ثابتًا، ثم ينتقل إلى مدرسة القضاء مكتسبًا هذه الميزة[٢].

ومع ذلك فقد أُعْجِب أحمد أمين بتمسكه بالقانون وثَمَّن له في ذات الوقت تحايله على القانون من أجله!! ولم يشعر بالتناقض بين موقفيه.

وأغرب من هذا أن عاطف بركات الذي كان ظاهريًا في القانون شديد التمسك بنصوصه، لا يغفر زيادة شهور في السنّ أو زيادة قروش في الراتب، كان في نفس الوقت معتزليًّا في الدين، يُسَلِّط عقله على الآية والحديث، ويأبى إلا تحكيم العقل في أي شيء وكل شيء، وقد كان هو الذي أثَّر في أحمد أمين هذا التأثير[٣]، ومن قرأ مذكرات أحمد أمين وابنه جلال أمين عرف أن أحمد أمين كان في مطلعه متبتلًا عابدًا حريصًا على الدين، وانتهى في آخر عمره إلى أنه كان لا يصلي ولا يصوم ويرى الإيمان شعورًا قلبيًّا[٤]!

---

(١) حياتي، ص٩٨.

(٢) حياتي، ص٩٧، ١٠٠.

(٣) حياتي، ص٩٧.

(٤) حياتي، ص٤٩؛ أحمد أمين، فيض الخاطر، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢)، ٦/ ٤٥ وما بعدها؛ جلال أمين، ماذا علمتني الحياة، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧م)، ص٣٠٣.

Readonly

فتأمل كيف اجتمع لدى أحمد أمين إعجابه بمن يقدس نص القانون ويخضع لنصوصه دون اعتبار، وهو نفسه الذي لا يُسَلِّم للدين إلا أن يقتنع به عقله أو يلتمس للدين تأويلًا؟!

(٢) طه حسين

وأما طه حسين فأشد ذكاء، أو لنقل: أعظم خبثًا من أحمد أمين؛ فأحمد أمين رجلٌ كسره الحزن فانطوى على نفسه ورضي بقدره، وأخذ من الدنيا ما سمحت له منها، وإذا انطوت نفسه على فكرة سعى في تنفيذها بهدوء، وتسلل إلى ذلك ما استطاع فإن قدر وإلا سكت. وأما طه حسين فقد حوَّل ما لقيه من عنت إلى طاقة انتقام وسخرية من مجتمعه وأهله، وإذا قدر فجر، وإذا عجز تلوَّن وتراجع مسرعًا وأضمر.

لقد امتلأت مذكرات طه حسين «الأيام» بالسخط على الأزهر وما فيه، كما امتلأت بالإعجاب بالجامعة المصرية ثم الفرنسية وما فيها، وقد سَخَّر نفسه وأصحابه حينًا من الدهر ليسخروا من الأزهر وهم في أروقته، فكانوا يجلسون فيه لا عمل لهم إلا ذلك، وكان يكتب في الصحافة يتهم شيوخ الأزهر كذبًا، وغرَّهم حلم شيوخ الأزهر الذين كان آخر ما فعلوه معهم أن فصلوهم فصلًا صوريًا لا حقيقيًّا ليتأدبوا ويرتدعوا، وسائر هذا كتبه طه بنفسه في مذكراته، ولو أنهم فعلوا عشر معشار ذلك مع أساتذة الجامعة المصرية أو الفرنسية لوجدوا أنفسهم مطرودين بالقانون وبغير رحمة. ومع ذلك كله فقارئ مذكرات طه حسين يخرج منها وقد امتلأ سخطًا على الأزهر وإعجابًا بالجامعة وبفرنسا.

في أول عهد طه حسين بالأزهر، فاجأه الشيخ الذي سيمتحنه في حفظ القرآن بقوله: «أَقْبِل يا أعمى»، وهي كلمة سيئة لا شك، وقد وقعت من نفسه وقعًا سيئًا،

Readonly

ولما انتهى من امتحانه قال له: «انصرف يا أعمى فتح الله عليك»، وقد كان لهاتيْن الكلمتيْن مذاقًا مريرًا أفسدا عليه فرحته بالنجاح في امتحان الأزهر[١].

وبعد زمنٍ، ذهب طه مع بعض رفاقه إلى شيخ يلقي الدروس في بيته، بعد أن غضبت عليه السلطة، وبينما الشيخ يشرح إذ اعترض طه على ما يقوله الشيخ، وجادله، يقول طه: «فلما طال الجدال غضب الشيخ وقال للفتى في حدة ساخرة: اسكت يا أعمى، ما أنت وذاك!. فغضب الفتى وأجاب الشيخ في حدة: إن طول اللسان لم يُثْبِتْ حقًّا ولم يمحُ باطلًا. فوجم الشيخ ووجم الطلاب لحظة، ثم قال الشيخ لطلابه: انصرفوا اليوم فهذا يكفي»[٢]. ولم يرجع بعدها طه إلى هذا الدرس.

وهكذا نرى طه قد استسلم في طفولته لهذه الإهانة، مع أننا لو حاولنا التأوَّل للشيخ الممتحن لوجدنا له سبيلًا، إذ لا يُقال لمن يراد إهانته «فتح الله عليه»، ولكننا ندع التأويل، ونقبل رواية طه كما هي مع أنه ساخط على الأزهر مما قد يجرح روايته، ثم نراه في شبابه لم يسكت ولم يستسلم بل جادل وأطال الجدل، ولما ذُكِّر بهذا الأمر اشتدّ واحتدّ وردّ على الإهانة في بيت شيخه!

ولكن هذه الإهانة نفسها ذاتها ستتكرر عليه في أول عهده بدخول الجامعة المصرية، وفي أول عهده بجامعة مونبلييه الفرنسية؛ فعندما بلغ باب الجامعة المصرية أُوقِف على بابها ومُنِع من أن يرافقه خادمه الذي يقوده، ولم تُجد مع صاحب الباب توسلات أصحابه ولا ضيق طه بذلك، فأدخله أصحابه، ثم دخلوا إلى أحمد زكي باشا سكرتير عام الجامعة يشتكون له ما فعله الحارس على الباب، فإذا بالباشا السكرتير يقف في صف الحارس ويقول لهم: «النظام

---

(١) طه حسين، الأيام، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣م)، ص١٦٥.

(٢) الأيام، ص١٩٦.

Readonly

هـو النظـام... ماذا نصنع وقـد أراد الله لصاحبك ألا يشـهد المحاضـرات؟»[١].

واستسلم طه، استسلم في الوقت الذي كان لسانه سليطًا وكان قلمه حديدًا على شيوخ الأزهر، استسلم وهو في شبابه وعنفوانه، وامتص الإهانة ولولا أن له أصحابًا أشفقوا عليه لحُرِم الانتساب للجامعة لهذه العاهة، هذه العاهة نفسها هي التي لم تمنعه من الانتساب للأزهر، بل كان في الأزهر ما يسمى «طائفة العميان». سخط طه أشد السخط على الأزهر وعلى الشيخ الذي قال له: «يا أعمى» وأشفعها بـ«فتح الله عليك»، ولكنه لم يسخط مثل ذلك على الجامعة، مع أن الممتحن شيخ واحد وموقفه موقف عابر بينما موقف الجامعة موقف مؤسسة تكافل فيها صاحب السلطة الكبير مع البواب الصغير! بل رأى طه أيامه في الجامعة «عيدًا متصلًا... تختلف فيه ألوان اللذة والغبطة والرضا والأمل، كانت تخرجه من بيئته تلك الضيقة المقلقة في الأزهر»[٢]. وفي مونبيليه، جلس طه بين زملائه دون أن يخلع قلنسوته، فسمع صوت الأستاذ يقول: «أيكون زميلك هذا مكفوفًا؟... فإني أراه قد دخل الغرفة دون أن يرفع قلنسوته»[٣].

ثم وجد طه صعوبة أخرى، ذلك أنه بعد أن تلقى دروس الجامعة أراد أن يكون في بعثتها إلى فرنسا، ولكن مجلس الجامعة رفض طلبه، وعرف طه حسين أن من أسباب الرفض كونه أعمى، فرفع إلى المجلس يطلب الاستثناء، ويقول فيه: «ولكن المجلس أجلّ عندي من أن يحسب لهذا الأمر حسابًا، فإنه لا يمنعني أن أكون طالبًا وأستاذًا، بدليل أن المجلس نفسه يقبلني طالبًا منتسبًا في الجامعة؛ أسمع دروسها

(١) الأيام، ص٢٤٢.

(٢) الأيام، ص٢٤٣.

(٣) الأيام، ص٢٤٢.

Readonly

وأجوز امتحاناتها وأنال شهادتها، وإذا كانت الطبيعة قد حالت بيني وبين كثير من نعيم الحياة، فما ينبغي أن تكون الجامعة عونًا للطبيعة على حرماني لذة الانتفاع بالعلم والنفع به»[١]، ثم يقترح طه على الجامعة أنه لن يطلب منها أجرًا فوق العادة لنفقة من يرعاه ويكفله، وإنما سيتكفل هو بضغط نفقاته ليكتفي بما يُنفق على الطالب الواحد[٢].

وبعد معاناة مع الجامعة، ومعاناة في النفقة، تمّ لطه ما أراد!

لكن الذي يلفت النظر هنا أن طه كان متذللًا للجامعة الظالم قانونها، حريصًا على احترام هذا القانون، في ذات الوقت الذي كان فيه ساخطًا على الأزهر مع أن الأزهر يُعامِل العميان فيه بمزايا لا تتوفّر للمبصرين. لم ير طه في زمن إدبار الأزهر وزمن إقبال الجامعة هذه المنقبة للأزهر ولا هذه المثلبة للجامعة.

وأمرٌ آخر، فإن طه الذي تعلق بالجامعة وشغف بها، وعانى معها ما عاني في الدراسة فيها ثم في التماس موافقتها وأموالها للإنفاق على بعثته، لم يتوقف كثيرًا عند فضل الأزهر الذي كان طُلّابه يُنفَق عليهم فيه، فيأخذون العلم والنفقة معًا. ولئن كانت النفقة قليلة على طلاب الأزهر في وقته، فإنما هذه هي آثار الحملة الفرنسية والدولة العلوية والاحتلال الإنجليزي، فكلهم حَطَّم أوقاف الأزهر وانتهبها ولم يُبْق له إلا الفُتات منها. ومع هذا، فإن الفتات الباقي كان نعمة وفضلًا لم يوجد مثله لا في الجامعة المصرية ولا في الجامعة الفرنسية، فكلا الجامعتيْن طلبت المال ممن طلب منها العلم، ولم تقبل أن تبذل العلم حبًّا وكرامة، فضلًا عن أن تنفق هي على طلبتها!

---

(١) الأيام، ص٢٥٩.

(٢) الأيام، ص٢٥٩.

Readonly

اشترطت الجامعة المصرية على من يستمع لدروسها أن يدفع جنيها، وهذا مبلغ ضخم في ذلك الوقت، يساوي ثلث راتب شيخ من شيوخ الأزهر، يقول طه: «فأدَّى كلٌّ منهم (هو وأصحابه) ذلك الجنيه الذي لم يكن بدٌّ من أدائه؛ ليؤذن له بالاستماع إلى الدروس. وكان غريبًا عند هؤلاء الفتية أن يشتروا العلم بالمال وإن كان قليلًا، فهم لم يتعودوا ذلك ولم يألفوه، وإنما تعودوا أن يُرزقوا أرغفة في كل يوم ليطلبوا العلم في الأزهر، وقد وجدوا بعض ما يُقيم الأود. وكان أداء ذلك الجنيه عليهم عسيرًا، ولكنهم أحبوا دروس الجامعة بمقدار ما وجدوا من العُسْر في أداء ثمنها»[١].

هذا هو إذن، حبهم لدروس الجامعة حملهم على بذل المال مع العسر، فلم تكن الجامعة كلها خيرًا ولا كان الأزهر كله شرًّا، ولكن الدنيا إذا أقبلت على الجامعة كستها محاسن غيرها، وإذا أدبرت عن الأزهر سلبته محاسن نفسه!

لقد كانت دروس الجامعة، كما روى طه نفسه، هي التي باعدت بينه وبين الأزهر، لا كمعهد علمي بل كصرح ديني، فهو لم ينفر من دروس الأزهر، بل تعمد في ذلك اليوم ألا يقوم إلى الصلاة[٢].

حتى صعوبة المواد التي لطالما تفنن طه حسين في وصفها ساخطًا على الأزهر، وجد مثلها حين أراد أن يتعلم الفرنسية، يقول عن أول درس سمعه في الأدب الفرنسي: «فدخلا غرفة الدرس ولبثا فيها ساعة كاملة لم يفهما فيها حرفًا مما سمِعَا، ولم يُميزا منه إلا لفظًا واحدًا هو لافونتين الذي كان يتردد كثيرًا جدًّا على لسان الأستاذ. ثم انصرفا بعد ذلك ولم يحفظا من أمر هذه الساعة إلا أنهما سمياها سجن لافونتين. وقد كان لهذه الساعة مع ذلك في حياتهما أثر أي أثر؛ فأما

---

(١) الأيام، ص٢١٩.

(٢) الأيام، ص٢١٩، ٢٢٣ وما بعدها.

Readonly

المرصفي فعدل عن الجامعة، وأعرض عنها وعن دروسها وامتحاناتها... وأما الفتى فأزمع أن يتعلم الفرنسية حتى لا يعود إلى سجن لافونتين، وكانت له في تعلم هذه اللغة خطوب أي خطوب»[1].

وهكذا ترى كيف أن نفس الدرس قد صَرَفَ زميله المرصفي عن الجامعة كلها بينما صرفه هو إلى العزم على تعلم اللغة الفرنسية، وبهذا ترى أن الصعوبة في نفسها ليست مُنَفِّرةً بالضرورة، ولكن غلبة الثقافة الغربية تجعل صعوبة الفرنسية تحديًّا يستحق الصبر فيه، وانهزام الثقافة الإسلامية تجعل صعوبة اللغة العربية جمودًا يُزَهَّد فيها ويُنادى على «التجديد» في أساليبها!

الخلاصة:

كان في النية أن نسرد مواقف أخرى لآخرين، لنثبت بها أن شأن الغالب والمغلوب لا يتوقف عند عموم الناس ممن ليست لهم عدة من الثقافة والنظر والتعقل، بل يشمل نجوم الموصوفين بالفكر والثقافة، ثم رأينا هذا المقال قد طال... فلعلنا أن نواصل ذلك في مقالات قادمة إن شاء الله.

وصدق الشاعر:

عطَسَ الغنـــيُّ فقال ممـــن حوله ... رحِـــمَ الإلـــهُ حبيبنـــا وأخانـــا

وأتـــى الفقيـــرُ بعطســـةٍ فتأفَّفوا ... مَـــن ذا الـــذي بزُكامـــه آذانـــا

***

(١) الأيام، ص٢٥٢.

Readonly

زمن الجاهلية الجميل!

نشر في «مدونات الجزيرة»

نوفمبر ٢٠١٧

كانت الأصنام في الجاهلية كثيرة... لكل قبيلة صنم، في كل بيت صنم، ومن أراد أن يتخذ صنمًا لنفسه فعل، وحين يكون القوم في سفر يحمل الرجل صنمًا صغيرًا، إن تكاسل عن الحمل بحث في لحظات الراحة عن حجر فاتخذه صنمًا ليعبده، فإن مرَّ بحجر خير منه ألقى الأول وعبد الثاني، فإن كانوا بأرض غير ذات حجارة جمعوا ترابًا ثم جاءوا بشاة فحلبوها عليها فتتماسك فيعبدونها ويطوفون حولها... وهكذا! وحول الكعبة وحدها انتصب ثلاثمائة وستون صنمًا!!

كان عصر حريات دينية من أوسع ما يكون!

هذا إن كان الدين مجرد علاقة بين الإنسان وربه، فليس يضر ملأ قريش أن ينتقل الرجل في اليوم بين خمسة أصنام أو ستة، أو يترك عبادة الأصنام كلها ويقضي يومه وليله يتأمل في السماء وينسج الأشعار، أو حتى يتعلم الكتاب الأول فيتهود أو يتنصر... كل شيء مباح ما دام المرء مواطنًا صالحًا يمشي على النظام المتبع ولا يخرج عنه أو يخرج عليه.

من هنا فهم العرب التهديد الخطير الذي جاء به محمد ﷺ، فهموه من الكلمة الأولى «لا إله إلا الله»، فهموا منه ما لا يفهمه أغلب الناس اليوم، فهموا في لحظة واحدة أن كلمة التوحيد تعني هدم الأصنام، وهدم الأصنام يعني تغيير النظام... كانت كلمة «لا إله إلا الله» في أسماع ملأ قريش ككلمة «الشعب يريد إسقاط النظام» في أسماع الحكام العرب، إلا أن كلمة التوحيد

Readonly

بناء بعد هدم، وتصور شامل للحياة، ولهذا انتفض النظام القرشي ضد الدعوة الجديدة...

فلو أن متحدثهم ينطق بلسان اليوم أو أن متحدث الأنظمة اليوم كان في زمانهم لقال: «إن الدولة القرشية تدافع عن الحريات الدينية المكفولة لكل مواطن، فهي لا تدافع عن صنم بعينه ولا عن عبادة شمس أو قمر، بل تدافع عن حق كل مواطن في عبادة ما يشاء، فالدين هو مجرد علاقة بين العبد وربه، لا دخل للدولة فيه... وهذه الدعوة الجديدة التي جاء بها فتى بني هاشم إنما هي تطرف وتعصب بغيض ومحاولة إجبار الناس على عبادة إله واحد، وضرب استقرار المجتمع وتعكير السلم الاجتماعي وقلب نظام الحكم عبر السعي إلى السلطة بوسائل مخالفة للقانون والدستور القرشي الذي وضعه الآباء المؤسسون العظام». قد قيل كل هذا الكلام لكن بألفاظ أخرى، وصدق ربنا: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

قد كانت أزمتهم على الحقيقة أن الإسلام ليس مجرد طقوس وشعائر وعلاقة بين العبد وربه، إنما هو نظام ومنهج يصوغ الحياة وفق رؤية شاملة تمتد إلى مناحي السياسة والاجتماع والاقتصاد، ومثل هذا لا يمكن القبول به في دائرة الحريات الممنوحة في النظام الجاهلي. وتلك هي أزمة الإسلام حتى الآن مع الأنظمة الحاكمة ومع النظام الدولي.

على أن قوة الإسلام التي رسخت في الناس لا تجعل النداء بالعودة إلى «زمن الجاهلية الجميل» مقبولًا، حتى من يتابع أحلام المستشرقين والمنصرين وتطورها يجدها في انحدار، ففي مطلع القرن الماضي كانت مؤتمراتهم ومؤلفاتهم تبشر بقرب تنصير العالم الإسلامي، ثم بدأت تظهر نبرة أن المطلوب ليس تنصيرهم

Readonly

بل المطلوب إخراجهم من الإسلام (وأوضح تطبيق على هذا المعنى أن الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى اكتفوا بإخراج الإسلام من القسطنطينية وقهرها على العلمانية ولم يحاولوا إعادتها إلى المسيحية).

وعند نهاية القرن وبداية القرن الجديد كانت التقارير الغربية وكثير من المستشرقين قد وصلوا إلى مرحلة «صناعة الإسلام المعتدل» ودعم الفئات «الإسلامية» التي تمثل دينًا مستكينًا مهتمًّا بالعلاقة بين العبد وربه ومستسلمًا للنظام الحاكم ومن فوقه النظام الدولي. وتنوعت التوصيات من دعم فئات متدينة في حياتها الخاصة لكنها ملتزمة بالنظام السائد (كانوا يتوقعون أن تكون تجربة تركيا مثالًا ناجحًا على هذا) إلى دعم فئات لا تتدخل بالسياسة من قريب أو بعيد (كجماعة التبليغ التي تسمح لها الأنظمة بمعسكرات ورحلات وخطب على المنابر) إلى دعم فئات تتدين بعبادة الحاكم وتمهيد الأمر له (كما في حالة السلفية المدخلية والطرق الصوفية). ومع تضاؤل نجاحهم في التجربة الأولى ثم قلة نجاحهم في الثانية يبدو أن التوصيات الآن محتفية على وجه الخصوص بدعم السلفية المدخلية والطرق الصوفية.

قبل شهور طالعت دراسة عن قوانين التنظيمات العثمانية في القرن التاسع عشر، يقول كاتبها (الخبير في مكافحة الإرهاب!) في السطور الأولى إنه كتبها بغرض إقناع الجماعات الإسلامية التي تتطلع إلى الخلافة وحكم الشريعة أن الدولة العثمانية التي يعتبرونها خلافة إسلامية كانت في آخر أيامها تسير في الطريق إلى العلمانية وتقصي الشريعة الإسلامية وتستبدل بها القوانين العلمانية الأوروبية، وأن هذا قد حدث برعاية الخليفة، وأن الدولة العثمانية كانت أبعد ما تكون عن الخلافة

Readonly

الدينية التي يتطلع إليها الإسلاميون، إنما كانت إمبراطورية عسكرية برجماتية تسعى بأي وسيلة للبقاء على قيد الحياة[1].

هنا نصل إلى مستوى جديد من الخطاب، وهو مستوى يقول: التجربة التي تنشدونها وتتطلعون إليها إنما كانت في حقيقة الأمر علمانية، لم تكن بالصورة التي تتخيلون، فدعكم من الأوهام، واقتنعوا بالعلمانية. ويمكن تجميل الصياغة على نحو آخر لتصير: إن النموذج الإسلامي العظيم المتمثل في الدولة العثمانية التي كانت خلافة إسلامية كبيرة هو في حقيقته كان يسير نحو الحداثة والتطور ويتقبل بشكل رائع ومرن المستجدات العالمية، حتى إن الخليفة نفسه وفي ظل مشيخة الإسلام نفسها بدأ في استبدال القوانين الأوروبية بالقوانين الإسلامية، وبقبول مفهوم المواطنة كبديل عن الأمة، وعلينا أن نواصل مسيرة الخلفاء والعلماء المستنيرين لنصل إلى ما لم يمهلهم الوقت ليصلوا إليه.

نفس هذا المنطق كان أحد أهم الدوافع وراء نشر وترويج كتاب «الدولة المستحيلة» لوائل حلاق، فالكتاب يسوق لفكرة أن الدولة الإسلامية وإن كانت عظيمة ورائعة وبها من القيم ما تفتقر إليه الحداثة إلا أن تحققها في الواقع مستحيل، ومن ثم فعلى من يسعون في إعادة إحيائها أن يكونوا أكثر واقعية. ومن هنا أثار الكتاب ردود فعل مختلفة بين العلمانيين والإسلاميين جميعًا، لأن كل طيف في كل فريق رآه داعمًا أو مهددًا لفرضية أساسية لديه. فالإسلاميون الجهاديون والثوريون احتفوا بالكتاب؛ لأنه يثبت تناقض الإسلام مع منظومة الحداثة تناقضًا

(1) Ishtiaq Hussain, **The Tanzimat: Secular reforms in the Ottoman Empire**, (faith matter, 2011), p 4.

Readonly

يمنع التقاءهما، وهي فكرة داعمة للمسار الثوري الجهادي النضالي، ثم اختلفوا مع استحالة التحقق فإن عودة الخلافة وعد الله.

والإسلاميون الديمقراطيون تلقَّوْه بالرفض؛ لأن بناءهم الفكري يسوِّق لالتقاء الإسلام بالحداثة واستطاعته استيعابها أو التكيف معها أو الاستجابة لها بأخذ خير ما فيها ورفض شر ما فيها، ثم قالوا بأن هذا هو دليل إمكانية التحقق لا استحالته كما يسوق المؤلف. وعلى الجانب الآخر: رفض فريق من العلمانيين الكتاب؛ لما فيه من ثناء على التجربة الإسلامية وإثبات افتقار الحداثة لبعض قيمها بل واحتياجها للاستفادة من الإسلام، ومنهم فريق لم يهمه من الكتاب إلا أنه يقدم رواية فيها إرضاء للمتدينين والإسلاميين وتجربتهم العظيمة مع إثبات أنها كانت ولن تعود وأنها مستحيلة التحقق.

حين ننظر فيمن ترجم وروَّج للكتاب سنجدهم من الفريق الأخير... فريق من يعتنق مفهومًا علمانيًّا قوميًّا يحرص على نوع إرضاء أو لنقل عدم خسارة للتيار الإسلامي في مشروعه الجديد. ذلك هو مشروع عزمي بشارة صاحب النفوذ الثقافي الطاغي من خلال نوافذه البحثية والإعلامية، ومن لا يخفى على متابع سعيه في تصنيع الكوادر على نفس المثال.

عزمي بشارة، وهو ألطف من يتحرك في سياق تفكيك مفهوم الدولة الإسلامية، قال في فيديو منشور نفس ما قاله خبير مكافحة التطرف، يكاد أن يكون بالحرف، ولربما يكون قد نقل عنه، يقول ما مفاده: دراسة نهاية المرحلة العثمانية مهمة؛ لنرى التطور الطبيعي لتبني العلمانية، والقوانين التي تبدأ باحترام الشريعة لتؤصل لإقصائها واستبدالها، وقد فعل هذا السلطان العثماني، الذي استعمل الديباجات

Readonly

الشرعية في سعيه «للإصلاحات المدنية»، حتى إلغاء الخلافة على يد أتاتورك إنما كان بفتوى!

وختم بشارة كلمته بقوله: «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»!!! في أسرع تطبيق عملي على مراده الذي نستطيع أن نقول إنه: إقصاء الإسلام عبر التأصيلات الشرعية نفسها، والشخصيات والمؤسسات والحركات الإسلامية نفسها.

تبدو الفكرة نفسها بائسة ومعبرة عن الإفلاس، ذلك أن الإسلاميين ـ من أول الغنوشي زعيم الحريات المدنية يسارًا وحتى داعش زعيمة الخوارج يمينًا ـ لا يفكرون في الاقتداء بالدولة العثمانية، بل هم يرون آخرها هذا هو المرحلة الكارثية التي أسقطت الخلافة، بل إنه لا تعجبهم ولا حتى الدولة الأموية أعظم الدول الإسلامية قوة واتساعًا ونفوذًا... إنما يتعلق أولئك في تنظيراتهم وأدبياتهم بالخلافة الراشدة، ومن خلالها يستدل كلٌّ منهم لمشروعه. لكن اللافت للنظر هنا أن مستوى الخطاب الساعي لإقصاء فكرة الدولة الإسلامية وصل إلى مرحلة يدغدغ فيها مشاعر المسلمين ويحاول إرضاء الإسلاميين بتسويق العلمانية على أنها ليست متناقضة جوهريًّا مع الإسلام.

وهنا أتذكر كلمة صديقي الساخر: الإسلام دين وسطي جميل لا يتعارض مع الإلحاد!!

تحت نفس لافتة «الإسلام الوسطي الجميل» يتحرك السيسي ومحمد بن سلمان ومحمد بن زايد، كذلك يفعل حسن نصر الله وروحاني وبشار «يحاربون التكفيريين»!! بل إنك لتقرأ كلمات الإسلام المعتدل عند أفيخاي أدرعي ونتنياهو وترامب!! حتى أنشد صديق يقول:

Readonly

إذا أفْتـــى لأُمَّتنـــا أوبـــاما وعلَّمَنـــا أصـــول الديـــن كيري
فدَعْنـــا مـــن حـــلال أو حـــرامٍ فقـــد طابـــت مســـامرة الحمير

مهما تضاربت أو اتفقت مشاريع أولئك، فإن تسويقها يتخذ نفس الشعار «العودة إلى الإسلام الوسطي الجميل»، وهنا تتعدد التفسيرات والتأصيلات والفقهاء، بل ويتنوع الفقهاء أنفسهم، فربما كان إعلاميًّا كمحمود سعد الذي تحسر يومًا على زمن الاعتدال الذي كانت تقف فيه المرأة في الشرفة بملابس النوم، ويمسك زوجها بزجاجة الخمر! أو أكاديميًّا كأسامة الغزالي حرب الذي لا يعترف بالحدود جزءًا من الإسلام، أو حتى شيخًا معممًا يحكم بالجنة على من مات في سبيل الوطن وإن لم يكن مسلمًا!

القدر المتفق عليه بين كل أولئك أن يتخلى المسلم عن فكرة منافسة الحكام في مساحة النظام، وأن يكتفي من دينه بالشعائر والطقوس، فمن شاء كان سلفيًّا (مدخليًّا) أو صوفيًّا (مهادنًا)، ومن شاء ترك الإسلام واعتنق ما شاء متى شاء وكيفما شاء، عش حياتك كما تهوى... بشرط واحد: أن تكون مواطنًا صالحًا ملتزمًا بالنظام!

يكررون سيرة أشباههم من ملأ قريش... تزعجهم «لا إله إلا الله» وتثير أعصابهم، على أن أولئك أرادوا إخمادها، وهؤلاء يريدون تذويبها وتزويرها!

قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

Readonly

هل نحتاج «قراءة ثانية» للإسلام؟

نشر في «الخليج أون لاين»

يوليو ٢٠١٩

ثلاث حلقات حتى الآن من برنامج «قراءة ثانية» الذي يبثه التليفزيون العربي، ومع أن مسار الحلقات يدل على نفسه من الحلقة الأولى إلا أن أصحاب حسن الظن لا يشعرون بالكارثة إلا حين تقع على رؤوسهم، ولات حين مندم!

تريد القراءة الثانية للإسلام أن تنقل ثوابت الإسلام التي استقر عليها المسلمون أربعة عشر قرنًا إلى مساحة الخلاف، لكي يبدو الموضوع خلافيًّا محتملًا، فناقشت الحلقة الأولى مسألة الدولة، وهل في الإسلام دولة؟ وقالت الحلقة الثانية: وهل في الإسلام حد الرجم؟ وقالت الثالثة: وهل يلزم أن ترث المرأة نصف الرجل؟... ونتوقع أن تكون الحلقات التالية عن نفي حد الردة، وتجويز رئاسة الكافر للدولة المسلمة، وإمكانية استبدال الشريعة بالقوانين الوضعية، وتجويز خلع الحجاب والاكتفاء بالحشمة، وسفر المرأة بغير محرم، وتعديل مفهوم الجهاد؛ ليكون فقط دفاعًا وفقط ضد المحتل الصهيوني... إلى آخر هذه الموضوعات المحفوظة.

هي موضوعات محفوظة؛ لأنها منتظمة في خط واحد، هو خط تطويع الإسلام للثقافة الغربية الغالبة، ولذلك لا يُعرض النقاش إلا في مواضع التناقض والاحتكاك بين الإسلام، وهذه الموضوعات لم تكن مطروحة في عالم المسلمين من قبل؛ لأنه لم تكن ثمة حالة انهزامية تفرض عليهم مراجعة دينهم وتقديم قراءة ثانية له كي تتوافق مع رغبات الغالبين!

ومما يدل على أن المطلوب ليس مراجعة علمية حقيقية لبعض الآراء التراثية

Readonly

أن البرنامج لن (أكرر: لن) يعرض موضوعًا ليبدو فيه أكثر تشددًا وأصالة مما هو شائع، فلن نجد فيه حلقة تذكر المسلمين بضرورة الجهاد في مناطق محتلة مثل الشام والعراق وأفغانستان، ولن نجد حلقة تروج لمواجهة الاستبداد المحلي أو الحلول الممكنة اقتصاديًّا للخروج من أسر النظام المصرفي العالمي، ولن نجد حلقة تروج لتعدد الزوجات باعتباره حلًّا مجتمعيًّا يعالج الكثير من الأزمات، ولن نجد حلقة تُرَوِّج للنقاب باعتباره زي أمهات المؤمنين وكمقاومة لحالة الإباحية المنتشرة عالميًّا... وهكذا!

يضع البرنامج لنفسه شكلًا محايدًا، ضيفان يتوزع بينهما الوقت، لكن روح البرنامج تبدو واضحة في لحن القول وفي التقرير الذي يسبق الحلقة، وفي اختيار الضيوف وأمور أخرى.

ومن الطريف أن البرنامج سيستمر على هذه الشاكلة حتى يصير مجمعًا للآراء الشاذة:

١ ـ ففي حلقة «هل في الإسلام دولة؟» اعتمد الضيف على أن لفظ الدولة بدلالته المعاصرة لم يرد في القرآن والسنة، ولم يفهمه الصحابة ولا عموم الفقهاء كما نفهمه الآن، وتكلف أن يفرِّغ كل لفظ قرآني أو نبوي من معناه الواضح؛ ليؤوله إلى معنى آخر.

مما يوحي أنه لو وُجِد اللفظ الصريح في القرآن أو السنة أو عمل الصحابة فلم نكن لنختلف؟!

٢ ـ لكن في الحلقة الثانية: «هل في الإسلام رجم؟» وُجِد اللفظ الصريح في السنة المتواترة، ومع ذلك تمسك الضيف بأن اللفظ لم يرد في القرآن، واصطنع

Readonly

قاعدة تقول بأن ما جاء في القرآن وحده هو الحد وما جاء في السنة تعزير!

مما يوحي ـ لمرة أخرى ـ أن الأمر لو جاء في القرآن فلم نكن لنختلف!

٣ ـ لكن جاءت الحلقة الثالثة لتناقش نصًّا صريحًا في القرآن ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]! لتسعى في اطراحه واستبدال نصوص أخرى به، نصوص من كتاب حقوق الإنسان الليبرالي الغربي المعاصر الذي صار أصلح من كتاب الله، وتجميلًا للطرح يُقال: كان كتاب الله صالحًا لزمان نزوله ولبيئة العرب، وأحكامُه ارتبطت بأوضاع هذا الزمان والمكان. وهذا القول الخطير (وهو المذهب التاريخاني) مقتضاه أن كتاب الله لم يكن وحيًا نازلًا من السماء فوق الزمان والمكان، وإنما هو نتاج بيئته، ومن ثم فهو ليس وحيًا وإنما اختراع من محمد الذي لن يستطيع الانفكاك من بيئته وهو يقدم رسالته!

وهكذا لم يعد الأمر قراءة علمية بأي معنى، بل هو اتجاه مغرض، يسعى لتطويع الإسلام في قالب الثقافة الغربية الغالبة، اتجاه يتحول به القرآن والسنة من موقع المرجعية العليا والحاكم على ما سواه إلى موقع المشكلة والعقبة التي تحول دون ظهورنا أمام الأجانب بمظهر عصري إنساني يوافق هواهم وثقافتهم.

ولذا سنحتاج في حلقة الدولة علي عبد الرزاق مهما كان قوله شذوذًا عن علماء المسلمين، وسنحتاج في حلقة الرجم إلى أبي زهرة والقرضاوي مهما كان قولهما شذوذًا عن علماء المسلمين، وسنحتاج في حلقة المواريث إلى من هم خارج أهل العلم بالكلية كنصر أبو زيد وشحرور والحداثيين المناهضين للشريعة كلها، فالشأن أننا سنجمع من كلٍّ قَوْلَه الذي شذَّ فيه؛ لنقدم دينًا جديدًا، فإن لم نجد من الفقهاء ذهبنا لغيرهم.

Readonly

ولكن، ومع هذا، رُبَّما يثور السؤال: ألسنا في حاجة إلى قراءة جديدة للإسلام؟

والإجابة على هذا السؤال تنطوي على إجابة سؤالين قبله؛ الأول: ما هو غرض هذه القراءة الجديدة؟ والثاني: ما هي وسائلنا وحدودنا في هذه القراءة الجديدة؟

فأما غرض القراءة الجديدة فلا يخرج عن اتجاهين، فإما أن نقرأ لنفهم مراد الله والوصول إلى اجتهاد معاصر يضبط حركتنا في ظل ما نحن فيه من نوازل كثيرة وتغيرات هائلة، وإما أن نقرأ لنحاول تقريب الإسلام من دين آخر أو ثقافة أخرى.

القراءة الأولى هي عمل المجتهدين وأمانة العلماء إذ هم ورثة الأنبياء وهي واجبٌ عليهم بالمقام الأول، وهذا لا يعترض عليه أحد بل يشعر كل مخلص لدينه وأمته بالحاجة إليه.

وأما القراءة الثانية فهي عين الضلال والانحراف وتبديل الدين، ولا يقدم عليها إلا منهزم فكريًا ونفسيًّا أمام بريق الغالبين، وهذا الذي يُعتَرَض عليه ويشعر كل مخلص لدينه وأمته أنه الخطر العظيم.

وأما وسائلنا وحدودنا في تقديم هذه القراءة الجديدة، أو بالأحرى تقديم الاجتهاد الشرعي، فقد ناقشه العلماء قديمًا مناقشة علمية بديعة فاستخرجوا قاعدة ذهبية تضع أساسًا وفارقًا راسخًا بين القراءة الجديدة التي هي اجتهاد منضبط وبين القراءة الجديدة التي هي ضلال وانحراف.

تقول القاعدة: «إذا اختلف أهل العصر في مسألة على قولَيْن لم يَجُز لمن بعدهم إحداث قول ثالث إن لزم منه رفع ما أجمعوا عليه، وإلا جاز».

وهذه القاعدة فرع عن موضوع الإجماع، ومعنى الإجماع ببساطة أن العلماء إذا أجمعوا على قول كان قولهم هذا هو الحق وهو مراد الله، لأن الأمة لا تجتمع

Readonly

على ضلالة، وخلاف العلماء في باب الإجماع يقع في ضبطه لا في أصله، بمعنى أنهم يختلفون هل وقع في هذه المسألة إجماع أم لم يقع؟ لا أنهم يختلفون في كون الإجماع ملزمًا أو غير ملزم.

ومعناها بتبسيط شديد أنه إذا حصل إجماع على قولٍ لم يكن جائزًا القولُ بخلاف هذا الإجماع، لأنه رمي للأمة بالضلالة وبأنها عاشت سنينًا وقرونًا ضالة عن الحق ومجتمعة على هذه الضلالة، وهو أمر ينسف الدين نفسه، لأنه إن أجمع الصحابة على أمر ولم يكن حقًّا لم يكن ثمة معنى للقرآن ولا السنة، فإنهم هم الذين نزل القرآن عليهم وكان النبي بينهم، فإن أخطأ هؤلاء فهْم ما نزل عليهم وما وقع بينهم وأجمعوا على الضلالة فلن يكون القرآن ولا السنة هداية لأحد من بعد. ولذلك فدليل الإجماع أقوى من دليل النص الذي يحتمل أكثر من معنى، لأنه اتفاق أهل العلم على معنى بعينه.

ولكن: إذا اختلف أهل العلم في مسألة على قولين اثنين، هل يكون من الجائز اتخاذ قول ثالث؟ أجابوا بأنه غير جائز، لأن اختلافهم على قولين اثنين هو إجماع على ضلالة وبطلان القول الثالث، وإذا اختلفوا على ثلاثة أقوال فهو إجماع على بطلان القول الرابع... وهكذا!

وبعض العلماء وضع تفصيلًا يقول: بأن القول الثالث إن كان يخرج عن القولين فهو باطل، وإن كان يستفيد منهما ويؤلف بينهما فهو جائز لأنه لا يخرج عنهما. ولهم في هذا تدقيق يُرجع إليه في كتب الأصول والقواعد الأصولية، وفيها نقاش علمي بديع يشهد لعقولهم بالعبقرية والسعة واستشراف ثغرات الضلال والتفلت.

ربما يخطر بالبال أن هذا تضييق وتشدد، ولكن الذي يعلم ثراء الفقه وتعدد

Readonly

أقوال العلماء يعلم تمامًا أنه ليس ضيقًا بحال، فبعض المسائل اختلف فيها أهل العلم على أربعين قولًا وزيادة، ولكن الثوابت الكبرى لم يختلفوا فيها، وإنما هذه القاعدة وشبيهاتها ضمانٌ ألا يخرج الاجتهاد عن الحق، وألا يكون مضادًّا لإجماع الأمة الذي إن جاز الخروج عليه لم يبق الدين كله، وإلا فماذا يمنع أن يباح الزنا والربا والخمر والقتل والظلم والسرقة والخيانة، بل والشرك بالله وعبادة الأصنام؟! فليس من فكرة إلا ويُستطاع تزيينها وفلسفتها لتبدو براقة ومقبولة.

كل شيء يمكن تقديم قراءة جديدة له ليتحول من مرذول إلى مقبول، وها نحن في زمن تسير المرأة فيه شبه عارية ويُرى أن هذا من حقوقها، ويُقَطِّع فيه الناس ثيابهم ليسايروا الموضة التي كانت قبل سنين معدودة عملًا مستبشعًا يدل على الفقر وسوء الحال فصار الآن يدل على الغنى والأناقة، ويقال فيه: الصلاة في مسجد أوغندا أكثر بركة من الصلاة في الأقصى. ويقال فيه: اللواط والسحاق حق لمن أراد، ويُجَرَّم من يدينه أو من يكره فاعليه... إلى آخر كل هذه الأمور التي كانت قبل سنوات أو عقود ثوابت إنسانية عامة لا تعرض للنقاش!

لهذا، فإن تقديم قراءة جديدة للإسلام لا بد أن ينضبط بألا يخرج عن إجماع المسلمين، هذا إن كانت تهدف حقًّا للوصول إلى الحق وفهم مراد الله مع الخضوع والتسليم لله وحكمته والإيمان بأن هذا الدين وحيٌ من عنده. أما بغير هذا الضابط فهذا في حقيقته محاولة تبديل الدين واستخراج نسخة جديدة بطلب من سلطة النظام العالمي.

أخيرًا يجب التأكيد على أنه ليس كل من يعتنق رأيًا يخالف فيه السابقين هو بالضرورة متآمر أو خبيث أو عميل، بل فيهم من نحسبه من المخلصين ـ والله حسيبه

Readonly

ـ ، وفيهم متبحرون في العلم وإنما شذوا في مسائل ـ والكمال لله وحده ـ ، وفيهم من نحسبه حريصًا على خدمة الدين وتحسينه للناس لدعوتهم إليه، ولكن حديثنا هنا هو حديث عن المشروع والسياق الكبير الذي يحاول جمع الشذوذات في سياق واحد، لتكوين الدين الجديد، وهو المشروع الذي تنفق فيه الأموال والجهود.

وشهيرةٌ هي قصة شيخ جمع شذوذ الفقهاء في كتاب يقدمه إلى السلطان ليوافق فيه لذاته، فوضع له كتابة في إباحة الخمر والمتعة والمعازف، فلما عرضه الخليفة المعتضد على القاضي إسماعيل بن إسحاق بهت لما فيه وقال: «يا أمير المؤمنين إنما جمع هذا زنديق. فقال: كيف؟ فقلت: إن من أباح المتعة لم يبح الغناء، ومن أباح الغناء لم يبح إضافته إلى آلات اللهو، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه. فأمر (المعتضد) بتحريق ذلك الكتاب».

وعلى هذا المثال: فعلي عبد الرازق لم ينكر الرجم ولا نادى بالتسوية بين الذكر والأنثى في الميراث، وأبو زهرة والقرضاوي يثبتان ضرورة الدولة للإسلام وأنه دين ودولة، ولم ينادِ أحدهما بالتسوية في المواريث، وهكذا...

لكن... ترى هل كان عنوان الكتاب الذي أحرقه المعتضد أيضًا «قراءة ثانية»!!

* * *

Readonly

أزمة تصور لا أزمة تجربتنا الحضارية

نشر في «المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية»

أكتوبر ٢٠١٧

قبل البدء في المقال لا بد من إعلان التضامن مع د. مختار الشنقيطي فيما يعانيه من الجنرال الانقلابي في موريتانيا، والذي يرفض تجديد جوازات السفر له ولأبنائه، مما يجعلهم في حرج بالغ، وهو من جراء النكد الحضاري في تلك الحضارة المعاصرة التي تجعل الإنسان أوراقًا تملك السلطة إصدارها وتجديدها، فإن فقدها كان في حكم الميت حقيقة! فالحضارة المعاصرة هي على الحقيقة حضارة السلطان والطغيان لا حضارة الإنسان.

***

حضرت للصديق د. محمد المختار الشنقيطي محاضرته عن «الدستور الإسلامي في زمن الثورات»، فاستفدت منها جملة أشياء نافعة، وكانت لي عليها ملاحظات أساسية أحببت أن أسجلها كتابة بعدما ذكرتها مشافهة إذ لم يُتح لنا الوقت حوارًا كافيًا حول المسألة، كما كان ضيق الوقت وإرهاقي وقتها مانعًا من حسن طرح التعقيب.

ومن المهم هنا أن نذكر أن المحاضرة ألقيت في جمع من المفكرين والأكاديميين وكانت لديهم تعقيبات ثرية لكنها للأسف لم تُصَوَّر على شاشة القنوات، وربما أخرجت أكاديمية العلاقات الدولية التي نظمت المحاضرة نسختها التي احتوت تصويرًا للتعقيبات والتعقيب النهائي للمحاضر. لكن أشير هنا إلى ثلاثة تعقيبات أساسية اتفقتُ معها في أغلبها، ومن الطريف أنها كانت من ثلاثة من

Readonly

الأكاديميين الإيرانيين، وهنا ينبغي أن نذكر أن التجربة السياسية الإيرانية التي بلغ عمرها الآن نحو الأربعين عامًا قد أنضجت بيئة الفكر السياسي الإسلامي في إيران فخَرَّجَتْ عددًا من المفكرين والأفكار في باب الفقه السياسي.

يقر الشنقيطي أن حكمه على تاريخنا السياسي حكم سلبي، ويؤسفه أن تجربتنا الحضارية فقيرة في الإجراءات السياسية رغم ثرائها في باب القيم، ومن مظاهر فقرها أنه لم يكن لحضارتنا دستور طوال الفترة الممتدة من «وثيقة المدينة» وحتى صدور الوثيقة في تونس (١٨٦١)، وهكذا كانت فترة الظلام طويلة بين لحظتين مضيئتين شهدتا دسترة القيم السياسية في إجراءات.

ثمة ملاحظات جوهرية على هذا المنطلق الذي بُنِيَت عليه المحاضرة، والذي يمثل أساس فكرتها:

١ ـ المشكلة الرئيسية هي اعتبار أن وجود نص مكتوب على صيغة مواد وبنود، وهو شكل الدساتير المعروف، يكون معيارًا حاكمًا على التجربة الحضارية بالتقدم أو التخلف، فمجرد وجود أي نص على أي صيغة لا ينبغي أن يعبر عن شيء في نفسه، إلا لو أن معيارنا هو مجرد معيار شكلي ظاهري. فالمدن اليونانية والإمبراطورية الرومانية والدول المستبدة في عالمنا المعاصر تتخذ لنفسها دساتير مكتوبة على صيغة المواد والبنود، فلم يمنع هذا الوجود من دسترة الاستعباد والعنصرية في مدن اليونان ولا تسويغ الاستعمار للرومان، ولم تُغْنِ كثرة المواثيق التي يحفل بها عالمنا المعاصر من كثرة المذابح!

٢ ـ فإن قيل ليس المقصود مجرد وجود نص مكتوب على هيئة بنود، وإنما المقصود وجود نصٍّ حاكم يتمتع بالرسوخ والتقدير وله هيمنة على النظام، فهنا لن

Readonly

نجد نصًّا لا في القديم ولا الحديث أرسخ وجودًا ولا ثبوتًا ولا هيمنة على النظام من القرآن الكريم، وهو نصٌّ كُتبت حوله آلاف الشروحات والتفاسير واستنبطت منه ما لا يحصى من المواد القانونية واشتغلت عليه ما لا يُحصى من العقول في استنباط الفتوى لظروفها الزمانية والمكانية... فلو أن هذا كان مقصود الشنقيطي للفت نظره نص القرآن الكريم ونصوص السنة الصحيحة، إلا أن اختياره لحظة وثيقة المدينة ولحظة وثيقة تونس تدل على أن نموذجه المنشود هو الوثقية ذات النصوص المصاغة على هيئة بنود ومواد.

٣ ـ تعلمنا قديمًا أن الحديث إن كان عن الحلال والحرام فلا بد من الاستناد إلى النصوص الصحيحة، بل بعض العلماء لا يجيز رواية الضعيف ولا في فضائل الأعمال، فنحن حين نتكلم عن أصول حضارتنا الإسلامية ومنطلقاتها وما يُؤثر في صعودها وهبوطها سلبًا وإيجابًا نكون بحاجة أقوى إلى الاعتماد على الصحيح وحده، فالمسألة هنا ليست مسألة حكم فرعي في عبادة أو معاملة، وإنما هي حديث في أصول الدين ومنهجه ونظامه. وهو الأمر الذي يقره الشنقيطي وقد أكد في تعقيبه على ملاحظتي أنه لا يعتمد على سوى الصحيح.

الغريب هنا أن وثيقة المدينة نفسها إنما صح بعض منها بمجموع الطرق، فهي ليست صحيحة على منهج المحدثين، ومن قالوا بصحتها فغاية ما قالوه أنه تصحيح بمجموع الطرق لبعض بنودها[1]، وعليه قالوا إن «الوثيقة بمجموعها لا تصلح للاحتجاج بها في الأحكام الشرعية» إلا ما صح من نصوصها المنفردة الواردة بالأسانيد الصحيحة في كتب الحديث. إنما أورد كُتَّاب السيرة الوثيقة

(١) ينظر في تفصيل الأمر كتب السيرة الصحيحة مثل: السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري، وصحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي.

Readonly

جريًا على المعروف من أن التاريخ لا يُعامل بالصرامة التي يُعامل بها الحديث. وفي موضوعنا هذا حيث يُراد الاستدلال بوثيقة المدينة على أن الدستور من أصول وقواعد الإسلام، وأن عدم وجود وثيقة على هيئته من علامات انتكاس الحضارة الإسلامية، فعندئذ يجب أن ننبه إلى أن الوثيقة لا تنهض للاستدلال بها.

٤ ـ على أن الوثيقة نفسها إن صحت حديثيًّا وصارت نصًّا يصلح للاستدلال به فإن هذا أيضًا لا يجعلها حجة على ما أراده لها الشنقيطي، فغاية ما يُقال أن الوثيقة كانت حاكمة على العلاقات داخل المدينة في السنوات الأولى لها، حتى نزلت آيات القرآن الكريم التي تحدد المعاملات وعلاقة الدولة الإسلامية بسائر الأطياف، وتستدرك على ما أقيم من العقود والمعاهدات... أي أنها في أحسن أحوالها كانت وثيقة مرحلة انتقالية لا واجبًا ثابتًا يفرض كتابته في النظام السياسي للدولة الإسلامية. ولهذا لم يجد الفقهاء عبر ذلك التاريخ الطويل ما يدعوهم لأن يعتبروا عدم وجود وثيقة على هيئة بنود من جملة المعاصي والمخالفات، ولو أن الأمر كذلك لما تعذر على حاكم ظالم أو عادل وضع وثيقة يخرج بها من جملة المخالفة والمعصية ولو لم يكن لها أثر حقيقي كما تفعل البلاد المستبدة صاحبة الدساتير.

ومنذ أبي بكر وعمر ـ وهما ذروة الخلافة الراشدة ـ لم يجد الخلفاء أنهم ملزمون بوضع دستور بتلك الصيغة. لهذا فغاية ما يكون أمر الدستور أن يكون من المباح لا من الواجبات ولا الضرورات.

فالحديث عن حضارتنا التي تعاني من «فقر الإجراءات» يمتد ليشمل بالتهمة عصر الخلافة الراشدة على الجملة، فكيف يجوز هذا والخلفاء الراشدون هم القدوة الذين نص النبي على الاقتداء بسنتهم؟!

Readonly

٥ ـ تُساق مسألة كتابة الدستور على أنها مسألة توافقية، يجري فيها التنازلات والتفاهمات، وتصل إلى المشترك المتفق عليه بين الجميع. لم يكن هذا قائمًا في وثيقة المدينة، إنما كانت الوثيقة صريحة في جعل السلطة والحكم إلى محمد ﷺ، ولم يسع النبي في هذا الأمر إلى توافق، إنما دخل المدينة وهي تكاد تجتمع على ملك هو عبد الله بن أبي بن سلول فأقام النبي نظامًا سياسيًّا جديدًا، فلم يفكر في إبقاء إجراءات تنصيب ابن سلول، ولا حتى فكر في مشاركته الحكم، وإنما جاء النظام السياسي النبوي الجديد لينهي كل ما فات، ونصت الوثيقة على هذا الأمر صراحة، فقد ورد فيها: «وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ». والوثيقة من أولها لآخرها تجعل (المؤمنين) كتلة وغيرهم كتلة أخرى، وهو ما يناقض مفهوم المواطنة الحديث الذي بُنيت عليه الدساتير في الدولة القومية؟

٦ ـ مشكلة عصر الاستضعاف الكبرى أن البحث في حَلِّها يتجه إلى اتجاهين كبيرين: إما أن نوفق الإسلام مع الواقع، أو أن نوفق الواقع مع الإسلام. حين ننطلق من تثبيت أهمية الدستور ولزوم وجوده فإننا على الحقيقة نحاول دسترة الإسلام لا أسلمة الدساتير، وهو نوع من حمل الإسلام على التوافق مع ما صار واقعًا وتقليدًا سياسيًّا معاصرًا، هنا نجعل الواقع حاكمًا على الإسلام ونلتمس من الإسلام أن يستجيب لما يمليه الواقع من ضغوط! فإن كانت سيرة الدساتير في التاريخ السياسي إنما نشأت في أنظمة لا علاقة لها بالدين (بداية من الوثنيين اليونان، وحتى النظام العلماني المعاصر) فنحن نحاول استنبات زرع لم ينبت لا في تربتنا ولا في تربة شبيهة.

Readonly

إن الدستور هو محاولة وضع نص مقدس في بيئة لا ينطق فيها الإله بشيء، فالإله إما وثن في حضارة اليونان والرومان لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئًا، والإله محذوف تمامًا في الحضارة العلمانية ولا يُسمح بوجود مرجعية متجاوز للبشر أصلًا.

وقد اصطبغت الدساتير بتجربتها بطبيعة الحال، فالدساتير الحالية هي نص مقدس وُضِع لصيغة الدولة القومية، وهو النموذج الذي انتهت إليه تجربة غربية مريرة ومختلفة في زمانها وطبيعتها، ولا يزال نموذج الدولة القومية في أحسن الأحوال يطرح تناقضات حقيقية مع النظام الإسلامي، بينما يرى آخرون ـ وهو ما أعتقده ـ أن النظامين متناقضين لدرجة يستحيل معها التقاؤهما، فإما أن يتنازل الإسلام عن جملة وجمهرة من أحكامه، وفيها المجمع عليه، وإما أن يتغير نظام الدولة القومية فيتخلى عن جملة من ثوابته. وحقيقة الصراع الحالي في العالم هو وجود التناقض الحضاري، فلا يزال الغرب يريد أن يحشرنا ويضعنا في نظامه، ولا زالت الأمة تقاوم ولا تقبل به.

٧ ـ ثم ههنا أمر آخر في غاية الأهمية، وقد جعلته في النهاية ليكون خاتمة الحديث كله، ألا وهو: كيف تستمر حضارة مع فقر الإجراءات في أهم أبوابها وهو باب النظام السياسي؟... إن مجرد بقاء الحضارة الإسلامية ألف سنة وتحكم على الأقل ثلث العالم المعروف لهو دليل على قدرتها وتمكنها من إدارة شؤون الحياة وإمداد الإنسانية بقيم وإسهامات وافرة في سائر المجالات... فأَنْ يُقال «حضارتنا الإسلامية عانت من وقت مبكر فقرًا في الإجراءات» لهو دليل على أن مقياس الفقر والغنى في الإجراءات هو نفسه مقياس يحتاج إلى تعديل وتصحيح لاستيعاب حالة حضارة ظلت ألف سنة في الصدارة!

Readonly

إنها على الحقيقة أزمة تصور لا أزمة الحضارة الإسلامية.

هل معنى هذا أني ضد كتابة دستور على الجملة؟

بالطبع لا، ولكني لا أجعل وجود دستور من عدمه علامة على أي شيء ولا معيارًا لأي شيء، ولا أرى وجوده ضرورة ملزمة لأي نظام سياسي.

* * *

Readonly

عبادة الأصنام المكسورة

نشر في أغسطس ٢٠٢١

قالوا: السعيد من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ بنفسه.

يريدون بذلك أن العاقل يرى ما يحدث لغيره فيفهم ويتعظ ويهتدي، وأما غير العاقل فلا يفهم العظة والعبرة إلا إذا وقع في المصيبة، فيتعظ بنفسه!

وقد وصف النبيُّ ﷺ المؤمن بأنه «لا يُلدغ من جحر مرتين»... فعرفنا بذلك أن الذي يُلدغ من الجحر الواحد مرتين لا يستقيم له وصف الإيمان.

إلا أن صنفًا ثالثًا من الناس حدثنا عنه القرآن الكريم... هو أعجب من الصنفين السابقيْن... إنه صنف لا يتعظ أبدًا... وهذا الصنف لا يستيقظ إلا في الآخرة... في العذاب الأليم!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

هناك في العذاب ستذهب السكرة والغفلة والعناد والإصرار، ثم تأتي الحسرات وترتفع النداءات:

نداء يطلب الموت: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ونداء يطلب العودة إلى الدنيا وإعطاء فرصة أخرى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

إلا أن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا سرًّا خطيرًا عن هؤلاء، سرٌّ مُحَيِّر ومثير للدهشة... ذكر أن هؤلاء إذا عادوا إلى الدنيا مرة أخرى فسيفعلون نفس ما فعلوا ولن يتعظوا أبدًا... لن يتعظوا حتى بأنفسهم.

Readonly

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨].

يستحق المرء منا أن يتسمّر أمام هذه الآية بالساعات ليحاول تأملها وفهم هذه النفسية التي إذا أخرجت من النار عادت لما كانت عليه... فحتى دخول النار لم يكن لها واعظًا... إنه أمر صاعق حقًّا... يستحق أن يجعل كل واحد فينا يقف متأملًا في نفسه ومفتشًا فيها متسائلًا ما إن كانت نفسه تنطوي على تلك البذرة الخبيثة التي تجعله غير قابل للاتعاظ ولا للتعلم مهما كانت الدلائل بل مهما كانت التجارب!!

وقد ضرب الله لنا مثلًا واقعيًّا على هذا الصنف في قصة سيدنا إبراهيم... ذلك أن قوم إبراهيم عادوا من حفلتهم فوجدوا آلهتهم كلها مكسورة إلا كبير الآلهة لا يزال منصوبًا وقد تعلق في رقبته الفأس!!

وبتلقائية عجيبة بحثوا عن الفاعل!! وبدؤوا عملية التحقيق وتحديد المشتبه فيهم، فتوصلوا إلى إبراهيم... فذلك هو الذي صدرت عنه تصريحات سيئة في حق الآلهة!

لقد بحثوا عن الفاعل دون أن يتوقفوا لينظروا في حال تلك الآلهة التي تحطمت حتى دون أن تقاوم... ولا إلى هذا الإله الكبير الذي ظل متفرجًا ثم حاملًا لسلاح «الجريمة»!!

لقد انصرفت عقولهم عن الأسئلة المنطقية التي يجب أن تكون في تلك اللحظة أسئلة حاضرة وحارقة وخارقة: ماذا فعلت تلك الآلهة لنفسها أمام من أرادها بسوء؟!

Readonly

المهم، ذهبت دورية عسكرية وأحضرت إبراهيم، ووقف أمامهم فسألوه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]؟!

لا يستطيع المرء أن يكتم ضحكته أمام هذه العبارة المتناقضة، «فعلت هذا بآلهتنا»... من الذي يفعل بمن؟ الآلهة أم العبيد؟!!

المهم أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ضغط على الجانب الذي يخفونه ويتهربون منه، ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

ويبدو المشهد ساخرًا تمامًا... أبسط مبادئ المنطق أن هذا الإله الكبير الذي لم يتحطم، والذي يحمل سلاح الجريمة، هو الذي كسَّر بقية هذه الآلهة... أو على الأقل: هو شاهد عيان على الجريمة... فهو أولى الناس أن يكشف عما حصل!!

ومع أن الأمر يبدو منطقيا تمامًا، إلا أنه كان بالنسبة لهم كالمفاجأة المدوية، وهي المفاجأة التي أيقظت بعض أسلاك العقل ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤].

ما الذي يحملنا على القبض على الفتى، إن كان بالإمكان سؤال شاهد العيان هذا، والذي يحمل سلاح الجريمة!!

لكن هذه الاستفاقة لم تلبث إلا لحظات، ثم انقضت عليهم شهواتهم وتقاليدهم وعاداتهم وتعلقهم بآلهتهم ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

فزاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ في ضغطه وفضحه لحقيقة آلهتهم الهشة، ولحقيقة خرافاتهم التي يتعلقون بها ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]؟!

Readonly

ثم صدر قرار القضاء الشامخ: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

هكذا حَكَموا على إبراهيم لا بالحرق، بل بالتحريق (المبالغة في الإحراق)... وذلك أنهم يريدون الانتصار لآلهتهم!!

الانتصار... للآلهة المكسورة...

وهكذا ترى ـ عزيزي القارئ ـ كيف أن بعض الناس لا يتعظ أبدًا... فالآلهة التي تحطمت وتكسرت وانهارت... وثبت بالدليل أنها لا تملك أن تدفع عن نفسها شيئًا، بل ولا تملك أن تُخبر عما فُعِل بها... هذه الآلهة، وجدت من يدافع عنها حتى بعد أن تكسرت وانهارت!

ترى، هل لا يزال بعضنا يعتنق أصنامًا مكسورة؟!

إن إغلاق العين والقلب عن الآيات البينات، وعن التجارب والوقائع، والإصرار على عدم التعلم منها هو عكوف عند الأصنام... بل عند الأصنام المكسورة!!

إن الله يقيم حجته على عباده، وما من إنسان في هذه الحياة إلا وتضخ له الأيام من الأحداث ما تقوم له به العظة والعبرة.

ولكن كثيرًا من الناس يُعَطِّلون حواسهم: سمعهم وبصرهم وفؤادهم... يغلقونها على ما اعتادوا عليه... فيهم شبه من الذين قالوا ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠] حتى لو كان الذي جاءهم ﴿بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤].

فتش عن صنمك المكسور...

* * *

Readonly

كيف صارت حانة اليوناني استاد كرة؟!

نشر في «الخليج أون لاين»

يوليو ٢٠١٩

منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين كانت مصر في واحدة من أشد لحظاتها بؤسًا ومرارة، كانت أسرة محمد علي قد فتحت أبواب مصر للأجانب حتى صار لهم فيها السيادة العظمى، وصار الشعب عندهم كالعبيد، وكان الشحاذ في أوروبا يتعلق بالسفينة السائرة إلى مصر في رحلة هجرة غير شرعية محفوفة بالمغامرة، فإذا وصل إلى الشواطئ المصرية وجد البلاد تفتح له ذراعيها وتقدم له أبناءها عبيدًا وجواري!

كان الأجانب يهيمنون على السياسة والاقتصاد والقانون، قصر الخديوي حافل بالأجانب، الهيئات الحكومية الكبرى وقادة الجيش وبعض الوزارات يتولاها الأجانب، امتيازات المشاريع تأتي بقروض أجنبية ويتولى تنفيذها أجانب ويسخرون فيها العمال المصريين كعبيد ثم يجنون أرباحها، والنظام القانوني في مصر كان محاكم قنصلية ثم مختلطة يهيمن عليها الأجانب، ما على الأجنبي إلا أن يفتعل مشكلة مع أي مصري، فيسحبه إلى محكمة قنصيلة بلاده فتقضي له المحكمة بما شاءت من أموال المصري وعقاراته، وبهذا يفتقر المصري ويغتني الأجنبي.

سنأخذ من بين هذا المشهد كله مشهدًا واحدًا متكررًا...

شحاذ يوناني أو مالطي أو غير ذلك، غامر بنفسه في البحر حتى وصل إلى مصر، وجد طريقه إلى قرية أو مدينة ما، فتح فيها حانة خمر وقمار، استجلب فيها راقصة أو عاهرة (ولا بأس أن تكون ابنته أو أخته أحيانًا)، يأتيه الفلاح أو العمدة أو

Readonly

ما بينهما، يسكر ويشرب ويطرب ويلعب، فينزف أمواله بالقمار أو بالخمر أو لعيون الفتاة اليونانية المليحة المتحررة، فإن كان فلاحًا لا يقوى على سفك المال دفعة واحدة فهو يشرب ويطرب ويقترض بالربا الفاحش.

وفي غضون سنوات يتحول الشحاذ اليوناني إلى مركز تدوير المال في القرية، ويمكنه أن يُقرض الأعيان بالربا، ثم في مرحلة لاحقة يستولي على أطيانهم ودورهم إن لم يستطيعوا السداد، والقانون في صفه والشرطة في خدمته!

لنترك كل هذا المشهد ونركز في مشهد الفلاح الفقير... يبدو مثيرًا للاشمئزاز أن ينفق الفلاح الفقير أمواله في الخمر والقمار حتى بعد يومه الطويل المنهك الحافل بالكدح والمرارات، ويصعب أن تجد من يدافع عن فعله هذا بأنه حق له في اللذة والراحة والغياب عن الهموم. وذلك أن العزم فيمن كان هذا حاله أن يكبح جماح شهوته ويمسك زمام نفسه ليحول نفسه بتوفير هذه الأموال التي حصَّلها بالعذاب في تغيير حاله وحال أولاده. هكذا يقول داعي العقل إن لم يكن داعي الدين!

هذا المشهد السابق يتكرر في مصر الآن، لكن مع تعديل طفيف وغير مؤثر في المشهد العام...

الهيمنة الأجنبية على مصر لا تخطئها العين، البلد حافلة بالأجانب في مواقع شديدة الحساسية، ومن الوزراء من هو مزدوج الجنسية، الشركات الأجنبية تملك نصيب الأسد من حصة الأسواق، بما في ذلك الشركات التي تبدو بأسماء وطنية ولكن أسهم ملاكها تشير إلى حقائق أخرى، بل إن عقود الحكومة مع الشركات الأجنبية والتي تتم في السر محصنة من المحاسبة بقانون أقره برلمان السيسي في أول دورته التشريعية، وهذا قانون شراء الجنسية المصرية بعشرة آلاف دولار سيأتينا بموجة من

Readonly

الأجانب يدفعون هذا المبلغ التافه لا حبًّا في مصر ولكن حبًّا في التمتع بخيراتها. وكذلك القانون والقضاء لم تعد به شبهة استقلال لا سيما بعد التعديلات الدستورية الأخيرة التي تضعه كله في جيب السيسي، على أن هذا القضاء نفسه حين كان يبدو مستقلًّا كان يُضرب به عرض الحائط وقد أُفرج عن جواسيس رغم أنف الحكم القضائي أيام مبارك، وجاءت طائرة نقلت محكومين أجانب إلى بلادهم أيام مجلس طنطاوي العسكري، ويكفينا أن نذكر ماذا حدث لقضية وقاضي تيران وصنافير.

المشكلة أننا نحتاج أن نذكر بعض التفاصيل لأن الصورة الحاضرة أكثر تشوشًا وغبشًا من صورة الماضي، لأن التزوير ينصبّ على الحاضر بفعل التضليل الإعلامي والمجهود الثقافي، بينما ذهب رجال الماضي وتزويرهم وبقيت الحقائق لا تحتاج كثيرًا من ذكر التفاصيل.

لكن الذي يهمنا الآن من هذه الصورة، وهو مقصود المقال، هو تكرر ذات الصورة: صورة الفلاح الفقير المنهك الذي تواطأت عليه السلطة والقوانين والأجانب، وهو يذهب فينزف ماله في حانة اليوناني متمنيًا أن يحظى بنظرة الإعجاب من ابنته الفاتنة!

هذه الصورة ذاتها تتكرر أيضًا، تفعل الشعوب الفقيرة المقهورة ذات هذا السلوك، حين تهلك ما بقي من طاقتها في متابعة كرة القدم، متابعة مجموعة من الميلونيرات يلعبون بالكرة، إن انتصروا زادت أرصدتهم وإن انهزموا لم تنقص. يهلك الناس أعصابهم وأموالهم وأوقاتهم وطاقتهم وحماستهم في الصراخ على هذا أو ذاك، يفرحون له أشد مما يفرحون لأنفسهم ويحزنون عليه أشد مما يحزنون على أنفسهم!!

Readonly

لن نسأل الآن لماذا؟ إذ لا يُسْأل المخمور السكران عن أفعاله حال سكرته... لكن المثير للدهشة والاشمئزاز معًا، أن يخرج متفلسفون يتحدثون عن هذا المشهد باعتباره: الحق في اللذة والخروج من الهموم ونسيان الأحزان ولو لساعتين، ربما يصلح هذا كنوع من التفسير لكن لا يصلح أبدًا كنوع من التبرير، يمكن أن يُقال على سبيل الوصف والقراءة: إنهم يفعلون هذا لهذا السبب، لكن لا يصح بحال أن يقال: دعوهم وارحموهم وكفوا ألسنتكم عنهم واتركوهم فليتمتعوا هذه الدقائق المعدودة!

هذا ما لم أعرف أنه قيل لفلاح فقير يرتاد حارة اليوناني على سبيل الجدّ، ويبدو أن الفلاحين القدماء كانوا يفتقدون لفلاسفتنا المعاصرين!

لست مهتمًّا هنا بلوم محبي الكرة أو معاتبتهم أو تقريعهم، بل مهتم بهدم هذا البناء الفلسفي المتهافت الذي يتحدث عن حق المقهور في أن يستمر سكرانَ مخمورًا ذاهلًا عما يراد به ويراد له، ولئن كان يمكن التماس العذر لعاشق الكرة فهو كالتماس العذر للمذنب المخطئ المنصرف عن رشده إلى اللهو، هو نوع من الشفقة والتعاطف وليس أبدًا إقرار له أو رضًا بما يفعل.

كرة القدم يستعملها الطغاة في تخدير الناس وإلهائهم، لا سيما حين يصبغون على مباراة الكرة معنى الملحمة الوطنية وعلى اللاعبين سمات البطولة. هذا تخدير يجب على كل عاقل أن يقاومه، والهزيمة في كل مباراة هي حقيقة نصر ووعي ويقظة لعموم الناس، وإنا لنسأل الله من فضله أن يزيد في هزائمنا الكروية لتقل جرعات المخدر اللذيذ الذي يصرف طاقتنا عما هو واجب وعما هو أولى.

وليس فرقًا أن يكون اللاعبون مجموعة من الساجدين أو مجموعة من

Readonly

المنحلين أخلاقيًّا، الفارق هنا ليس كبيرًا، ربما هو كالفارق بين أن يقدم اليوناني في حانته خمرًا معتقة أو خمرًا مغشوشًا، كلاهما خمر في نهاية الأمر!

ولو أن يونانيًّا في ذلك الزمن بعث في زماننا هذا، لما فكّر في أن يتخذ له حانة، بل لاتخذ له ملعبًا وفتح إلى جواره فضائية تعمل أربعًا وعشرين ساعة في التحليل الكروي... لقد صارت بلادنا المحتلة وشعوبنا المهزومة تعرف من خطط الكرة ما لا تعرف شيئًا منه من خطط الحرب، وتعرف من أسماء اللاعبين ما لا تعرفه من أسماء المحاربين، ومن سياسات المدربين ما لا تعرفه من سياسات الأمن القومي!

وحين يستفيق الفلاح على استلاب أرضه وداره، سيجد زميله الفيلسوف يحاول أن يخترع له نظرية أخرى تسكره جيلًا آخر!

***

Readonly

ثقافة الإسراف... الجذور والمسار والثمار

نشر في مجلة «الوعي الإسلامي»

مايو ٢٠١٤

قال الجرجاني في التعريفات: «الإسراف: هو إنفاق المال الكثير في العرض الخسيس. وقيل: هو تجاوز الحدّ في النّفقة. وقيل: هو أن يأكل الرّجل ما لا يحلّ له أو يأكل ممّا يحلّ له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة».

الجذور

ليست عوائد الإسراف، أو الثقافة الاستهلاكية، إلا ابنًا من أبناء الحضارة الغربية المادية، وهذا الموضوع هو بحد ذاته دليل على أن إصلاح العقيدة (التي هي رؤية شاملة للإنسان والكون والحياة) هو مبدأ كل إصلاح، وأن فساد العقيدة هو مبدأ كل فساد.

حين سارت الحضارة الغربية في مسار العلمانية وتقديس المادية وإزاحة كل «ما وراء الطبيعة» كان طبيعيًّا أن ينفجر النهر الفياض من الشهوات واللذائذ، وأن يعب المرء من الحياة ما استطاع بكل ما استطاع، فخلاصة الحياة في ظلال المادية تلخصها عبارة ألبير كامي ـ فيلسوف العدمية الشهير ـ القائلة: «كل شيء جائز طالما أن الله غير موجود وأن الإنسان يموت»[1].

وهنا... صارت اللذة هي الإله الجديد الذي تعبده البشرية في محراب المادية!

وذلك أساس فارق وخلاف جوهري بين النظرة الإسلامية والنظرة المادية

---

(١) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص١٣٩.

Readonly

للطبيعة، فارق بين «الاستخلاف في الأرض» الذي هو بمعنى المسئولية والرعاية للأمانة والوديعة، والتي سيعقبها حساب وجزاء في اليوم الآخر، وبين معنى «الامتلاك الكامل» الذي تطرحه النظرة المادية العلمانية التي لا ترى في الكون إلا أنه «مادة استعمالية لا قداسة لها، توظَّف وتصنَّع وتستهلَك وتولَّد منها الطاقة من أجل تحقيق لذة الإنسان ومنفعته، الأمر الذي يتطلب المزيد من استهلاك مصادر الطبيعة بمعدلات لا نظير لها في تاريخ الإنسان»[١]، وهو ما جعل الطبيعة في نهاية الأمر مجرد «مخزن للثروات ومستودع للنفايات»[٢]، كما قال الفيلسوف الفرنسي الشهير رجاء جارودي.

المسار

لقد انطلق قطار الحضارة المادية يبتغي الوصول لسعادة الإنسان وإشباع حاجاته، وما زال كلما وقف في محطة محققًا نصرًا علميًّا ومزيدًا من التحكم في الأدوات ليشبع حاجة ولذة، كلما انفتحت له محطات جديدة ولذائذ أخرى، ثم كانت المفاجأة:

«لم ينتج عن هذا زيادة التحكم في الذات الإنسانية أو في الواقع الموضوع بل على العكس، فمع ظهور الإنسان الطبيعي (المادي) وتحديد المنفعة واللذة باعتبارهما الهدف الأساسي للوجود الإنساني، ترجم هذا نفسه إلى الاستهلاكية، وتصور أن مزيدًا من السلع فيه مزيد من المنفعة واللذة، وقد تسارعت وتائر هذه الاستهلاكية تسارعًا مذهلًا، وبعد أن كانت الحاجة هي أم الاختراع أصبح الاختراع

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ٢/ ١٢٠.

(٢) رجاء جارودي: وعود الإسلام ص٢٠.

Readonly

هو الذي يولد الحاجة، فوجد الإنسان نفسه محاطًا بسلع وأجهزة ليس متأكدًا تمامًا أنه يريدها (والسلعة مثل المادة، شيء يتحرك بلا هدف أو غاية)، وبدأ الإنسان يشعر أنه لم يعد من أمره شيئًا، وأنه يدخل في بحث لا ينتهي عن هدف لم يحدده في عالم ليس من صنعه تتراكم فيه سلع لا يريدها»[١].

لقد تحول الاستهلاك نفسه إلى «فلسفة مطلوبة؛ إذ إن تكاثر الإنتاج يقتضي ويريد تكاثرًا في الاستهلاك، فيسعى أصحاب الإنتاج أنفسهم إلى خلق نوعيات جديدة للاحتياج عبر الدعاية والإعلان والتطوير المستمر للمنتجات، والبحث عن أسواق جديدة، وتقصير عمر المنتج ليستهلك سريعًا؛ ولهذا فإن السيارات الحديثة لا تتمتع بأعمار السيارات القديمة، وكذلك البنايات الحديثة لا تعيش أبدًا كما عاشت البنايات الأقدم منها»[٢].

وبهذا صارت الشعوب فريسة لذوي الأموال المترفين وذوي السلطان المتجبرين، فأولئك يتحكمون بالناس عبر تحكمهم بصناعة اهتماماتهم وتلاعبهم بشهواتهم وغرائزهم، حتى إنهم ليبتكرون لهم شهوات وحاجات جديدة تحتاج لإشباع جديد!

وهنا صارت لدينا طبقتان متمايزتان: قلة رأسمالية متحكمة ومهيمنة، وشعوب مستضعفة مستغفلة أقرب إلى القطعان منها إلى الإنسان، تساق إلى الموت وهي لا تشعر وقد تُذبح وهي لا تبصر.

---

(١) عبد الوهاب المسيري: العلمانية تحت المجهر ص١٣٣.

(٢) جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ص٤٨، ٥٠، ٥٦.

Readonly

الثمار

على عكس ما توقع الجميع، لقد جاءت المادية بنتائج كارثية في حياة البشر، إن الفكر المادي المهيمن جعل حتى التفسيرات التي تبدو «علمية» ذات تطبيقات في غاية الخطورة، يقول د. عبد الوهاب المسيري: «في هذا السياق يبرز دارون كواحد ممن ساهم في التنظير للصراع والدموية بمقولته عن البقاء للأقوى أو للأصلح، حتى إن فرويد تساءل عن حكمة الدعوة إلى فضائل مستحيلة مثل كبح جماح الرغبات الجنسية والعدوانية، بل إنه يتحدث ـ في لقطة متوحشة حقيقية ـ عن (فضل) اليهود على المدنية، فقد انتشروا في أرجاء العالم ومن ثم اتجه إليهم عدوان الشعوب التي عاشوا بينها، فأتاحوا لتلك الشعوب فرصة التنفيس عن طاقة العدوان»[١].

لقد صار الإنسان الذي اعتاد الإسراف خطرًا على الإنسانية وعلى الكون من حوله، حتى بالمنظور المادي نفسه، ولعله يكفي ـ في هذا الصدد ـ أن نعرف أن نصف المواد العضوية التي تلقى في الماء وتلوثه في مصر هي أغذية ومشروبات، بحسب تقرير البنك الدولي لعام ٢٠٠٧م[٢]. لقد غرقت الإنسانية فيما يسميه جان بيليت ـ وهو من أبرز علماء البيئة ـ بـ«مجتمع النفايات»، ويرمز لها بنهر له منبع وهو الاقتصاد الذي يضخ عددًا رهيبًا من السلع والمنتجات لتلبية حاجات الاستهلاك المتزايدة، وله أيضًا مصب وهو تراكم النفايات بعد انتهاء الاستهلاك، وهذا ما ينتج ثلاث مشكلات: مشكلة الطاقة، ومشكلة الموارد الأولية، ومشكلة تلوث البيئة[٣].

---

(١) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٨/ ٣٢٩.

(٢) تقرير البنك الدولي للعام ٢٠٠٧م (ب).

(٣) جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ص٥٩.

Readonly

إن الثقافة الاستهلاكية هي ما تجعل المرء يمتلك عددًا من الهواتف والأجهزة الإلكترونية لكنه لا يستعملها إلا في اللعب أو ما لا يفيد، يمتلك عددًا من السيارات لكنه لا يهوى إلا أن يسابق ويتقافز ويتمطى بها وربما ليحصل على قلوب العذارى كما أوحى إليه الإعلام، يأكل في المطاعم الأمريكية طعامًا لا غذاء فيه بل هو مشحون بالأمراض ليس إلا لأن ارتياد هذه المطاعم يشعره بالنشوة التي تكونت عنده عبر الإعلانات الشهوانية. إنها حالة من التيه المختلط بالنشوة التي تصنع القوم الغافلين.

قال رسول الله (ﷺ): «كلوا وتصدّقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة»[1].

* * *

(١) رواه النسائي وابن ماجه، وحسنه الألباني.

Readonly

الحروب الإلكترونية... الاحتلال الرائع!

نشر في مجلة «الوعي الإسلامي»

شعبان ١٤٣٣ = يونيو، يوليو ٢٠١٢

منذ زمن طويل لم يعد مفهوم الحروب مقتصرًا على استعمال السلاح في وجه الأعداء، بل ظهر مصطلح «الغزو الفكري» ليعبر عن أساليب التسلل إلى العقول والقلوب عبر الكتب والصحافة والأدب والفنون، ثم ظهر مصطلح «الاستعمار الاقتصادي» ليعبر عن أساليب السيطرة على مقدرات الأمم من خلال المؤسسات الاقتصادية الكبرى والشركات عابرة القارات والتي تعمل على تشكيل اقتصاديات الأمم على نحو ما تريد لتظل متحكمة بمفاصلها ونقاطها المحورية فتصبح الحركة الاقتصادية للأمم مثل تحريك العرائس... ثم ها نحن في أجواء الحرب الإلكترونية التي ظهرت مع ظهور الانترنت الذي صنع عالمًا آخر موازيًا للعالم الطبيعي، حتى لقد كان الوسيلة الأهم في ثورات الربيع العربي!

ويتبادر إلى الذهن عند الحديث عن حروب الانترنت موضوعات القرصنة وسرقة الحسابات البنكية وتخريب المواقع وقواعد البيانات، وسرقة المعلومات المهمة، ونشر الفيروسات ...إلى آخر هذه الجرائم التي يحفل بها عالم الانترنت، على أننا آثرنا في هذه السطور القادمة أن نتحدث عن جانب آخر من الحروب الإلكترونية، وهو الحرب التي تجري في العلن وأطرافها هم نجوم هذا العالم وعمالقته، كما أن الضحايا فيه مستمتعون بأنهم تحت الهيمنة والاحتلال، والمنتبه فيهم مغلوب على أمره مضطر، لا يجد بديلًا... فهو كما قال تميم البرغوثي:

Readonly

ويحملني كالنسر يحْمل صيْدَه ... ويعلو به فوق السحاب يطاولُهْ
فإن فرَّ من مِخْلابه طاح هالكًا ... وإن ظل في مِخلابه فهو آكلُهْ

***

العدو اللذيذ... جوجل وأخواتها!

بعد أقل من أربع سنوات (٢٠٠٦ ـ ٢٠١٠م) من عمل شركة «جوجل» في الصين، استطاعت أن تمثل مشكلة للحكومة الصينية جعلت التصريحات النارية تخرج على السطح بين الصين وأمريكا (يناير ٢٠١٢م)، وهي المشكلة التي هددت «جوجل» بأنها قد تنسحب من الصين على إثرها، وهو التهديد الذي يعني كثيرًا، لا سيما وقد بلغت جوجل في هذه الأعوام البسيطة أن اجتذبت ثلث عمليات البحث على الانترنت في الصين، وصار يرتادها نحو أربعمائة مليون صيني[1].

وحين يتم مثل هذا في دولة كالصين فينبغي على الدول العربية والإسلامية أن تضع يدها على قلبها، فالصين التي تضايقها جوجل هي العملاق الاقتصادي الثاني على مستوى العالم، وهي تفرض قيودًا على حركة الانترنت، وتوفر لمواطنيها مواقع صينية بديلة عن المواقع العالمية مثل محرك البحث «بايدو» الذي تهددت مكانته بعد دخول جوجل!

وفيما استغرق جوجل نحو أربع سنوات حتى اشتبك مع الحكومة الصينية لم يستغرق الفيس بوك أكثر من أسبوعين حتى بدأت مشكلاته (يوليو ٢٠٠٨م)، رغم

---

(١) راجع: موقع بي بي سي العربية «جوجل: مازلنا نفرض رقابة على موقعنا في الصين» (١٣/ ١/ ٢٠١٠م) و«الولايات المتحدة تطالب الصين بالتحقيق في قضية جوجل» (٢١/ ١/ ٢٠١٠م)، وتقرير وكالة أنباء الشرق الأوسط عن الأزمة (١٧/ ١/ ٢٠١٠م).

Readonly

أنه منفصل في الصين عن الشبكة العالمية للفيس بوك! وما تزال السلطات الصينية تحجب كليًّا أو جزئيًّا أو أحيانًا مواقع يوتيوب وتويتر وأمثالها من مواقع التواصل الاجتماعي!

وبالتأكيد لم يكن موضوع النزاع بين أمريكا والصين حول جوجل هو مجرد اهتمام أمريكا بحرية الانترنت، فالأمر أعمق من ذلك بكثير... ذلك أن «جوجل» هو ببساطة أحد أهم الأذرع الأمريكية في اختراق منظومات المعلومات حول العالم!

وإذا كان غير المكتوب دائمًا أهم من المكتوب، وكانت الأسرار أهم من المُعْلَن، فنحن أمام جوجل سنجد أنه حتى المكتوب والمعلن يمثل خطرًا كبيرًا واختراقًا كاملًا لمستخدميه، وهو الاختراق الذي يتم بسلاسة ونعومة وانسيابية تجعل منه «العدو الرائع»...

خذ مثلًا اتفاقية استعمال جوجل التي يتوجب عليك الموافقة عليها قبل استعمال الخدمات التي تقدمها الشركة العملاقة، وبعبارة أخرى: فإن استعمالك لخدمات جوجل يعني أنك قد اطلعت على بنود الاتفاقية ووافقت عليها بالفعل (نص البند ٢ ـ ٢ من اتفاقية شروط الخدمة). هذه الاتفاقية صدرت أولًا في لهجة قاسية صارمة في (١٦ إبريل ٢٠٠٧م) وما زالت تتعدل ويضاف إليها ويحذف منها حتى صدر التعديل الأخير (١ مارس ٢٠١٢م) يحمل نفس المعنى ولكن بصياغات لطيفة رقيقة تغطي على ذات المعنى الذي يجعل منها اتفاقية إذعان[1]!

---

(١) اتفاقية شروط الخدمة الصادرة في إبريل ٢٠٠٧:

http://www.google.com/intl/ar/policies/terms/archive/20070416/

اتفاقية شروط الخدمة الصادرة في مارس ٢٠١٢:

http://www.google.com/intl/ar/policies/terms/.

Readonly

حين تتعامل مع جوجل فأنت تقر وتوافق على أن كل خدمة قد تفرض عليك قيودًا بخلاف ما فرضته الخدمات العامة لجوجل (بند: ١ ـ ٢)، وأن الخدمات قد تتغير أو تتوقف جزئيًّا أو كليًّا ـ مؤقتًا أو دائمًا ـ بدون أن يتم التنبيه عليك (بند: ٤ ـ ٢،٣) وأن جوجل إن أوقفت حسابك فليس من حقك الحصول على أي ملفات أو محتويات فيه (بند ٤ ـ ٤)، وأن جوجل قد تحدد بعض المتغيرات في أي وقت تراه مناسبًا (بند ٤ ـ ٥)، وأنك ملتزم بأن المعلومات الشخصية التي تقدمها لجوجل تكون صحيحة ودقيقة ومحدثة (بند: ٥ ـ ١)، وأن جوجل لها الحق في فحص محتويات الملفات الخاصة بك واختصارها وتعديلها ورفضها وإزالتها إن رأت هذا (بند: ٨ ـ ٣)، وأن جوجل لا تتحمل أي خسارة تقع بك نتيجة استعمال خدماتها حتى لو كانت الخدمة هي المتسببة في هذا (بنود ١٤، ١٥)، وفيما لا يمكنك مقاضاة جوجل إلا في محاكم مقاطعة سانتا كلارا بكاليفورنيا وفي ظل قوانينها فإن جوجل لديها الحق في مقاضاتك في أي محكمة مختصة أخرى (بند ٢٠ ـ ٧).

ولا يفوت المرء أن يشيد بجمال المناورات في الصياغات الحديثة لهذه الاتفاقية بكافة ملحقاتها، مما يجعل الاقتباس منها عسيرًا، ولولا وجود الاتفاقيات السابقة في أرشيف جوجل لكان توضيح هذه الأمور عسيرًا!

إن جوجل تجعل من تجسسها عليك عملًا رائعًا إنما تقدمه لمجرد أنها تحب أن توفر لك المتعة...

إذا كنت تستعمل المتصفح «جوجل كروم» فعليك أن تعلم أن كل النشاطات التي تجريها من عليه مخزنة في مكان ما على نظام جوجل، لا تقلق ـ هكذا يقول جوجل ـ «إنها خدمة رائعة» لأنك في أي مكان في العالم وعبر أي جهاز كمبيوتر

Readonly

يمكنك أن تُدخل الاسم وكلمة السر لحسابك على جوجل لتجد أن متصفحك وسائر المعلومات المخزنة على جهازك قد انتقل إلى هذا الجهاز الذي تعمل عليه!

المؤسف في كل هذا أن الخدمات المقدمة سهلة ومجانية ومهمة، فجوجل على سبيل المثال يوفر هذه الخدمات: أفضل بحث على الانترنت في النصوص والصور والفيديو، الترجمة، بريد إلكتروني، خدمة إنشاء وتخزين الوثائق، تنظيم الأعمال، إدارة الشركات، شبكة تواصل اجتماعي (جوجل بلس)، القوائم البريدية، الإجابات، بالإضافة إلى مواقع جوجل البحثية في: الكتب، الصحافة، الخرائط، الأبحاث العلمية، وغيرها مما لا يكاد يستغني عنه أحد!!

المؤسف أكثر أن الإبداع في تقديمها يجعلها بمثابة خدمات تجسسية «ممتعة»!!

ثم تزيد هذه «المتعة» في الشبكات الاجتماعية مثل الفيس بوك وتويتر وغيرها من الشبكات التي تدخل فيها بنفسك ما تشاء من المعلومات والصور والأفلام عن نفسك وأسرتك ودراستك ومدينتك وعملك وسائر حياتك، وتتفاعل مع الأصدقاء والأقارب والزملاء والجيران حول العالم، وتعطي المواعيد وتكتب جدول أعمالك اليومية، ويستطيع المتابعون لك معرفة أين تكون ونوع الجهاز الذي تكتب منه سواء كان جوالًا أو حاسبًا محمولًا أو لوحة حاسوبية أو غير ذلك!

إن كل هذا يجعل الملفات متاحة ومفتوحة أمام الجميع بما فيها أجهزة الأمن والاستخبارات حول دول العالم، ومثل هذه الشبكات الاجتماعية هي التي أيقظت السلطات الإسرائيلية ذات يوم مفزوعة بعد أن اكتشفت تسرب صور قواعدها الجوية وغرف العمليات والمناورات من خلال الصفحات الشخصية للجنود الذين

Readonly

لم يظنوا أن نشر صورهم في الخدمة على صفحاتهم يمكن أن يسبب خطرًا أمنيًّا، وعليه فقد أحالت السلطات ١٠٠ من مجنديها إلى التحقيق وفرضت حظرًا جزئيًّا على موقع الفيس بوك[١].

ولأن البنية الصلبة والأسرار العميقة لهذه التقنيات الجديدة إنما هي حصريًّا لدول المنشأ فإن الدول الأخرى لا تجد إلا أن تمارس الحظر بنفسها على هذه المواقع جزئيًّا أو كليًّا، أو تتقدم إلى المواقع ذاتها بطلبات الحظر على صفحات بعينها ترى أنها تمثل تهديدًا لها، وفي الدول الاستبدادية يكون هذا الحظر منصرفًا إلى المطالبين بالحريات وحقوق الإنسان والمقاومين للظلم والاستبداد والفساد، مما يجعل عالمنا العربي والإسلامي مبتلًى مرتين: مرة بافتقاده التقنية، ومرة بأن السلطات في بلاده إن سمحت بها استخدمتها في التجسس عليه وقمع إرادته!

***

لا ريب في أن العالم العربي والإسلامي لم يزل متأخرًا في استعمال الانترنت، لكن الطليعة الشبابية التي استعملته إنما قامت بجهد كبير وأفضل من المتوقع في الاستفادة من هذا العالم الجديد في سائر المجالات، ولعل ثورات الربيع العربي تكون الحدث الأبرز الذي أثبت قدرة الشباب على استعمال هذه الوسائل بأفضل طريقة في التعامل مع واقعهم!

لكن المجهودات الفردية مهما كانت مخلصة، ومهما بذل أصحابها من طاقتهم، لا تكفي مطلقًا للدفاع عن الأمة في هذه الحرب الإلكترونية الطاحنة، إن آخر ما يُتوقع منهم أن يكونوا كالذي وقف بجسده النحيل شاهرًا سيفه أمام الدبابة

---

(١) تقرير شبكة محيط « شبكة فيس بوك تنفي تعرضها للحجب في الصين» بتاريخ ٣/ ٧/ ٢٠٠٨.

Readonly

التي تقتحم الدار، يستطيع أن يضايقها ويؤخرها قليلًا ثم أن يضع نفسه تحتها ليعطل تقدمها، لكنها في النهاية تدهسه ثم تقتحم الدار!

لا بد من أن تتصدى الدولة بكافة إمكاناتها لمثل هذه الحرب، وهي وحدها القادرة على أن تنظم حركة الشباب الفردية في كيان كبير ينتج بدائل خاصة أو يتعامل مع التقنية المطروحة بما يستخلص منها فوائدها ويتجنب اختراقاتها الخطيرة لمنظومة الأمن الداخلي للدولة العربية!

والحق أن عالمنا العربي والإسلامي لن يمكنه تحقيق نتائج ذات بال في هذا المضمار إلا إذا تخلص من عقدة الاستبداد التي تعيقه عن النهوض في كل المجالات وتجعل كافة إمكانياته رهينة بالرؤية الفردية والتوجهات الخاصة للفرد أو المجموعة الحاكمة، إذ ما لم تكن ثمة خطة موضوعة عبر المؤسسات المحترفة الوطنية لا تتغير بتغير الأهواء والنزعات الفردية لا يمكن لشيء كبير أن يكتمل أصلًا!

ستأتي لحظة ما وتكشر كل تلك الأذرع الإلكترونية عن أنيابها، ونفاجأ بأنفسنا وقد سُلب منا كل شيء لأن كل شيء صار تحت سيطرتهم فعليًّا، حينها لن يتمكن أحد من تحريك دولار فضلًا عن تحريك طائرة دون أن يُسمح له بهذا... فالواجب الأول واقع على عاتق الدولة ومسؤوليها!

وأما الواجب الثاني فهو واقع على عاتق العلماء والفقهاء، ومن المؤسف غاية الأسف أن الانترنت تطور هذا التطور الهائل في زمن قليل ووصل إلى كل مكان لكنه لم يصل بعد إلى أروقة المعاهد العلمية الدينية والمؤسسات الفقهية التي ما زالت تعاني فتاواها حول الاستعمال وحده ضعفًا واضطرابًا وارتباكًا ظاهرًا، فكيف والحال قد تعدى الاستعمال إلى التفاعل والتواصل، ليس على المستوى الأخلاقي والفكري وحده، بل على مستوى المقاومة والجهاد كذلك...

Readonly

إن تأخر العلماء عن ركب العلم لا يوقف العلم ولا طلابه ولا يؤخرهم، بل يجعلهم يطلبون العلم من غيرهم ممن كان أسرع وأسبق، بل العلماء لا معنى لهم إن لم يكن لديهم علم الواقع الذي ينزلون عليه علم الشرائع...

* * *

وبعد...

فهل نتمنى أن يكون المصطلح القادم في الحروب والغزو والاستعمار من نصيب المسلمين بعد أن كانوا هم المقهورين بالغزو الفكري والاستعمار الاقتصادي والحرب الإلكترونية؟!! أم سنكون ضحية الحرب الجديدة كذلك؟!

* * *

Readonly

اختبر نفسك: كيف تتفاعل مع الشائعة؟

نشر في «مدونات الجزيرة»

إبريل ٢٠١٨

قال الجبرتي: «في يوم الأربعاء رابع عشري الحجة آخر سنة ١١٤٧ [أي اليوم التالي لعيد الأضحى من هذه السنة، وهو يوافق ٧ مايو ١٧٣٥م] أشيع في الناس بمصر بأن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشري الحجة [بعد يومين فقط]، وفشا هذا الكلام في الناس قاطبة حتى في القرى والأرياف وودَّع الناس بعضهم بعضًا:

١ ـ ويقول الإنسان لرفيقه: بقي من عمرنا يومان، وخرج الكثير من الناس والمخاليع الغيطان والمنتزهات، ويقول بعضهم لبعض: دعونا نعمل حظًّا ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة.

٢ ـ وطلع أهل الجيزة نساء ورجالًا وصاروا يغتسلون في البحر.

٣ ـ ومن الناس من علاه الحزن، وداخله الوهم.

٤ ـ ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلي.

٥ ـ واعتقدوا ذلك ووقع صدقه في نفوسهم، ومن قال لهم خلاف ذلك أو قال: هذا كذب لا يلتفتون لقوله.

٦ ـ ويقولون: هذا صحيح، وقاله فلان اليهودي وفلان القبطي، وهما يعرفان في الجفور والزايرجات ولا يكذبان في شيء يقولانه، وقد أخبر فلان منهم على خروج الريح الذي خرج في يوم كذا، وفلان ذهب إلى الأمير الفلاني وأخبره بذلك وقال له: احبسني إلى يوم الجمعة وإن لم تقم القيامة فاقتلني. ونحو ذلك من وساوسهم.

Readonly

وكثر فيهم الهرج والمرج الى يـوم الجمعة المعين المذكور. فلم يقع شيء! ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت.

٧ ـ فانتقلوا يقولون: فلان العالم قال: إن سيدي أحمد البدوي والدسوقي والشافعي تشفعوا في ذلك وقبل الله شفاعتهم، فيقول الآخر: اللهم انفعنا بهم فإننا يا أخي لم نشبع من الدنيا وشارعون نعمل حظًا، ونحو ذلك من الهذيانات».

انتهى كلام الجبرتي... والـذي نقلتـه بحروفـه، ولـم أتدخـل إلا بالترقيـم وبتوضيحيـن بيـن معقوفيـن [...].

في هذا المشهد نرى أن الشائعة استطاعت أن تنتشر انتشارًا واسعا في القاهرة والقرى والأرياف رغم أن الزمن كان أسرع ما فيه الحمام الزاجل! حتى لكأن بعض الشائعات لها قدرة انتشار ذاتية تهزم به حواجز الزمن والمسافات! وفيه نرى أيضًا أصناف الناس ومذاهبهم في التعامل مع النوازل الكبرى المتوقعة، وقد رصد الجبرتي منهم سبعة أصناف:

١ ـ فمنهم من لا يرى فـي أي حادثة إلا مصدرًا أو فرصة للهو واللعب والضحك والمرح، ولعل أولئك هم القادرون دائمًا على ابتكار النكات الساخرة التي تخرج في أشد أوقات الأسى والبؤس حتى كأن الذي ابتكرها يعيش في عالم وحده، يراقب المشهد من بعيد بغرض إنتاج نكات جديدة. ففي هذه الواقعة التي بين أيدينا أشيع بين الناس أن يوم القيامة بعد يومين فبادروا إلى قضائهما في اللهو واللذة لأنهما آخر يومين في الحياة! فتشاوروا في اختيار المتنزهات وأماكن اللهو والحقول التي ستشهد آخر نعيمهم!

٢ ـ ومن الناس من تفاعل مع الموقف بعقلية جماعية لا تزال تحير علماء

Readonly

الاجتماع في تفسيرها، السلوك الجمعي للبشر واحد من أهم الحقول التي لا تزال تُدرس لفهمها، يُقال بأن الناس تتعامل مع الموقف الجمعي تبعًا لأول ردة فعل، وأن أي إنسان يستطيع قيادة أي تجمع حائر لو تصرف كقائد. يضربون لها مثلًا باجتماع الناس حول حادث مثلًا فإذا أتى رجل من الخلف قائلًا «وسَّع يا جدع» وتقدم باعتباره يملك الحل، فإن الناس بتلقائية تفسح له دون سؤال ولا تردد ودون معرفة سابقة، مع أنه قد يكون مجرد متفرج جديد! كذلك من يسارع للتعامل مع المريض أو المصاب كأنه طبيب فإن الناس تستسلم له ويتركونه لفحص المريض وإذا طلب دواء كذا أو كذا هرع بعضهم لتنفيذ أمره!... في الواقعة التي كانت أيام الجبرتي سارت في أهل الجيزة طبيعة تصرف جماعية وهي أنهم نزلوا يغتسلون في نهر النيل... لماذا؟ ولأي غرض؟ وبأي دافع؟... الله أعلم! لعلهم اتبعوا في هذا التصرف رجلًا بدأ به وعملت النزعة الجماعية على نشر هذا السلوك.

٣ ـ بعض الناس كالعادة أوقفوا حياتهم، ودخلوا بيوتهم، وتلفعوا بأحزانهم... يمارسون الانتظار! وهو سلوك كثير من الناس إذا شعر أن الموقف أكبر منه وأنه لا يملك حياله أي شيء، وأن كل شيء صار بلا فائدة، ولم يعد من جدوى لأي شيء... أتصور لو أن هؤلاء في زماننا لكان الواحد منهم أغلق هواتفه وجلس في غرفته بعد أن أغلقها عليه! ولو كان به بعض الإيجابية لقضى وقته في التعليق على كل منشور بمواقع التواصل الاجتماعي بما معناه: «انتوا بتتكلموا في ايه، ده القيامة هتقوم»، فلو رأى منشورًا يدعو للتوبة قال: «خلاص، مفيش فايدة... اللي تاب تاب زمان»، ولو رأى منشورًا يدعو للهو قال: «والله انت ما عندك دم... بعد بكرة ربنا هيحرقك»!.

٤ ـ ومن الناس من تذكر الله تعالى فصار يتوب ويصلي ويبتهل في محاولة

Readonly

أخيرة لتغيير مصيره في الآخرة... ولا شك أن هذا أفضل المنازل، وأفضل العمل فيه هو واجب الوقت: إن كانت الصلاة أو الجهاد أو غيرها، وفي الحديث أن النبي جعل أفضل العمل لمن يغرس الفسيلة أن يغرسها. وأتذكر أن قريبًا لي ـ وكان تاجرًا في قرية بالصعيد المصري ـ روى لي أنه في عام ١٩٩٦ تقريبًا، وكانت مصر تشهد كسوفًا للشمس ـ ولم تكن شهدته من قبل لأعوام طويلة ـ صار يأتيه الناس ويسددون له الديون التي عليهم لأن القيامة ستقوم يوم الأربعاء (يوم الكسوف)، كي يتحللوا منها، حتى صار يضحك قائلًا: وماذا سأفعل أنا بالأموال إن كانت القيامة ستقوم أيضًا!

لكن مشكلة هذا الصنف هو في تصديقه الوهم والخرافات، مشكلته في تسليمه نفسه للدجالين والكذابين، وأنه يخضع لقولهم دون فحص... فلئن كانت استجابته أفضل من غيره، إلا أن الخطر يأتيه من هذه الخصلة.

٥ ـ من الناس من سيبذل جهده في مواجهة هذه الشائعة، ويقدم العقل على العاطفة، ويقاوم السلوك الجمعي العام السائد، ويجادل بأن هذا كذب... لكنه سيكون الصوت الأضعف في غمرة الفوران الجمعي المستجيب للشائعة، وأخطر وأكبر من يؤجج هذا الفوران الشعبي في مقابله هو الصنف القادم:

٦ ـ أولئك الذين يتبرعون من تلقاء أنفسهم لإثبات الشائعة وتأكيدها واختراع الأدلة لها، هنا يتفاعل خليط من الكذب والهوى وحب الظهور والشهرة ليصنع هذا الصنف من الناس. والمؤسف أن هؤلاء ليسوا بالقليل بل إن وجود أحدهم يشجع ظهور آخرين على نفس المنوال، في الواقعة التي بين أيدينا اخترعت الأدلة والقصص والروايات والمصادر التي تؤكد الشائعة، فهذا فلان اليهودي وفلان

Readonly

القبطي الذين يعرفون الغيوب وعلم المستقبل، ويُخترع لهم تاريخ من النبوءات الصادقة كالمريض الذي شُفي وفلان الذي رزق بالولد وفلانة التي رجع إليها زوجها ...إلخ! والريح التي أخبروا أنها تهب فكانت كما قالوا، واخترع آخرون قصة تزيد التأكيد عن فلان الذي ذهب إلى الأمير الفلاني وقال له: احبسني إلى يوم الجمعة وإن لم تقم القيامة فاقتلني.

ولا شك أن كل واحد فينا يتذكر أشياء من هذه، لا سيما في أوقات الثورة والاضطرابات، والمصادر التي تتحدث عن هروب فلان أو مقتل فلان أو تحذير فلان أو الاتفاق على الأمر الفلاني أو ترتيب الوضع السياسي بالشكل الفلاني، ويتضخم الخبر ويتأكد عبر شبكة من الكذابين الذين لا يتثبَّتون ولا يتبينون، بل لقد تخصصت حسابات على تويتر وفيس بوك في نشر الشائعات وتخصصت حسابات أخرى في تأكيد وترسيخ ما يُنشر! ثم ينفض السامر على الكذب... لكن الحسابات تواصل مهمتها لأن كافة شرائح الشائعة لا تزال تتعامل معها كأنه لم يحدث شيء من قبل... وأولئك هم الفئة السابعة.

٧ ـ هؤلاء هم الذين لما لم تقم القيامة في اليوم الموعود اخترعوا قصة غيبية تمامًا، شفاعة انطلق بها الأولياء الصالحون لله تبارك وتعالى، فقبل الله شفاعتهم ومدَّ في عمر الحياة الدنيا!!

إن الشائعة تجد من يخترع لها قصة دارت في الملكوت الأعلى لئلا تكون كاذبة، أي أن المخدوع بالشائعة كان أهون عليه أن يكذب مرة أخرى على الله وعلى أوليائه الصالحين من أن يعترف بأنه أخطأ أو كان من المغفلين!...

ولولا أني لا أريد حرف المقال عن فكرته العامة لذكرت بعض أسماء

Readonly

الصحافيين والإعلاميين الذين تخصصوا في نقل ما يحدث في الغرف المغلقة بين الرجل وزوجته أو الوالد وابنه أو ما دار في مكاتب الرؤساء ورؤساء المخابرات وفي الدوائر السياسية الضيقة التي لا يتسرب منها الهواء، فينشرونه على الصفحات ليفسروا به حركة التاريخ وليستروا به عورة كذبهم ودجلهم!!

نفس ما رواه الجبرتي قبل ما يقارب ثلاثة قرون وقع لمجموعة في أمريكا من عام ١٩٥٥، حيث اعتقدوا بأن نهاية العالم ستكون الساعة الرابعة من يوم ٢١ ديسمبر، ووقعت قصة لا تختلف في جوهرها عما رواه الجبرتي، خلاصتها أن المؤمنين ستأتيهم أطباق طائرة في فناء منزل سيدة بعينها لتستخلصهم وتنقذهم، وهو ما حدا بالمؤمنين إلى التجمع في منزل السيدة، ثم فشلت نبوءتهم عند الساعة الرابعة! وهي القصة التي استخلص منها عالم النفس الشهير ليون فينجستر نظريته عن التنافر الإدراكي، ونشرها في كتابه «عندما تفشل النبوءة»، محاولًا تحليل التفسيرات التي قدمتها المجموعة حين تناقض الواقع مع ما آمنوا به[1].

مثل هذه المواقف تثبت أن الإنسان هو الإنسان، وأنه لا يخضع لمعايير التقدم المتعلقة بالمادة، ولذا لا يصح أن يُقال بأن شعبًا ما متقدم أو شعبًا ما متخلف لمجرد العرق أو البقعة الجغرافية أو نوع الثقافة.

المطلوب الآن أن تغمض عينيك وتتخيل: كيف تستعمل السلطة هذه الطبائع الإنسانية لتتحكم بالناس وتسيطر عليهم؟ وإذا أتيح لك أن تقدم مقترحاتك لمكافحة هذا، فبم يمكن أن تنصح؟! كلما كنت صاحب تفكر وتأمل أعمق كانت نصائحك ومقترحاتك أصوب وأجود.

---

(1) Leon Festinger et al, When Pophecy Fails, (Minneapolis: Minnesota Univeristy press,192 - 30 p., (1965).

Readonly

Readonly

الباب الثالث
في أروقة بيت المقدس

ـ قراءات في تاريخ بيت المقدس

ـ قراءات في واقع بيت المقدس

❊ ❊ ❊

Readonly

Readonly

قراءات في تاريخ بيت المقدس

مهما تنوعت قضايا المسلمين ومهما تكاثرت جراحهم، فإن بيت المقدس يظل الجرح الغائر في صميم القلب، ومهما تجول المرء في صفحات التاريخ فإن همَّ الواقع يسحبه نحو القراءة في تاريخ بيت المقدس، ويظل السؤال الأهم: لماذا وكيف ضاع؟ وكيف يمكن تحريره؟

هذه المقالات الثلاث، التي نشرت في مجلة المجتمع الكويتية، تحاول تلخيص الإجابة التاريخية عن هذه الأسئلة، عبر هذه العناوين:

- سنن تاريخية في تحرير بيت المقدس
- سنن تاريخية في ضياع بيت المقدس
- كيف تشكلت معركة الصراع الحضاري العالمي؟

* * *

Readonly

سنن تاريخية في تحرير بيت المقدس

نشر في «مجلة المجتمع الكويتية»

يوليو ٢٠٢١

يمكن إيجاز تاريخ بيت المقدس في العصر الإسلامي في ست مراحل كبرى فاصلة:

١ ـ مرحلة الفتح التي كانت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صدر الإسلام، في العقد الثاني من القرن الأول الهجري، وبالتحديد في ربيع الآخر ١٦هـ.

٢ ـ ثم مرحلة الاحتلال الصليبي التي جرت في أواخر القرن الخامس الهجري، وبالتحديد في ٤٩٢هـ.

٣ ـ ثم مرحلة التحرير التي جرت على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي أواخر القرن السادس الهجري بعد تسعين عامًا من الاحتلال الصليبي، وبالتحديد في رجب ٥٨٣هـ.

٤ ـ ثم مرحلة الضياع مرة أخرى التي جرت على يد الأيوبيين المتأخرين: الملك الكامل الأيوبي ـ وهو ابن أخي صلاح الدين ـ ، ثم الناصر داود وهو ابن أخي الملك الكامل، وذلك في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وبالتحديد في ٦٢٤هـ، و٦٤١هـ على التوالي.

٥ ـ ثم مرحلة استرجاعه مرة أخرى على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب بالتحالف مع الجيش الخوارزمي بعد سنة من ضياعه، وبالتحديد في ٦٤٢هـ.

Readonly

٦ ـ ثم مرحلة الضياع مرة أخرى في العصر الحديث على يد قوات الاحتلال الإنجليزي بعد سبعة قرون، وبالتحديد في (١٩١٧م = ١٣٦٦هـ)، ثم الاجتياح الإسرائيلي للنصف الشرقي من المدينة المقدس (١٩٦٧م = ١٣٨٧هـ).

ولم يزل المسلمون ينتظرون المرحلة السابعة، مرحلة التحرير من الاحتلال الصهيوني، نسأل الله أن يكون قريبًا، وأن نكون من جند هذا التحرير.

ومن أبرز ما يُلاحَظ، من خلال التأمل في هذا التاريخ، أن بيت المقدس يبدو كدُرَّة التاج، أو كالقلب من الضلوع، لا يمكن الوصول إليها ولا الظفر بها إلا بعد المرور بالعواصم المهمة المحيطة بها، بمعنى أن احتلال بيت المقدس أو تحريره إنما هو الثمرة الأخيرة لتاريخ من الكفاح والنضال للسيطرة على العواصم السياسية المهيمنة على بيت المقدس.

أولًا: الفتح

لما خرجت الجيوش الإسلامية الفاتحة إلى الشام، وكانوا خمسة جيوش، كانوا يستهدفون بهذه القسمة تشتيت جيش الروم الضخم وتقسيمه إلى خمسة كذلك، فقد كان جيش الروم عشرة أضعاف الجيش المسلم، ولهذا حاول أبو بكر من خلال توجيه خمسة جيوش أن يستدرج هرقل ـ قيصر الروم ـ إلى إخراج خمسة جيوش مقابلة لكي ينكسر هذا التفوق العددي الهائل، ولكن هرقل فطن لهذه الخطة فأرسل قطعة من جيشه في مقابلة جيش عمرو بن العاص في جنوب فلسطين، وأبقى بقية الجيش ككتلة واحدة، ولم يكن هذا الجيش يستهدف استرجاع المناطق التي فتحها المسلمون، وإنما استهدف تطويق الجيش المسلم، فكان يتوغل إلى الجنوب، وهو الأمر الخطير الذي كان يُجبر المسلمين على ترك ما فتحوه والعودة جنوبًا حتى لا يجري تطويقهم وقطع الطريق عليهم، ولهذا تكررت في فتوح الشام أن يفتح

Readonly

المسلمون البلد أكثر من مرة، وأن يعيدوا الجزية التي أخذوها من أهل هذا البلد، كما تكرر أيضًا أن ينتقض بعض البلاد على المسلمين حين يتصورون أن انسحابهم كان ضعفًا.

ما يهمنا في سياقنا هذا أن عاصمة الشام دمشق فُتِحَت قبل فتح بيت المقدس بعامَيْن، فقد كان فتح دمشق (الأحد: ١٥ رجب ١٤ هـ = ٥ سبتمبر ٦٣٥م)، بينما كان فتح بيت المقدس (ربيع الآخر ١٦هـ = مايو ٦٣٧م).

وبعدما فتح المسلمون دمشق، اضطروا للانسحاب منها لئلا يطوقهم الروم، ثم خاضوا المعركة الكبرى مع جيش الروم الرئيسي، وهي اليرموك بعد عام من فتح دمشق (رجب ١٥هـ)، ولما نصرهم الله النصر الكبير فيها انفتح الطريق إلى بيت المقدس وفُتِح بعد اليرموك بتسعة أشهر.

لو كان الصحابة مجموعة من الدراويش لكان حرصهم على فتح بيت المقدس أشد من حرصهم على فتح دمشق، فبيت المقدس هي القبلة الأولى ومسرى النبي وفيها صلى النبي بالأنبياء، إلا أنهم كانوا أهل عقل وحكمة وسياسة وتدبير، وقد عرفوا أن الطريق إلى بيت المقدس لا بد أن يمر بدمشق.

ثانيًا: التحرير

وفي التحرير الصلاحي لبيت المقدس سنرى ذات السنة جارية مضطردة، فقد انبعث عماد الدين زنكي واستطاع أن يستقطع لنفسه إمارة في منطقة الموصل ثم حلب، ومن هذه البقعة بدأت معركة تحرير بيت المقدس مع الصليبيين، واستطاع عماد الدين زنكي أن يقضي على واحدة من الإمارات الصليبية، وهي إمارة الرها، ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك... لسبب بسيط، أنه لا بد له من دمشق! وهو

Readonly

الأمر الذي قُتِل قبل أن يحققه، ثم استطاع بعده ابنه نور الدين أن يحقق هذه الأمنية ويستولي على دمشق في عمليةٍ أشبه بالثورة الشعبية والانقلاب الناعم، وذلك في (٥٤٩هـ)، أي قبل أربع وثلاثين سنة من تحرير بيت المقدس.

واشتعلت بعدئذ معركة محمومة بين المسلمين بقيادة نور الدين وبين الصليبيين للسيطرة على القاهرة، وكانت آنئذ أثرى بلاد المسلمين وأغناها، وكانت تحت حكم العبيديين (الفاطميين)، وكان واضحًا للجميع أن من استطاع أخذ مصر فقد حسم المعركة لصالحه، وجرت فصول عديدة انتهت بقدرة نور الدين السيطرة على مصر في (٥٦٤هـ) أي قبل تسع عشرة سنة من تحرير بيت المقدس. وفي القاهرة استطاع نائب نور الدين ـ أسد الدين شيركوه، ثم صلاح الدين ـ إنهاء الدولة الفاطمية وتوحيد مصر والشام (٥٦٧هـ) أي قبل ست عشرة سنة من تحرير بيت المقدس.

ولكن نور الدين تُوفي، وجرت فصول كثيرة هددت الشام بالعودة إلى التمزق مرة أخرى، وحينئذ ردَّت مصر جميل الشام، فانطلق منها صلاح الدين ليعيد الوحدة المهددة، واستطاع أن يكون سيد الشام وأن يحرر دمشق من أمرائها الفاسدين الذين عادوا للتحالف مع الفرنجة (٥٧٠هـ) أي قبل ثلاث عشرة سنة من تحرير بيت المقدس.

عندئذ صارت مسألة بيت المقدس مجرد وقت، وهو ما تحقق فعلًا وتحررت (رجب ٥٨٣هـ) على يد سلطان مصر والشام الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي.

ما كان بالإمكان أن تتحرر بيت المقدس دون عواصم مصر والشام: القاهرة ودمشق، وما كان ممكنًا إخراج جيش التحرير وفي الشام أمراء يسيطرون على مدنها

Readonly

ومواردها ورجالها ويستطيعون عقد العهود والاتفاقيات مع الصليبيين، فيأكلون أموال البلاد والعباد ويجندونها في خدمة مصالحهم بل وفي خدمة الصليبيين.

لقد قضى صلاح الدين الأيوبي وحده في رحلة تحرير بيت المقدس عشرين عامًا، كانت ثلاثة أرباعها في تحرير الديار الإسلامية من الأمراء الفاسدين والمتعاونين مع الصليبيين في مصر والشام، وذلك أنه وصل إلى مصر ضمن جيش عمه أسد الدين (٥٦٤هـ) فقضى خمس سنوات في إصلاح حالها، ومنها تمدد إلى برقة والمغرب الأدنى وإلى اليمن كذلك، ثم جاءت وفاة نور الدين (٥٦٩هـ) لتهدد ما جرى إنجازه على يد أمراء الشام الذين أعادوا التواصل مع الصليبيين بل وأطلقوا لهم الأسرى وبذلوا لهم الجزية مرة أخرى، فنهض صلاح الدين من مصر ليعيد توحيد الشام، وظل في شغل بهذا الأمر لمدة أحد عشر عامًا حتى (٥٨٠هـ)، ولم يستغرق أمر فتح بيت المقدس بعد ذلك إلا ثلاث سنوات فقط، ثم قضى بقية عمره في التصدي للحملة الصليبية الثالثة حتى صدَّها ثم مات رحمه الله.

في المقال القادم إن شاء الله تعالى، نتعرض لتاريخ ضياع بيت المقدس في الحملات الصليبية، ثم ضياعه في الاحتلال الغربي المعاصر، لنرى اضطراد هذه السنة التي تجعل بيت المقدس كدرة التاج أو كموضع القلب من الضلوع، لا يُخلَص إليها إلا عبر منافذها من العواصم العربية المحيطة بها.

***

Readonly

سنن تاريخية في ضياع بيت المقدس

منع من النشر في اللحظات الأخيرة[١]

ذكرنا في المقال الماضي أنه: من خلال مطالعة تاريخ بيت المقدس ستظهر لنا سنة مضطردة خلاصتها أن بيت المقدس هو بمثابة القلب من الضلوع والتاج من المدن، وأنه لا يُوصل إليه إلا من خلال العواصم المحيطة به، وتناولنا في المقال الماضي محطات الفتح العمري والتحرير الصلاحي، وقد ظهر لنا منها أنه لم يمكن فتح بيت المقدس إلا بعد فتح دمشق، ولم يمكن تحرير بيت المقدس إلا بعد تطهير دمشق والقاهرة من الأمراء الفاسدين، وباتحاد مصر والشام صار تحرير بيت المقدس مسألة وقت.

في هذا المقال نتوقف عند محطات ضياع بيت المقدس، وهي ثلاث محطات كبرى: ضياعه في الحملة الصليبية الأولى، وفي الحملة الصليبية السادسة، ثم ضياعه قبل نيف ومائة عام في الاحتلال الإنجليزي.

في محطات الهزيمة سنرى أنه لم يتمكن الأعداء من الوصول إلى بيت المقدس إلا بعد أن ضرب الفساد والخيانةُ أو الاحتلال العاصمتيْن المهمتيْن حوله: القاهرة ودمشق. وفي مرحلة لاحقة: اسطنبول!

---

(١) كان المقرر أن ينشر هذا المقال في مجلة المجتمع الكويتية، عدد أغسطس ٢٠٢١، ولكن رئيس التحرير محمد سالم الراشد منعه من النشر وأوقف التعامل معي، بسبب تغريدة كتبتها أنتقد فيها راشد الغنوشي وسلوكه بعد الانقلاب عليه من قبل الرئيس التونسي قيس سعيد. وزعم أن المقال يخالف السياسة التحريرية! وهو أول من يعرف أنها دعوى كاذبة.

Readonly

الضياع الأول

عشية الحملة الصليبية الأولى انقسمت مصر والشام، فكانت مصر تحت حكم العبيديين (الفاطميين) وهم شيعة إسماعيلية، وكانت الشام تحت حكم السلاجقة وهم من أهل السنة، وقد انقسمت بلاد الشام ودخلت في النزاع بين السلاجقة والعبيديين، وقد كانت كلا الدولتين قد فقدتا أمراءها الأقوياء، فقد تفكك السلاجقة في الشام بعد السلطان القوي ملك شاه (ت ٤٨٥هـ = ١٠٩٢م)، ودخل العبيديون في ما يسمى بعصر الوزراء بعد ضعف الخلفاء، ثم زاد الوضع سوءًا حين تحالف العبيديون مع الفرنجة الصليبيين ضد السلاجقة، وهو التحالف الذي استفاد منه الصليبيون في الاستيلاء على شمال الشام، ثم سرعان ما غدروا بهم وانتزعوا بيت المقدس الذي كان في حوزة العبيديين آنذاك!

وهكذا ضاعت القدس حيث كانت العواصم القوية حولها في حال مزرية، فالخليفة الضعيف في بغداد، والأمراء السلاجقة الضعاف المتنازعون في الشام، والخليفة العبيدي الضعيف في القاهرة!! وستظل بعدها نحو مائة عام في ظل الاحتلال الصليبي والأقصى حظيرة خنازير!!

الضياع الثاني

ستبدو هذه السنة التاريخية واضحة في مسيرة الحملات الصليبية التالية، فلئن كانت الحملة الأولى قد نجحت في احتلال بيت المقدس، فلقد جاءت الحملة الثانية بعد تحرير الرها على يد عماد الدين زنكي، لكنها لما وصلت كان عماد الدين قد رحل وتولى الأمر من بعده ابنه نور الدين محمود الذي استطاع أن ينشئ تحالفًا مع حاكم دمشق، ومع أن دمشق كانت في هدنة مع الصليبيين إلا أنهم هاجموها

Readonly

أولًا ناقضين للعهد بينهما، وهو ما أجبر دمشق على الدخول في مواجهة الصليبيين، وأدى ذلك ـ مع أسباب أخرى ـ لإخفاق الحملة الثانية.

وأما الحملة الثالثة فقد جاءت بعد تحرير صلاح الدين لبيت المقدس، وكانت أضخم الحملات الصليبية وأشرسها، ولكنها جاءت وقد توحدت مصر والشام، وكانتا تحت سلطان صلاح الدين، فانتهت الحملة الكبرى إلى الإخفاق ولم تستطع أن تحتل بيت المقدس! وعاد ملوكها يجرون أذيال الخيبة!

وأما الحملة الرابعة فقد انحرفت ـ لظروف تخص الخلافات الأوروبية الداخلية ـ فبدلًا من أن تأتي إلى المشرق توجهت إلى القسطنطينية واستولت عليها.

وأما الحملة الخامسة فهي الحملة التي تثبت بوضوح هذه السنة التاريخية التي نتحدث عنها، لقد جاءت تلك الحملة بفكرة جديدة بعد قراءتها لأخبار الحملات السابقة، تلك هي السيطرة على مصر أولًا. لقد كان الدرس واضحًا: لن يمكن الاستيلاء على بيت المقدس ولا الاستقرار فيه دون السيطرة على مصر والاستيلاء على القاهرة. وقد نقل ابن واصل خبر تشاورهم فقال: «اجتمعوا للمشورة في ماذا يبدؤون بقصده، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولًا، وقالوا: إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولًا مصر ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد»[1].

من المؤسف أن صلاح الدين كان قد توفي، بل إن أخاه العادل سيف الدين توفي في أثناء الهجوم الذي شنته الحملة الصليبية على دمياط، وصار الشام إلى

(١) ابن واصل، مفروج الكروب، ٣/ ٢٥٨.

Readonly

عيسى بن العادل، وصارت مصر إلى محمد بن العادل الملقب بالملك الكامل.

وفي واقعة لها دلالاتها الكثيرة والقوية، عرض العادل على الصليبيين أن يرحلوا عن مصر في مقابل أن يسلم لهم كل ما حرره صلاح الدين من المدن بما في ذلك بيت المقدس، ما عدا الكرك والشوبك، وانقسم الصليبيون أمام هذا العرض فمنهم من وافق ورآها فرصة لا تقدر بثمن، ومنهم من رفض ورأى أنه لا يمكن الاحتفاظ ببيت المقدس دون الاستيلاء على مصر، وانتصر الرأي الأخير!

لم يجد الكامل إلا أن يقاوم، وبعد فصول طويلة استطاع جيشه وجيشا أخويْه اللذيْن قدما لنجدته أن يهزموا الحملة الصليبية الخامسة! ولقد كان بإمكان الكامل أن يبيد جيش هذه الحملة، إلا أنه لنفسيته المشبعة بالجبن والخور رفض أن يفعلها، وسمح لهم بالانسحاب سالمين.

يجب القول أيضًا إن سياسة الكامل والرفض الصليبي لعرضه يثبت ما نقول من أن القاهرة مفتاح بيت المقدس، وأنها ـ من المنظور السياسي والعسكري ـ أهم من بيت المقدس، وليست الأهمية هنا دينية وقدسية فالقدس أعظم لا شك، لكن ميزان القوة يُحسب من جهة الموارد والنفوذ: المال والرجال!

ثم ما لبث أن دبت الفرقة والخلاف بين الإخوة الثلاثة: الملك الكامل محمد في مصر وأخيه المعظم عيسى في الشام والأشرف موسى في شمال العراق وديار الجزيرة، فتحالف المعظم عيسى صاحب الشام مع جلال الدين الخوارزمي، فتحالف الكامل مع فريدريك الثاني صاحب الإمبراطورية الرومانية المقدسة والذي نشأ يتيمًا في صقلية، وعرض عليه التنازل عن بيت المقدس وما حرره صلاح الدين.

ومع أن المعظم عيسى مات سنة ٦٢٤، واستولى الكامل على مملكته بالفعل،

Readonly

ومع أن فريدريك محروم من قبل البابا، وكان الصليبون في الشام ضده وعرضوا على الكامل أن يحاربوه معه، ومع قلة عدده (٦٠٠ فارس) إلا أن الكامل أعطاه القدس!! أعطاه إياها لمجرد الوفاء بالوعد ولمجرد التحالف والصداقة!!

وهكذا استلم فريدريك بيت المقدس بستمائة فارس فقط، لم يحاربوا ولم يخسر منهم أحدًا، وبمجرد التفاوض، ودون أية مكاسب تعود على الكامل، في واحدة من أغرب قصص الخيانة في التاريخ!!

ومجاملة لفريدريك منع الكاملُ مؤذن بيت المقدس من الأذان حرصًا على عدم إزعاج صديقه وحليفه الملك فريدريك!! وأخبر الكامل صديقه فريدريك بأنه سَجَن أعظم علماء المسلمين الذين عارضوه في هذا التسليم!! وقد وجد الكامل من يفتيه بجواز تسليم بيت المقدس للصليبيين!!

وسجن الكامل كذلك واحدًا من قادة جيشه، سيف الدين بن أبي زكري، الذي قال له: اتحد مع أخيك وابن أخيك على هذا العدو، ولا يُقال أعطى السلطان الفرنج القدس[1]!! ثم إن الكامل فضّ اعتصامًا أقامه أهل القدس عند خيمته وقد حملوا معهم قناديل الأقصى وستائره!

وبعد وفاة الكامل، وفي خضم اشتداد المنازعات بين أبناء الإخوة الذين ورثوا عداوات أبيهم وتنقلت بينهم المعسكرات وتبدلت أحوالهم بصورة درامية بائسة ومثيرة للاشمئزاز، استطاع الناصر داود بن المعظم (عيسى بن العادل سيف الدين بن نجم الدين أيوب) أن يهاجم بيت المقدس فيحررها (٦٣٧هـ)، ولكنه نكاية في ابن عمه الصالح أيوب (بن الكامل محمد بن العادل سيف الدين بن نجم الدين

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين)، ص٢٢٤.

Readonly

أيوب) سلطان مصر، وتحالفًا مع عمه الصالح إسماعيل (بن العادل سيف الدين بن نجم الدين أيوب) سلمها للصليبيين مرة أخرى في عام ٦٤١هـ... بل وتعهد الصالح إسماعيل ـ قائد التحالف ـ للصليبيين بجزء من ديار مصر إذا انتصروا على سلطانها الصالح نجم الدين أيوب.

ومع أن المعاهدات بين هؤلاء الأمراء مع الصليبيين حين سلموا لهم بيت المقدس أن يحتفظ المسلمون بالسيادة على المسجد الأقصى وأن تقام الشعائر، إلا أن الصليبيين لم يأبهوا بهذا، حتى إن ابن واصل المؤرخ حين كان في سفارة ببيت المقدس نقل صورة الوضع هناك فقال: «دخلت بيت المقدس ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة، وعليها قناني الخمر برسم القربان، ودخلت الجامع الأقصى وفيه جرس معلق، وأبطل بالحرم الأذان والإقامة وأعلن فيه بالكفر»[١].

وفي النهاية استطاع الصالح أيوب، سلطان مصر، أن يقضي على خصومه من أبناء عمه، وأن يعيد توحيد مصر والشام، وتحالف مع الخوارزميين، ثم استطاع تحرير بيت المقدس (٦٤٢هـ)، وذلك في أعقاب انتصاره في معركة غزة على التحالف الذي ضم الأيوبيين الشوام مع الصليبيين، وقد وصفهم سبط ابن الجوزي بقوله: «(ساروا) تحت أعلام الفرنج وعلى رؤوسهم الصلبان، والأقساء فِي الأطلاب يصلِّبون على المسلمين ويقسقسون عليهم، وبأيديهم كاساتُ الخمر والهنابات يسقونهم»[٢].

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٥/ ٣٣٣.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٢٢/ ٣٨١.

Readonly

الضياع الثالث

ظلت بيت المقدس في يد المسلمين حتى الاحتلال الإنجليزي المعاصر، أي لمدة سبعة قرون، وفي هذه القرون السبعة كانت مصر والشام دولة واحدة، إما تحت السيادة المملوكية، أو تحت السيادة العثمانية، فكانت مسؤولية بيت المقدس ـ ومعها الحرمان الشريفان أيضًا ـ تقع على عاتق القاهرة ودمشق في العصر المملوكي، وعلى عاتق اسطنبول في العصر العثماني، واستطاعت الدولتان أن تقومًا بالمهمة خير قيام، فظل بيت المقدس وظل الحرمان الشريفان في حصن منيع!

ولم تضع بيت المقدس في التاريخ المعاصر إلا عندما ضعفت اسطنبول وضربها الفساد والوهن، وهي اللحظة التي استطاع فيها الاحتلال الإنجليزي أن يستولي منها على القاهرة ـ المدينة الثانية في الإمبراطورية العثمانية بعد العاصمة ـ، ومن القاهرة تحرك الجيش الإنجليزي الذي احتل بيت المقدس!! لقد كان الجيش الذي أسسه الإنجليز في مصر، والمعروف خطأ باسم الجيش المصري، هو الذي قاتل العثمانيين في الشام وفتح الطريق لاحتلال بيت المقدس.

وقبل الإنجليز كانت نفس المحاولة قد جرت على يد نابليون، احتل القاهرة أولًا، ومنها خرج بجيشه إلى الشام يريد بيت المقدس، لكن الظروف السياسية لم تساعده على إنجاز مهمته.

لقد جرى احتلال بيت المقدس بعد خمس وثلاثين سنة من احتلال القاهرة، واستعمل الإنجليز في احتلالها كل موارد مصر من مال ورجال بل حتى الخيول والحمير انتزعوها من المصريين ليخوضوا بها الحرب العالمية الأولى التي أسفرت عن غروب الدولة العثمانية وغروب بيت المقدس معها.

Readonly

وأدنى نظر في مذكرات هرتزل، مؤسس المشروع الصهيوني، سيخبرنا بذات السنة التاريخية التي نتحدث عنها، والتي يبدو أن هرتزل فقهها جيدًا، لقد كان هرتزل حريصًا للغاية على أن يؤسس دولة للصهاينة في بيت المقدس من خلال التأثير على قرار العواصم المهمة المتحكمة في مصيره من خلال نفوذها المباشر عليه مثل اسطنبول، أو من خلال نفوذها على اسطنبول مثل لندن وبرلين والفاتيكان وموسكو... ولكن هذا حديث طويل ومهم، ولعلنا أن نفرده في مقال آخر إن شاء الله تعالى.

* * *

Readonly

كيف تشكلت معركة الصراع الحضاري العالمي؟

نشر في «مجلة المجتمع الكويتية»

يونيو ٢٠٢١

بعد استعراض تاريخي وسياسي طويل، كان من بين ما استخلصه د. جمال حمدان ـ الجغرافي والمفكر المصري المعروف ـ خلاصة سماها المعادلة العالمية لأساسيات الصراع في المستقبل، هذه المعادلة العالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية على هذا النحو:

ـ «مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث.

ـ مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربي.

ـ مصير العالم العربي يتوقف على مصير فلسطين/ إسرائيل»[١].

إنه من الخطأ تصوّر أن المعركة في فلسطين هي مشكلة بين العرب والإسرائيليين، أو هي مشكلة بين المسلمين واليهود، بل ولا هي مشكلة أرض محتلة. بل التصور الصحيح لها أنها مركز الصراع الحضاري العالمي. وهذا التصور هو وحده ما يفسر كيف أن اشتعال المواجهة في فلسطين تتردد أصداؤه في عواصم الشرق والغرب، وتنفعل له الشعوب والحكومات، ويحظى باهتمامٍ لا تحظى به كوارث إنسانية أخرى في العديد من مناطق العالم.

أحاول في هذه السطور إلقاء الضوء على مسألة أن إسرائيل هي المولود الطبيعي للحضارة الغربية، تحمل خصائها وجيناتها، وأن الغرب إنما صنع هذه

---

(١) جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣م)، ص٣٥١.

Readonly

المشكلة ثم غرسها في بلادنا قسرًا وقهرًا، وتعهدها بالرعاية والعناية والحراسة، وذلك عبر استعراض تاريخي سريع موجز لجذور هذه النشأة.

منهج تصدير المشكلة

عانت أوروبا من الحروب الدينية المهلكة في عصورها الوسطى المظلمة، وتعددت المذابح التي نفّذتها السلطات الدينية في المخالفين، وابتكرت أوروبا محاكم التفتيش التي تمارس التعذيب الوحشي وتعاقب بالإحراق كلَّ من ثبت عنه اتباع الشياطين. واختلطت هذه الحروب الدينية بالصراعات السياسية، وبقدر ما لبست الأطماع السياسية ثوب الدين والروح الصليبية، بقدر ما ألهبت الروح الصليبية الحروب السياسية. ولأن العالم الإسلامي يحيط بأوروبا من جهتي الشرق والجنوب، ولا يوجد في الشمال والغرب إلا البحار، فإن أوروبا كانت تأكل نفسها ما دامت الدول الإسلامية قوية، فإذا ضعفت الدول الإسلامية بدأت أوروبا في التمدد إليها وتصدير مشكلاتها ومحاربيها وروحها الصليبية إلى الأراضي الإسلامية، وهو الأمر الذي ابتدأ في الحروب الصليبية شرقًا وفي اجتياح الأندلس والشمال الإفريقي غربًا وجنوبًا.

إسرائيل بنت الفكرة القومية

عبر فصول طويلة ومعقدة من الصراع الداخلي الأوروبي، توصل الأوروبيون إلى بعض الحلول لهذه المشكلات المزمنة والمهلكة. كان من بينها: فكرة القومية. والقومية ببساطة هي أن تكون أعراق الناس أو لغتهم هي معيار التقسيم بينهم، فأولئك الذين يجمعهم عرق وأرض، أو تجمعهم لغة وأرض، هم قوم من دون الناس.

Readonly

ومن هنا يُعَدّ صلح وستفاليا (١٦٤٨م) لحظة فارقة تاريخيًّا، حيث صارت الدول تعبيرًا عن قوميات، وصار لكل دولة سيادة، وصار الاعتداء على سيادة الدولة مبررًا لشن الحروب. وتراجعت منزلة الدين بحيث يكون محكومًا بالدولة، وبحيث تكون مصلحة الدولة فوق رؤية الدين، وتتولى الدولة منح حق المواطنة للأفراد بغض النظر عن اختلاف الدين.

ما يهمنا الآن أن هذه الفكرة القومية هي التي اعتمدت عليها الصهيونية في إنشاء وطن لليهود، إذ هم قوم بلا دولة، ولكي تنتهي المشكلات التي يعانيها اليهود في أوروبا وروسيا، أو يعانيها الأوروبيون والروس من اليهود، فيجب العمل على إنشاء دولة لليهود. وحيث لن تفرط أي دولة أوروبية في قطعة من أرضها لليهود، فقد بحثوا عن دولة يقيمها اليهود في إحدى الدول التي احتلتها أوروبا في إفريقيا أو آسيا. ثم انتهى التدبير إلى إقامتها في فلسطين.

وهكذا دفع العرب والمسلمون ثمنًا فادحًا للفكرة القومية التي ولدتها أوروبا لتحل بها مشكلاتها!

إسرائيل بنت البروتستانتية

ومن الحلول التي تمخض عنها الصراع الأوروبي الداخلي: فكرة التخلص من سيطرة الكنيسة، وهي الفكرة التي سميت بالإصلاح الديني الذي تمثل في البروتستانتية، أو ذهبت بعيدًا نحو التخلص من الدين كله والذي تمثل في: العلمانية.

لنبدأ بالبروتستانتية، التي هي الحاضنة الطبيعية للصهيونية غير اليهودية، وذلك أن مارتن لوثر في إطار محاربته لسيطرة الكنيسة وباباواتها وتفسيراتهم للدين، اتخذ مواقف وتفسيرات مضادة لهم ولتفسيراتهم، بل إنه أقدم على طباعة

Readonly

الكتاب المقدس، ثم تُرجم فيما بعد إلى اللغات القومية الأوروبية، وهي الخطوة الخطيرة التي فككت سيطرة الكنيسة وأضعفتها في أوروبا، ولكن الأخطر من ذلك ـ فيما يهمّنا نحن ـ أن الأفكار التي اعتنقها لوثر والبروتستانتية من بعده تؤكد على أن اليهود هم أصحاب فلسطين، وأنهم شعب الله المختار، وأنهم سيعودون إلى فلسطين، ثم يأتي المسيح بعد عودتهم لينصرهم وليقودهم في المعركة الكبرى هرمجدون، ليبدأ بعدها العهد الألفي السعيد.

وعبر مراحل تاريخية مختلفة سادت البروتستانتية على نصف ألمانيا وعلى هولندا، وسادت ـ وهذا هو الأهم ـ على بريطانيا ثم على أمريكا. ومن ثَمَّ صارت الأفكار الدينية السائدة في هذه الأنحاء هي حجر الأساس والبيئة المناسبة التي استثمرتها الحركة الصهيونية وطوَّرت مشروعها اعتمادًا عليها. لقد بذل هرتزل وحاييم وايزمان ـ وخصوصًا هذا الأخير ـ مجهودًا مضنيًا في التمكين للصهيونية من هذا الباب، ولكن هذا المجهود المضني اعتمد أساسًا على الأفكار التي تختمر لثلاثة قرون في أوروبا منذ عصر مارتن لوثر وحتى القرن العشرين، والتي أنتجت كثيرًا من الأدبيات والمؤلفات والأشعار بل والمبادرات الفردية والصغيرة للهجرة إلى فلسطين، بل والمحاولات السياسية غير المكتملة لإنشاء وطن لليهود في فلسطين.

وهكذا دفع العرب والمسلمون ثمنًا فادحًا للإصلاح الديني الذي ولدته أوروبا كحل لمشكلة السيطرة الكنسية على شعوبها!

إسرائيل بنت العلمانية

ثم نأتي لحل العلمانية الذي أخرجته أوروبا في إطار تخلصها من سيطرة

Readonly

الكنسية، فمن لم يخرج من الكاثوليكية إلى البروتستانتية، فإنه خرج من سيطرة الكنيسة إلى العلمانية، ليتخلص من سيطرة الدين تمامًا، وظهرت في أوروبا الدول العلمانية التي لم تتخلص تمامًا من روحها الصليبية، وإنما استثمرت هذه الروح في التمكين لمصلحة الدولة وإلهاب معنويات الجيوش التي تحتل البلاد الأخرى، وفي تنصير الشعوب الأخرى لتضمن خضوعها وتسلب منها مقاومتها إلى الأبد.

وما يهمنا في هذا أن النزعة العلمانية بطبيعتها نزعة لا أخلاقية، فقد سعت العلمانية الغربية إلى حل مشكلات الداخل الأوروبي بتصديرها إلى البلاد المحتلة، وسعت إلى استثمار الحركة الصهيونية التي تحث على هجرة اليهود من أوروبا ليتحقق بذلك مصلحة التخلص من اليهود في الغرب، ومصلحة تمزيق الأمة الإسلامية بإنشاء دولة في قلب الأرض الإسلامية تكون بمثابة القاعدة الغربية العسكرية المتقدمة، التي تستنزف الطاقة الإسلامية وترتبط ارتباطًا حتميًّا بالأب الغربي. وقد استفادت الصهيونية من هذه النزعة، فوضعت نفسها في إطار النزعة الإمبريالية الغربية، وطرحت نفسها باعتبارها المشروع الأنسب الذي يوفر على الغرب الحروب المباشرة والسيطرة المباشرة في المنطقة، مع تخليصهم من المشكلة اليهودية، لتكون إسرائيل هي المشروع الغربي الاستعماري الذي يستحق الاستثمار فيه، لتحقيق أفضل النتائج بأقل التكاليف المباشرة.

وهذا هو معنى أن إسرائيل «دولة وظيفية»، تلك الفكرة التي أطال المفكر المعروف عبد الوهاب المسيري في شرحها والتنظير لها، سواء في موسوعته عن الصهيونية أو في كتاباته الأخرى التي تناقش العلمانية وتجعل الصهيونية ثمرة من ثمار العلمانية المادية.

Readonly

ومن أوضح ما يدل على الطبيعة اللا أخلاقية للعلمانية الغربية، أنها دعمت إنشاء وطن قومي لأصحاب دين بعينه، وسهرت على حراسة هذه الدولة الدينية العنصرية، في خيانة ظاهرة لكل المزاعم العلمانية التي تتحدث عن حقوق المواطنة وعن مناهضة العنصرية وعن عدم التفريق بين المواطنين على أساس العرق واللون والدين.

وهكذا دفع العرب والمسلمون ثمنًا فادحًا للعلمانية التي أنتجتها أوروبا كحل لمشكلة السيطرة الكنسية على شعوبها!

إسرائيل بنت الاحتلال

بقي أخيرًا أن نشير إلى أن إسرائيل هي بنت الحضارة الغربية عمليًا، فما كان للصهيونية أن تتحول إلى دولة بغير الدعم الهائل المتعدد الأنواع والمستويات: سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا وأمنيًا وعلميًا وحتى ثقافيًا.

لقد كان المشروع الإسرائيلي على جدول أعمال القادة الغربيين على اختلاف أنواعهم ورؤاهم، منذ نابليون مرورًا بدزرائيلي وبالمرستون ولويد جورج وبلفور وصولًا إلى ترمب وبايدن. إن دعم إسرائيل هو واحد من ثوابت السياسة الدولية الغربية مهما تغيرت الوجوه والمذاهب. ولا تضطرب العلاقة بين إسرائيل وأمهاتها الغربية: فرنسا وبريطانيا وأمريكا حتى في اللحظات التي يعمل فيها الإسرائيليون ضد مصالح هذه الدول.

وفي سبيل إنشاء إسرائيل وحمايتها، رسمت الدول الكبرى منذ بريطانيا وحتى أمريكا سياستها تجاه الأنظمة العربية المهمة، لا سيما أنظمة دول الطوق، وأشرفت على تنصيب هذه الأنظمة وعلى تدريب جيوشها وتسليحها، ورسم سياساتها، حتى

Readonly

صار المتطلع في بلد ما إلى منصب سياسي يعلم بالبديهة أن الطريق يمر عبر إسرائيل، فيجتهد في نيل الرضا الإسرائيلي وتقديم ما يثبت أن الإسرائيليين سيكونون معه في حال أفضل من حالهم مع غيره. وهذه قصة تطول وتستغرق الفصول والفصول، أقلها معروف مكشوف وأكثرها مغمور مجهول.

خلاصة

لهذا كله، فإن المعركة في فلسطين ليست معركة الفلسطينيين، ولا هي مجرد قصة احتلال، بل هي مركز الصراع الحضاري العالمي، الذي يترتب عليه ويتغير به الوضع العالمي كله، إن المعركة هناك تختزل صراع الحق والباطل، صراع المستضعفين والمستكبرين، صراع الشعوب والطغاة!

إنها ليست حروبًا صليبية جديدة، إنها امتداد الحروب الصليبية، بعدما أضيف إليها الروح الصهيونية، والنزعة العلمانية المادية!!

إنه الصراع المركب المتعدد الطبقات والمستويات، ولذلك تجد هذا الصراع كاشفًا للغاية، فكلما تجدد كلما تمايز الناس به إلى طائفتين متقابلتيْن، لا يلتقي أحدهما مع الآخر ولو امتزج الزيت بالماء!

* * *

Readonly

Readonly

قراءات في واقع بيت المقدس

أثمر التاريخ الذي ألمحنا في الفصل الماضي إلى بعض فصوله واقعًا مريرًا، بلغ ذلك ذروته في ديسمبر ٢٠١٧ حين أصدر الرئيس الأمريكي دونالد ترمب قراره الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل، ويترتب على ذلك نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، وهو القرار الذي يركل وبغير تردد قرارات الأمم المتحدة «ممثلة الشرعية الدولية»، وقد أثار ذلك عاصفة من الانتقادات التي عجزت أن تتحول إلى فِعْل، لأن طبيعة الأنظمة العربية المصممة أساسًا لحماية إسرائيل حالت دون أي خروج عن السياق، وفي ذلك الوقت كتبتُ المقالات الثلاث الأولى في هذا الفصل، ثم ضممتُ إليها مقالين كتبتهما في وقت سابق في ذات الموضوع: موضوع واقع بيت المقدس! وهذه عناوينها:

- معكر صفو الأنس في سيرة سلب القدس
- بعض ما قدمته مصر لفلسطين
- أشدّ رهبة في صدورهم من الله
- مائة عام على مولد يوشع براور ومحمد الغزالي
- ذكريات كثيرة ودرس مفقود

* * *

Readonly

مُعَكِّر صَفْوِ الأُنْس في سيرة سلْب القدس

نشر في «مدونات الجزيرة»

ديسمبر ٢٠١٧

حذر قادة العرب جميعًا من تداعيات قرار ترامب على السلام والاستقرار في المنطقة. في الحقيقة لم يكن تحذيرهم هذا فارغًا، إنما كان تحذيرًا جادًّا، فهم يخافون من أن يؤدي القرار إلى هبة شعبية ضدهم تقلقل استقرار عروشهم. وهم يعرفون كما يعرف ترامب ونتنياهو أن عروشهم هي التي تحفظ أمن واستقرار إسرائيل. فهم على الحقيقة يقدمون نصيحة مخلص مشفق بأن تلك القرارات قد تكون من الرعونة بحيث تهدد منظومة الحراسة التي تسهر على حماية إسرائيل.

يعرف ترامب ونتنياهو هذا، لكن حسبة الأمور لديهم تفيد أنهم في لحظة يمكنهم معها اتخاذ مثل هذا القرار دون كبير خوف، فما جرى في السنوات الماضية من قمع الثورات وتثبيت الأنظمة الخيانية يجعل الثمرة قريبة وممكنة، كيف لا وقد صار رئيس مصر «البطل القومي لليهود» كما وصفته الصحافة الإسرائيلية! وكيف لا وقد كتب سعودي من بلاد الحرمين «لك العتبى يا نتنياهو حتى ترضى»! ضمن طوفان التطبيع المحموم الذي يجتاح أرض الحرمين؟!

هو فصل جديد في مسلسل قديم...

بدأ المسلسل مع نهاية الحروب الصليبية، حيث اكتشف الصليبيون منذ الحملة الخامسة أن احتلال بيت المقدس يبدأ باحتلال القاهرة، فلقد اكتشفوا أن مصر قادرة دائمًا على إمداد الشام بالمال والرجال، ومنذ اتحدت مصر والشام على يد نور الدين صارت مسألة تحرير بيت المقدس مسألة وقت. وبالفعل: نزلت الحملة الصليبية

Readonly

الخامسة إلى مصر فهُزِمت، ودخلت الحملة السادسة إلى القدس باتفاقية خيانية مع سلطان مصر الكامل الأيوبي (تشبه كامب ديفيد وأوسلو الآن) وتكسرت الحملة السابعة في مصر أيضًا. ثم انطلقت من مصر جيوش المماليك حتى طهرت الساحل الشامي من كل الوجود الصليبي، ثم طاردت فلول الصليبيين في قبرص ورودس.

عندئذ كلفت الكنيسة المؤرخ الإيطالي مارينو ساوندو تورسيللو ليؤرخ للحملات الصليبية، فكتب في نهاية تأريخه وصية لمن سيحاول غزو الشرق مرة أخرى خلاصتها: أن يبدأ بمصر أولًا، وهي النصيحة التي استمعت لها أوروبا فكانت موجتها الثانية من الحملات الصليبية تبدأ بمصر ثم تتوغل إلى بيت المقدس، هكذا فعل نابليون في الحملة الفرنسية، وهكذا فعل الإنجليز من بعده[1]... وبعد خمس وثلاثين سنة من احتلال القاهرة دخل الإنجليز إلى بيت المقدس، ثم بعد ثلاثين عامًا أخرى سلموها إلى إسرائيل.

فهْم التاريخ هو مفتاح فهمنا للحاضر وطريق بحثنا عن الحل في المستقبل، والتاريخ يقول بأن احتلال بيت المقدس لم ينجح إلا باحتلال العواصم المحيطة به أولًا، كما أن تحريره لم يكن إلا بتحرير العواصم المحيطة به كذلك، لقد فتح المسلمون دمشق قبل فتح بيت المقدس، ولولا الخيانة العبيدية (الفاطمية) في القاهرة ما أمكن للصليبيين احتلال بيت المقدس، ثم لولا تحرير دمشق ثم القاهرة وتحريرهما من أمراء الخيانة ما تم لصلاح الدين تحرير بيت المقدس، ولم يُحرر الساحل الشامي

---

(١) عباس مصطفى عمار، سيناء: المدخل الشرقي لمصر، ط٢ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، يوليو ٢٠١٤م)، ص١٠ (مقدمة وليد نويهض). والجزء الأخير من كتاب المؤرخ الإيطالي ترجمه إلى العربية الأب سليم رزق الله بعنوان «كتاب الأسرار في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها»، وصدر في بيروت عن مؤسسة الريحاني عام ١٩٩١م.

Readonly

إلا لما كانت القاهرة مستقلة متحررة تحت حكم المماليك العظام، ثم لم تسقط القدس مرة أخرى إلا بعد احتلال القاهرة ودمشق وانهيار الدولة العثمانية.

ولقد كانت فطرة الشعوب أنقى من عقول النخبة والمثقفين، ففي ميادين الثورات العربية ارتفعت أعلام فلسطين، وبات الجميع يدرك أن نجاح الثورات يساوي قرب تحرر بيت المقدس، وهي تلك اللحظات التي فزع فيها الإسرائيليون لسقوط كنزهم الاستراتيجي، وما إن اهتز كرسي بشار حتى صاح رامي مخلوف بأن سقوط النظام في سوريا يمثل تهديدًا لأمن إسرائيل. كل واحد من أولئك الحكام يعرف أن مهمته حماية إسرائيل، وهو عند الخطر يساوم بها ويهتف في توسل وتهديد: لن تجدوا أفضل مني في القيام بالمهمة.

من هنا ترى حكام العرب يحذرون من تداعيات قرار ترامب، ولأنهم في وجه المدفع فهم أكثر فزعًا ورعبًا، بينما السيد الكبير في البيت الأبيض يختبر بهذه القرارات مدى نفعهم وفائدة الاستثمار فيهم...

تروي جولدا مائير في مذكراتها أن مبعوثًا خاصًّا بين الإسرائيليين وبين عبد الناصر عرض على عبد الناصر زيارة إسرائيل، فقال عبارته الكاشفة والتي تعبر عن حقيقة مواقف الحكام العرب المصنوعين على أعين الاستعمار: «لو أن بن جوريون جاء إلى القاهرة للتحدث معي فسوف يعود بطلًا، أما إذا ذهبت إليه أنا فسوف أُقْتَل عند عودتي». ثم استمرت جولدا مائير في رواية اللقاءات السرية مع الملك عبد الله ملك الأردن الحليف الوثيق الذي تعهد لهم بشرف مثلث أن يكون نصيرًا لهم، لا سيما وأن لديهم عدوًّا مشتركا هو «أمين الحسيني»[1]!!

---

(١) جولدا مائير، اعترافات جولدا مائير، ترجمة: عزيز بيومي، (القاهرة: دار التعاون، د. ت)، ص١٧٦ وما بعدها.

Readonly

لن تهتز ثقتي بالأمة قيد شعرة لو أن إعلان ترامب هذا لم يفجر المظاهرات في الشوارع أو الانتفاضة في فلسطين، فلقد عرفت الأمة طريقها الوحيد والصحيح لتحرير القدس، وهو طريق نجاح الثورات وإسقاط الأنظمة الحارسة لإسرائيل، فتلك هي المعركة الحقيقية الصعبة الشرسة لا ذلك المسلسل الذي كانوا يسمحون لنا فيه بشبه مظاهرات تنفيسية تهتف وتصرخ ثم تعود بعد استهلاك طاقتها، ولا تلك الأغاني والمقالات الصحفية التي يكتبها ويغنيها ويلحنها أعداء حرية الشعوب ومن كانوا دائمًا في صف الطغيان ضد التحرر.

إن القدس لمن عشقها حقًّا، وبذل في سبيلها ما استطاع... وأولئك الذين أسسوا إسرائيل مهما أبغضناهم فلا نملك إلا أن ننصفهم فنقول بأنهم بذلوا مجهودًا هائلًا وتخطوا عراقيل عظيمة في سبيل الوصول إلى القدس. وإني لأتخيل هرتزل ونوردو، ووايزمان، يحلمون بإنشاء دولة لليهود في فلسطين... يعزمون على التخطيط لأمر يغير الخرائط والواقع والسياسة والاقتصاد... تصطدم فيه دول وامبراطوريات وتهلك فيه أطنان الأموال وتُسفك دونه بحور الدماء، تُزاح فيه عشرات الألوف أو مئات الألوف من قراها وأرضها، لتنقل إليها مئات الألوف والملايين من سائر أنحاء العالم، يُنتزعون من أموالهم وديارهم ووظائفهم ومجتمعاتهم، مسألة تهلك فيها العقول في دوائر السلطة لإقناع هذا وتحفيز هذا وتسكين هذا وخداع هذا ورشوة هذا واختراق هذا واغتيال هذا وتخدير هذا ...إلخ! ومع ذلك... فعلوها، ونجحوا... مهما كره المرء شرهم ودمويتهم فلا يملك إلا الإعجاب الكبير بهذا العزم الحديدي، والتخطيط الشديد، والأمل البعيد...

وأي مقارنة بين هؤلاء وبين من يحكموننا الآن، بل حتى بين من تصدروا لقيادتنا تجعل البصر يرتد خاسئًا وهو حسير، فقر في الخيال وفقر في الهمة

Readonly

وفقـر فـي الجسـارة وفقر فـي تعلم الـدروس، ظلمـات بعضها فـوق بعض!

متى صارت القدس عاصمة إسرائيل على الحقيقة؟!

ربما سيندهش الكثيرون حين يسمعون الإجابة! لكنها إجابة كاشفة تفضح فارق التعلق بالقدس، وفارق الجسارة والمبادرة...

تروي جولدا مائير في مذكراتها أن بن جوريون لم ينتظر حتى يعطيه أحد إذنًا أو شرعية بأن تكون القدس هي العاصمة، فمنذ نهاية ١٩٤٩ أصدر قرارًا بنقل مكاتب الحكومة من تل أبيب إلى القدس، وفي القدس أدى وايزمان القسم عند توليه رئاسة الدولة، وهذا بالرغم من توصية اللجان الخاصة والأممية بعدم ضم القدس إلى أي من الدولتين. ولم يأبه بن جوريون بقرار الأمم المتحدة بتدويل القدس (ديسمبر ١٩٤٩م)، بل أصر على قراره رغم أن أصواتًا داخل إسرائيل حذرت من مغبة هذا العمل الذي قد يفقد إسرائيل غطاء الشرعية الدولية، وانتقلت سائر الحكومة إلى القدس ما عدا وزارة الخارجية التي اضطرت للبقاء في تل أبيب حيث تقيم البعثات الدبلوماسية الأجنبية.

وهكذا بادر بن جوريون فجعل القدس عاصمته وقت أن كان ترامب في الثالثة من عمره!!

ثم تروي جولدا مائير كيف أنها انتقلت على الفور إلى القدس، وأنها فضلت السكنى في غرفة صغيرة فوق سطح منزل... غرفة لا تليق بالوزيرة إطلاقًا، فضلًا عن أنها قريبة من الحدود وفي مرمى الخطر. وظلت فيها شهورًا حتى بُنيت لها شقة تطل شرفتها على تلال القدس[١]!

---

(١) جولدا مائير، اعترافات جولدا مائير، ص٢١٣، ٢١٤.

Readonly

إن معادلة التعلق بالقدس واضحة في أذهان سائر من فكروا بصدق في تحريرها، منذ أيامها الأولى، ففي عام ١٩٥٣، ألقى سيد قطب محاضرة في شعبة الإخوان بالقدس (الشرقية) قال فيها: «نحن لا نريد من الجيوش العربية أن تحرر فلسطين، نحن نريد أن يسمح للمجاهدين بأسلحة خفيفة، هؤلاء هم الذين سيحررون فلسطين»[١].

كان يعرف أن العسكر لن يحرروا وطنًا سليبًا، كانوا هم سبب سلبه، وهم حماة سالبه... بعده بنحو عشرين سنة قالها أمل دنقل شعرًا سائرًا:

قلت لكم مرارا:

إن الطوابير التي تمر... في استعراض عيد الفطر والجلاء

فتهتف النساء في النوافذ انبهارا...

لا تصنع انتصارا...

إن المدافع التي تصطف على الحدود، في الصحارى

لا تطلق النيران... إلا حين تستدير للوراء

إن الرصاصة التي ندفع فيها... ثمن الكسرة والدواء

لا تقتل الأعداء

لكنها تقتلنا... إذا رفعنا صوتنا جهارا

تقتلنا، وتقتل الصغارا!

قلت لكم في السنة البعيدة

---

(١) إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء: سيرة ذاتية، ط٢ (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠١٥)، ص٤٨.

Readonly

عن خطر الجندي... عن قلبه الأعمى، وعن همته القعيدة

يحرس من يمنحه راتبه الشهري

وزيه الرسمي

ليرهب الخصوم بالجعجعة الجوفاء... والقعقعة الشديدة

لكنه... إن يحن الموت فداء الوطن المقهور والعقيدة...

فر من الميدان، وحاصر السلطان، واغتصب الكرسي

وأعلن «الثورة»... في المذياع والجريدة!

قلت لكم كثيرًا

إن كان لابد من هذه الذرية اللعينة

فليسكنوا الخنادقَ الحصينة

متخذين من مخافر الحدود... دُورا

لو دخل الواحدُ منهم هذه المدينة

يدخلها... حسيرا

يلقى سلاحه... على أبوابها الأمينة

لأنه... لا يستقيم مَرَحُ الطفل، وحكمة الأب الرزينة

مع المُسَدّس المدلّى من حزام الخصر

في السوق... وفى مجالس الشورى

* * *

Readonly

بعض ما قدمته مصر لفلسطين

نشر في «مدونات الجزيرة»

ديسمبر ٢٠١٧

يعزف الإعلام المصري نغمة قديمة مكرورة بأن مصر دخلت أربعة حروب من أجل فلسطين! وقدمت للقضية ما لم يقدمه أحد في الأولين والآخرين، ثم يخلصون إلى المُراد فيقولون بأن واجب المرحلة هو الالتفات للمصالح الوطنية والتي تقتضي ـ طبعًا! ـ التعاون مع إسرائيل.

لا يكلف أحد نفسه ليسأل السؤال البسيط البديهي: ما هي الحروب التي خاضتها مصر من أجل فلسطين؟... عندئذ تتبخر الحروب الأربعة فلا تبقى إلا حربًا واحدة هزيلة هي حرب ١٩٤٨، ولقد هُزِم فيها الجيش المصري هزيمة أضاع بها فلسطين، فلو أنهم لم يدخلوا لما وقعت الهزيمة على هذا النحو الكارثي... وأما بقية الحروب فقد كانت على أرض مصر وكانت هزائم أيضًا، والحرب الوحيدة التي يفتخرون بها لم يفكر مخططوها في فلسطين أصلًا ثم انتهت في أحسن أحوالها بالتعادل أو بالانتصار الإسرائيلي طبقًا لما آلت إليه الأوضاع فيما بعد.

ما لا يقولونه في الإعلام المصري هو ذلك المجهود الذي بذلته السلطة المصرية في إقامة وترسيخ الوجود الإسرائيلي وحمايته من المصريين والفلسطينيين على السواء، منذ بداية التفكير فيه حتى لحظة كتابة هذه السطور... هذا ما نسوق إليك شذرات سريعة منه:

Readonly

السياسة المصرية

عندما مرَّ آرثر بلفور ـ صاحب الوعد المشهور بدولة يهودية ـ بالقاهرة في طريقه لافتتاح الجامعة العبرية (١٩٢٥م) هتف ضده مجموعة من الفلسطينيين، لكن مصيرهم كان الاعتقال على يد وزير الداخلية إسماعيل صدقي!! كان صدقي وزيرًا في حكومة أحمد زيور باشا، زيور هو الذي أوفد أحمد لطفي السيد ـ رئيس الجامعة المصرية حينها ـ كمندوب من قبل الحكومة المصرية لحضور حفل افتتاح الجامعة العبرية! وأما طه حسين فقد أرسل برقية تهنئة، لكنه فيما بعد زار القدس بدعوة من الجامعة العبرية والسير رونالد ستور (الحاكم العسكري البريطاني للقدس)، وأرسل إلى الجامعة العبرية طالبًا مصريًّا لاستكمال الدراسة فيها متحايلًا على القوانين التي تمنع هذا!

وحين اشتعلت ثورة البراق في فلسطين (١٩٢٩م) وقفت الحكومة المصرية برئاسة محمد محمود باشا ضد ثورتهم وهددت صحيفة «السياسة» التي هي لسان الحكومة حينها الفلسطينيين في مصر بالطرد؛ لأنهم يثيرون الفتنة الطائفية ويهيجون الرأي العام.

وفي (١٩٣٠) شن إسماعيل صدقي ـ رئيس الوزراء الجديد ـ حملة واسعة ضد الحركة الوطنية المصرية، فكان من بينها إغلاقه جريدة «الشورى» الفلسطينية التي كانت تصدر في مصر، فيما بقيت صحيفة «إسرائيل» لم يمسسها سوء، وكانت الصحيفة الناطقة باسم الحركة الصهيونية. ثم شاركت حكومة صدقي في معرض تل أبيب الصهيوني (ربيع ١٩٣٢م) ضاربة عرض الحائط بالنداءات المعارضة، ثم عادت معروضاتها كما هي لم يُبع منها شيء إذ قاطع الفلسطينيون المعرض ولم يشتر اليهود منها شيئًا!

Readonly

وفي ذروة الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦م) والتي بدأت بالإضراب العام الكبير وافق مصطفى النحاس على سفر مئات العمال المصريين إلى فلسطين لسد العجز الذي تسبب فيه الإضراب.

ولما ذهب محمد محمود، رئيس الوزراء، إلى أوروبا (١٩٣٨م)، وسأله محرر الديلي ميل عن نواياه في مسألة فلسطين ضمن مفاوضاته مع الإنجليز، فرد عليه قائلًا: «أنا رئيس وزراء مصر، ولست رئيس وزراء فلسطين».

وأما الملك، فموقفه لا يختلف عن مواقف الرئيس المصري فيما بعد، هو ينطلق من أنه المحتكر لقضية فلسطين، المهاجم لكل من يحاول الدخول على خطها، لكنه مع هذا لا يفعل لها شيئًا، كالمثل القائل: لا يرحم ولا يعجبه أن تنزل رحمة الله. فمنذ أن فشلت خطة فؤاد في التلقب بلقب الخلافة (فبريطانيا ترفض بحسم، وهيجت كل أبواقها الإعلامية العلمانية على اختلاف مشاربها ضده) نزع نفسه من كل سياق إسلامي، ورفض الاشتراك في المؤتمر الإسلامي (١٩٣١م) في القدس. وكان موقفه كما عبرت عنه صحيفة القصر «الاتحاد» هو: «وجوب انتقال الداعين [للمؤتمر] إلى مصر لمقابلة أهل الحل والعقد فيها والاتفاق على طريقة الاجتماع وتحديد موعده ووضع برنامجه».

الإعلام المصري!

ولقد كانت الصحافة المصرية تشهد الأصوات نفسها التي نراها الآن في الإعلام المصري، ففي أثناء ثورة البراق كتب عبد الله عنان في جريدة السياسة الأسبوعية يستنكر أسلوب العنف الذي لجأ إليه الشعب الفلسطيني، ونصح كلًّا من العرب واليهود بالاعتدال (= ضبط النفس!) ودعا العرب إلى الاتحاد والجهاد

Readonly

السلمي المستمر، كما دعا اليهود إلى طمأنة العرب بأن وطنهم القومي ما هو إلا معنى متواضع وفي دائرة محدودة، وأنه ينشد إقامة الوئام والتفاهم (= السلام والتعايش!) مع أصحاب البلاد. ومثله تكلم محمد حسين هيكل.

وقد تناغمت الصحافة الإسرائيلية مع هذا الخطاب (تمامًا كما يتناغمون الآن مع يوسف زيدان مثلًا) فأرسلت صحيفة هآرتس ردًّا نشرته صحيفة السياسة تؤكد فيه «أسفها الشديد لأنها أول مرة فقط تسمع صوتًا مستنيرًا في العالم الإسلامي يشجب سياسة العنف التي يسلكها الشعب الفلسطيني لتحقيق أمانيه»! وردت صحيفة إسرائيل على مقال حسين هيكل واصفة إياه بأنه «خير ما كتب إلى الآن باللغة العربية بأسلوب بريء من الهوى وروح الإخلاص».

وقد تبنت جريدة «السياسة» أسلوب النضال السلمي والقانوني واللجوء إلى التحكيم الدولي وترك العنف، ومن ثم أخذت في مهاجمة حركة المقاومة الفلسطينية، وصارت ترمي قياداتها بافتقادها لشروط الزعامة، وبأنها تضم خليطًا من العناصر المفككة المتناقضة، وأنه ليس لديها برنامج وطني واضح ...إلخ!

وأما جريدة القصر (السراي)، فقد بلغت مرحلة أعلى، حيث اعتبرت أن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين هو الحل لمشكلات فلسطين، حيث سيأتون معهم بالنمو والازدهار ورؤوس الأموال، وأن الحل هو في اتفاق العرب واليهود فيما بينهم ليتم لهم النعيم، بل وزعمت الصحيفة أن الفئات العربية المتطرفة قد بدأت تقتنع بهذا الحل، لا سيما بعدما بدأ الفلسطينيون يعايشون اليهود وصاروا أكثر تقبلًا للتفاهم معهم.

Readonly

الجيش المصري

الحرب الوحيدة التي يمكن القول بأن مصر خاضتها لأجل فلسطين هي حرب ١٩٤٨، وقد كان إنجاز الجيش المصري «العظيم» فيها أنه انطلق بلا عدة ولا خطة ولا معلومات، توغل إلى تل أبيب بلا مقاومة، ثم جاء اليهود من خلفه فحاصروه وقطعوا الإمدادات عنه، فبقي محاصرًا، حتى جاءته أوامر الانسحاب فانسحب... وأثناء الحصار استولى على الأقوات والطعام والممتلكات من أهل القرى وجردهم من سلاحهم فتركهم عزلًا أمام اليهود. ثم هو لم يدخل إلا بعد ١٥ مايو، أي بعد إعلان إسرائيل، تحت سمع بريطانيا وبصرها.

فالخلاصة أنه دخل وخرج ليتمم الهزيمة ويرسخ الوجود الإسرائيلي ويعود إلى دوره الجديد: ممارسة الانقلابات... حيث سيقود عبد الناصر انقلابًا وهو يرفع شعار فلسطين ليسحق البلاد والعباد ثم يموت وقد ترك إسرائيل عند قناة السويس[١]!

* * *

(١) مصادر المقال:

د. عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، ص٩١ وما بعدها، ١٠٧ وما بعدها.

سوزان طه حسين، معك (مذكرات زوجة طه حسين)، ترجمة: بدر الدين عروكي، مراجعة: محمود أمين العالم، ط١ (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٥م)، ص٨٠، ١٥٤.

مجلة النذير، العدد ٩، ٢٧ جمادى الأولى ١٣٥٧ (= ٢٥ يوليو ١٩٣٨م)، ص٦، ٧.

Readonly

أشدُّ رهبة في صدورهم من الله!

نشر في «مدونات الجزيرة»

ديسمبر ٢٠١٧

كررت مندوبة أمريكا في الأمم المتحدة جملة «السماء لم تسقط»، كانت ترد على الدول التي تخوفت من تبعات قرار ترامب، كانت تقول لهم: ما توقعتموه لم يحدث، لا تزال السماء في مكانها، ولم يحدث شيء. قرأ كثيرون في هذا التصريح سخرية من قدرة العرب على الرد... ونعم! لديهم حق. إلا أن أمرًا آخر يجب أن ننتبه إليه أيضًا... هو موضوع هذه السطور القادمة.

كثيرًا ما يخرج لي إذ أقلب صفحات التاريخ أمورٌ لا أعرف لها تفسيرًا سوى حديث النبي ﷺ «نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر»، فعلى الرغم مما ننظر به لأنفسنا من العجز والضعف وقلة الحيلة ـ وكل هذا حق ـ إلا أن عدونا يحسب لنا حسابًا فوق ما نحسبه نحن لأنفسنا.

خذ هذا الموقف الذي بين أيدينا مثلًا، ما الذي يدفع دولًا غربية لا شك في ميلها لإسرائيل ولا شك في عداوتها للعرب والمسلمين أن تندد بقرار ترامب وتتخوف من آثاره؟ بل ما الذي يدفع رؤساء أمريكا أنفسهم لتأجيل تنفيذ القرار منذ أقره الكونجرس قبل ٢٧ سنة؟!! بل وما الذي يدفع ترامب نفسه لاستطلاع رأي السيسي وسلمان قبل أن يقدم على إعلان قراره ويضمن منهما أن الأمور لن تشتعل بما يخرج عن السيطرة؟! بل وما الذي يدفع الكونجرس أن ينتظر نحو أربعين سنة قبل أن يعترف بالحقيقة العملية، فإسرائيل تتعامل مع القدس كعاصمة لها منذ بن جوريون وقت أن كان ترامب نفسه في الثالثة من عمره؟! كما ذكرنا في مقال سابق.

Readonly

ثم ما هي إلا ساعات وصدر تصريح يحاول امتصاص الغضب عن أن نقل السفارة لن يكون قبل عام أو عامين!

ومن قبل هذا نسأل السؤال الذي طاف برأس كل من قرأ تاريخ الحروب الصليبية: لماذا لم تقدم إسرائيل على ما أقدم عليه الصليبيون من قبل... جعلوا الأقصى حظيرة خنازير؟! لا يزال الصهاينة رغم كل مكرهم ومحاولاتهم يحرصون على تأجيل سائر تنفيذ مخططات هدم الأقصى وإقامة الهيكل على رغم ما هم فيه من العلو والتمكن والتمتع بحماية الأنظمة العربية فوق الحماية الدولية!!... ومن يتابع السياسة الأمنية الإسرائيلية بعد قرار ترامب يجد أنهم يتعاملون فعلًا بكل طاقة ضبط النفس ومحاولة امتصاص الغضبة الفلسطينية لئلا يتسبب العنف المفرط في توسيع وإشعال الاحتجاجات أو نزع فتيل حرب مع قطاع غزة.

كثير من المواقف يمكن أن نلتقطها من بين طوفان يتداعى إلى الذاكرة، منها مثلًا أن أوروبا وهي في عنفوان قوتها في الحرب العالمية الثانية لم تكن تخشى الاتحاد السوفيتي (وهو قوة عالمية) بقدر ما تخشى الإسلام (وكانت البلاد الإسلامية وقتها ما بين محتلة وعاجزة لا تملك رد المحتل عن نفسها)، وامتنعت ألمانيا عن تقديم دعم لصالح وحدة المغرب العربي خوفًا من أن يسترد العرب الأندلس!!... ولولا أن هذا الموقف رواه أمين الحسيني في مذكراته ما صدقته! (راجع هذا المقال)

منها مثلًا أن أحمد لطفي السيد ـ أستاذ الجيل «العلماني» في مصر ـ اقترح في ١٩١٢ أن تنفصل مصر عن الدولة العثمانية، وأن تتخذ لها علمًا غير علم الخلافة، ويعلن الخديوي ملكًا مستقلًّا ويدعم الإنجليز هذا الاستقلال بالاعتراف به، المفاجأة هنا أن الخديوي قبل الفكرة مسرورًا، ولكن الذي رفضها كان اللورد كتشنر المندوب

Readonly

السامي البريطاني! والذي قال: «لقد بسطنا يدنا لتركيا، فبصقت عليها، وولت وجهها شطر ألمانيا، ولو أنها كانت قبلت مودتنا لتغير الموقف كثيرًا، ومع هذا فإني لا أجد الوقت مناسبًا لقبول فكرتك» (قصة حياتي، ط هنداوي، ص٨١).

منها أيضًا أن الإنجليز احتلوا أطراف جزيرة العرب، وسيطروا فعليًّا على كل المياه المحيطة بها: البحر الأحمر وخليج عدن والخليج العربي، ومع هذا لم يفكروا فيما فكر فيه البرتغاليون من قبل: احتلال الحرمين وتدمير الكعبة ونبش قبر النبي (ﷺ)، رغم أن ميزان القوى في أواخر القرن التاسع عشر لم يكن يمكن فيه المقارنة بين العتاد البريطاني والوضع في الجزيرة العربية ومصر، ورغم أن كلا طرفي الحرب في الجزيرة العربية (عبد العزيز بن سعود والشريف حسين) كانا متعلقين بالتاج البريطاني، كل منهما يريد أن يكون الأثير عند الإنجليز قبل صاحبه.

وقبل هذا الدخول الناعم للإنجليز إلى مصر، واعتمادهم طريقة الاحتلال المتواري بدلًا من الاحتلال الصريح، وإبقائهم نظام محمد علي وعرش الخديوي، وإبقائهم مصر تابعة بالاسم للسلطان العثماني، ولم يعلن الإنجليز احتلالهم لمصر إلا بعد أكثر من ثلاثين عامًا حين خاضوا الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية، ونشروا بيانًا في مصر يعلنون فيه أنهم يرضون من المصريين بالوقوف على الحياد لما هو مشهور عنهم من الارتباط بالسلطان العثماني والتعظيم لمكانته الدينية.

قبله أيضًا الدخول الناعم لنابليون الذي زعم أنه مسلم، وأنه أكثر إيمانًا من المماليك، وأنه أكثر ولاء للسلطان العثماني منهم، وأن من دلائل إيمانه أنه دمر كرسي النصرانية في الفاتيكان والتي لطالما حاربت الإسلام وشنت عليه الحملات الصليبية.

Readonly

يمكن أن نفسر كل هذا بأنه نوع من المكر والدهاء، وأنه نتيجة الاستشراق الذي حاول استثمار الطرق المثلي لإيقاعنا في براثن الاحتلال دون كبير خسائر، لكن هذا نفسه دليل يُستدل به على أن طاقة الأمة كانت ولا تزال تثير المخاوف وهي في أقصى حالات ضعفها حتى ليضطر المحتل المدجج بالسلاح الرهيب أن يسلك سبيل المخادعة والمناورة والتطمين... إن من لا خطر منه ولا خشية لا يجتهد أحد في أن يتخادع له!

ولذلك تنشط الحركة البحثية الغربية في دراسة الحركات الإسلامية وتهديداتها المستقبلية وقدرتها الحقيقية على تجاوز وتهديد ميزان القوة في المنطقة، ويقرأ المرء في الدراسات الغربية عمقًا ونضجًا وجدية لا يصل البحث في العالم العربي إلى ١٪ منها، وقد طالعت قبل أيام دراسة ترصد حركة المراكز البحثية الغربية في تقييم احتمال امتلاك تنظيم الدولة أسلحة دمار شامل، ومع أن نتائج الدراسات انتهت بعد بحث في الاحتمالات والوسائل إلى أن احتمالية امتلاك التنظيم لسلاح دمار شامل تساوي صفرًا، إلا أن خبراء آخرين عقبوا بأنه لا بد من الوضع في الاعتبار أن هذه التقديرات متفائلة، وأنه لا يمكننا أن نعتمد على تقديرات متفائلة، فانتهوا إلى التوصية بضرورة وضع هذا الاحتمال في الاعتبار. وهكذا لم يسلم القوم من الخوف رغم أن نتائج البحوث انتهت إلى نتيجة مطمئنة.

منذ فشل نابليون، ومرورًا بتقرير اللورد دفرين (أول حاكم بريطاني لمصر) وحتى مذكرات ثعلب السياسة الأمريكية هنري كيسنجر، يبدو أن الغرب يعتمد على طريق مفضل في تنفيذ أهدافه دون إثارة وتهييج الشعور الإسلامي: طريق الحكومات العميلة. فنابليون لما فشل في الحفاظ على مصر أوصى القنصل الفرنسي في مصر بالبحث عن رجل لفرنسا فوجد غايته في محمد علي، وحمل تقرير دفرين عبارة تقول:

Readonly

«لا يمكن المحافظة على النظام في القطر المصري إلا بتأديب أهله بواسطة أستاذ من الأجانب وبالسوط الوطني». وفي مذكرات كيسنجر حديث طويل عن ضرورة دعم الأنظمة «المعتدلة» والعمل على جذب واستقطاب الأنظمة حتى تصير «معتدلة» أو إسقاطها، فلا مكان لأنظمة متشددة!

ومنذ تقارير المستشرقين في مطلع القرن التاسع عشر وحتى الآن تتردد عبارة ذات معنى واحد وإن اختلفت الألفاظ: المارد الإسلامي يقوم، والعالم الإسلامي يتململ ويوشك أن يستيقظ. والخلاصة صرح بها جورج فريدمان ـ مدير ستراتفور، الأهم ضمن مراكز البحث والاستشارات ـ في أن الغرب سيحارب المسلمين جميعًا طالما أنهم لم يخترعوا بعد الجهاز الذي يفرق بين المعتدلين والمتطرفين! وهذه لا شك نفسية خائف متوجس!

إننا أمة قوية... حتى ونحن في أشد حالات ضعفنا! وما تلك الحروب المستعرة التي لا تخمد إلا وجه من تلك الحقيقة... فالموتى لا يُحاربون، وقد قال ربنا لنا: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]!!

* * *

Readonly

مائة عام على مولد يوشع براور ومحمد الغزالي

نشر في مجلة «كلمة حق»

يناير ٢٠١٨

في عام ١٩٣٦، وهو عام اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى، أي قبل الإعلان عن دولة إسرائيل باثنتي عشرة سنة، وصل إلى فلسطين شاب يهودي من بولندا في التاسعة عشرة من عمره، واتخذ قرارًا بالاستقرار في «إسرائيل»، وهناك عكف على البحث والتنقيب في عصر الحروب الصليبية لكن من زاوية تندر فيها المؤلفات، ولم تمض خمسة أعوام حتى صدرت دراسته الأولى «دور اليهود في تجارة العصور الوسطى» (١٩٤١)، وظل يوالي البحث والتأليف لنصف قرن بعد هذه المدة، وقد انتقل للاستقرار في القدس الشرقية بعد الاحتلال الصهيوني لها (١٩٦٧م)، حتى صدرت آخر مؤلفاته في القدس، وهو «تاريخ بيت المقدس: الحملات الصليبية والحقبة الأيوبية» (١٩٩١)، وهو ذات العام الذي توفي فيه.

هذا الشاب هو يوشع براور، مؤسس وزعيم مدرسة المؤرخين الإسرائيليين المتخصصة في دراسة الحروب الصليبية، وهو أبرز مؤرخ إسرائيلي في هذه الحقبة، وتلاميذه هم أهم المؤرخين الإسرائيليين في هذه الفترة، مثل: سلفيا سكين، وبنيامين كيدار، وأرييه جرابوا، وغيرهم. وقد صدر له بعد وفاته كتاب تكريمي احتوى على ٢٢ دراسة في التأريخ للحملات الصليبية ومملكة بيت المقدس كتبها أبرز مؤرخي تلك الحقبة في العالم، ومنهم: ستيفن رانسيمان، ورايلي سميث، وكلود كاهن وغيرهم.

وضع براور كافة طاقته في خدمة المشروع الصهيوني، ليس فقط من حيث

Readonly

التأليف العلمي الحافل، وإنما بمشاركته منذ أيامه الأولى في القتال والمعارك، فقد انضم مطلع قدومه إلى العصابات الصهيونية، وأصيب في بعض معاركها، وعاصر سائر الحروب التي خاضها الكيان، ومات وهو يشهد الانتفاضة الفلسطينية، فختم حياته بذات المشهد الذي افتتحها به: مشهد المقاومة الفلسطينية المستمرة. وما بين البداية والنهاية عمل مستشارًا للحكومة الإسرائيلية في التعليم، وفي مناصب أخرى ساهمت في تشكيل الوعي الصهيوني لدى الصغار والكبار، بل إنني وجدت ضمن خبر منشور في (هاآرتس: ٢٨ نوفمبر ٢٠١٦) أن مريم زوجة رئيس الوزراء الصهيوني ليفي أشكول عملت كباحث مساعد مع يوشع براور.

أجاد براور خمس لغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية إضافة إلى العبرية، وكتب مؤلفاته بالعبرية والإنجليزية والفرنسية، مما أكسبه اطلاعًا واسعًا على مؤلفات الحروب الصليبية المصدرية، وكان حريصًا على ترجمة بعض الكتب وإعادة نشرها بعد نفاد طبعاتها القديمة مثل كتاب مؤرخ الكنيسة الإيطالي مارينو ساوندو تورسيللو، ومتابعًا للجديد الذي يصدر في هذا المجال. إلا أن الذي تميز به براور عن سائر السابقين له هو تركيزه الكبير على التكوين الداخلي لمملكة بيت المقدس، وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وطبيعة سكانها والعلاقات بينهم، كذلك التوفر على دراسة الينابيع وموارد المياه، ودراسة القلاع التي بناها الصليبيون من حيث كونها مستعمرات للاستفادة بخبرتهم وتجنب ما قد يكونون أخطأوا فيه، وله دراسات أخرى عن الحدود الجنوبية والشمالية لمملكة بيت المقدس.

ومن اللافت للنظر أنه نشر عام ١٩٥٦ دراسة عن عسقلان، ثم نشر عام ١٩٦٧ دراسة بعنوان «إعادة الاستقرار اليهودي في بيت المقدس الصليبية»، وهو دليل

Readonly

على أن الرجل لم يكن منظِّرًا أجوف ولا كان عمله مجرد التنظير، بل كان عمله ضمن المشروع الصهيوني الذي يجري تطبيقه على الأرض، ومن ثم رافق بحثه عن عسقلان العدوان الثلاثي على مصر، كما رافق بحثه عن تهويد القدس احتلال القدس الشرقية.

لا يتسع المقام لأكثر من هذا عن يوشع براور ومدرسته، ويمكن الرجوع إلى المزيد عنه ضمن كتاب «المؤرخون الإسرائيليون والحروب الصليبية» للدكتور محمد مؤنس عوض، وعن هذا الكتاب استفدت ما كتبته هنا، وكذلك إلى مقدمتي ترجمتي كتابيه إلى العربية: «عالم الصليبيين» بقلم: د. قاسم عبده قاسم، و«الاستيطان الصليبي في فلسطين: مملكة بيت المقدس» بقلم: د. عبد الحافظ البنا.

والشاهد المقصود من إيراد كل ما سبق لفت النظر إلى الاهتمام الإسرائيلي المبكر جدًّا للاستفادة من التجربة الصليبية، تجربة بدأت قبل الإعلان عن إسرائيل نفسها، لقد استوعب صانعو المشروع أهمية التأسيس العلمي، كما استوعب العلماء أهمية أن يدرسوا للعمل والتطبيق لا لمجرد المتعة العلمية وإعادة إنتاج وتوليد نفس الأفكار بعبارات أخرى أو بترتيب آخر... وهو درس لا بد من استيعابه في حركتنا لتحرير بيت المقدس.

والواقع أن ما يتسرب من الإنتاج العلمي الإسرائيلي ليشهد بقوة ونضج ومجهود ممتاز، ولا نزال في العالم العربي لا نرى شيئًا منه، وأحسب أنها مهمة تقع بالمقام الأول على عاتق من يجيد العبرية سواء من أبناء فلسطين أو ممن يتخصصون في اللغة العبرية... ونحن على الحقيقة لن نستطيع خوض صراع مع إسرائيل دون معرفة دواخل مجتمعاتهم والاطلاع على دراساتهم.

Readonly

لقد كنت قبل أسبوعين في المؤتمر الدولي السابع عشر لدراسات بيت المقدس، والتقيت فيه أحد إخواننا من عرب الـ ٤٨، وجرى بيننا حوار حول عبء الترجمة عن العبرية الواقع عليه وعلى أمثاله، فقال لي بأن المهمة ضخمة حقًّا، وأن الدراسات الإسرائيلية عن ينابيع فلسطين وحدها بالعشرات، وعن نباتاتها بالمئات، وعن جغرافيتها بالآلاف، فضلًا عن الدراسات المتعلقة بالفرص والمخاطر الحربية والمواقع العسكرية وغيرها.

المهمة عظيمة حقًّا... ولكن الموارد والإمكانات البحثية في العالم العربي قادرة عليها، وتظل المشكلة الرئيسية الكبرى التي هي أصل وجوهر كل المشكلات: مشكلة الأنظمة العربية التي تعرف أن مهمتها حماية إسرائيل وتدمير مقومات الأمة، ولذلك تتعطل كل المجهودات وتتكسر على تلك الصخرة العتيدة.

وهو ما يعيدنا إلى القول المكرر دائمًا: نجاح الثورات العربية هو الطريق الوحيد لإزالة إسرائيل.

***

قبل أيام انتهت في اسطنبول ندوة مئوية الشيخ محمد الغزالي رحمه الله (وُلِد في ١٩١٧م)، وكانت ندوة مباركة سعى فيها وبذل لها وتابعها الأستاذ الكريم د. وصفي عاشور أبو زيد، وهو من تلامذة الشيخ الغزالي المهتمين به والمتخصصين فيه، وهو يرفعه فوق كل طبقة عصره وله نحوه عاطفة حارة... وأحسب أن الله علم صدق نيته فهيأ له الجهود التي تكفلت بإقامة الندوة وطباعة أوراقها العلمية في مجلدين أنيقين، وكان من عجائب ما وقع فيها أن تلاميذ الشيخ انبروا في الكتابة عنه حتى إن الشيخ الأسير د. صلاح سلطان كتب خلف القضبان دراسة في مائة

Readonly

ورقة عن المناهج العلمية والأصولية للشيخ الغزالي في كتاب «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، وكتب د. جمال عبد العزيز بحثًا عن «الغزالي لغويًّا» من ثلاثين صفحة في ليلة واحدة. وقد شهد المجلدان حضورًا لأعلام الفكر والدعوة المعاصرين بأوراقهم كالشيخ القرضاوي، ود. محمد عمارة، والمستشار طارق البشري، ود. عماد الدين خليل، والشيخ مجد مكي، ود. حلمي القاعود، ود. خالد فهمي، وغيرهم من العلماء والدعاة والباحثين. ومن ثم فقد كانت فرصة ثمينة لأمثالي من شباب وصغار الكتاب والباحثين مجاورة هذه الأسماء.

لكن يلفت النظر أن مئوية الغزالي لم يكن ممكنًا أن تحتضنها مصر وهي بلده، ولا السعودية التي درس فيها وتوفي فيها مدافعًا عن الإسلام وهو مدفون بها، ولا الجزائر التي درس فيها فأثمر وكان ميزانًا اعتدلت به الحالة الإسلامية ولم يزل تلاميذه الجزائريون أسرع الناس إلى الاحتفاء به... ولا دولة أخرى من بلاد العرب! لقد تحولت تلك البلاد إلى عواصم حرب على الإسلام وأهله أو في أحسن الأحوال تتجنب أن يُنسب إليها شيء من نصرة الإسلام وأهله وإحياء ذكرى مشايخه.

ومن عجيب الاتفاق أن كلا الرجلين: الشيخ الغزالي ويوشع براور وُلِدا في نفس العام (١٩١٧)، لكن شتان ما بين ما فعلت إسرائيل في الحفاوة برجلها ومؤرخها، وبين ما فعلت بلاد العرب بشيخها وداعيتها.

***

Readonly

ذكريات كثيرة ودرس مفقود

نشر في مجلة «كلمة حق»

مارس ٢٠١٨

حفل شهر فبراير لهذا العام بالعديد من الذكريات الملهمة والمؤرقة للأمة الإسلامية عمومًا وللحركة الإسلامية على وجه الخصوص، وعلى قدر ما يُقال في الذكريات الكثير من الكلام المؤثر والمنمق والمتفاني في الإتيان بالجديد على قدر ما يبدو أن ثمة اتفاقًا عامًّا على الاكتفاء بالتمجيد وعدم الاقتراب من مواضع الخلل والخطأ، والتي هي نفسها موضع العظة والاعتبار.

نعم، إننا نجد أنفسنا في حاجة لإنصاف الشخصيات التاريخية الكبيرة التي لطالما هوجمت وشُوِّهت وطُعِن فيها ولهذا تشغلنا مهمة رفع الركام الموضوع فوقها، وهو لا شك واجب تاريخي تجاه هؤلاء جميعًا. ولكنه نصف الواجب فقط، فالنصف الآخر هو البحث المنصف المتجرد في السؤال الأهم: لماذا لم يستطع أولئك العظماء أن يحققوا أهدافهم؟ هنا يبدأ النقاش الحقيقي الذي نأخذ منه لأيامنا القادمة فنقوم بواجب المستقبل ولا نكون قد وقفنا فحسب عند القيام بواجب الماضي.

في كل تلك الأحوال كان العدو أقوى وأقدر، ولكن الله أخبرنا أن الهزيمة لا تكون أصالة إلا بالأسباب الذاتية ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. ومهما تبارينا وتسابقنا في إثبات لؤم العدو وغدره فلن يفيدنا هذا شيئًا، الإفادة على الحقيقة هي ما نستكشفه في تجربتنا من ثغرات.

Readonly

١ ـ مائة عام على وفاة عبد الحميد الثاني

في العاشر من فبراير الحالي مرت مائة عام على وفاة السلطان عبد الحميد الثاني، آخر الخلفاء المسلمين على الحقيقة، فمن جاءوا من بعده لم يكونوا يحكمون عمليًا بل كانوا كمناصب شرفية قليلة التأثير في ظل حكومات تركية قومية متغربة.

عبد الحميد مشهور بموقفه التاريخي الصلب في صد ومقاومة تأسيس إسرائيل، ومشهور بمشروعه العظيم: إنشاء خط سكة حديدة تربط أطراف الأمة الإسلامية، ومشهور بمحاولاته المستمرة لمقاومة الاحتلال الإنجليزي والفرنسي والروسي، ولكنه مع هذا انتهى معزولًا إثر انقلاب عسكري عام ١٩٠٩، لتنتهي بهذا صفحة آخر الخلفاء المسلمين، ثم لا تبقى إلا خمسة عشر عامًا حافلة لتنتهي الخلافة الإسلامية كلها لأول مرة منذ بعث الله نبيه محمدًا ﷺ.

لعل نكبة انهيار الخلافة هي النكبة الأقسى والأكبر للأمة الإسلامية، وهي المصيبة العظمى بعد مصيبة وفاة النبي ﷺ، فمن بعدها صار المسلمون حرفيًّا كالفريسة المأكولة المنهوشة المقطعة الأوصال التي يَحكُم فيها أعداؤها فيسومونها سوء العذاب، ولا تزال كل نكبات المسلمين حتى هذه اللحظة هي فرع عن النكبة الكبرى بسقوط الخلافة واختفاء الخليفة المسلم.

لكن المهم هنا أن ذكرى عبد الحميد ستمتلئ بالثناء عليه وعلى مواقفه ومشروعاته، وستحاول أن تتجنب التقييم الموضوعي الذي يفسر لِمَ لَمْ يستطع عبد الحميد وقد حكم أكثر من ثلاثين سنة أن يوقف انهيار السلطنة العثمانية أو أن يجدد شبابها؟! لماذا دخل في صراع مع عدد من الزعماء الأفذاذ الذين أرقوا الاحتلال في

Readonly

كل أرض نزلوا بها كجمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم مثلًا؟ لماذا وصفه من لا يُتَّهمون في دينهم ولا إخلاصهم من العلماء والأعيان المسلمين بتهمة الاستبداد، بل وفرح بعضهم لأول وهلة بالانقلاب عليه؟ لماذا وكيف تكوَّنت نخبة عسكرية علمانية في ظل من وُصِف بأنه السلطان الأكثر يقظة وتنبهًا؟ كيف يتفق المؤرخون على ذكاء عبد الحميد ودهائه ثم تكون النتيجة أنه يُعزل بعد اثنتين وثلاثين سنة؟ ما الذي كان بإمكان عبد الحميد أن يفعله لكنه لم يفعله ليعيد تصحيح مسار الانهيار؟ ولماذا لم يفعله؟!

٢ ـ استشهاد حسن البنا

تسعة وستون عامًا مضت على استشهاد حسن البنا (١٤ فبراير ١٩٤٩) بطلقات رصاص لم توقف فقط مسيرة روح الشهيد بل كأنها أوقفت مشروعه أيضًا!

ليس من شك في أن جماعة الإخوان استمرت بعد حسن البنا، بل وملأت الدنيا في العطاء العلمي والتربوي والدعوي، وقليل من العمل الجهادي، وكثير من مسيرة سياسية لم تثمر بعد طول الزمن ثمرة ذات بال!

لو كان مشروع حسن البنا علميًّا أو دعويًّا أو تربويًّا فحسب لقلنا بأن الجماعة استكملت مشروعه من بعده على خير وجه، ولقلنا في ذات الوقت بأن دخول الجماعة على الخط الجهادي والسياسي كان انحرافًا عن مشروع البنا. أما حيث كان مشروع البنا مشتملًا على الجانب الجهادي والسياسي بما تدل عليه كتبه ونظراته وكلماته وبما تثبته صفحات التاريخ من تكوينه للنظام الخاص (الجهاز الأمني العسكري السري)، وما تكشف عنه أوراق النظام الخاص ومذكرات قادته...

نقول: حيث كان مشروع البنا هكذا فلا بد من القول بأن هذا الجانب توقف

Readonly

باستشهاد البنا، إذ لا نستطيع أن نجد زعيمًا سياسيًّا من الإخوان استطاع تحرير بلاده مثلًا أو قيادة معركة التغيير لإنشاء نظام إسلامي فيها. كذلك لم نجد بعد البنا حركة جهادية تحريرية من الإخوان استكملت الشوط وبلغت التحرير والاستقلال المنشود[١].

بعد استشهاد البنا ظلت الجماعة نفسها أكثر من عامين بلا مرشد عام، منفرطة العقد، حتى قام بعض قياداتها بلم شملها مرة أخرى... مجرد انفراط العقد لعامين يطرح بقوة سؤال المؤسسة التي تتوقف لعامين عند غياب مؤسسها. وحين غيبت المحنة الإخوانَ زمن عبد الناصر لم تتجدد الجماعة مرة أخرى إلا بحركة إسلامية نشأت وهم في السجون ثم قبل قادتها الشباب طوعًا الانضواء تحت راية الإخوان!

على كل حال، ليس هنا مقام تفصيل... لكن تقييم تجربة البنا لا تزال موضع تجنب عام على كثرة المتحدثين بالمدح والثناء في حسن البنا (وهو مستحق له طبعًا)، ولا يوجد على حد ما أعلم دراسات وافية تحاول كشف ثغرات التجربة التي أفضت لاستشهاده ولقدرة الدولة على تدمير الجماعة مرتين على الأقل. وسائر ما في هذا الباب هو محاولات خجولة تلمس الأمور برفق وهي مع هذا ملفوفة ومغطاة بسائر كلام الاعتذار والثناء والتبجيل.

ليس يضر حسن البنا ـ لا سيما وقد صار عند ربه، ونحسبه من الشهداء ـ أن تُقَيَّم تجربته بعين فاحصة ناقدة، فليس هذا طعنًا فيه بل هو استلهام لمن يريدون العمل الآن.

---

(١) ربما يضرب أحد القراء مثلاً بحركة حماس، وبالنسبة لهذا الموضوع يرجى قراءة مقال: تجربة حماس... درس للشيوخ والشباب.

http://melhamy.blogspot.com/2016/10/blog-post.html

Readonly

٣ ـ عمر عبد الرحمن

مر عام واحد على وفاة الشيخ عمر عبد الرحمن بعد ربع قرن من المحنة الشديدة، في السجون الأمريكية. إن مجرد تصور وتخيل صورة سجين مريض ضرير في سجن انفرادي لمدة ربع قرن يصيب بالهلع والحيرة! مجرد العيش مع الصورة نفسها محنة... فكيف يا ترى كانت محنته على الحقيقة؟!

لا يزال شأن إنصاف الرجل وتاريخه واجبًا في عنق الأمة، وبالأخص في عنق رجال الجماعة الإسلامية المصرية التي كان الشيخ أميرها! ولكننا نتوقف معه في هذه السطور عند واجب المستقبل كما هو موضوعنا.

ترى لو أتيح الآن لرجل عالم جسور بعيد الهمة عظيم الفؤاد مشرق النفس في نفس حال الشيخ عمر عبد الرحمن مطلع السبعينات، لو أتيح له الآن أن يرى شبابًا موفور العزم مسجور الهمّ ملتاع القلب يعرضون عليه أن يكون أميرهم بعدما نكص الشيوخ الكبار عن المهمات الكبار... لو أتيح لرجل الآن مثل هذا فكيف يمكن لرجال الجماعة الإسلامية المصرية أن ينصحوه؟!

إنه لن تتوفر النصيحة السديدة إلا بالاطلاع الجيد والفهم العميق للتجربة نفسها، ثم بالتجرد التام في تقييمها... فهل مثل هذا موجود لدى رجال الجماعة الإسلامية الآن؟!

أذكر مرة، وكنت مع الشيخ رفاعي طه رحمه الله أنه عرفني على رجل من الجماعة الإسلامية كان مسؤولًا عن ملفها الإعلامي، ولديه كم كبير من الوثائق المسموعة والمطبوعة التي يحتفظ بها ولم تنشر بعد، فألححت عليه أن ينشرها، فقال: لا وقت لدي للترتيب والتصنيف وذكر السياق الذي صدرت فيه كل وثيقة.

Readonly

قلت له: انشرها كما هي، ودع الأمر للباحثين والمتابعين فإن مجرد توفر المادة يتيح لكثيرين أن يتكلموا كما يتيح لكثيرين أن يفهموا ويبحثوا ويستخرجوا الرواية من مجموع ما جمعوه. لم يعجبه هذا وقال: لا بد من اجتماع الإخوة وكتابة تاريخ الجماعة الإسلامية بحيث يخرج مكتملًا كرواية شاملة من كل الوجوه بدلًا من أن يكتب كل واحد من وجهة نظره. قلت له: اعذرني، ولكن أكذب رواية للتاريخ هي الرواية الرسمية! وكان مما أسعدني يومها أن الشيخ رفاعي طه وافقني بشدة... ومع هذا انتهى اللقاء وكلٌّ على ما هو عليه.

إن الحركات الإسلامية تكرر أخطاءها لأسباب عدة من أهمها أن التجربة الحركية الإسلامية غير مكتوبة، وفيما تدور المعركة مع أنظمة وأجهزة أمنية تراكم ملفاتها وتدرسها وتضيف إليها تخوض الحركة الإسلامية معركتها برصيد تاريخي يقترب من الصفر، فيتكرر نفس الخطأ ثم يتكرر عليهم نفس أساليب المواجهة والاختراق والتصفية.

إننا بحاجة لكتيبة ممن يفرغون أنفسهم لتسجيل تاريخ الحركة الإسلامية، والتنقيب في صفحات التجربة بما في ذلك التجارب المهزومة لكي يستكمل هذا الدرس المفقود: درس المستقبل!

* * *

Readonly

Readonly

الباب الرابع
في أروقة القرآن ورمضان

ـ في أروقة القرآن الكريم

ـ في أروقة شهر رمضان

* * *

Readonly

Readonly

في أروقة القرآن الكريم

لما نزل القرآن الكريم كان هو معجزة النبي ﷺ، أي أنه كان دليلًا واضحًا وبرهانًا قويًّا على صدقه في دعواه النبوة، كما أنه كان مثار حيرة ودهشة، إذ تحدى أهل الفصاحة أن يأتوا بمثله! ثم هو بعد ذلك نَقَل من آمنوا به في غضون سنوات بسيطة من زاوية التاريخ المجهولة المغمورة ليكونوا أعظم أمم الأرض وأقواها!

وإذا كان القرآن محفوظًا، فلماذا لم نعد نشعر فيه بالجمال المحير المعجز، ولماذا لم ننتقل به من حال ضعفنا وهواننا إلى حال العظمة والسؤدد التي كنا عليها، إن في علاقتنا بالقرآن خللًا لا بد أن ننتبه إليه لنحاول إصلاحه، وهذا الخلل ليس مجرد خلل في الفهم والتطبيق بل حتى في الشعور والتأثر والانفعال به.

هذه المقالات هي تجول في أروقة القرآن الكريم، تحاول استكناه هذا الخلل في الفهم وفي الشعور، عبر هذه العناوين:

- لماذا لا نشعر بجمال القرآن
- التشويق إلى القرآن
- جولة في علم النفس والاجتماع من سورة سبأ
- القرآن يعلمنا كيف ننجز المهمات الكبرى
- نصيبك من القرآن نصيبك من العمل
- وقفة مع: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]؟
- المنشاوي: صوت السماء الخاشع البكّاء

Readonly

لماذا لا نشعر بجمال القرآن

نشر في «مدونات الجزيرة»

فبراير ٢٠١٧

كان شيخ العربية في زماننا أبو فهر محمود شاكر يصر على أن الإعجاز الأساسي للقرآن هو في بلاغته، فبها تحدى العرب فأعجزهم وحيَّرهم وتركهم بلا حيلة أمام بيانه، هذا وهم أهل البلاغة والفصاحة... وقد أطال في شرح هذه الفكرة في مقدمته لكتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي، ولكنه كان يشرح فكرته كما يشرحها المبهور العاجز عن بيان أسباب انبهاره، لا شك مرت عليك هذه اللحظات، الفكرة تملأ روحك وتتدفق في صدرك ولكن لسانك لا يستطيع تصويرها لمن تخاطبهم.

وقد وصل أبو فهر في طريقته هذه إلى أننا لن نشعر بجمال القرآن إلا إذا درسنا الشعر الجاهلي وفهمناه وهضمناه، فعندئذ سنشعر بجلال القرآن وسمو عبارته، ثم وصل إلى فكرة لا أعرف أحدًا طرحها من قبله، وهي أن نعلم الطفل أشعار الجاهليين أولًا قبل القرآن، حتى إذا تعلم القرآن ذاق حلاوته!

نحن لا نناقش الآن مدى صواب أو خطأ هذه الفكرة... إنما نشير إليها فحسب...

ليس القرآن مجموعة أفكار... القرآن فوق كونه حقًّا يُنشئ حالة نفسية في قارئه، وإدمان تلاوة القرآن تصنع ذائقة فكرية وشعورية يميز الإنسان بها بين الحق والباطل حتى وإن لم يتمكن من التعبير عنها.

إننا نفقد الشعور بالقرآن؛ لأننا فقدنا الشعور باللغة... تمامًا مثلما لا نشعر

Readonly

بلذة الشعر المترجم عن الإنجليزية والفرنسية والهندية وغيرها... يبدو لنا الشعر المترجم ككلام متكلف ومعاني عسيرة!

***

ربما مرَّت علي أيام أكثرت فيها من قراءة الشعر والأدب حتى ليشعر المرء أحيانًا أن موسيقى الشعر حاضرة في ذهنه عميقة في روحه... تلك هي الأيام التي أشعر فيها إذا قرأت القرآن بأن له طعمًا مختلفًا... وهو أمر لا يمكن وصفه، إذ كيف يوصف طعم لمن لم يذقه، وكيف توصف لذة لمن لا يعرفها؟!

وكنت إذا ارتقيت المنبر فخطبت في الناس فتلوت آية، وجدت لها طعمًا عجيبًا، كمن يبحث عن شيء فيلقاه فجأة بين يديه، كمن يتعطش لوصف معنى يتحير فيه فإذا بالآية ترويه وتغذيه وتشبعه وتمتعه...

وذات ليلة كنت أقرأ في سورة النجم، فنسيت نفسي، فأخذتْ آياتها الأخيرة ذات الإيقاع القصير السريع تهبط بي وتصعد، حتى جاء قول الله ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ [النجم: ٦٢] فوجدتني أسجد بلا تفكير... في سجودي هذا تذكرت أن النبي لما قرأ هذه الآيات على ملأ من قريش سجدوا من فورهم، فأشيع لهذا أنهم أسلموا... حينها فقط فهمت سجودهم وتأثرهم!

أرجو أن تفتح المصحف، وتجرب...

وحينئذ فهمت خطتهم التي شعارها ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وكيف أن عبد الله بن مسعود حين كان يُسْمِعهم القرآنَ كان يُعرضهم لحالة عنيفة من الأزمة، تمامًا كما تخلص قوم ثمود من الناقة المعجزة... لم يتحملوا أن يروا المعجزة التي تثبت لهم صدق النبي وخطأهم فذبحوها!!

Readonly

في مثل هذه المواقف أتفهم أكثر نظرية أبي فهر... وفي هذه المواقف أتحسر على ضياع ذائقة اللغة أكثر... وعندها يقع قلبي كلما تذكرت أجيالنا التي تدرس في المدارس الأجنبية فتكاد الصلة أن تنقطع بينها وبين القرآن الكريم...

* * *

وضعت كتب كثيرة في بلاغة القرآن، لكن غالبيتها لم تعد تناسب القارئ المعاصر، إما لأنها كُتِبَت في الأصل لعلماء البلاغة وأهل اللغة، وإما لأنها كُتِبَت في الزمن الماضي فلم تعد لغتها ولا أساليبها في التصوير تناسب حال العصر الآن...

ولذا لا أجد من بين هذه الكتب أنسب لأهل عصرنا الآن من كتب الشهيد سيد قطب، مثل «التصوير الفني في القرآن» وهو فتح في بابه، لم يكتب مثله قبله على كثرة ما كُتِب في الموضوع، وتلك هي نظريته التي بنى عليها تفسيره «في ظلال القرآن» في طبعته الأولى، قبل أن يزيدها قيمة وجمالًا وحياة وقوة بما أضاف إليها بعد رسوخه في الفكر الإسلامي من أفكار. ثم إنه استلَّ من هذه النظرية كتابه الآخر «مشاهد القيامة في القرآن الكريم»!

لذلك لم يكن إقبال المسلمين على كتاب «الظلال» من فراغ، كيف وهو الكتاب الذي كُتِبت كثير من فصوله في السجن، ثم تعقَّب النظام صاحبه حتى قتله، ثم تعقَّب الكتاب حتى ينهيه، حتى لقد حدثني أحد مشايخ الإخوان الكبار قديمًا أنهم لما خشوا على «الظلال» من الضياع كلَّفوا بعضهم بحفظه، وقد كان في بلدتي بالصعيد من كان يحفظه، فكان إذا سرد شيئًا منه في الخطبة اهتز الناس من فرط التأثر بكلامه!

جرب أن تقرأ «في ظلال القرآن» لتشعر بالفارق في استشعار لذته ونعيمه!

* * *

Readonly

هل يمكن أن تصف جدارًا آيلًا للسقوط كهذا الوصف ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]؟!

هل تجد وصفًا لمن يعود باكيًا خيرًا من ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: ٩٢]؟!

هل تجد وصفًا لقوم انسحبوا من المجموع ليتشاوروا معًا أقصر من ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]؟!

هل تجد تعبيرًا عن طلوع الصبح أجمل وأرق وألطف من ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]؟!

أو تعبيرًا عن تسلل الليل أحلى وأدق من ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧]؟!

القرآن ينزعك من همومك اليومية وتفاصيلك الصغيرة ليضعك في صورة الحقائق الكبرى، صورة الكون والناس والخلق، معركة الحق والباطل المستمرة منذ آدم والممتدة في نهر الزمان

جرِّب أن تصف عاقبة قوم لم يتعلموا من أخبار التاريخ بأحسن من ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤ ـ ٥]...

جرب أن تنطق عن ناصح لم يستجب له قومه بأحكم من ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]؟!

جرب أن تعبر عن العلم والقدرة والهيمنة بأفضل من ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]...

جرب أن تصف صورة الرجل الأشيب بأكثر من ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]... كأنك ترى صورة اشتعال التهب في الرأس ثم تركها بيضاء!

* * *

ليس القرآن مجموعة أفكار... القرآن فوق كونه حقًّا يُنشئ حالة نفسية في قارئه، وإدمان تلاوة القرآن تصنع ذائقة فكرية وشعورية يميز الإنسان بها بين الحق والباطل حتى وإن لم يتمكن من التعبير عنها...

القرآن ينزعك من همومك اليومية وتفاصيلك الصغيرة ليضعك في صورة الحقائق الكبرى، صورة الكون والناس والخلق، معركة الحق والباطل المستمرة منذ آدم والممتدة في نهر الزمان مع كل نبي والتي لا تزال فصولها تتجدد وتتكرر... فتجد أنك صرت أوسع صدرًا وأهدأ نفسًا وأرحب فكرًا وأطول صبرًا!...

* * *

Readonly

Readonly

التشويق إلى القرآن

نشر في «مدونات الجزيرة»

مايو ٢٠١٧

تفصلنا ساعات عن بدء النفحات الطيبة المباركة، عن أيام رمضان، ذلك الشهر الذي جعله الله انقلابًا في نظام المؤمن، فيه ينتبه المرء لحاجات روحه ويجاهد حاجات جسده، فيه يتغير طعم الأيام وتتغير أولويات الحياة، إليه يشتاق المؤمن، ومنه ينفر الذي أصاب قلبه المرض، وهو باب اختبار يرى فيه المرء كم بلغت الدنيا في نفسه، فكلما اشتد وثقل على النفس أمر الصيام والعبادة كلما دقَّ جرس الخطر يخبره أنه قد ابتعد وتاه في أودية الدنيا وأنها تسربت إلى قلبه وتشربتها روحه، وكلما رأى المرء في رمضان منقذًا وضرورة واشتاق له وأقبل عليه كلما كان هذا إشارة إلى أن نفسه أقرب إلى الهدى، وأن حاجات الدنيا لم تزل غير مسيطرة على حسه وضميره.

وقد صار رمضان بهذه المكانة لسبب وحيد... أنه الشهر الذي تشرف بنزول القرآن فيه، فالقرآن هو الذي شرَّف رمضان، فالشرف من القرآن لا من رمضان!

تفكرت في كتابة شيء يثير الأشواق إلى كتاب الله، فكانت هذه اللمحات...

(١) المشهد الحيُّ

للقرآن طريقة بديعة في وصف المعاني، تعبيرات القرآن ترسم مشهدًا حيًّا...

وصف الله حال المتجبرين يوم القيامة فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩]، ففي ذلك اليوم سيبدأ العذاب بالأعتى فالأعتى، الأظلم فالأظلم، أكثر قومه فجورًا وتجبرًا... يأخذه الله فيكون أول قومه عذابًا... لكن هذا

Readonly

الوصف بالنزع، يرسم مشهد المتجبر وقد صار ضعيفًا متكومًا متكورًا ملتصقًا بقومه يحاول أن يدفن نفسه فيهم ويتعلق بهم، يجتهد في الهروب من يد العذاب... ثم تأتي يد العذاب فتصل إليه وهو على هذه الحال الذليلة فتنتزعه انتزاعًا، ثم تلقيه في العذاب.

هكذا صار حال الجبار الفاجر المستهزئ، قطعة صغيرة تتخفى وتتدثر وتلتصق وتهرب، ذهب الفجور والتجبر وانقلبت الصورة!!... أو قل: اعتدلت الصورة!

(٢) القرآن كائن حيٌّ

كم من حيرة تشغل المرء ليلًا أو نهارًا حتى إذا فتح كتاب الله كأنما وجد إجابة حيرته في آية! كأنما الآية تكاد تكون تنطق وتتكلم!

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

هل ترى كيف أن بعض الناس يرى أن قرار القتال حتى وإن كان قد نزل من الله فإنه سابق لأوانه، لم تأت اللحظة المناسبة بعد! وكانوا يتمنون لو أنه تأخر قليلًا!!

هكذا تتمرد النفس على ما لا تحبه، تُسبغ عليه من المبررات العقلية ما يجعله حكمة العقل لا هروب النفس من التكاليف، حتى إن بعض المسلمين أحبَّ لو تأخر نزول الأمر بالجهاد قليلًا! والواقع أن هذا لم يكن إلا تعلقًا بالدنيا... ولهذا قال الله: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]!

كم مرة في حياتنا تهربنا من الواجبات بدعوى الوقت الذي لم يحن بعد، والقرار السابق لأوانه؟!... أكاد أرى من يُكثر من قول «سابق لأوانه، لم يحن وقته» لا يكون مقدامًا أبدًا!

Readonly

ومثل هذه الآية في ذات المعنى قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ﴾ [النساء: ٧١]، لقد أمر الله بأخذ الحذر في حال الجهاد لا بأخذ الحذر الذي يؤدي إلى القعود، على المسلم أن يجاهد وهو يحذر، لا أن يحذر فيقعده الحذر عن الجهاد!

اقرأ الآية كاملة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧١ ـ ٧٤].

أليست هذه الآية كائنًا حيًّا يُخاطب كأنما يكاد يتكلم؟!

وهكذا، كلما ازداد المرء ارتباطًا بكتاب الله كلما رأى في آياته نورًا وهداية ودليلًا.

(٣) القرآن وأسرار النفس

أمر الله بالإنفاق في سبيله مرات عديدة... لكن الأرباع الأخيرة في سورة البقرة مما كثر فيها الحديث عن الإنفاق والترغيب فيه... لكن اللافت للنظر في هذه الآيات هي تلك الخواتيم:

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٢٦٢]، ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [٢٦٣]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٢٦٥]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[٢٦٧]، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢٦٨]، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢٦٩]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾[٢٧٠]،

Readonly

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [٢٧١]، ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [٢٧٢]، ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [٢٧٣]، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٢٧٤].

خواتيم الآيات تؤكد تأكيدًا متكررًا، بطرق متنوعة، وألفاظ متعددة ومتقاربة أحيانًا، على حقيقة واحدة: أن الله لن يفلت من علمه شيء مما تنفقون، وأنه سيجزي عنه أضعاف مقداره، وأنه غني واسع حميد!

من هذه الخواتيم يعرف المرء قوة البخل في نفسه، بخلٌ تعالجه الآيات بشتى السبل لكي ترتاح النفس وتطيب حين تنفق من المال... فلولا الأجر الكبير المضاعف من الغني الواسع العليم الخبير لكانت النفس تبخل فلا تنفق في سبيل الله...

حين يتدبر المرء هذه الآيات ويراجعها ويتأملها، يعرف أن في أغوار نفسه البعيدة بخلًا عميقًا... بُخْلٌ لا وصف له أدق من وصف الله ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠]! ويا له من تصوير عنيف مزلزل... به يعرف المرء طبيعة نفسه!

(٤) القرآن والكافرون

يخجل المرء من نفسه إذا قرأ لبعض المستشرقين ومن لم يُسلموا شيئًا في مدح القرآن والتأثر به، لقد سلكت معاني القرآن إلى نفوسهم رغم حاجز اللغة وشوائب الترجمة.

يتحدث الكولونيل البريطاني رونالد فيكتور بودلي عن سحر القرآن وأثره الهائل فيقول: «لهذا الكتاب سحر خفي، له تأثير عجيب في العرب؛ فقد حوَّل الرعاة والتجار

Readonly

والبدو والبسطاء إلى مقاتلين وبناة إمبراطورية، ومؤسسي مدن كبغداد وقرطبة ودلهي، وإلى علماء وحكماء ورياضيين، وإن هذا الكتاب ـ ولا شَكَّ ـ لهو الذي عاون هؤلاء الرجال على أن يغزوا عالمًا أوسع من العالم الذي سيطر عليه الفرس والروم، وقد فعلوا ذلك في عشرات السنين، واستغرق ذلك ممن سبقوهم قرونًا»[١].

ويراه هنري دي كاستري سرًّا مكنونًا لا يفتح بابه إلا لمؤمن، يقول: «أتى محمد بالقرآن دليلًا على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرًّا من الأسرار التي تعذر فكّ طلاسمها، ولن يسبر غور هذا السرِّ المكنون إلا مَنْ يُصَدِّق بأنه مُنَزَّل من الله»... ويضيف: «لو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب»[٢].

وفي كلمة بديعة يقول القانوني والمستشرق الفرنسي مارسيل دي بوازار: «إن القرآن لم يُقَدَّر قَطُّ لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة»[٣].

والسؤال المحرج هنا: كيف استطاع هؤلاء أن يفهموا من القرآن ما لا يفهمه كثيرون فينا؟!

أليس هذا مشوقًا لأن نقرأ كتاب الله بعناية وتأمل؟!

* * *

(١) الرسول ص٢٣٥.

(٢) الإسلام خواطر وسوانح ص٤٦.

(٣) إنسانية الإسلام ص١٠٩.

Readonly

جولة في علم النفس والاجتماع من سورة سبأ

نشر في مجلة «كلمة حق»

مايو ٢٠٢٠

منذ أكثر من سنة، أجدني كلما مررتُ بسورة سبأ منجذبًا بقوة إلى أن هذه السورة تحفل بالإشارات والمعاني التي نطلق عليها الآن «علم الاجتماع السياسي»، فكثير من آياتها تتناول مسائل السلطة والترف ونفسية المتسلطين المترفين، وكذلك نفسية التابعين المنبهرين الذين ينجذبون لمعاني القوة والغنى، كما تقدم الحل لهؤلاء التابعين لينقذوا أنفسهم من سطوة الغالب وسطوة الثقافة السائدة الغالبة.

وما زلتُ أقدم رجلًا وأؤخر أخرى في أن أخوض هذا الأمر، لا سيما بعد أن تجولت في التفاسير فانتفعت بشذرات من هنا وهناك دون أن أجد أحدًا فتح هذا المعنى أو ولج هذا الباب، حتى إذا مررتُ بها في شهر رمضان وجدت في نفسي عزمًا أن أكتب ما جال في خاطري، واضعًا ذلك أمام أهل العلم والمتخصصين، فإما أن يكون فيه نفع فحسبي منه هذا، وإما أن يردوا عليَّ ما أقول فلا أجد في نفسي حرجًا من تمزيقه وإهماله.

إنني أجد في نفسي شعورًا قويًّا غالبًا أن هذا المعنى يجعل السورة تستقيم على هيئة واحدة في نفسي، ولولا أن الأمر بلغ من نفسي مبلغه من الوضوح والقوة لما تجرأت عليه، فأسأل الله أن يعين ويسدد، كما أسأله تعالى أن يغفر ويرحم.

(١) نفسية المستكبر الساخر

سرد القرآن الكريم كثيرًا حجج الكافرين في إنكار النبوة والبعث، وكيف أنهم يتحججون على هذا بحجج متهافتة كأن يقولوا: كيف بعد أن نكون ترابًا نبعث مرة

Readonly

أخرى؟! وكيف يؤمن أراذل الناس ولا نؤمن نحن أصحاب العقول والحكمة؟! ولماذا لم ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم؟! وما رأيك أن تفجر لنا الينابيع وتبني لنفسك القصور وتصطحب معك الملائكة ونحن نؤمن بك...؟ ونحو هذه الحجج الكثيرة.

لكن في هذه السورة نجد أنفسنا أمام نفسية أخرى، إنها نفسية المستكبر الساخر المتأفف الذي يقطع برأيه ووجهة نظره دون أن يحاول تقديم حجة مقنعة، بل دون أن يبحث عن حجة، إنه يقرر آراءه كأنها حقائق من غير أن يكلف نفسه إثباتها أو الاحتجاج لها... لذلك ترى عباراته قصيرة، قاطعة، حاسمة، يقولها صاحبها كأنه يختم الكلام وينهيه ويفصل فيه!

إنها النفسية التي نراها في صاحب السلطة الطاغي أو صاحب الترف الواسع... لا شك أنك رأيت مثل هؤلاء وسمعتهم، وهم يقدمون آراءهم وقناعاتهم وكأنها حقائق لا تقبل الجدل ولا تحتمل حتى النقاش، وهو إذ يقول رأيه ذاك فإنه يسخر من المخالفين له سخرية لاذعة مستكبرة.

هكذا نراهم في هذه السورة...

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]... ولم يقولوا لماذا وصلوا إلى هذه القناعة؟

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [سبأ: ٣].

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [سبأ: ٤٣]...

Readonly

وجاء في السورة مَثَلٌ من سخريتهم:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ [سبأ: ٧]؟!

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سبأ: ٢٩]؟!

ثم يجمل القرآن هذه الظاهرة فيكشف أنها سنة مضطردة مستمرة، أهل الترف والسلطان هم خصوم المرسلين: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤].

ثم يكشف القرآن عن اللحظة التي يؤمن فيها هؤلاء، إنهم لا يؤمنون إلا حين ينقضي الوقت وتفوت الفرصة، حينما ينهار السلطان ويأتي الفزع، حين تنكسر قوتهم أمام القوة العليا، قوة الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ: ٥١].

ومن العجيب في هذا الموطن أن القرآن الكريم عبَّر عن عقوبتهم تعبيرًا مثيرًا للتأمل، وذلك هو قوله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤]، فكأن أبلغ العقوبة هي منعهم من التمتع والتنعم بما كانوا فيه من أنواع الشهوات، حتى ولو لم ينزل بهم العذاب... وهذا أمرٌ نراه ونبصره فيما نرى ونقرأ ونسمع عن المترفين الذين تقلبت بهم الأيام أو عن الملوك الذين خُلِعوا من الحكم ونُزِعوا من السلطة، إنهم حتى لو لم يدركهم الفقر والسجن والذل يظلون في عذاب مرير، إذ لا شيء يُعوض لذة السلطان أو لذة الترف، كما قال الشاعر:

فبَيْنا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصَّفُ

Readonly

فهذي مقالة من هبط عن الجاه والسلطان، فصار مساويًا للناس، لا هو ذليل ولا هو سجين، إلا أنه يبكي على حال صار فيه مثل الناس، يملكون أن يشتكوه ويقاضوه، من بعد ما كان هو الآمر الناهي السائس الحاكم عليهم.

(٢) ردٌّ لا بالحُجَّة!

وفي المقابل نجد أن الرد القرآني عليهم يأتي في صيغة صاعقة هائلة القوة، تضرب أصل كبريائهم وتنسف أساس قوتهم، فلم يكن الردُّ القرآني عليهم ردًّا يجادل بالحجة، إذ هؤلاء لم يتكلموا بالحجة أصلًا، ولم يكن ردُّ القرآن هنا يخاطب العقل بل يقتحم النفس المتجبرة، وإنك لترى الآيات وهي كالعاصفة تهوي بهم، وتُخاطبهم خطاب الإله القوي القادر القاهر، المحيط بكل شيء علمًا، القادر على كل شيء، الذي لا يقف أمامه شيء، الإله الذي يتصرف بهذا الكون كله تصرفًا لا معقب له، الإله الذي أعطى بعض عباده أوسع وأقوى مما يتجبر به هؤلاء، ثم هو الإله الذي أهلك من تكبر مهما كانوا أقوى وأعظم من هؤلاء...

سأختار بعضًا قليلًا من هذه الآيات، فتأمل، واستمع:

١ ـ أخبر الله تعالى عن علمه المحيط الشامل الواسع فقال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

٢ ـ وأخبر تعالى عن قدرته الهائلة، وضعفهم المزري، فقال:

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩].

Readonly

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩].

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥]!

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨ ـ ٤٩].

٣ ـ وردَّ الله على أقوالهم الساخرة ردودًا لا تتناول الحجة ـ إذ لا حجة أصلًا ـ بل تضرب الكبر الذي أخرج هذه الأقوال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٢٩ ـ ٣٠].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١].

٤ ـ ولقد تعددت الآيات التي نزع الله فيها منهم كل شيء، حتى لم يعد لهم لا شأن ولا قيمة:

فقد نزع منهم حقيقة امتلاكهم لشيء في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

Readonly

ونـزع منهم قيمتهـم وقدرتهم علـى النفع لأحـد ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

ونزع قيمة كثرة الأموال والأولاد ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

(٣) ماذا بين القصتين؟!

ذُكِرت في هذه السورة قصتان: قصة داود وسليمان عليهما السلام، وقصة قوم سبأ...

وكلا القصتين يجمع بينهما معنى الترف والسلطة، إلا أن الأولى مثال للصالحين إذا آتاهم الله المال والسلطان، والأخرى مثالٌ للمتكبرين...

لقد أوتي داود وسليمان ما لن يبلغه أحدٌ من العالمين، لقد أمر الله الجبال والطيور أن تتجاوب مع داود في التسبيح فكان يسمع تسبيحها، وألان الله لداود الحديد، وقد ورد في التفاسير أنه كان يشكله بيده كما يُشَكِّل الأطفال قطع الصلصال، وأما سليمان فقد سَخَّر الله له الريح تحمله وتنقله مسافة الشهر في بضع ساعات، وأسال له النحاس، وسَخَّر له الجنَّ يعملون بأمره ويرتعدون من هيبته!

تلك سلطة لم يؤتها أحد ولن يؤتاها أحد، ولا حتى القوى العظمى في عصرنا أو ما بعده، ولئن أتيح للقوى الصناعية في عصرنا أن تصنع وتستفيد من الحديد والنحاس والمعادن، فأين هذا من معنى التسخير الذي هو خضوع هذه المواد لصانعها؟... إنه ما من قوة عظمى إلا وهي تتخذ من وسائل التأمين والحماية لكل اكتشاف خشية أن ينفجر فيها أو يرتد عليها أو ينفلت من تحكمها... ثم أين هي القوة العظمى التي يمكن أن تُسَخِّر الجن؟!

Readonly

ومع هذا السلطان الضخم غير المسبوق ولا الملحوق فإن داود وسليمان كانا مثالًا للعبد الصالح الذي يخضع لله ويعمل بأمره ويشكر له.

وأما قوم سبأ، فإنهم قد وجدوا أنفسهم في سعة ونعيم حتى إن مساكنهم كانت آية تحوطها الجنان، وحتى إن المسافة التي بينهم وبين مقاصد سفرهم كانت عامرة بالقرى التي تجعل سفرهم نزهة سعيدة لا يحتاجون فيها إلى حمل أمتعة أو التزود بطعام وشراب... فماذا كان؟!

كان أن تكبر المترفون منهم وسألوا الله أن يباعد بين أسفارهم، وذكر بعض المفسرين صراحة أنهم دعوا الله لكي «يتطاولوا على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد والماء»، فهنا ترى بوضوح نموذجًا متكررًا من نفسية المترفين وأصحاب السلطان، إنهم لا يحبون أن يكونوا في مساواة مع الناس ولو في الخير، إنما يحبون التميز عنهم ولو كان الثمن هو التعب والضنك وأن يعمَّ الناس الفقر!!

هو والله مشهد يُذَكِّرنا بالذي يموت الناس في بلاده من الفقر والمرض والحاجة بينما همُّه وهمّته في بناء القصور الرئاسية والملكية، وشراء الطائرات الفاخرة واليخوت الفارهة والسيارات العجيبة الغريبة! هذا مع أنه غير محتاج لكل هذا فعنده منها ومن أمثالها الكثير، فماذا عليه لو أغنى الناس وصار مثلهم؟!... هذا أمرٌ يقول به العقل ولكن ترفضه نفسية المترف المتكبر!

فعاقب الله سبأ بتبدل الأحوال، وانقلاب الجنان العامرة والقرى الظاهرة... جاءهم سيل العرم فحطَّم هذا كله، ومزَّقهم، وجعلهم أحاديث... جعلهم تاريخًا، وضرب المثل بهم في التمزق فقيل: «تفرقوا أيدي سبأ»!!

Readonly

(٤) قليل من عبادي الشكور

إن أهل الترف والسلطان هم أقل الناس شكرًا مع أنهم أوسع الناس حظًّا من النعمة والتنعم، لهذا نبَّه الله تعالى على قلة الشاكرين، فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وإنهم مع ما هم فيه من الترف والنعيم ينطوون على البخل والإمساك، لذلك تعددت الآيات في شأن المال وأن الذي يملكه ويرزقه وينزله ويقبضه ويعوض عنه هو الله تعالى:

فقال تعالى عن المؤمنين: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: ٤].

وضرب المثل بقصة داود وسليمان وما آتاهما الله من الرزق الواسع والملك العريض.

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٣٦].

وكررها مرة أخرى بعد أربعة أسطر فقط فقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

ثم إنهم مع ما هم فيه من السعة والسلطان يتحسسون من كل داعية، يحسبون أنه يريد هدم مكانتهم ونفوذهم وأن يحل مكانهم ويقوض شأنهم، ولا يصدقون أن أحدًا قد يدعوهم لدعوة هي لصالحهم وفيها خيرهم ونجاتهم، وليس له فيها من غرض، وما ذلك إلا لأنهم أنفقوا في تحصيل هذا الترف والسلطان من وسائل المكر والمخادعة والتلاعب والمناورة وأفانين السوء ما صاروا معه يحسبون كل صيحة عليهم، لسان حالهم كما قال المتنبي:

Readonly

إذا ساء فِعلُ المرء ساءت ظنونه وصدَّق ما يعتاده من تَوَهُّمِ
وعادى محبيه بقول عُداته وأصبح في بحر من الشكّ مُظْلِم

ونجد هذا المدخل النفسي لديهم في قول الله تعالى موجهًا نبيه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

ومن العجيب اللافت للنظر أن بقايا من الكبر والسطوة ستبقى موجودة في نفوسهم حتى حين يحضرون العذاب، فلهذا عاقبهم الله بالإهانة فوق عقابه لهم بالعذاب، ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣]؟

(٥) الإهانة!

وفيما يتعلق بالإهانة أيضًا، فإنه مما يلفت النظر في هذه السورة تكرار قول الله عز وجل الحديث عن أولئك القوم الذين يعملون على إبطال آيات الله وتعجيزًا لها ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [سبأ: ٥١]، ففي أول السورة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: ٥١]، وفي أواخرها قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨]. ويُرى في ختام الآيتيْن معنى الإهانة بالإضافة إلى معنى العذاب:

فهو في الآية الأولى ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: ٥] وليس عذابًا أليمًا فحسب، والرجز ـ كما يفيد المفسرون وعلماء اللغة ـ يشتمل على معنى الاضطراب والاهتزاز والارتجاف، وذلك لأن أصله مرض يصيب الناقة فيجعلها تضطرب وتهتز، ويفيد كذلك معنى الحمل الثقيل الذي يهتز ويضطرب من يحمله، كما

Readonly

يفيد معنى القَذَر الذي هو قريب من لفظ «الرجس»، فهو أسوأ العذاب[1].

وهو في الآية الثانية يتحدث عن أنهم (مُحْضَرون)، فهم يُساقون ويُوقفون ويُقامون، لا سلطة لهم ولا إرادة لهم في أنفسهم، ولا قدرة لهم على الامتناع والمقاومة والاستنكار... فيتمّ بهذا معنى الإهانة.

ولم يُذكر وصف (المُعاجِزين) في القرآن الكريم إلا مرة أخرى في سورة الحج، في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [سبأ: ٥]، فجاء في هذه الآية معنى العذاب دون معنى الإهانة، مما نرجح معه أن آيات سورة سبأ إنما قصدت فئة المترفين وأصحاب السلطة على وجه خاص، فكررت لأجل ذلك وصف العذاب المهين.

(٦) مكر الليل والنهار

ومن أعجب وأبدع ما يلفت النظر في سورة سبأ هو حكايتها لموقف الدار الآخرة حين يتجادل الأتباع والمتبوعين، فإن فيها لمحات لا أعرف أنها موجودة في سور أخرى من القرآن الكريم...

لنسمع الحوار أولًا:

- ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣١].

---

(١) للتوسع في معنى الرجز، انظر: د. أحمد عبيد الكبيسي، موسوعة «الكلمة وأخواتها» في القرآن الكريم، ط١ (بيروت: دار المعرفة، ٢٠١٧م)، ٥/ ٥٧ وما بعدها.

Readonly

هذا الحوار يوحي إلينا بأن أولئك التابعين إنما اتبعوهم انبهارًا لا قهرًا، اتبعوهم افتتانًا بهم لا خوفًا منهم ورهبة، فإنك ترى المتبوعين يتبرؤون من أنهم أكرهوهم على شيء ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾ [سبأ: ٣٢]؟ والتابعون يعترفون أن المسألة لم تكن إكراهًا بل كانت مكرًا مستمرًّا، وهذا المكر المستمر ليلًا ونهارًا هو الذي فتنهم وأذهلهم وجعلهم يصدون عن الهدى.

يتبين هذا المعنى واضحًا حين نراجع مواقف أخرى من حوار التابعين والمتبوعين... ففي سورة غافر قصَّ الله علينا حوار قوم فرعون وهم في النار، فقال تعالى:

- ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨].

فهنا أنت ترى حوارًا واضحًا بين تابع ومتبوع من نوع الحاكم والمحكوم، وترى في نفس المحكوم المضطهد ذلة وضعفًا لا تزال معه وهو في النار، فسؤاله عليه مسحة الرجاء الذليل والطلب الكسير والأمل المصبوغ بالخوف والتأدب والتمسح فيقولونها بصيغة السؤال (هل) مع التعظيم (أنتم مُغنون) مع التقليل من الطلب (نصيبًا من)... ويجيء الرد محمولًا بالكبر والعجرفة القديمة للحاكم الآمر المتسلط، فتراها عبارة قصيرة ولهجة قاطعة ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨]، كأنها باللهجة العامية «مش عايز دوشة، لا تطول معي في الحكي، لا توجع لي راسي» ...إلخ!

والقصد أن الحوار هنا مفارق للحوار الذي في سورة سبأ، فحوار سورة

Readonly

سبأ فيه معنى انبهار التابع بالمتبوع، وفيها معنى سيطرة المتبوع على التابع عن طريق الفتنة الناعمة، الثقافة الغالبة، المكر الهادئ، لا على طريقة الحاكم كما هي في حوار قوم فرعون.

ونرى نوعًا ثالثًا من الحوار بين أهل النار في سورة الصافات، وهو حوار بين أصدقاء أنداد، لا يملك أحدهم للآخر إلا الاقتراح والإغراء، قال تعالى:

- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ [الصافات: ٢٨ ـ ٣٢].

هذا الحوار الذي في سورة سبأ، بهذه الصيغة والطريقة، مما ينسجم مع هدف السورة وموضوعها الذي يتناول أهل الترف والسلطان، وفتنتهم عن طريق الإبهار والبريق لا عن طريق القهر والغلبة.

(٧) فما الحل؟!

ما الحل في مواجهة فتنة الترف والسلطان المبهر البرَّاق؟ وكيف يمكن أن نتخلص من سطوة الغالبين وننجو من طبيعة المغلوبين في تقليد من غلبوهم.

في سورة سبأ ستأتينا الآية العظيمة التي تقول: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهذه الآية هي الأصل في فهم علم نفس الجماهير الذي يُنسب البدء فيه إلى المستشرق والفيلسوف الفرنسي الكبير جوستاف لوبون، بينما نجد في كلام المفسرين وفي كلام وتصرفات سلفنا الصالح ما يدل على أنهم سبقوا إليه ونصُّوا عليه، ولا عجب! فإن لوبون نفسه يُقِرُّ بأن هذا العلم وإن كان هو أول من كتب فيه فإن سائر الزعماء قبله طبقوه فعلًا.

Readonly

لكننا هنا لا نتحدث عن مجرد تطبيق، فهذا مفروغ منه، وإنما نقول: إن هذه الآية قد أشارت إلى هذا الطبع الجماهيري في التفكير، وأنه طبع غير عاقل، وأن من أراد الحق فعليه أن ينخلع من تأثير الجماهير فيختلي بنفسه أو يصطفي معه صديقًا مقربًا مخلصًا ثم يفكر أو يفكران، فهنا يستطيع ويستطيعان التخلص من فتنة الغالبين المبهرين، ومن تأثير الجماهير عليهم.

ولا بأس من جولة سريعة في أقوال المفسرين والسلف الصالح في هذا المعنى:

لقد ذهب أبو حاتم إلى أن المعنى تامٌّ عند قولهظ: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ وأن ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ [سبأ: ٤٦] بداية جملة جديدة، و«ما» تكون نافية، فيكون المعنى: قوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا، فستصلون إلى أن نبيكم ليس به جنون! وبهذا يكون مطلب القيام مثنى وفرادى مطلبٌ قائم بنفسه. وقال غيره من أهل التفسير إن المعنى هو أن تتفكروا: هل بصاحبكم من جنة، فـ«ما» هنا استفهام[1].

وعلى المعنيين فالشاهد المقصود أن التفكير السليم إنما يكون بالانخلاع عن المجموع وأن يكتفي المرء بنفسه أو بآخر فحسب، قال مقاتل: «يتفكر الرجل وحده ومع صاحبه فيعلم ويتفكر»[2]، وقال ابن قتيبة: «فتقوموا لله وفي ذاته، مقامًا يخلو فيه الرجل منكم بصاحبه فيقول له: هلمّ فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل جنّة قط أو جرينا عليه كذبًا؟ فهذا موضع قيامهم مثنى. ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيفكّر وينظر ويعتبر، فهذا موضع قيامهم فرادى. فإنّ في ذلك ما دلهم على أنه نذير. وكل

---

(١) انظر: النحاس، القطع والائتناف، ص٥٦٥؛ مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية، ٩/ ٥٩٣٨؛ ابن سيده، إعراب القرآن، ٧/ ٢١٨.

(٢) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٥٣٧.

Readonly

من تحير في أمر قد اشتبه عليه واستبهم، أخرجه من الحيرة فيه: أن يسأل ويناظر، ثم يفكّر ويعتبر»[١].

واستخرج الزمخشري من الآية طبيعة التفكير في المجموع، قبل ثمانية قرون من حديث المعاصرين في هذا الموضوع، يقول: «والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم، وهي: أن تقوموا لوجه الله خالصًا. متفرّقين اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا في أمر محمد ﷺ وما جاء به، أمّا الاثنان: فيتفكران ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين، **لا يميل بهما اتباع هوى ولا ينبض لهما عرق عصبية**، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقرّ عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم، **والذي أوجب تفرّقهم مثنى وفرادى: أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر، ويعمى البصائر، ويمنع من الروية، ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب. ولا يُسْمَع إلا نصرة المذهب**»[٢].

وأضاف أبو حيان الأندلسي أن هذا التفكير «مُشَاهدٌ في الدروس التي يجتمع

---

(١) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص١٩١. وانظر: الطبري، تفسير الطبري، ٢٠/ ٤١٨؛ النحاس، معاني القرآن، ٥/ ٤٢٣.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ٣/ ٥٩٠؛ وانظر: المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد، ٥/ ٣٠٦؛ البيضاوي، تفسير البيضاوي، ٤/ ٢٥٠؛ النسفي، تفسير النسفي، ٣/ ٧٠؛ النيسابوري، تفسير النيسابوري، ٥/ ٥٠١؛ الإيجي، تفسير الإيجي، ٣/ ٣٩٤؛ أبو السعود، تفسير أبي السعود، ٧/ ١٣٨؛ ابن عجيبة، البحر المديد، ٤/ ٥٠٦؛ الألوسي، روح المعاني، ١١/ ٣٢٨.

Readonly

فيها الجماعة، فلا يوقف فيها على تحقيق»[١]. وأضاف الطاهر بن عاشور أن السلامة من عوائق التفكر السليم تقتضي أن يكون «مثنى وفرادى؛ فإن المرء إذا خلا بنفسه عند التأمل لم يرض لها بغير النصح، وإذا خلا ثاني اثنين فهو إنما يختار ثانيه أعلق أصحابه به وأقربهم منه رأيًا فسلم كلاهما من غش صاحبه»[٢].

وفي صدر الإسلام، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سمع عمرُ كلام بعض الناس في شأن الخلافة وهو في موسم الحج فأراد معالجة الأمر بخطبة في الناس، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:

«يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم **فتقول مقالة يُطَيَّرها عنك كل مُطَيِّر وأن لا يعوها وأن لا يضعوها على مواضعها**، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص **بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكنًا، فيعي أهل العلم مقالتك ويضعونها على مواضعها**»[٣].

فهنا خشي عبد الرحمن بن عوف أن يؤثر أمر الجموع والحشود على حسن فهم الكلام وتعقله، ونَصَحَ بأن يقال ذات الكلام في حضور أهل الفقه وأشراف الناس، بل إن في كلام عبد الرحمن بن عوف إشارة إلى أن الجماهير تؤثر على إلقاء الكلمة نفسها، وذلك في قوله: «فتقولَ ما قلتَ **مُتَمَكِّنًا**»، فالكلام في الحشود الكثيرة قد يذهب أحيانًا بالتمكن المطلوب.

---

(١) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ٨/ ٥٦١.

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٣٣.

(٣) البخاري ٦/ ٢٥٠٣ (٦٤٤٢).

Readonly

وفي هذه الوصية من عبد الرحمن بن عوف معنى آخر يُدرس في مباحث علم نفس الجماهير، وهو أن الجماهير تهتبل كلام القائد الذي يخطب فيها وتنقله دون وعي في العموم، وهذا من جاذبية القائد وسحره عليهم، وقدرته على التأثير فيهم، ولهذا استخرج العلماء من هذا النص التفريق بين أمور البلاغ العام التي تنقل للجميع وبين الأمور التي تحتاج إلى الموازنة والحكمة وبيان الحوادث التاريخية الدقيقة، فهي التي فيها يكون الانفراد بوجوه الناس، ممن يعقل وضع الأشياء في مواضعها، وأن العلم لا يحدث منه الناس إلا بما يرجى ضبطهم له[١]. وعلق القاضي ابن العربي على هذه الوصية بقوله: «كان خوف سوء التأويل للقول، وحمله على غير وجهه، مخوفًا في الصدر الأول»[٢].

ومن أشهر ما ينقل عن علي رضي الله عنه في هذه العلاقة بين الجمهور وشأن العلم والتفكير قوله رضي الله عنه: الناس عالم أو متعلم على سبيل النجاة أو همج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح[٣]. ويُلاحظ هنا إفراده العالم والمتعلم فلم يقل «العلماء» أو «المتعلمون»، بينما جَمَع في وصف الجهل، وأضاف إلى ذلك الوصف بأنهم أتباع كل ناعق، ويميلون مع كل ريح. وهذا هو جوهر معنى التأثير

---

(١) انظر: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ٦/ ١٧٠؛ ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، ١/ ١١٦؛ الكرماني، الكواكب الدراري، ٢٣/ ٢١٣؛ الشاطبي، الموافقات، ٥/ ١٧٠، ١٧١؛ ابن الملقن، التوضيح، ٣١/ ٢١٨.

(٢) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص١٩٥.

(٣) نقل هذا القول على خلاف يسير في ألفاظه، انظر: المسعودي، مروج الذهب، ٣/ ٣٥؛ السمرقندي، بستان العارفين، ص٣٠٤؛ ابن عبد البر، جامع بيان العلم، ١/ ١٤٥؛ الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر، ٢/ ٢٩.

Readonly

في الجمهور المحتشد وتوجيهه حتى لكأنه يفقد العقل والرشد، فيصير تبعًا لكل صيحة ومستسلمًا لكل ريح!

وإذا استوعبنا هذه العلاقة بين الجموع والتفكير العقلاني، فهمنا كثيرًا من سلوك العلماء في حلقات العلم وتضييقها على من تثبت جديتهم من التلاميذ وتراثهم في آداب المتعلم من جهة خفض الصوت ولزوم الأدب وتجنب الشغب والمماراة وكراهيتهم المناظرة بحضرة الجمع الكثير وغيرها من الأمور التي لا يتسع المجال لسردها مما يؤثر فيها كثرة الجمهور على فهم العلم، وأما الجموع الكثيرة فقد جعلوا لها الوعظ العام والكلام في الرقائق وعمومات الدين وأصوله الكبرى ونحو ذلك.

وموضوع علم نفس الجماهير، وأصوله المنثورة في القرآن والسنة وكلام سلفنا الصالح موضوع طويل، وكنتُ شرعتُ في كتابته ثم توقفت... فلعل القارئ الكريم يعينني بدعوة صالحة لأستأنف هذا البحث فيها.

فإذا عدنا من هذا الاستطراد إلى سورة سبأ، وجدنا أن السورة احتوت على حلول أخرى للنجاة من فتنة الغالبين من المترفين وأهل السلطان، وقد جاءت هذه الحلول تصريحًا أو تلميحًا:

ـ فكل إيمان بالله وبقوته وقدرته وعلمه الهائل المحيط يعصم من هذه الفتنة.

ـ والإيمان بالآخرة وتذكرها يعصم من هذه الفتنة ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

ـ وكل اقتداء بعباد الله الصالحين كداود وسليمان يعصم من هذه الفتنة.

ـ وكل اتعاظ بمصائر المترفين كقوم سبأ يعصم من هذه الفتنة.

Readonly

ـ والحث على الإنفاق في سبيل الله، وهو منثور في السورة، يعصم من أن تتكون نفسية المترف في قلب المسلم، فتعصمه بهذا من أن يُفْتَن أو يَفْتِن.

نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يفقهنا في كتابه الكريم.

* * *

Readonly

القرآن يعلمنا كيف ننجز المهمات الكبرى

نشر في «مدونات الجزيرة»

مايو ٢٠١٧

لعلك لا بد سمعت في الأيام الماضية كثيرًا قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال بعض مشايخنا: وإنما قال الله «أياما معدودات» للتسهيل على عباده، فلعله لو قال «شهرًا» لاستصعبها المسلمون، فاختار اللفظ الموحي بالسهولة تيسيرًا على عباده وتحفيزًا لهم! وعند أهل اللغة أن اختيار جمع المؤنث السالم (معدودات) دليل على القلة. (انتهى)

وإن كنت من أهل قراءة جزء كل يوم فستمرّ بعد أيام على قصة معركة بدر كما رواها القرآن الكريم، وسيذكر القرآن مشهدًا لن تراه في كتب السيرة والتاريخ، رغم كونه المشهد الأكثر تأثيرًا... لقد دبَّر الله لالتقاء المسلمين بالمشركين رغم أن المسلمين لم يكونوا يحبون هذا اللقاء، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، فكيف دبَّر الله هذا؟!

لقد قذف في قلوب الفريقين أن كليهما قادر على النصر، وأن عدوه ليس إلا قلة قليلة، قال ربنا القدير المدبر: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٣ ـ ٤٤]. تأمل في أن خيرة المسلمين،

Readonly

أصحاب بدر، لو كانوا قد تصوروا الأمر على حقيقته، وتحققت أعينهم انهيار ميزان القوى لدبَّ فيهم التنازع والاختلاف!

لمثل هذا يقولون: الفلاسفة لا يغيرون التاريخ، لأن أهل القياسات المنطقية الباردة أقرب دائمًا إلى الإحجام والتردد، إنما يغير التاريخ الأبطال المتحمسون، وأصلًا لا يكون البطل بطلًا إلا لأنه أقدم في موطن تقول الحسابات المنطقية أن التراجع أولى فيه، فلو أن البطل لا يقدم على الخطر ولا يتقدم إلا وهو يتحقق من النصر لما كان بذلك بطلًا!

لولا المشقة ساد الناس كلهمُ ... الجود يُفْقِر والإقدام قَتَّالُ

والروح العامة في القرآن الكريم إنما تريد أن تغرس في روح الإنسان أن ما يقوم به في الدنيا هو قليل، وسيجزيه الله عن هذا القليل بالكثير في الآخرة... ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]. ثم إن قليل الدنيا زائل على كل حال... هذه قصة الدنيا كلها في سطر واحد ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وهذه قصة الكافرين في نصف سطر ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

وقد ذكرنا في مقال سابق أن نفوس البشر تهرب من المشقة، حتى إن الله تعالى لما أنزل الإذن بالجهاد رغبت بعض النفوس أن لو كان الأمر تأجل قليلًا، قال تعالى:

Readonly

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ۖ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ۖ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]... فهنا كذلك حفَّز الله عباده المؤمنين وهم في إطار الجهاد الذي سيغيرون به وجه التاريخ بطريق تذكيرهم أن متاع الدنيا هو القليل، وأن الآخرة هي الكثير!

كيف نستفيد من هذا؟

لو أننا نرتوي من كتاب ربنا لتعلمنا منه قبل تعلمنا من كتب التنمية البشرية أن النفس تحتاج إلى المخادعة والمحايلة والمثابرة كي تنجز الأعمال!

تحتاج أن تقنع نفسك ما استطعت بأن المهمة التي أمامها بسيطة وممكنة وليست بالعظيمة المُعجزة، بعض التغيير الطفيف في طريقة العرض تفلح مع النفس، نعم... النفس تحب أن تُخدع أحيانًا! ويحب أصحاب التنمية البشرية أن يستدلوا بما رواه أهل الأدب عن الملك الذي رأى رؤيا فطلب من يُعبِّرها فجاءه فقال له: سيموت أهلك جميعًا أمام عينيك، فلم يملك نفسه من الحزن والغضب فقتله! ثم طلب غيره فجاءه فقال له: أبشر يا مولاي، أنت أطول أهلك عمرًا، فاستبشر وكافأه... والمعنى في الحالين واحد!

هكذا: «أياما معدودات»، وليس «شهرًا»... والمعنى واحد!

وهكذا: يمكنك أن توصف الواجبات والأعمال التي ينبغي عليك إنجازها بأيسر توصيف وأسهل تعبير، فتنشط النفس لأدائها!

يخبرنا أهل التنمية البشرية كذلك بحيلة الخمس دقائق، يقولون: إذا استصعبت النفس مهمة ما فحايلها بأن تعمل خمس دقائق فقط، فقط خمس دقائق ثم لتفعل ما تشاء. وذلك أن التجربة أثبتت أن النفس إذا بدأت في العمل استمرت فيه، وإنما المشكلة كامنة في «إرادة البدء» هذه!

Readonly

لو أننا نرتوي من كتاب ربنا وسنة نبينا لتبيَّنَّا مثل هذه الأمور من قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ومن قوله تعالى في الحديث القدسي: «من تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة». ومن قول نبيه: «لا تحقرن من المعروف شيئًا»، «فاتقوا النار ولو بشق تمرة»، «من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة (كعش عصفور) بنى الله له بيتًا في الجنة».

وفي إطار محايلة النفس ومناورتها، جاءت التنمية البشرية بنصائحها: تقسيم المهمة الكبيرة إلى مهمات صغيرة، تقوية الثقة في النفس وإقناعها بالقدرة على الإنجاز، تحفيز النفس ووعدها بالمكافأة إذا أنجزت عملًا ما، إقناع النفس بأن تحب ما تعمل ...إلخ!

والواقع أيضًا أن الشيطان يستدرج الواحد فينا بمثل هذا البطء والتحايل، ولذلك قال ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النور: ٢١]، فلو قال (لا تتبعوا الشيطان) لكان المعنى واضحًا ومفهومًا، ولكن لفظ «خطوات» أضاف معنى الخفاء والتسلل والاستدراج!

في رمضان فرصة لمعايشة القرآن... والقرآن يفتح لك أبوابه بقدر ما اقتربت منه وتدبرت فيه، ولقد استند أجدادنا إلى القرآن فغيروا وجه التاريخ، وأنجزوا المهمات العظمى، ولولا القرآن المغروس في النفوس لما بقي في الأمة من يجاهد، إن مجرد الحسابات المادية وحدها تدفع بالمجاهدين إلى الانتحار، لكن القوم الذين يحملون القرآن في صدورهم، ويرتوون من معانيه يعرفون أنهم على

Readonly

عهد وعلى وعد، وهو عهد ووعد تطيش أمامه كل الحسابات المنطقية الباردة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

* * *

Readonly

نصيبك من القرآن نصيبك من العمل

نشر في مجلة «المجتمع الكويتية»

مايو ٢٠٢٠

كتب د. محمد بن عبد الله الخضيري رسالته للدكتوراة في التفسير، فجاءت عملًا علميًّا ضخمًا وعزيزًا عن «تفسير التابعين»، وقد حصل على الشهادة العلمية بدرجة ممتاز، مع مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بتبادل الرسالة مع الجامعات.

وقبل أن يجذبني الثناء للاستطراد في الحديث عن الكتاب أدخل مباشرة إلى واحدة من النتائج التي استخلصها، تلك هي أنه وجد ميلًا إلى التخصص في تفاسير التابعين، فقد برزت مدرسة المدينة المنورة في التفسير في جانب السِيَر ورواية الأخبار والأحاديث والسنن، وذلك أن النبي عاش بين ظهرانيهم فكان لهم اهتمام بما نُقل عن النبي من الآثار والأخبار. بينما برزت مدرسة التفسير في مكة المكرمة في جانب مسائل الحج ودراسة آيات الأحكام الخاصة به، وذلك لقربهم من المشاعر وكثرة سؤال الوافدين عليها. بينما برزت مدرسة التفسير في البصرة في جانب اللغة والفصاحة ومعرفة الغريب، وذلك لوقوعها على حدود البادية وكثرة القادمين إليها من الموالي الذين لم يكثر فيهم اللحن، فحفظت هذه المدرسة شأن اللغة العربية من اللحن بالسبق إلى تدوينها. وأما مدرسة الكوفة فقد برزت في استنباط الأحكام الفقهية والاستكثار منها. وأما مدرسة الشام في التفسير فقد برزت في أحكام الجهاد؛ لأن الشام كان قلب حركة الجهاد، ولأن أهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد.

ومثل هذا البروز ظهر في أئمة التفسير كأفراد أيضًا؛ فقد تميز مجاهد في علم

Readonly

القرآن ولم يقاربه أحد في كثرة المروي من التفسير، وبرز الحسن البصري في جانب الوعظ والتوجيه، وبرز سعيد بن المسيب في جانب الأحكام لا سيما مسائل الطلاق، وبرز عطاء في فقه المناسك[1].

ومن هذا يتبين لنا أن الإنسان ينتفع بالقرآن بحسب الحاجة التي تفرض نفسها أو بحسب الشأن الذي انتدب الإنسان نفسه فيه، فمن انتدب نفسه للوعظ فسيكون انتفاعه من القرآن في هذا الباب أعظم من غيره، وكذلك الذي انتدب نفسه للفقه أو للجهاد أو للسير أو لمجادلة أهل العقائد والأديان الأخرى.

وهذا الأمر يفسر لم كانت أشهر التفاسير المعاصرة يغلب عليها ما لم يكن غالبًا على التفاسير القديمة، فقديمًا كان المفسرون يؤلفون تفاسيرهم فتتنوع اهتماماتهم منه، فمنهم من يعنى بجانب اللغة والبيان لإبراز بلاغة القرآن وفرادة ألفاظه ومعانيه، ومنهم من يعني بجانب جمع المأثور من أقوال النبي والصحابة والتابعين لمواجهة شطحات التأويلات الفلسفية أو الباطنية، ومنهم من يعني بجانب يرى أن الحاجة ماسة إليه في عصره وبلده كالأحكام أو العقيدة والوعظ وغيره.

ولا شك أن كل هذه الاتجاهات استمرت في عصرنا هذا، إلا أن أشهر التفاسير في عصرنا برز فيها جانب توضيح هداية القرآن وإثبات محاسن الإسلام، ومثل هذا المعنى لم يكن مسيطرًا على التفاسير من قبل، وما ذلك إلا لأن الأمة قبل عصر الضعف والاحتلال الحالي كانت لا تواجه محنة التشكيك في الإسلام ولا الانبهار بحضارة أمة غالبة عليها، كان القرآن في العصور الماضية هو المرجعية العليا التي

---

(١) للمزيد، راجع: د. محمد بن عبد الله الخضيري، تفسير التابعين: عرض ودراسة مقارنة، ط١ (الرياض: دار الوطن، ١٩٩٩م)، ١/ ٢٠ وما بعدها.

Readonly

يستدل بها المتخالفون ويحاول كلٌّ منهم الاحتجاج لمذهبه واتجاهه من خلال القرآن نفسه (وفي هذا يمكن مراجعة الدراسة المتميزة «العقائدية وتفسير النص القرآني» لياسر المطرفي)، بينما جاءنا هذا العصر بمحنة أن الإسلام نفسه صار في موضع الضعف والتهمة والتشكيك.

ومن هنا سعى المفسرون المشتغلون بهموم الأمة وقضاياها إلى تناول التفسير بما يُظهر هداية القرآن ومحاسن الإسلام، وخَفَتَ عندهم جانب العناية باللغة والتركيب أو جانب العناية بالأحكام الفقهية أو جانب مجادلة الفرق والمذاهب الإسلامية، وتلك هي التفاسير التي اشتهرت أكثر من غيرها في واقعنا المعاصر كتفسير المنار للشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا، وتفسير الظلال للأستاذ سيد قطب، وتفسير الشيخ سعيد حوى، وتفسير الشيخ الشعراوي.

وبعض التفاسير طغى عليها الاهتمام العلمي والعناية التي لم توجد من قبل في كتب التفسير بالحديث عن العلوم وما تشير إليه الآيات من دقائق الخلق وبدائع المخلوقات، مثل تفسير الشيخ طنطاوي جوهري المعروف بتفسير الجواهر، وهي الظاهرة التي تطورت في كتب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حتى صار من المشروعات المأمولة لدى المهتمين بهذا الباب: إخراج تفسير علمي للقرآن الكريم. وما ذلك إلا لطغيان العلموية في عصرنا هذا حتى صارت كأنها المرجعية العليا التي يُحتكم إليها ويقاس بمعيارها كل شيء، فصار من الهموم الإسلامية المعاصرة إثبات أن القرآن لا يناقض العلم بل إثبات أن القرآن سبق العلم إلى كثير من الحقائق.

وثمة باب آخر من التفسير زاد الاهتمام به في عصرنا الحاضر وهو باب التفسير

Readonly

الموضوعي للقرآن الكريم، وهو الباب الذي يحاول استكشاف موضوع السورة الواحدة وعلاقة الآيات داخل كل سورة بموضوع السورة، وقد كان أول التفكير فيه قديم لكنه كثر وصار الاهتمام به ظاهرة قوية، وبرز في هذا الباب عدد من الأسماء والمؤلفات كان أوسعها «موسوعة التفسير الموضوعي» الصادرة عن مركز تفسير في عشر مجلدات. وأحسب أن السبب هو طغيان الطريقة الحديثة في التأليف البحثي الموضوعي الذي كوَّن شعورًا عامًّا غالبًا ينفر من الاستطراد والخروج عن الموضوع، ويضع الشروط القاسية لتكون كل فقرة وكل سطر منها ذا وظيفة واضحة وجزءًا لا يمكن الاستغناء عنه من البنيان البحثي الكلي للفكرة. ولم تكن هذه الطريقة في التأليف طاغية في العصور السالفة أو على الأقل لم يكن التأليف محكومًا بمثل هذه الطريقة فكان المؤلفون يكثرون من الاستطراد والبيان فيما يرون أنه مما يلامس الموضوع، ومن ثمَّ فلم يغلب على الأقدمين الاهتمام بشأن موضوعات السور، لكون الطريقة الموضوعية لم تكن مُلِحَّة على أفكارهم وأذهانهم.

هذا فضلًا عن ظهور محاولة جديدة لتفسير القرآن بحسب ترتيب النزول، وهي المحاولة التي تحاول استكشاف «تطور الخطاب القرآني» سواء أكان ذلك لأغراض تاريخية أو دعوية أو حركية، وهذه المحاولة جاء أصلها من المستشرقين الذين حاولوا تطبيق المنهج التاريخي على القرآن الكريم وسيرة النبي ﷺ كأن القرآن خطاب بشري وليد للزمان والمكان والظرف والحال، ولكن هذه الطريقة لم تمنع آخرين من محاولة استكشاف المنهج القرآني المتدرج في الدعوة والخطاب والبناء الحركي، وإن كانت هذه المحاولة على حد ما أعلم لم تسفر عن نتائج مهمة[1].

---

(١) للمزيد، ينظر دراسة د. طه محمد فارس، «تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول» إذ ناقش فيها المحاولات الأربعة للتفسير على هذه الطريقة.

Readonly

وإذا ابتعدنا عن هذا المضمار العلمي الفسيح والرحب، ونظرنا إلى أنفسنا، فسنجد أن القرآن الكريم يعطي المرء منه على الوجه الذي يطلبه القارئ فيه، فإن الذي يهتم ويحفل لإصلاح نفسه وتهذيب أخلاقه سيصيب من القرآن ما يصلحه ويهذبه، والذي يهتم لعلاقاته مع أهله وأولاده والناس من حوله سيصيب من القرآن ما ينفعه في هذه الأمور، والذي يهتم لإصلاح مجتمعه سياسيًّا واقتصاديًّا وفكريًّا فإنه سيصيب في القرآن هذه المعاني، والذي يهتم لشأن الجدل مع الأديان والعقائد وأهل الظلم والطغيان فسينهل مما يجده في هذا الباب.

إلا أن أهم ما في الأمر أن القرآن الكريم نزل ليكون دافعًا للعمل لا لمجرد الثقافة الفكرية والرياضة الذهنية، فإدراك هذه المعاني إدراكًا نظريًّا لا يترتب عليه عمل هو أمر مذموم، هكذا فهم الصحابة خطاب الله لهم فكانوا يتعلمون الآيات العشر فيعملون بها، ثم يتعلمون غيرها كما قال عبد الله بن مسعود: «كنا لا نتجاوز عشر آيات حتى نتعلمهن ونعمل بهن، ونعلمهن، ونعلم حلالهن وحرامهن، فأوتينا العلم والعمل».

وقد قدَّمنا في أول هذه السطور أن القرآن يثبت ويثمر بالممارسة والحاجة، فبحسب ما تكون فيه من العمل وبحسب الحاجة التي تطلبها بحسب ما تستفيد من القرآن الكريم حقًّا... أما قراءة القرآن كما تُقرأ الجرائد أو الاستماع له كما يُستمع إلى الأغاني والابتهالات فهي إن لم تكن حجة على صاحبها يحاسب عليها فإنها لن تنفعه ولن يشعر فيها بلذة خطاب الله له، بل لعله قرأ القرآن قراءة المستثقل له المتحمل العبء به.

***

Readonly

وقفة مع: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؟

نشر في مجلة «المجتمع الكويتية»

يونيو ٢٠٢٠

من الآيات الشديدة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وذلك أنه تبارك وتعالى استعمل لفظ «وتكفرون» الذي هو غاية التشنيع على فاعليه والتقبيح لعملهم، فلم يقل مثلًا: أفتؤمنون ببعض الكتاب وتتركون بعضًا، وتدعون بعضًا، أو حتى: وتنسون بعضًا، أو: تهملون بعضًا... لا، إنما استعمل لفظ «الكفر».

وهذه الآية يكثر استعمالها على ألسنة الدعاء والعلماء حين يعمدون إلى الإنكار على بعض العادات أو السلوك المخالف للدين بين المسلمين، وهي لهذا آية ينفر من سماعها أولئك الذين يصدون عن سبيل الله وأولئك الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

لكن الغريب الذي يلفت النظر هنا أن هذه الآية نزلت تدين سلوكًا كان اليهود يفعلونه، هذا السلوك إذا حُكِي اليوم في أمتنا فأغلب الناس سيرون أنه عمل عظيم يدل على التمسك بالدين وعلى تعظيم اليهود لشريعتهم!!

ومختصر الأمر أن اليهود في المدينة المنورة قبل هجرة النبي ﷺ كان أكبر قبائلهم ثلاثًا: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة. ومع هذه الفرقة فيما بينهم اختلفت مصالحهم فاختلفت حساباتهم وتحالفاتهم السياسية، حتى وصل الأمر إلى أن بني قريظة كانت في حلف مع الأوس، وبني النضير كانت في حلف مع الخزرج، فإذا نشبت الحرب بين الأوس والخزرج (وهم وثنيون) قاتلت كل قبيلة

Readonly

من اليهود مع حلفائهم، فإذ باليهودي يقتل اليهودي وينهب ماله ويخرب داره تقديمًا لحسابات السياسة والحلف على صلة الدين والعقيدة.

حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، سعى جميع اليهود في افتداء الأسرى منهم، فيسعى بنو النضير في افتداء أسرى بني قريظة والعكس كذلك، فكانت العرب تستغرب هذا وتُعَيِّرهم به، يقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ فيقول اليهود: إنا أُمِرنا في شريعتنا أن نفديهم وحُرِّم علينا قتالهم. فيقولون: فلم تقاتلونهم؟ فيقول اليهود: إنا نستحيي أن يُسْتَذَلَّ حلفاؤنا.

وروى أصحاب التفسير وقائع تدل على أن اليهود كانوا يبذلون المال وإن غلا وزاد في افتداء الأسرى منهم ولو من بلاد بعيدة، مع أنهم أبخل الناس بالإنفاق. ويرون أن التخلي عن الأسرى وقوع في الكفر[1].

وهكذا كان اليهود يقاتلون بعضهم نزولًا على مقتضى السياسة وأحلافها، ويفْدون بعضهم نزولًا على مقتضى الدين والعقيدة... وهنا نزل القرآن الكريم يُشَنِّع عليهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ويتوعدهم بالعذاب بألفاظ قوية رهيبة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ١/ ٤٧٨ (ط١ مؤسسة قرطبة، ٢٠٠٠م)؛ موسوعة التفسير بالمأثور، ٢/ ٥٢٨ وما بعدها (ط١ دار ابن حزم، ٢٠١٧م).

Readonly

مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

لو غضضنا الطرف مؤقتًا عن هذا التشنيع القرآني الشديد، واستعملنا ثقافتنا المعاصرة في تقييم هذا المشهد فإن أغلب المحللين سيرى أن هذا من نبل الأخلاق وشدة الإيمان، إذ كيف تسمح نفس المرء أن يدفع من أمواله ليفتدي أسيرًا كان هو نفسه سببًا في أسره، وربما لو اختلف الحال قليلًا لكان قد قتله فعلًا، ثم انظر كيف ينسى القوم ما كان بينهم من القتال ليتعاونوا معًا في فداء أسراهم!

لو تصورنا مثلًا أن دولتين من الدول الإسلامية نشبت بينهما الحرب، أو حتى لو عدنا بالذاكرة إلى ما قبل ثلاثين سنة وتصورنا أن الحرب قد نشبت بين المعسكرين الشرقي والغربي، واضطرت دولتان مسلمتان تحت ضغط السياسة أن تتقاتلا، ثم إذا انتهت الحرب انطلقت هاتان الدولتان في مباحثات دبلوماسية محمومة وبميزانية مالية مفتوحة لاستنقاذ الأسرى المسلمين... إذا حصل هذا فكيف كان سيكون تقييم هذا الأمر؟! سيُكتب في إنجازات هاتين الدولتين وسيُبرَّر لهما ذنب دخول الحرب بمقتضى السياسة والحلف وتكتب فيهما عرائض التبرير بمعاذير الاضطرار والإكراه والتأويل!

لقد ابتعدنا عن المثال كثيرًا، إننا الآن في زمن يستبيح فيه بعضنا بعضًا بلا دين ولا حتى قانون وضعي، بل أكثر البلاد المسلمة الآن ترتكب جرائم تسليم المسلمين لعدوهم وهم يعلمون ما سيلقونه من القتل والتعذيب الشديد، والأمثلة معروفة ومريرة. فإذا كان هذا التشنيع الإلهي الشديد على من ترك شيئًا من شريعته وتمسك بشيء، فكيف يجب أن يقال في مثل هؤلاء الذين تركوا الكتاب مطلقًا فقتلوا وأسروا وسَلَّموا؟!

Readonly

ورد عن عمر رضي الله عنه حين قرأ هذه الآية أنه قال: «إن بني إسرائيل قد مضوا، وإنكم يا أهل الإسلام تُعنون بهذا الحديث».

لقد كانت هذه الآية واحدة من الأعمدة التي بُنِيَت عليها أحكام التحالف بين المسلمين وغير المسلمين، وأحكام القتال بين المسلمين إذا وقع بينهم، وأحكام التعامل في قتال البغاة والغلاة من المسلمين وأسراهم وجرحاهم، والاستعانة عليهم بعدو من غير المسلمين، إلى آخر هذه الأحكام المبسوطة في كتب الفقه.

ولقد كان تعبير الآية عن القضية تعبيرًا لطيفًا عالي المعنى، توقف عنده المفسرون طويلًا، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥].

قال أهل التفسير: «نفسك يا ابن آدم أهل ملتك»[(١)]. وقالوا: «جعل غيرَ الرجل نفسَه إذا اتصل به أصلًا ودينًا»[(٢)]. وقالوا: «فإن قيل: وهل يسفك أحدٌ دمه، ويخرج نفسه من داره؟ قيل له: لما كانت ملتهم واحدة وأمرهم واحدًا، وكانوا في الأمم كالشخص الواحد، جعل قتل بعضهم لبعض وإخراج بعضهم بعضًا قتلًا لأنفسهم ونفيًا لها». وبعض القراءات جاءت بصيغة المبالغة كقراءة «تُسَفِّكون دماءكم» وهي زيادة في التقبيح والتشنيع[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري، ٢/ ٣٠٠، (ط١ مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م).

(٢) حاشية الطيبي على الزمخشري (فتوح الغيب)، ٢/ ٥٥٩ (ط١، جائزة دبي للقرآن الكريم، ٢٠١٣م)، وما في المتن عبارة الزمخشري.

(٣) تفسير القرطبي، ٢/ ٢٣٦ (ط١ مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٦م).

Readonly

وتوقف بعض المفسرين عند هذه الآية مع معنى عقوبة النفي، فقال: «وفيها تحريم إخراج الإنسان من دياره وأرضه وتغريبه بغير حق، والإخراج من البلد عقوبة شرعية يجب ألا تنزل إلا بسبب شرعي، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، فجعل الله سبب الإخراج من البلد: محاربة الله ورسوله، وإنزال العقوبة لمجرد مخالفة المحكوم للحاكم في رأيه ـ الذي لا يخرج عن حد النقل والعقل ـ غير جائز. ولما جعل الله النفي عقوبة دلَّ هذا على أن بقاء الإنسان في بلده حق مشروع له، يجب أن يحفظ ويصان، ومن واجبات ولي الأمر حفظه، وليس نزعه... وعقوبة الإخراج من الأرض والبلد عقوبة شديدة يقر بقسوتها جميع الشرائع المؤمنة والكافرة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]، فسمّى الله الإخراج من الأرض ظلمًا... وينبغي للحاكم الذي يريد إخراج أحد من بلده: أن يعرف قدر أثر الإخراج على صاحبه؛ فهو ظلم شديد، ولا ينبغي أن ينزل إلا في حال العجز عن كف الأذى والردع إلا به، ولا بدَّ من معرفة قدر الفساد اللازم من إخراجه عليه وعلى ذريته من بعده، ومقارنته بالسبب الموجب لإخراجه، والحكم في ذلك لتقدير الله في كتابة وسنة نبيه بنظر عالم عارف، لا بالهوى والتشهي»[1].

***

(١) الطريفي، التفسير والبيان، ١/ ٨١، ٨٢ (ط١ دار المنهاج، ١٤٣٨هـ).

Readonly

المنشاوي... صوت السماء الخاشع البَكَّاء

نشر في «مدونات الجزيرة»

يونيو ٢٠١٧

أصعب المقالات قاطبة تلك التي تحاول أن تصف فيها شعورًا ما، فالمشاعر لا توصف، ولهذا فلكم دار الشعراء والأدباء حول المعاني ولا يزالون ثم لا تزال المعاني تلهم مَن بعدهم أوصافًا جديدة... لذلك فإن الذي يُقدم على وصف مشاعره يدخل في منافسة هائلة مع أرباب البيان والبلاغة وحظه فيها من الفوز حظ ضئيل.

فكيف إذا أراد المرء أن يكتب عن صوت هز القلوب وحركها في طول عالم المسلمين وعرضه، سمعته الآذان من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، فتأثرت به واهتزت له وخشعت معه، صوت يتبارى في تقليده العرب والعجم، ولا تزال تقبل عليه القلوب والأسماع كأن صاحبه لم يمت منذ نحو نصف القرن، وقد جاء نصف القرن هذا بعدد هائل من مشاهير القراء تدفق علينا عبر الفضائيات والإذاعات وشبكة الانترنت.

محمد صديق المنشاوي...

توفي في مثل هذا اليوم (٢٠ يونيو ١٩٦٩م)، ولست أدري إن كان ثمة من تذكره أم لا في عالم الفضائيات والإذاعات، لكنه وإن لم يتذكره أحد فلا ريب أن صوته كان يصدح في البيوت والمساجد والهواتف والمجالس والحلقات!

بغير انتقاص من أي قارئ، يظل الشيخ المنشاوي أوسع القراء قبولًا فيما أعلم، إنه يقرأ القرآن كأن له فيه طريقة مختلفة وكأن فيه سرًّا مجهولًا... القرآن في صوت المنشاوي كأنه غضٌّ طريٌّ نَدِيٌّ، فيه تلك الروح التي تفوح من كل شيء حي، يشعر

Readonly

المرء أحيانًا أن القرآن يتنزل عليه فلم تزل فيه رائحة السماء وأنفاس الملائكة!

ولست أدري كيف يمكن تقريب هذا المعنى، إن له في القرآن خشوعًا عجيبًا، صوته يميل إلى الحزن والبكاء، لكنه ليس حُزْنَ مُتَصَنِّعٍ ولا بكاءَ مُتَكَلِّف، إنه خشوع حزين يغمر القلب كالنهر العذب، فيرى المرء في القرآن جمالًا لا يشعر به مع غيره.

وللرجل في تلاوة القرآن إحساس عالٍ في الوقف والابتداء، فهو يقرأ آية سورة غافر ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤ ـ ٦٥]... فإذا به يواصل القراءة بعد ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ويقف عند قوله: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾، فيظهر للآية معنى جديد: أن الله الذي أنعم علينا بكل هذه النعم، ورزقنا كل هذا الرزق حي لا يموت... فتسري في النفس طمأنينة قريرة، لا يملك المرء نفسه إلا وهو يقول: الله الله الله!

وفي أول تلك القراءة من سورة غافر بدأ الشيخ تلاوته من قول الرجل الصالح من قوم فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ [غافر: ٣٩]، فكانت هذه البداية التي أطال فيها وكررها من خير ما ينزع السامع من حياته الدنيا لينتبه لهذا القرآن الذي سيأتيه بما هو أهم من الدنيا، فيحسن استقباله له، فيسمع بعدها قول الله تعالى:

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠

Readonly

أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٣٩ـ٥٢].

لست أحسب أن السامع المنصت قد يتلقى هذه المعاني العالية بذات الاستعداد لو كانت البداية بغير هذه المفاجأة ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ [غافر: ٣٩].

ولست أطيل في ذكر الشواهد، فإخواننا من الحفظة والمتقنين يعرفون منها الكثير والكثير... إنما المقصود هو لفت النظر إلى أن هذا الرجل كان يقرأ بقلبه، فيعرف كيف يصوغ المعاني بصوته، فتأخذ طريقها إلى القلوب، ثم تأخذ الدموع طريقها إلى العيون.

وبقدر ما استطاع كثيرون جدًّا أن يجتهدوا في تقليد صوته من الأطفال والكبار، من العرب والعجم، كما تشهد مقاطع المسابقات القرآنية، بقدر ما عجز أحد أن يبلغ في الإتقان والأثر مبلغه، إن الأمر ليس مجرد الصوت والنغم وإتقان مخارج

Readonly

الحروف وحركات المدّ، صلب الأمر أعمق من هذا... إن في تلاوة المنشاوي روحًا موصولة بالسماء تجعل الآية حية نابضة!

ساقني اليوتيوب قبل أيام إلى واحدة من تلك المسابقات القرآنية على قناة إيرانية، فكرة المسابقة أن يُختار مقطع لقارئ ثم يجتهد المتسابقون لتقليده، وأحسب أن مثل هذا المقطع خير ما يمكن أن أضرب به المثل على ما أقول.

أول ما انتبهت لصوت المنشاوي حين كنت طفلًا، كان يصدح صوته من مئذنة المسجد الكبير في قريتنا التي كنت أزورها صيفًا، وكانت عادة القرية أن يسبق المؤذن وقت الصلاة بإذاعة شيء من القرآن، فكنت أنتظر هذه اللحظات وأتشوق إليها وأتمنى لو كان المنشاوي ـ دون غيره ـ قبل كل صلاة. ومهما كانت رغبة الطفل في اللعب واللهو كان صوت المنشاوي يغلبها فتتوقف لتسمع وتتأمل وتستمع!

بصوت المنشاوي صرت أتشوق لأعرف كيف كان صوت عبد الله بن مسعود الذي قال فيه النبي: «من سرَّه أن يسمع القرآن غضًّا طريًّا كما نزل فليسمعه من ابن أم عبد». وكيف كان صوت أسيد بن حضير الذي نزلت الملائكة لتسمعه حتى هاجت فرسه، وكيف كان صوت أبي موسى الأشعري الذي أحب النبي أن يسمع القرآن منه!

ثم كيف هو صوت رسول الله ﷺ؟!

كيف كان صوت صاحب القرآن الذي نزل عليه القرآن فكان أول من سمعه من جبريل وأول من تلاه في دنيا الناس؟!... وكيف كان الصحابة يستمعون إليه منه ﷺ؟!

Readonly

ثم كيف سيكون نعيم أهل الجنة الذين ورد في نعيمهم أنهم سيسمعون القرآن من الله تبارك وتعالى بنفسه؟!!

يا الله!!! كيف يُمكن تصور هذا النعيم؟ وكيف يمكن أن يغمر المرء مثل هذا الجمال؟! وأي بحار أنوار وأمواج نِعَم وفيضان متعة ستجتمع في تلك اللحظة؟!

اللهم ارحم عبدك محمد صديق المنشاوي، ولا تحرمنا لذة قراءة كتابك وفهمه والعمل بما فيه، ولا تحرمنا نعيم الجنة وما فيها من متعة سماع كتابك منك يا ودود يا كريم يا رحيم.

* * *

Readonly

Readonly

في أروقة شهر رمضان

يصوم المسلمون شهر رمضان المبارك ولا يخطر ببال أكثرهم أكثر من أنهم يقومون بفريضة دينية يرجون ثوابها في الآخرة، ولكن العبادات والشعائر الإسلامية لها مردود قوي وعميق، مباشر وغير مباشر، في نظام الإسلام السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وهذا هو ما يجعل المجتمع الإسلامي قادرًا على مقاومة الحداثة والتغريب والعلمنة حتى الآن!

إن المجتمع حين يؤدي فرائضه الدينية فإنه يصنع من خلالها علاقاته الاجتماعية وبنيته الاقتصادية وقوته السياسية، ولذلك لم يأتِ محتلٌ أو طغيانٌ إلا وكان يقف مباشرة في وجه العبادات والشعائر الإسلامية بقدر ما يمكن له، وبحسب ما يستطيع مما تسمح به الظروف.

في هذه المقالات نتوقف عند شهر رمضان وصيامه، وكيف يكون هذا الصيام فعَّالًا في نظام الإسلام السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، عبر هذه العناوين:

- رمضان من أركان النظام السياسي الإسلامي
- معركة رمضان بين الأمة المسلمة والسلطة العلمانية
- هل المجاهرة بالإفطار في رمضان حرية شخصية؟
- كيف نعالج الفتور وننشط للعشر الأواخر
- وداع القرآن في آخر رمضان

Readonly

رمضان من أركان النظام السياسي الإسلامي

نشر في مجلة «المجتمع الكويتية»

مايو ٢٠٢١

يتميز النظام السياسي الإسلامي على غيره من النظم، بأنه يقوم على أمريْن متوازييْن: تحديد صلاحيات السلطة، وتقوية المجتمع وتكتيله وشدّ روابطه.

إن الأزمة الأساسية في أي نظام سياسي تكمن في تفاوت ميزان القوة والقدرة بين السلطة والمجتمع، وهو ما يؤدي إلى تغول السلطة وميلاد الاستبداد والفساد، فكلما زاد الفارق بين قوة السلطة والمجتمع كلما كان هذا دليلًا على نظام حكم طغياني، وكلما قلّ هذا الفارق كلما كان هذا مشيرًا إلى مجتمع متوازن لا يعاني من بطش الحُكْم.

وبغض النظر عن كون النظام ملكيًّا أو جمهوريًّا، فحقيقة الأزمة ليست في الشكل وإنما في جوهر قدرة السلطة على الاستبداد بالمجتمع مع عجزه عن صدِّها وإيقافها عند حدِّها، فقد توجد أنظمة جمهورية أشد بطشًا وطغيانًا من أنظمة ملكية، ويمكن لهذه الأنظمة الجمهورية أن تمارس بطشها بفارق القوة العسكرية الخشنة وحدها، أو بمزيج من القوة العسكرية الخشنة والقوة الناعمة المتمثلة في الإعلام والثقافة والاقتصاد، حيث يجري في تلك المجالات تنظيم وترتيب النخبة الحاكمة وتدبير أمور الانتخابات ونتائجها.

ومن وجه آخر، فلربما كانت الأنظمة الملكية أنسب لبعض المجتمعات من أخرى، كأن يكون ذلك امتدادًا لطبائع عريقة أو ثقافة سائدة أو ضرورات اجتماعية، فالمسألة الجوهرية والهمّ الأساسي في السعي إلى إيجاد النظام العادل ليس متعلقًا

Readonly

بالشكل والأسلوب، وإنما يتعلق بكفاءة النظام السياسي في تحقيق العدالة والرشاد.

وإذا تجاوزنا طبيعة الأشكال والأساليب فسنجد أنفسنا أمام هذه الحقيقة، وهي: مدى قدرة السلطة على الانفراد بالمجتمع والطغيان فيه، ومدى قدرة المجتمع على إيقاف هذا التغول والتصدّي له.

لقد جاء الإسلام بالحل العظيم لهذه المعضلة، والذي يتمثل ـ كما أسلفنا ـ في تحديد صلاحيات السلطة ومجالات عملها، ويتمثل أيضًا في تقوية المجتمع وتكتيله. بحيث يكون تجاوز السلطة لمساحات عملها تغولًا يثير القلق والمقاومة وليس أمرًا طبيعيًّا، وبحيث تكون لدى المجتمع القدرة الكافية على التصدي لهذا التغول والبطش.

وهذا الحل ليس مجرد وثيقة فكرية أو قانونية، بل هو نصوص قرآنية ونبوية تتمتع بالقداسة، ولها تأثيرها الروحي الهائل في مجتمع المؤمنين، فهي تتمتع بما لا يتمتع به دستور ولا قانون من القوة العملية في نفوس المجتمع. كما أن الأمر لم يتوقف عند مجرد النصوص وإنما تحول إلى منهج حياة، فقد رسم الإسلام طريقة حياة المسلمين بما يزيد دائمًا من قوتهم الاجتماعية وترابطهم المستمر.

وإذا نظرنا إلى شهر رمضان ضمن هذه الصورة، وما فرضه الله فيه من الصيام، وما سنَّه النبي من القيام، وما ندب إليه من عمل الخير، فسنجد أنفسنا أمام موسم عظيم لتقوية المجتمع وشدّ روابطه وتمتين أواصره.

إن الحالة الروحية التي يُغمر فيها المسلمون في شهر رمضان تقوي من قدرتهم على إصلاح أنفسهم، فالمسلم يرى نفسه كيف يستطيع أن يتخلص من أرسخ عاداته وأقواها، وهي عادات طعامه وشرابه، فإذا به يستطيع أن يقضي طيلة النهار بغير طعام

Readonly

ولا شراب مهما كانت قسوة الظروف. وهو ما يبعث فيه الثقة بالنفس واليقين بقدرته على أن يتغير لما هو أفضل، فإن القادر على كسر أقوى عاداته أقدر على ما دون ذلك من أسباب ضعفه وتراخيه.

كذلك فإن المسلم الذي يمتنع عن الطعام والشراب في السرّ والخلوة، يتذوق من جديد معنى مراقبة الله، فحتى الطفل الصغير في بيوت المسلمين تجده يتعرف على معنى مراقبة الله في شهر رمضان، فيمتنع من تلقاء نفسه عن أن يفسد صومه وإن أَمِنَ مراقبة الكبار. ولو تمكنت قيمة مراقبة الله والخشية منه في نفوس المسلمين فإنها تكون من أقوى عُدَّتهم في مواجهة أي ظلم أو فساد.

تلك الحالة الروحية التي تسود هذا الشهر، والتي يتذكر فيها المسلم الدار الآخرة، والتي يهون عليه فيها شأنُ الدنيا، هي التي تُعِدُّه إعدادًا خاصًّا لكي يعيش في الدنيا وقلبه معلق بالآخرة، وما أوسع الفارق بين رجل انكبّ على الدنيا لا يفكر في غيرها، وبين رجل يعمل في الدنيا وهو يرجو الآخرة. إن هذا الرجل الثاني أصعب شيء يمكن أن تواجهه السلطة الظالمة!

هذا بعضُ ما يناله المسلم في نفسه إن هو أحسن العمل لله في هذا الشهر.

وفوق ذلك، يأتي ما يستفيده المجتمع كله، ذلك أن اجتماع المسلمين في وقت الصيام والإفطار والسحور والتراويح، يغرس فيهم هذا الشعور القوي بالأمة الواحدة، وبانتمائهم إلى نبيهم ـ ﷺ ـ لتظل هذه الوحدة حقيقة قائمة مهما استطاعت أحوال السياسة تقسيمهم إلى دول وأقطار مختلفة. وهذا الشعور تزيد قوته في المجتمعات القريبة حيث يرى الناس بعضهم البعض في الصلوات وفي التراويح وفي إفطار العائلات، وفيما يتجدد من صلة الأرحام والزيارات المتبادلة،

Readonly

ومن محاولات الصلح بين المتخاصمين، وفي خروج الناس إلى الطرقات لبذل الإفطار للعابرين والعالقين، وفي تفقد الأيتام والأرامل والمساكين، وفي غير ذلك من المشاهد.

في كل تلك المشاهد تنبعث آفاق جديدة من التعاون على البر والتقوى، ومن نَظَرِ الناس في مصالحهم وأوجه تشاركهم، وهو ما يثمر في النهاية أعمالًا ومؤسسات وروابط عائلية وثقافية واجتماعية وغيرها. وأدنى الثمرة هي ما يوجد من التعارف والتقارب والتصافي بين من لم يكن برنامجهم اليومي يسمح لهم لا باللقاء ولا بالتعارف.

قبل أن تغزونا الحداثة ومنتجاتها الفاسدة، كان الناس يجتمعون في ليل رمضان على تلاوة القرآن والمدائح النبوية، وعلى إطعام الطعام، وكان الأغنياء والعائلات والقبائل يتنافسون في عقد تلك المجالس وتزيينها بالقراء والعلماء والوُعَّاظ. ولئن كان الجيل القديم قد أدرك شيئًا من هذه المظاهر فمن المؤسف أن الجيل الجديد قد فتح عينه ورمضان هو شهر الغزارة في المسلسلات والبرامج الضاحكة والعروض الفاسدة لقضاء رمضان في ضدِّ ما جعله الله له. وتلك من وسائل الشياطين ـ شياطين الجن والإنس ـ لمقاومة أثر هذا الشهر في نفوس المسلمين.

كان الأزهر الشريف يعطي إجازته للطلاب في شهر رمضان، فكان طلاب الأزهر يعودون إلى قراهم وبلدانهم ليكونوا نجوم الدعوة والعلم بين أهليهم، وكان اللصوص والمفسدون يتأدبون ويتهذبون في هذا الشهر فتراهم يصلون ويصومون ويمتنعون عما كانوا يفعلون مراعاة لحرمته، بل كان الذمّي من اليهود والنصارى يمتنع عن الجهر بالطعام والشراب مراعاة للذوق مع مجتمع المسلمين. فلما

Readonly

جاءت تلك الحداثة قلبت حال الناس فضغطت بثقلها على المتدينين بحيث صاروا ينتزعون أنفسهم بصعوبة من إغراء متابعة البهارج البراقة من البرامج والمسابقات والمسلسلات.

لماذا يُعَدُّ ويُخَزَّن كل هذا الفساد لإطلاقه في رمضان على وجه الخصوص؟ لماذا هذا الشهر وحده من بين الشهور جميعًا؟!

إن هذا التركيز الخاص على إفساد هذا الشهر، يجب أن ينبهنا إلى ما يخشاه المفسدون من آثار هذا الشهر على الفرد وعلى المجتمع، تلك المفاسد التي قيَّدت الناس أمام التلفاز وعرقلتهم عن الانطلاق إلى دروس العلم ومجالس الوعظ، بل وعرقلتهم عن تفقد أحوال عائلاتهم ومجتمعاتهم، وقبل ذلك وبعده أفسدت عليهم الروحانية الشاملة التي يمكن لها أن تقلب حياتهم لتصوغهم من جديد!

لا، ليست الحرب في هذا الشهر عبثية، بل هي مقصودة... وإن الشياطين التي صُفِّدَت في رمضان قد أوحت إلى أوليائهم من شياطين الإنس، ماذا عليهم أن يفعلوا! وما أجدر شياطين الإنس أن يخافوا ويفزعوا، إنهم لأشد الناس رعبًا من أن يتحرر الناس من الشهوات، وأن يجتمعوا فيزداد تكتلهم وترابطهم وتعاونهم، فحتى الذئب ذو الناب والمخلب لا يجرؤ على مهاجمة القطيع، وإنما يأكل الشاة القاصية.

* * *

Readonly

معركة رمضان بين الأمة المسلمة والسلطة العلمانية

نشر في «المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية»

يونيو ٢٠١٦

ليس التناقض بين الإسلام والعلمانية يسيرًا ولا هو مما يمكن تجاوزه، ذلك أن نظام الإسلام متناقض في كل باب مع نظام العلمانية، ولربما استطاع العلماني أن يزوِّر معنى العلمانية فيسوق لها باعتبارها «حيادًا ووقوفًا على مسافة واحدة بين الأديان»، مثلما يحاول «مسلم متعلمن» أن يُزَوِّر معنى الإسلام فيدعي أنه لا يتناقض مع الحداثة ومتطلبات الدولة الحديثة! إلا أن محاولات التزوير هذه لن تصمد إلا قليلًا، إذ قضايا الواقع ستحمل كلًّا منهما على رأي فيه تنازل عن الإسلام أو تنازل عن العلمانية!

هـذا شهر رمضان... مثال على قضية واقعية عظيمة تمثل مساحة للمعركة الإسلامية العلمانية.

معركة الفتوى والنظام

أصدرت دار الإفتاء المصرية فتوى ترفض اعتبار المجاهرة بالإفطار في رمضان حرية شخصية، بل تجعل ذلك من الاعتداء على قدسية الدين، وهو مما يستوجب المحاسبة والمعاقبة.

فجَّرت الفتوى جدلًا كبيرًا، إذ اعتبرها البعض ـ لا سيما من غير المسلمين ومن العلمانيين ـ دعوة للتحريض على المُفطرين في نهار رمضان، وكان أهم ما وُجِّه للفتوى من انتقادات أنها مصادرة على الحرية الشخصية، إذ الدين علاقة

Readonly

بين الإنسان وربه ليس للسلطة أن تتدخل فيها، ومن ثم فمن حق كل فرد أن يفطر أو يجاهر بالإفطار، وأنه إذا لم يفعل فإنما يكون هذا من باب الذوق والمجاملة للصائمين لا أكثر.

هكذا إذن اصطدم نظام الإسلام بنظام العلمانية، وليس ثمة حل لفض هذا الاشتباك إلا بالميل نحو أحد الأمرين: إما أن نحذف من الإسلام أي إدانة أو عقوبة للمجاهرة بالإفطار، وإما أن تتخلى السلطة «العلمانية» عن حيادها بين الأديان لتقترب من الإسلام وتعاقب من ينتهك حرماته، وإن كان ذلك بتصرف ـ هو في الثقافة العلمانية ـ شديد الخصوصية ويمثل التزامًا تعبديًّا كاختيار الصوم أو الإفطار في رمضان!

تبدو الأزمة أمام السلطة معقدة، بل هي على الحقيقة مستحيلة، ذلك أن الإسلام محفوظ في نص معصوم خالد، محفوظ في الصدور والسطور، لا يمكن لأحد تغييره أو تبديله أو تحريفه، ثم إن العلماء الموكلين بفهم النص وتفسيره ليسوا تنظيمًا هرميًّا ولا هم مندرجون في مراتب كهنوتية، بل هم تيار واسع ممتد، ولذلك لا يملك أحدهم ـ على غرار المسيحية ـ أن يحرم ما كان بالأمس حلالًا أو يحل ما كان بالأمس حرامًا، ولا قيمة لشيخ الأزهر ولا لمفتي الجمهورية ولا لأي رتبة علمية في نظام إداري، إن هذا لا يعطيهم حصانة من الانحراف ولا هو يسمح لهم بالإتيان بشيء جديد فيه مخالفة للنصوص الثابتة من القرآن والسنة وإجماع جماهير العلماء عبر خمسة عشر قرنًا!

كذلك فإن الإسلام قد أقام دولة استمرت لأكثر من ألف سنة، ونموذجها المثالي استمر لأربعين سنة (العهد النبوي في المدينة + الخلافة الراشدة)، مما يعني

Readonly

أن مسألة سياسة الدولة وعلاقتها تجاه الأحكام الدينية مسطورة ومكتوبة ومبحوثة فقهيًّا في مئات الآلاف من الكتب، فهي ليست نازلة جديدة تحتاج فتوى جديدة يمكن الدخول منها إلى تغيير علاقة السلطة بالدين أو إعادة تعريف لمساحة ونفوذ كل منهما!

إن معركة الفتوى والنظام تمثل مشهدًا ملفتًا للنظر، فبقدر ما تبدو السلطة العلمانية متغولة بالإمكانيات قاهرة بالقوة، بقدر ما تبدو بائسة قليلة الحيلة أمام إدخال العلمانية إلى صميم حياة الناس، وهي إذا عجزت عن هذا فإنها في الوقت نفسه مهددة بأن يتمدد أثر الإسلام العميق في حياة الناس إلى مساحتها التي اغتصبتها بالقوة والقهر.

لذلك لن تجد أبدًا في بلادنا علاقة سوية ومفهومة بين مؤسسة الفتوى والنظام، بل هي كما يصف الله تعالى المنافقين ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٣].

معركة إنتاج الثقافة

للسلطة منذ القدم أثرها الواضح في إنتاج الثقافة وترويج الأفكار، حتى قيل: «الناس على دين ملوكهم». وقيل: «إذا تغير السلطان تغير الزمان». وقيل: «التاريخ يكتبه المنتصرون» ...إلى آخره!

أما في العصور الحديثة فقد اختلف الأمر كثيرًا، لقد أصبحت السلطة وحشًا أسطوريًّا رهيبًا بما وفرته له التطورات التقنية الحديثة من وسائل، فصارت السلطة تمتلك وسائل إنتاج الثقافة والأفكار وتسيطر عليها، وذلك منذ ظهرت المطبعة، ثم الإذاعة والتليفزيون. لقد تحكمت الدولة المركزية في سائر الأنشطة

Readonly

التـي تجـري فيهـا، بدءًا مـن الإعـلام والتعليم وحتـى التصاريـح بالخطابـة أو بإلقاء الـدروس في المسـاجد!

وهكذا لم يقتصر الأمر على ما أتيح للسلطة من وسائل ترويج ضخمة لأفكارها وثقافتها، بل لم يعد بالإمكان تقديم أفكار أصلًا إلا بإذن من السلطة!

يعدُّ رمضان مثالًا على هذه الحالة أيضًا، حالة التنازع بين الأمة المسلمة والسلطة العلمانية في بلادنا، ففيما قبل عصر الدولة المركزية كانت ملامح رمضان ترسمها الأمة أساسًا، ثم صارت ملامح رمضان ترسمها السلطة!

قبل عصر الدولة المركزية كانت الأمة تحيي رمضان بالعديد من التقاليد الخاصة التي تكثر فيها خطب العلماء ودروسهم وقراءة القرآن في المساجد أو الساحات، أو فعاليات الإفطار الجماعي وتقديم العون للمحتاجين وتوزيع الأموال والصدقات وإدخال السرور على الأطفال... فإذا حلَّ الليل تحولت بيوت العائلات الكبيرة إلى مجالس يُقرأ فيها القرآن وتُنْشد فيها المدائح النبوية، وكان الأغنياء يوقفون من أراضيهم وأملاكهم على هذه المجالس كي تستمر بعد وفاتهم، ولذا استمرت المجالس بما يُنفق عليها من ريع هذه الأوقاف إلى وقت قريب!

ما إن دخلت الإذاعة والتلفاز إلى البيوت حتى انتزعت السلطة مساحة رمضان من الأمة، وصارت صناعة رمضان بيد السلطة التي صنعت تقاليد جديدة: الفوازير وألف ليلة وليلة، والمسلسلات الدرامية، والمسابقات الرمضانية، وأنماط من البرامج المثيرة: الكاميرا الخفية وبرامج الاعترافات وبرامج الربح السهل للأموال ...إلخ!

وبهذا صار رمضان في وجدان الأجداد وأجدادهم غير رمضان في وجدان هذا

Readonly

الجيل تمامًا، بل صار مناقضًا له... فهذا رمضان كل شعائره اقتراب من الله، وهذا رمضان كل شعائره ابتعاد عن الله واقتراب من التغريب والانحلال!

وهكذا يثبت رمضان ـ كمثال ـ أن العلمانية لا يمكن لها على الحقيقة أن تكون مجرد «حياد بين الأديان أو وقوف على مسافة واحدة منها»، بل هي فكرة وثقافة ورؤية وتصور كوني، وهي تعمل على إنتاج ونشر وترويج هذه الثقافة من خلال وسائل الإعلام ونظام التعليم وسائر منافذ التأثير في المجال العام.

ليست السلطة العلمانية محايدة إذن، ولا يمكنها أن تكون... إنما هي صاحبة موقف لأنها صاحبة رؤية وتوجه، وهذا التوجه إما أن يكون إسلاميًّا منسجمًا مع الأمة وإما أن يكون ضد الأمة، وفي الحالتيْن: لن يكون للعلمانية معنى!

الخلاصة

لذلك لم تفرض العلمانية في البلاد الإسلامية إلا بعنف السلطة وقهرها وبعد كمٍّ هائل من المذابح، فإما كان هذا بيد الاحتلال الأجنبي، أو كان بيد ممثليه في بلادنا كمحمد علي في مصر وأتاتورك في تركيا. ولذلك أيضًا لم يُسمح في بلادنا بسلطة حقيقة معبرة عن الشعب، إذ ما إن يُطرح اختبار السلطة في البلاد الإسلامية إلا ويصعد الإسلاميون، فتأتيهم الانقلابات العسكرية المدعومة بالقوى الإقليمية والخارجية!

ولذلك أيضًا لن يمكن تغيير هذه الأحوال إلا بثورة وكفاح، ليس فقط لأن كافة الطرق قد جُرِّبت ولم تفلح، بل لأن المعركة لا يمكن تجاوزها ولا نسيانها، السلطة العلمانية لا بد لها أن تهيمن على مساحات هي من صميم الإسلام، والإسلام متغلغل في أدق الأمور الشخصية وفي أوسع القضايا الكبرى، لذلك تبحث السلطة

Readonly

العلمانية بإصرار في تغيير هذا الدين بعناوين مثل «التجديد» و«إصلاح الخطاب الديني» والبحث عن النسخة «الوسطية المعتدلة» من الإسلام، وهي لا تبحث في تنفيذ هذا بمجرد الحوار والإقناع بل بسلطة النفوذ والتأثير وبسوط السجون والمعتقلات كذلك... إنها في الحقيقة الصورة التي أخبرنا الله تعالى عنها منذ قديم في آية من كتابه، آية يغفل عنها البعض، ويريد البعض الآخر أن يتجنبها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

* * *

Readonly

هل المجاهرة بالإفطار في رمضان حرية شخصية ؟

نشر في موقع «ساسة بوست»

يونيو ٢٠١٦

تطورت بعض برامج «الكاميرا الخفية» إلى حالة مفيدة وراقية، بدلًا من الترويع والسخافات والاستفزاز والتوريط... بعض البرامج استحدثت أساليب لاختبار القيم والأخلاق لدى عموم الناس: قيمة الدفاع عن بنت ضد التحرش، الدفاع عن أب ضد عقوق ابنه، رفض التطبيع مع إسرائيل، إعادة أموال وقعت من صاحبها، إسعاف من أصابته أزمة صحية ...إلى آخره!

وهذا لا شك تطور جيد ومفيد ومهم... لكن ينبغي التنبيه فيه على أمرين:

الأول: أن قوة الدفاع عن هذه القيمة تعبير حقيقي عن قوة تماسك هذا المجتمع، وعن احتفاظه بالقيم الإسلامية الأصيلة المتجذرة كعادات وتقاليد... إن المجتمع الذي يندفع فيه أحدهم ليضرب الابن العاق لولده (وهو في غضبته تلك يرى أن هذا من حقه: إنزال العقاب بالمخطئ الذي لا علاقة له به) هو أشد تماسكًا وتراحمًا وأصالة من المجتمع الذي يكتفي فيه المرء بالنصيحة أو الكلام أو حتى إبداء الامتعاض من غير فعل!

الثقافة المجتمعية الحقيقية هي التي يرى فيها الأفراد أن من حقهم «تغيير المنكر» أو «الحسبة على غيرهم» أو «التدخل في شؤون الآخرين»... وكلما قويت هذه الثقافة كلما كان المجتمع أبعد عن التغريب وأقرب إلى الإسلام وأرجى للنفع والأمل!

Readonly

الثاني: أن قيمة تغيير المنكر هي قيمة إسلامية أساسية، بل هي شرط خيرية هذه الأمة، أي أن الأمة تفقد خيريتها إذا امتنع أفرادها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... بل إن زوال هذه القيمة هي سبب لعن الأمة وإسراع الفناء إليها كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]... وأخبر النبي أن أول ما دخل الفساد إلى بني إسرائيل أن صاحب المعصية فيهم لا يجد غربة وإنكارًا من المجتمع، بل يظلون على علاقتهم الطبيعية به في المجالسة والمؤاكلة والصحبة.

وطوال القرن الماضي كان علماء الاجتماع يفرقون بين «المدينة الحديثة» باعتبارها البيئة التي أصابها التغريب، وتفشت فيها الفردانية، وقل فيها التماسك الاجتماعي، وانقطعت فيها اهتمامات الناس ببعضهم ومعرفتهم ببعضهم... وبين الأحياء الشعبية أو القرية التي «يمارس أفرادها الحسبة على بعضهم» وتجمعهم قيم عامة يدافعون عنها، فهذه هي البيئة الشرقية «التقليدية» التي لم يصبها «التحديث»!

ولهذا البحث والتفريق آثار طويلة عريضة في فهم نفسيات القادة والسياسيين... فكلما كان السياسي على رأس السلطة وليد بيئة اجتماعية متماسكة كلما خيف منه على العلمانية والتغريب (أردوغان ومرسي مثالًا)... وكلما جاء من نمط تحديثي تغريبي كلما استقر وتأسس وترسخ نمط العلمانية والتحديث والرأسمالية الطاحنة (والأمثلة كثيرة تشمل كل الطبقة الثانية من الحكام الذين هم أبناء الملوك والرؤساء: جمال مبارك أو سيف الإسلام القذافي أو بشار).

وأسوأ الأمثلة هم أولئك الذين خرجوا من الطبقات المطحونة ثم وصلوا إلى

Readonly

السلطة فاندمجوا فيها وفي نمطها فتحولوا إلى ملوك جدد، كسائر طبقة العسكر والمنافقين والوصوليين في المجتمعات المتحولة اقتصاديًّا واجتماعيًّا!

المهم أن هذا الأمر ليس مسألة بسيطة أو عابرة بل لها آثار بعيدة أفاض علماء الاجتماع في دراستها وتوصيفها، خصوصًا وأن الاحتلال عمل جاهدًا على صناعة طبقة ملتصقة به، يكون لها تعليمها الخاص وسكنها الخاص وقيمها الخاصة وعلاقاتها الخاصة وأهدافها الخاصة...

[لمن أراد التوسع: اقرأ ما كتبه المسيري عن الجماعات الوظيفية، وعن الفوارق بين المجتمعات التراحمية والمجتمعات التعاقدية، أو نماذج تطبيقية مثل: «معذبو الأرض» لفرانز فانون ـ «استعمار مصر» لتيموثي ميتشل].

بقي أهم ما في الموضوع، والذي لأجله كتبت كل ما سبق، وهو:

إن التدخل لتغيير الخطأ ليس مستنكرًا في أي وجدان إنساني، بل إن الذي يتدخل (خصوصًا لو كان يعرض نفسه للمخاطر) يحظى بأوصاف البطولة والشهامة والمروءة والإنسانية!

المشكلة هنا في أمر واحد، بسيط ولكنه جوهري وفارق: من الذي يحدد أن هذا «خطأ»؟!.

نحن المسلمون لا إشكالية لدينا في هذا، فالإسلام يحدد ما هو الصحيح وما هو الخطأ، ولدينا في هذا تراث هائل من النصوص القرآنية والنبوية فضلًا عن تراث فقهي كبير يدور حول شرح وتحديد وفهم هذه النصوص!

وهكذا لكل قوم مرجعيتهم الثقافية التي تحدد لهم ما هو الصحيح وما هو الخطأ... وهي المرجعية التي تتحول إلى نصوص قانونية تحميها الشرطة والقضاء!

Readonly

نكبتنا الحالية هي أننا دولة مسلمة مفروض عليها سلطة علمانية، وهذه السلطة تعمل جاهدة على مطاردة الإسلام، ولا يرضيها إلا أمثال أحمد الطيب، وخالد الجندي، وسعد الهلالي، وبقية التافهين الذين خانوا الله ورسوله وباعوا دينهم لأجل السلطة!

لذلك نعاني من محنة شديدة ظهرت بأبرز وجوهها في فتوى دار الإفتاء (وهي فتوى خارج السياق وغير مفهومة بالنسبة لي حتى الآن) التي تعتبر أن المجاهرة بالفطر في رمضان ليس ضمن الحرية الشخصية وإنما هو اعتداء على قدسية الإسلام. (ولا شك أن الفتوى صحيحة تمامًا).

ساعتها دخل العلمانيون والمسلمون التائهون الذين لا يعرفون دينهم ولا حتى لديهم فكر متكامل لينقدوا هذه الفتوى ويهاجموها... (فضلًا عن بشاعة أن يهاجمها نصراني لا علاقة له بالأمر أساسًا).

هنا يبدو الفارق واضحًا بين نموذج العلمانية والإسلام!

الإسلام الذي يبيح للناس التدخل للدفاع عن امرأة ضد التحرش، ويحثهم على تغيير منكر عقوق الوالد، ويوجب عليهم التدخل لإنقاذ مريض سقط في الشارع... هو نفسه الإسلام الذي يعطيهم الحق في إنكار وتغيير منكر المجاهرة بالإفطار في رمضان! ويعطيهم الحق في إنكار وتغيير زي المرأة المتبرجة أيضًا!

أما العلمانية، ولأنها ثقافة أخرى ونموذج معرفي مختلف، فإنها تريد من الناس أن يتحركوا ضد التحرش وضد الاعتداء على طفل وإنقاذ مريض، وهي نفسها تمنعهم من التدخل ضد المجاهرة بالإفطار أو الزنا أو الشذوذ أو التعليق على زي المرأة باعتبار هذا كله «حرية شخصية»!.

Readonly

فالذي يهاجم فتوى دار الإفتاء فيه علمانية ولو لم يعرف أو يقصد... وهو لا يعترض على مسألة التدخل في الحرية الشخصية نفسها (لأنه يبيحها في حال الاعتداء على طفل أو عجوز) ولكنه مسكون بثقافة علمانية تفرق بين أمور لم يفرق بينها الإسلام، وتجمع بين أمور فرق الإسلام بينها.

وهو في غمرتهم هذه يتناسون ظروفًا كثيرة وفوارق ضخمة وأساسية بين الإسلام والعلمانية.

* * *

Readonly

كيف نعالج الفتور وننشط للعشر الأواخر؟

نشر في «مدونات الجزيرة»

يونيو ٢٠١٧

كيف نعالج الفتور ونجدد النشاط لاغتنام العشر الأواخر؟!

أحسن ما سمعت في هذا الأمر كان كلام شيخنا الكبير الأسير البصير حازم أبو إسماعيل، فقد قال ـ فك الله أسره ومتعنا به ـ إن علاج الفتور ليس في مجرد الضغط والمجاهدة، وإنما مفتاح العلاج في رفع درجة الاستعداد القلبي للعبادة، ذلك أن القلب الذي يشعر بالفتور لا يفلح معه كثيرًا الضغط عليه بالمزيد من عبادات الجوارح، وإنما يحتاج إلى تدريبات تأهيل.

تدريبات التأهيل هذه تستهدف إيقاظ القلب من مشاغله اليومية المتكررة التي تملك عليه أمره، لا بد أن يأخذ القلب بعض الجرعات التي تنتزعه من حاله هذا إلى حال آخر ليتحول إلى مقبل على العبادة حريص عليها... كيف ذلك؟

يكون هذا بزيارة المستشفيات، فيها يرى المرء صورة المرضى أصحاب الكرب والألم والمعاناة، فيشهد ما هم فيه من التعب، فيشهد ما هو فيه من النعمة ولذة الصحة والعافية، ويعرف بها حقارة الدنيا ونقصان لذتها، وقرب زوال نعيمها، فالمرض يأتي فجأة، والحوادث تقع فجأة، والحريق يشتعل فجأة... وما بين لحظة وأخرى تغير حال هؤلاء إلى حال آخر.

ويكون هذا بحضور الجنازات، وحضور لحظة إنزال القبر، ورؤية الأجساد التي كانت تنطلق حية متحركة وقد صارت جثة، يحملونها ويضعونها ويقلبونها فلا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، لا تملك حتى أن تنطق أو تعترض أو تقاوم أو تعبر عن

Readonly

رغبة، قد ذهب عنها كل شيء، وصارت من أهل الآخرة، انقطع بها العمل وهي الآن في أول منازل المساءلة... بعد لحظات سيبدأ السؤال والحساب، وبعد قليل سيبدأ الجسد الرقيق المنعم المعطر يعانق التراب ويسرح في أرجائه الدود، وما هي إلا أيام وشهور حتى ينتهي كل شيء، وتصير الروح إما في الجنة أو في النار.

ويكون هذا بزيارة اليتامى، والفقراء، والمحتاجين... المسح على رأس يتيم، وإسعاد محتاج، وتفريج الكربة عن صاحب الضيق... في سماع شكاوى الناس وحاجاتهم ينبت شعور الحقيقة، الحقيقة بقيمة هذه الدنيا وقلة شأنها، وأنها تقلب من حال إلى حال، ولا يملك المرء إنقاذ نفسه في الدنيا إلا باللجوء إلى الله، ثم لا يملك إنقاذ نفسه في الآخرة إلا إن زهد في الدنيا وعرف قيمتها ومنزلتها، فلم يتعلق بها ولم يحرص عليها، ولم يبع في سبيلها دينه وأخلاقه.

ويكون هذا بالجلوس إلى بعض الصالحين، ففي بيئة الصالحين اختلاف واسع عن بيئة عموم الناس، هناك قوم يحرصون على العبادة ويجتهدون فيها، يسمعون الآية فتسيل دموعهم، يعظمون شأن القرآن وشأن النبي وشأن العمل الصالح، يتسابقون في الخيرات... في بيئة الصالحين تنافس من نوع آخر، وأساليب حياة أخرى، منهم من فُتِح عليه في باب العلم فهو يتكلم كأن كتاب الله وسنة نبيه محفوظة في صدره تملأ عليه روحه، ومنهم من فُتِح عليه في باب الإنفاق فهو كالريح المرسلة ينفق بغير حساب، ومنهم من فُتِح عليه في باب الصلاة فهو يحب القيام ويطيل الوقوف حتى تحسبه قد انعزل عن الدنيا وخرج منها، ومنهم من فُتِح عليه في قراءة القرآن فهو عاكف عليه كما يعكف الواحد منا على هاتفه المحمول، له في قراءته شغف ولهفة ومتعة، وهكذا... ثم إن الجلوس مع الصالحين مظنة نزول الرحمات والبركات، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال:

Readonly

«إن لله تبارك وتعالى ملائكة سَيَّارة (أي: تسير في الأرض) فضلًا يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذكر قعدوا معهم، وحَفَّ (أي: أحاط) بعضهم بعضًا بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، قال: فيسألهم الله عز وجل ـ وهو أعلم بهم ـ : من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك. قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك. قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا أي رب. قال: فكيف لو رأوا جنتي؟! قالوا: ويستجيرونك. قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك يا رب. قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا. قال: فكيف لو رأوا ناري؟! قالوا: ويستغفرونك. قال: فيقول: قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا. قال: فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطَّاء إنما مر فجلس معهم. قال: فيقول: وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

والمقصود من إيراد الحديث هو هذه الجملة الأخيرة، أن من جالس الصالحين ولو لحاجة أو غرض شملته الرحمة والمغفرة ببركة جلوسه معهم.

ثم إن كل إنسان يعرف من نفسه ما الذي يؤثر فيه ويحرك نفسه، فمنهم من يؤثر فيه سماع القرآن من شخص بعينه، ومنهم من تحركه خطبة شيخ بعينها، ومنهم من إذا زار أخًا له بعينه ذكَّره بالله فيلين قلبه... وهكذا!

المهم أن الحل الأمثل في إنقاذ القلب وإيقاظه لاغتنام العشر الأواخر لا يكون فحسب بمجرد الضغط بزيادة عبادات الجوارح، بقدر ما يحتاج القلب إلى مثل هذه العبادات التي ترفع من درجة يقظته واستعداده، فيسهل عليه أن يقوم بعبادات الجوارح من صلاة وتلاوة وقرآن وجهاد أيضًا!

Readonly

لا يجب أن يغيب عن البال أبدًا أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إنما جاهدوا وفتحوا البلاد في العشر الأواخر من رمضان، فلم يكن كل عبادتهم صلاة وصيام وقرآن، بل في هذه العشر الأواخر فُتِحت مكة، وفيها فتحت الأندلس، وفيها تم فتح عمورية، وفيها أوقف زحف المغول في عين جالوت، وفيها فُتِحت بلجراد، وغير ذلك من الفتوحات.

* * *

Readonly

وداع القرآن في آخر رمضان

نشر في مجلة «كلمة حق»

يونيو ٢٠١٨

هـذه السـاعات الأخيـرة مـن رمضـان... سـاعاتٌ وينفضُّ السـوق... سـوق الرحمـات الكبير...

وتلك هي ساعات أمثالنا ممن يرجو أن يلحق بركب المقبولين والعتقاء رغم ضعفه ووهنه وسوء بضاعته...

تلك هي ساعاتنا وفرصتنا، فإن أهل الهمة والسبق والنشاط قد حصلوا على العتق في الأيام الأولى، ومن كان أدنى منهم همة فقد أدركه فضل الله في الأيام الوسطى... وأما أمثالنا ممن يأتي على عرج وعلى عوج وعلى مهل فإننا نطمع فيما بقي من الرحمة التي نهل منها السابقون...

قد جعل الله آخر رمضان أفضله لتشتد فيه الهمم، وما أحسبها إلا همم المتبطلين المقصرين... أولئك الذين لم تنهض همتهم ولا أعمالهم لتقتنص الفضل الوافر من أيامه الأولى...

ثم من يدري...

من يدري، هل نستطيع أن نعبد الله في رمضان مرة أخرى أم لا...

فلعلـه المـوت يأتينـا فـلا نـرى شـمس رمضـان ولا غروبهـا أبـدًا... وكم في القبـور الآن مـن يتمنـى لو أنـه اغتنم سـاعة أخيرة مـن رمضانـه الأخيـر! إذن لتغير مصيـره الأبـدي كله...

Readonly

ترى ما قدر حسرة امرئ في قبره يتذكر ساعة أخيرة من رمضانه الأخيرة فرَّط فيها واستعجل على نفسه لهو العيد وعبثه... أكاد أراه يتقطع من الغيظ والغضب على نفسه وعلى ما فرطت...

فها نحن في تلك الفرصة... فلنغتنم ما استطعنا!

ثم من يدري...

من يدري لعله يصيبنا مرض فيحرمنا من الصيام أو القيام أو لذة تلاوة القرآن... وكم على سرير المرض الآن من يتمنى لحظة قيام أو ساعة صيام أو تلاوة صفحة من كتاب الله...

كم من مريض يمر عليه رمضان وهو في غيبوبة لا يشعر به، أو يشعر به ولا يستطيع أن يؤدي العبادة فيه، فيجول بخاطره رمضانه الأخير الذي كان فيه يصوم ويصلي ويتلو... فكيف تكون أشواق هذا ليعود لما كان فيه؟ وكيف هي أحزانه أن عجز عن عادته في رمضان؟!

ثم من يدري...

من يدري، ونحن أبناء الأمة المستضعفة المضطهدة التي تتقلب أحوالها وتضطرب أيامها، وتأتيها الكوارث على غير حساب... من يدري كيف سيكون حالنا في رمضان القادم؟!

نسأل الله السلامة والعافية والعزة والنصر... ولكن!

كم من مسلم كان سليمًا معافًى في رمضان سابق جاء عليه رمضان الحالي وهو قد فقد جارحة: عينًا أو لسانًا أو يدًا أو رجلًا...

Readonly

كم من مسلم كان حرًّا طليقًا فإذا به اليوم أسير، أسير لا يملك أن يعبد الله في رمضان، بل هو في حكم سجانه الطاغية الذي يتفنن في إيذائه...

كم من مسلم كان في بلده وأهله هو اليوم مغترب في بلاد كفر لا يسمع فيها الأذان ولا يجد حوله صلاة تراويح...

لا أتحدث هنا عن أجر هؤلاء، فإن الله يكتب لعباده أجر عمل اعتادوه وعجزوا عنه، إنما الحديث عن الفرصة المفقودة... الفرصة التي يعجزون عن إدراكها بعد أن ذاقوا حلاوتها.

تلك الفرصة ما زلنا نحن فيها، ولا تزال أمامنا منها ساعات... ساعات قد تكون الأخيرة!

أكثرنا اليوم يختم القرآن... وفي أجزاء القرآن الأخيرة آيات ذات أثر عميق، كأنها آيات تنبه العبد إلى أحوال نهايته...

مثلًا:

ـ في سورة الحديد تقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧].

هذه الآية تقول ألم يحن الوقت بعد كل هذا القرآن الذي تلوته أن يخشع قلبك لذكر الله... هل سيطول عليك أمد ترك كتاب الله فيقسو قلبك؟ هكذا فعل الذين أوتوا الكتاب قديمًا، لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم... اعلموا أن الله يحيي القلوب بعد قسوتها كما يحيي الأرض بعد موتها!

Readonly

ـ في سورة الحشر تقرأ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ربما تتلو القرآن وأنت غافل عن المعنى فتأتي هذه الآية لتكشف لك حجم الأزمة التي أنت فيها... إن هذا القرآن الذي توشك على ختمه لو كان قد نزل على جبل لكان الآن قد خشع وتصدع من خشيته لله... ألم يحدث هذا لقلبك بعد؟!

تحاول أن تستوعب المعنى من جديد، تقرأ الآية التي تسبقها لتفهم السياق، فإذا أنت أمام قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]...

لا تترك كتاب الله، فتنسى الله، وحين تنسى الله فستذهب منك نفسك، تضيع وتتوه في أودية الدنيا، والدنيا كثيرة الأودية كثيفة المسالك والمهالك... لا يمسك نفسه فيها إلا من تعلق بحبل الله وذكره.

ـ في سورة المنافقين والتغابن تقرأ نفس المعنى في آيات مختلفة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

وقع في قلبي أنها تحذير من العودة بعد رمضان إلى مشاغل الأهل والولد حتى ليغفل المرء بها عن ذكر الله الذي كان يمارسه في رمضان...

والوصية التي تتلو كلا الآيتين، وصية إنفاق... يبدو أن الإنفاق هو العمل

Readonly

الـذي يحفـظ النفس مـن هذا التيـه والضيـاع، وهـو العمل الـذي يربطها بـالله رباطًا وثيقًـا... اقرأ لكـن بقلبك:

﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠].

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٦ ـ ١٧].

ـ في آخر سور القرآن تكثر وبشكل عجيب ومثير للدهشة كلمة «تذكرة»... فمن بين ٧ مرات ذكرت فيها هذه اللفظة كانت ٥ منها في السور الأخيرة، مع معانٍ لاذعة قوية كأنها تمسك بتلابيب الإنسان أن يتذكر ولا ينسى، وألا يعود بعد ختمه القرآن إلى ما كان فيه كأنه لم يقرأه ولم يمر به...

اسمع:

في سـورة الحاقة بعـد ذكر إغراق قـوم نـوح ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢].

في سورة المزمل بعد ذكر فرعون ومشهد القيامة ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [المزمل: ١٩].

في سورة المدثر يوصف القرآن بأنه تذكرة بعد ذكر النافرين منه الهاربين من معانيه ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ [المدثر: ٥٤ ـ ٥٥].

في سورة الإنسان ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [المزمل: ١٩].

Readonly

وفي سورة عبس ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤ ـ ٥٥].

وهكذا خمس وصايا تتركز في نهاية القرآن تقول للمرء: تذكر ولا تنسى...

كأن القرآن يعرف أن كثيرًا من قارئيه سيودعه بعد رمضان... فهو يذكرهم وينبههم، تنبيه الحريص الشفوق...

ومن ذا يدري... لعله الوداع النهائي... فترى كم واحد منا ستكون تلك آخر ختماته في حياته!

اللهم، يا ذا الفضل الواسع، يا من كتبت على نفسك الرحمة... اشمل عبادك الضعفاء برحمتك وإن لم يكونوا أهلًا لها... ولئن كان عبادك كثير، فلا رب لنا سواك... أنت الغني عنا ونحن الفقراء إليك... خذ بأيدينا ونواصينا إليك، أخذ الكرام عليك... واجعلنا من المقبولين...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

Readonly

Readonly

الباب الخامس
في أروقة الكتب

ـ في أروقة الفكر والتاريخ

ـ في أروقة أدب السجون

* * *

Readonly

Readonly

في أروقة الفكر والتاريخ

كان العقاد يقول: إنني أقرأ لأن حياة واحدة لا تكفيني.

ليس من شك في أن الكتب حياة أخرى، وما تنقله من العلم هو رحيق العقول وخلاصتها، والكتب عند محبيها كالشهوة لا تفتر بل تزيد، وكلما رُوِيت زادت، بل الكتب عند مؤلفيها بمثابة الأبناء، وككل شيء فإن الكتب فيها الغث والثمين، وفيها ما ينطق بالهدى وما ينطق بالضلالة، ومن ثَمَّ فإن القارئ حين ينصح غيره بكتاب ما أو يحذرهم من كتاب ما فإنما يقوم في ذلك بواجب النصح والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكذلك يفعل القارئ أيضًا حين يكتب نبذة عن كتاب أو ما اصطلح على تسميته «مراجعة الكتاب»، فإنه بذلك يوفر وقت غيره ويكشف عن كنز مطمور أو يحذر من فخ منصوب.

في هذه المقالات مجموعة من الكتب التي قرأتها فتوقفت معها وكتبتُ عنها، وقدَّمت للحديث عنها بمقالات ثلاثة تتحدث عن جمال الكتب في الحضارة الإسلامية، وعن الكتب التي أرشحها لمن يريد القراءة في التاريخ ويستصعب الكتب التاريخية، ثم عن الكتب التي أرشحها لمن أحب أن يقرأ في تاريخ مصر الحديث على وجه الخصوص. فعلى هذا جاءت عناوين هذا الفصل:

- جمال الكتب في الحضارة الإسلامية
- دليلك لقراءة تاريخ مبسط ومشوق غير ممل

Readonly

ـ دليلك لقراءة تاريخ مصر الحديث

ـ الدولة المستحيلة

ـ موجز تاريخ الإسلام

ـ نقد التقليد الكنسي

ـ تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي

ـ حياتي في رحاب الأزهر

* * *

Readonly

جمال الكتب في الحضارة الإسلامية

نشر في «مدونات الجزيرة»

مارس ٢٠١٧

لا نعلم في التاريخ أمة كان لها حسٌّ مرهف في الجمال كما كان للحضارة الإسلامية، والحديث عن هذا يطول تشهد به فنون العمارة كما تشهد به ملايين المساحات المتنوعة من الزخارف، وحضارتنا هي الوحيدة التي جعلت الخط العربي مادة ثرية للزخرفة والزينة، وهو ابتكار غير مسبوق، ومع هذا فحديثنا اليوم عن موضوع جديد لم أعرف أن أحدًا ركّز عليه وتناوله، ذلك هو اختيارهم المرهف الرقيق لعناوين الكتب.

فمهما يكون موضوع الكتاب جافًّا أو ثقيلًا أو مغرقًا في الجدية فإن العالِم المسلم كان حريصًا على اختيار عنوان لذيذ يجعله رقيقًا محببًا مقربًا إلى النفوس!

الجِناس المُطرب

أقل ما نجد من أنواع الجمال في عناوين الكتب أن يكون لها جرس موسيقي من أثر الجِناس، والجِناس كما هو معروف يعني تشابه الحروف الأخيرة، فذلك هو الجناس الناقص، فإن كان الجِناس تامًّا فهو أن تتشابه الكلمتان ولكن يختلف معناها. وهكذا تجد الأذن لذة في سماع العنوان وتأمل معناه.

فمن أمثلة الجناس الناقص: «الاقتصاد... في الاعتقاد» للغزالي، و «فتح الباري... شرح صحيح البخاري» لابن حجر، و «زاد المعاد... في هَدْي خير العباد» لابن القيم، و «بداية المجتهد... ونهاية المقتصد» لابن رشد، و «البيان المُغرب... في أخبار الأندلس والمَغرب» لابن عذارى. ومن أمثلة الجناس التام،

Readonly

كتاب ابن العماد الحنبلي في تاريخه «شذرات الذهب... في أخبارِ مَنْ ذهب».

ظلالٌ وثمار

كان سيد قطب متأثرًا بأجداده الأقدمين حين جعل عنوان تفسيره «في ظلال القرآن»، لقد سبقه إلى هذا كثيرون جعلوا كتبهم حدائق وأشجار، كالنووي الذي كتب في السنة «رياض الصالحين... من كلام خير المرسلين»، ومغلطاي بن قليج الذي جعل السيرة روضًا «الروض الباسم... في سيرة أبي القاسم»، والسيوطي الذي جعل سيرة الصديق هكذا «الروض الأنيق... في سيرة الصديق»، وابن جماعة الذي جعل علوم الحديث منهلًا رويًّا فكتب «المنهل الرويّ... في علوم الحديث النبوي»، والمقري الذي كتب تاريخ الأندلس فجعله رائحة غصن ناضر وسمَّاه «نفح الطيب... من غصن الأندلس الرطيب»، وأبو شامة الذي جعل تاريخ نور الدين وصلاح الدين روضتين في «الروضتيْن... في أخبار الدولتيْن»، وابن أبي زرع الذي جعل تاريخه «أزهار البستان... في أخبار الزمان»، والحميري الذي جعل رحلاته ومشاهد الأرض «الروض المعطار... في خبر الأقطار»، وابن غازي الذي كتب تاريخه كأنه «الروض الهتون... في أخبار مكناسة الزيتون»، وابن إياس الذي جعل تاريخه زهورًا وسمَّاه «بدائع الزهور... في وقائع الدهور»، وابن كنان الذي كتب عن الرسوم السلطانية (البروتوكول) فكان كتابه «حدائق الياسمين... في قوانين الخلفاء والسلاطين».

وكتب ابن حبان في الرقائق «روضة العقلاء... ونزهة الفضلاء»، ومثله كتب ابن الجوزي في الوعظ «بستان الواعظين... ورياض السامعين»، ومثلهما كتب ابن القيم «روضة المحبين... ونزهة المشتاقين».

Readonly

شموسٌ وأقمار

يمكنك أن تدخل مكتبة تراثية فتفاجأ بأنك على الحقيقة قد بدأت رحلة في السماء، بين الشموس والأقمار والنجوم والكواكب؛ فإنك عند التفسير وعلوم القرآن تجد سراج الدين النشار يشرح لك القراءات تحت عنوان «البدور الزاهرة... في القراءات العشر المتواترة»، فإن ذهبت إلى الحديث رأيت «البدر المنير... في تخرج أحاديث الشرح الكبير» لابن الملقن، فإذا وصلت إلى الأصول شاهدت «الأنجم الزاهرات... على حل ألفاظ الورقات» للمارديني، فإن كنت عند التاريخ طالعتَ «النجوم الزاهرة... في أخبار ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي، فإذا ذهبت إلى الأدب طلع عليك «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي، فإن كنت عند كتب الزهد والرقائق طلعت عليك «البدور السافرة... في أمور الآخرة» للسيوطي.

بحار وأنهار

ويمكن لرحلتك العلمية أن تكون في الماء، بين البحار والأنهار، فدارس الفقه الحنفي ينهل من «البحر الرائق... شرح كنز الدقائق» لابن نجيم، ولما أراد الفقيه الحنفي إبراهيم الحلبي أن يجمع خلاصة المذهب في كتاب واحد سمَّاه «ملتقى الأبْحُر» حيث تلتقي فيه بحار العلم المتفرقة في المذهب، ثم جاء فقيه حنفي آخر يلقب بشيخ زاده فشرح الكتاب فجعل العنوان «مَجْمَع الأنهر... شرح مُلتقى الأبحر». وأما الدارس لفقه الدليل عند الشوكاني فسيجد نفسه يتابع «السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار». وأما دارس التاريخ فيجد نفسه أمام «المنهل الصافي... والمستوفى بعد الوافي» لابن تغري بردي.

Readonly

كنوزٌ وجواهر

أحيانًا يدخل بك المؤلف مغارات الكنوز ويفتح لك صناديق الجواهر ويغوص بك البحار ليأتيك باللآلئ، فكأن الكتاب كنزٌ متألق... هكذا صنع الثعالبي الذي سمَّى تفسيره «الجواهر الحسان... في تفسير القرآن»، والسيوطي الذي سمَّى تفسيره «الدُّرُّ المنثور... في التفسير بالمأثور»، ورأى السيوطي أنه يهدي الأمة كنزًا حين يكشف لها الأحاديث المكذوبة على النبي فقدَّم كتابه بعنوان «اللآلئ المصنوعة... في الأحاديث الموضوعة»، ورأى الغزالي أن يهدي الملوك نصيحة فسمَّاها «التِّبْر ـ أي: الذهب ـ المسبوك... في نصيحة الملوك»، وأما المسعودي فقد جعل التاريخ والرحلات أودية من الذهب في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وكتب الداوداري تاريخًا فجعل له عنوانًا فاخرًا هو «كنز الدُّرَر وجامع الغُرَر»، وأرَّخ ابن حجر لعلماء زمانه فجعل كتابه «الدُّرر الكامنة... في أعيان المائة الثامنة»، وختم المسيرة محمد فؤاد عبد الباقي الذي قدَّم كنزه من الأحاديث التي هي في أعلى درجات الثقة بكتابه «اللؤلؤ والمرجان... فيما اتفق عليه الشيخان».

هدايا أخرى

ربما كانت الهدية أقل من كنز حافل بالجواهر والدرر، ربما تكون تحفة نادرة كما فعل المباركفوري في «تحفة الأحوذي... شرح جامع الترمذي»، أو ربما صناعة متقنة بديعة كما فعل الكاساني في كتابه الفقهي «بدائع الصنائع... في ترتيب الشرائع»، أو ربما زخرفة وحُلية ثمينة كما فعل ابن حزم في كتابه «المُحَلَّى بالآثار... شرح المُجَلَّى بالاختصار»، أو ربما أنيسًا لطيفًا ظريفًا كما جعله ابن أبي زرع في كتابه «الأنيس المطرب بروض القرطاس... في ذكر ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس».

Readonly

وأحيانًا تكون الهدية دواء وشفاء وهداية، كما فعل القاضي عياض بكتابه «الشفا... بالتعريف بحقوق المصطفى»، ومثله ابن القيم في كتابه «الجواب الكافي... لمن سأل عن الدواء الشافي»، وكتابه الآخر «هداية الحيارى... في أجوبة اليهود والنصارى».

العقد الفريد

ونختم المقال بهذا الكتاب الشهير لأديب الأندلس ابن عبد ربه، وهو «العقد الفريد»، فلقد أنشأ كتابه كأنما هو عِقدٌ مُكوَّن من جواهر، كل جوهرة كأنها فصل مستقل في موضوع مستقل، يبدأ العِقد بـ«المرجانة في مخاطبة الملوك»، وبعدها «الياقوتة في العلم والأدب»، ثم «الجوهرة في الأمثال»، ثم «الزمردة في المواعظ والزهد»، وهكذا حتى تصل إلى واسطة العقد وهي في الخطب، ثم نعود ثانية حتى نصل إلى خاتمة العقد «اللؤلؤة في الفكاهات والمُلح». فتكتمل بهذا موسوعة أدبية فريدة نُظِمت كأنها عقد جوهر فريد!

* * *

Readonly

دليلك لقراءة تاريخ مُبَسَّط مُشَوِّق غير مُمِلّ!

نشر في «مدونات الجزيرة»

يناير ٢٠١٨

من أكثر الأسئلة التي تردني: أريد أن أقرأ في التاريخ ولكنني سريع الملل، أو: ولكنني أنسى بسرعة ما قرأت، أو: أنني لا أستطيع الاستفادة مما أقرأه في حياتي؟!

الواقع أن المادة التاريخية المقدمة في الكتب لا تناسب الكثير من جمهور القراء الذي يحب الثقافة السريعة أو الوجبات العقلية الخفيفة. وتلك مشكلة تمتد من أول مناهج التدريس الابتدائية حتى المنتجات الثقافية المتخصصة، ولهذا ينصرف الأكثرون عنها ولا يبقى إلا من شغف بها حتى تجاوز عسرها ودخل في الاستمتاع بها.

على كل حال فضلت أن أكتب في هذا المقال إجابتي التي تتكرر للأصدقاء والسائلين، فأقول مستعينًا بالله:

١ ـ لست ممن ينصح بالروايات، مع اعترافي بأن بعضها عميق في وصف النفس البشرية وفي وصف المعضلات الفكرية والشعورية، بل أذكر أن الروائي الإيطالي إيكو (صاحب رواية «الوردة») تحول إلى الرواية ليستطيع صياغة فكره الفلسفي في ثوب شيق مفهوم، وهو صاحب عبارة: حين يتعطل السرد تبدأ القصة. ومع هذا أقول: الرواية مصنوعة في ذهن مؤلفها، يملك مؤلفها أن يسوقها من البداية إلى الحبكة إلى النهاية، وهو يتصرف فيها تصرف صانع الصلصال، يشكله كيف يحب، ويسوقه كيف يحب... فهي في النهاية خيالٌ محكي، لا واقعًا تنقله الحكاية.

Readonly

ولا ينبغي أن يبني الإنسان مادة عقله ومشاعره وأفكاره وتصوراته من الخيال والوهم مهما كان يبدو واقعيًّا، فهذا كالذي والتي أخذت ثقافتها من الأفلام والمسلسلات، وأكثرها ـ بطبيعة الحال ـ سطحي ورديء، ولسنا بحاجة أن ندلل على فساد ما صنعته الأفلام والمسلسلات في بيئاتنا العربية من تصورات، خصوصًا عن العلاقة بين الرجل والمرأة، وبين الفقير والغني، وبين الحاكم والمحكوم، وبين المجرم وضابط الشرطة... هل يمكن أن يكون إنسانًا سويًّا من تكونت ثقافته من تلك المسلسلات والأفلام، مهما كانت جودة حبكتها وحرفية كتابتها؟

٢ ـ لهذا أنصح من يحبون الروايات ومن يملون من قراءة كتب التاريخ بالبدء بقراءة المذكرات الشخصية، صحيح أن المذكرات الشخصية تشبه الرواية في كونها ثمرة ذاتية لكاتبها، وكاتب المذكرات كالروائي يسوق الحكاية كما يحب ويرغب، قد يضيف وقد يخفي ويكتم، يبرئ نفسه ويبرر لها وربما يعظم من قدره، كما يلقي باللائمة على الآخرين ويحملهم المسؤولية... هذا صحيح لا شك! ولكن مع هذا يبقى الفارق كبيرًا وواضحًا. الفارق بين الخيال مهما حاول أن يكون واقعيًّا، وبين الواقع مهما أضفى عليه صاحبه من خياله! الروائي يصنع روايته من الخيال فهو مطلق التصرف في صياغة أحداثها، بينما صاحب المذكرات محكوم بالوقائع كما كانت واجتهاده في صناعة روايته الشخصية لا يسمح له بالخروج عن إطار الحقيقة.

ربما نستثني من هذا: الروايات التاريخية، فهي محاولة حكاية التاريخ في ثوب قصصي بمعالجة روائية، هي على كل حال خير من الرواية الخيالية المصنوعة في عقل صاحبها من كل وجه، وهي مفيدة في تلمس الحقبة التاريخية بطريقة خفيفة مشوقة، فهي في منتصف الطريق بين الرواية وبين المذكرات الشخصية، ويظل للمذكرات الشخصية فضل اقترابها من الحقيقة والواقع. فمن أولئك: علي أحمد

Readonly

باكثير، ونجيب الكيلاني، ونجيب محفوظ، والمنسي قنديل... وغيرهم!

٣ ـ لكن المعضلة هنا أنه ليس كل من كتبوا مذكراتهم كان لهم هذا الأسلوب اللطيف المشوق. هذا صحيح... ولذلك أنصح بالبدء بقراءة مذكرات الأدباء ومن تمتعوا باللغة الأدبية المشوقة، ولدينا طائفة هائلة من الأدباء الذين كتبوا مذكراتهم فكانت قطعة من المتعة العقلية والنفسية، ففي تلك المذكرات تتحقق أهداف الاستفادة بالتاريخ ووقائعه مع الصياغة اللذيذة.

من أبرز من كتبوا مذكراتهم من الأدباء، حتى ولو لم نوافق على أفكارهم وطريقتهم: طه حسين في (الأيام)، وعلي الطنطاوي في (ذكريات)، وأنور السادات في (البحث عن الذات) فلقد كان يملك أسلوبًا أدبيًّا جميلًا، والشيخ عبد الحميد كشك في (قصة أيامي)، وخالد محمد خالد في (قصتي مع الحياة)، وخليل حسن خليل في رباعية (الوسية، الوارثون، السلطنة، الخلاص)، وأحمد فؤاد نجم في (الفاجومي)، ووليد سيف في (الشاهد المشهود)... وغيرهم كثير كثير!

٤ ـ قريب من المذكرات أيضًا كتب الرحلات، لكن يُنتبه إلى أن كتاب الرحلات في العادة يبالغون في وصف ما تعرضوا له من أخطار وأهوال أو من عجائب وغرائب، وفيما عدا هذه الملاحظة تعد كتب الرحلات من المواد التاريخية المفيدة، لا سيما إن كتبها أو ترجمها أديب سلس العبارة... ويكاد يكون من اليسير أن تجد عن كل بلد في أي زمن كتابًا من كتب الرحلة، وكلما اقتربت من الزمن المعاصر كلما زادت المادة المكتوبة غزارة وثراء وتنوعًا، بل إن عالمنا الإسلامي منذ مائتي سنة يشهد كثافة هائلة في إنتاج المستشرقين الذين رحلوا إلى بلادنا وكتبوا رحلتهم (بل إن واحدًا كالإنجليزي ريتشارد بيرتون أجاد ٢٥ لغة وأربعين لهجة، ورحلته إلى الحج جاءت في ثلاث مجلدات كان الأول منها وصفًا ممتازًا

Readonly

لمصر في منتصف القرن التاسع عشر)، كما تشهد كثيرًا من مادة العرب والمسلمين الذين ذهبوا إلى الغرب وكتبوا رحلاتهم.

٥ ـ ثم هناك من رزق الموهبة في كتابة التاريخ بأسلوب جميل مشوق، وكثير من هؤلاء صحافيون، ويجري على هؤلاء مثلما يجري على أصحاب المذكرات... قيمتهم في التاريخ هي قيمتهم من الصدق والكذب، والواقع أن أكثرهم لا يعد في باب أصحاب النزاهة والأمانة، فمن المؤسف أن الصحافة ـ بطبيعتها، ولا سيما في بلادنا المنكوبة بالاستبداد ـ يندر أن تخرج النزيه الأمين... فعند القراءة لهؤلاء ينبغي أن تتوخى الحذر. فمن هؤلاء: جرجي زيدان، وداود بركات، وأنيس منصور، ومحسن محمد، وأمين معلوف، وأحمد بهاء الدين، وجمال بدوي، وصلاح عيسى... وغيرهم.

٦ ـ وهناك كتب لا تندرج تحت أي من التصانيف السابقة، ولكنها مع هذا تقدم مادة تاريخية في ثوب ممتع بديع، منها كتاب «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحي، فهو من أمتع ما يكون في وصف حال مصر في نهاية القرن التاسع عشر، كتبه على هيئة فن المقامة الأدبية، فقدم صورة شاملة لمجتمعه عبر مجموعة من القصص المسبوكة في رواية واحدة والمزخرفة بدفق ثري من الألفاظ والتراكيب البلاغية المدهشة... ومنها كتب الأديب الملتهب د. محمد عباس، وكذلك كتب أحمد رائف.

ما يهمني التأكيد عليه في كل هذه الكتب السابقة أنها بداية لمن يريد أن يتعرف على تاريخ الحقبة، فهي تمهيد لا أكثر يُراد منه الوصول بعدها إلى قراءة الكتب المتخصصة فيها بغير ملل منها. ولا ينبغي بحال الاعتماد عليها في تكوين صورة عامة عن الفترة التاريخية. بل وليس معنى إيرادي لاسم هنا أنني أزكي طريقته أو منهجه

Readonly

أو أفكاره... فقط أتحدث عن جمال لغته وأسلوبه، وأنه قد يستفاد منها في تقريب وتبسيط القارئ المحب للتاريخ وغير القادر على تناول الكتب العلمية مباشرة. بل وأصارحكم بأني ترددت في كتابة هذا المقال لنحو سنة كاملة لخشيتي ألا يؤخذ هذا التأكيد على محمل الجد، فللأسف نحن في عصر سادت فيه الخفة والسطحية حتى إن الشاب حين يقرأ عبارة يطير ليكتبها على الفيس وتويتر ويُكَوِّن حولها قصصًا وأساطير من نسج خياله... لكنه في النهاية لن يضر إلا نفسه ومن يستمع له، وعلى كل إنسان أن يتق الله فيما يقول، ويتق الله فيمن يستمع إليه ويأخذ عنه.

٧ ـ ثم نختم في النهاية بجمع من المؤرخين المحترفين، أو من يقترب منهم في البحث والتعب على مادته، ولم تستطع التقاليد الأكاديمية أن تنتزع منه اللغة الأدبية الجذابة، فمن هؤلاء: حسين مؤنس، وأحمد عادل كمال، وأحمد أمين، وشوقي ضيف، ومحمد عبد الله عنان، وعبد الرحمن بدوي، ومحمد جلال كشك، ومحمد قطب، وغيرهم.

ثم نسأل الله أن يقيض لنا كتيبة من المؤرخين المحترفين أصحاب الأمانة والنزاهة يتمتعون بالأسلوب الجميل ليكتبوا لنا تاريخًا يجمع بين الدقة العلمية ورشاقة الأسلوب... ثم نسأله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علمًا.

***

Readonly

دليلك لقراءة تاريخ مصر الحديث

نشر في «مدونات الجزيرة»

يناير ٢٠١٨

من أهم ما وصلني من تعليقات على مقال «دليلك لقراءة تاريخ مشوق غير ممل» هو ما ذكره إخواننا المحبون للروايات والمتحمسون لها، يرون أنها لا تقل أهمية عن المذكرات الشخصية، إذ في كلا الحالتين: يروي المؤلف ما وقع له، وتصطبغ روايته بالذاتية والانحياز والتوجه الفكري، ويزيد على ذلك في حالة الروايات قدرة الروائي على نسج الحكاية في أسلوب مشوق وتسلسل جذاب يكون أحسن حالًا بلا شك من كاتب المذكرات الذي إن وفق في تسجيل روايته فلن يوفق في عرضها كما يفعل الروائي.

وفي الحقيقة ليس لدي جديد أضيفه على حجتي التي كتبتها في المرة السابقة، وخلاصتها أنه مهما سلمنا بهذا، فإن الحقيقة هي المتضرر الأكبر، فالروائي يحكي خياله، أما كاتب المذكرات فيحكي واقعه، ومهما حاول الذي يحكي الخيال أن يجعله واقعيًّا فلن يكون أقرب إلى الحقيقة من الذي يحكي الواقع مهما حاول تلوينه وتوجيهه، ولا بأس هنا بمثال واحد لتقريب الصورة.

رباعية «الوسية» التي ألفها خليل حسن خليل، وتحول الجزء الأول منها إلى مسلسل تلفازي مشهور، هذا الجزء الأول ينتمي إلى عالم المذكرات الشخصية، رغم كونه مصاغًا بأسلوب أدبي ثري وقوي... ثم يأخذ هذا الطابع في التحول تدريجيًّا في الجزء الثاني «الوارثون»، ثم الثالث «السلطنة»، حتى يأتي الجزء الرابع والأخير «الخلاص» ليكون رواية تامة، رواية خيالية، يحاول صاحبها من خلالها الترويج لفكره اليساري.

Readonly

بقدر ما كان الجزء الأول كتابة أدبية قوية وذا قيمة تاريخية ممتازة في مجال التاريخ الاجتماعي، بقدر ما كان الجزء الأخير رواية تافهة بائسة مثيرة للشفقة. إن الرجل الذي روى صباه وشبابه في أيام الملكية استطاع أن ينقل صورة نابضة بالحياة، شخصيات إنسانية مركبة تعمل في سياق يمثل بذاته حبكة فنية دون الحاجة لاختراعها (وبرأيي أن الواقع دائمًا أشد ثراء وتركيبًا من الخيال، ولكن الموهوب هو القادر على استخراجها)، وظل هذا يخفت في الجزء الثاني ثم يخفت أكثر في الثالث لحساب فن الرواية حتى جاء الجزء الرابع مؤسفًا: شخصيات سطحية وحبكة ساذجة وحوارات فقيرة... صورة متكاملة ليساري بائس يحاول الترويج ليساريته دون حتى أن يحاول فهم خصومه من الإسلاميين والليبراليين، فلم يجد إلا تسطيحهم وتشويههم.

ربما في مقام آخر أتمكن من التوسع والتفصيل في شأن هذه الرواية، لكنني هنا أضرب بها المثل في مجال أن المذكرات أصدق إنباء من الرواية، ودليلي أن الكاتب الواحد نفسه لما كتب مذكراته أجاد وأفاد، ولما تخيل رواية يكتبها كانت الثمرة ميتة ذابلة!

قد يُقال: لعل الرجل لم يُؤت موهبة الرواية، ولو أوتيها لكان آخره كأوله، بل لربما كان أحسن من أوله. وأقول: ربما، وهو أمر أترك النقاش فيه لمحبي الأدب والرواية، ولكن من موقع الباحث في التاريخ الذي تهمه الحقائق والوقائع في المقام الأول، والذي يحاول تقريب التاريخ من عموم القراء، أقول: إن موهبة الرواية هنا ستكون كموهبة التزوير، إنها القدرة على صياغة خيال أشبه ما يكون بالواقع، وأحسن منه: أن يُسرد الواقع كما كان بقدر الوسع والاستطاعة، فلئن كان صاحب الرواية التاريخية ذا موهبة أدبية فقد اجتمع الحسنيان: نقل الواقع مع دقة الوصف.

Readonly

تلك المقدمة التي طالت كانت تمهيدًا لسؤال آخر من أكثر ما يردني، ويزداد وروده مع اقتراب موعد معرض الكتاب، حول المصادر المرشحة لتاريخ مصر الحديث... الذي يبدأ من الحملة الفرنسية ويمتد حتى اللحظة الراهنة.

وقبل الإجابة لا بد من ذكر ثلاثة أمور مهمة:

١ ـ أن مصر من أغنى البلاد بتاريخها، فهي لموقعها وأهميتها وثقلها الثقافي والسياسي كُتِب في تاريخها أكثر من أي بلد عربي آخر، وهي لطبيعتها الجغرافية لها شخصية حددت جغرافيتها منذ قديم، فلا تختلط مع بلد آخر، ومن هنا كان المكتوب في تاريخ مصر على يد أبنائها وغير أبنائها من الكثرة والغزارة والتنوع بمقام لا أحسب أحدًا يستطيع الإحاطة به، كما أن المكتوب عنها بغير اللغة العربية ضخم وثري للغاية. فكل ما يُرشَّح في هذا الباب من أي باحث سيكون قاصرًا بل ومتهمًا لدى باحثين آخرين بحسب تنوع واختلاف السعة والاهتمام، وفي النهاية فعملية الترشيح هي اجتهاد ككل اجتهاد يصيب ويخطئ.

٢ ـ أن التاريخ هو رواية إنسانية للوقائع، وهذه الرواية تنتج متأثرة بالبيئة والواقع وعلاقات القوى المسيطرة عليه، وهذا معنى «التاريخ يكتبه المنتصر» لأن السلطة حريصة دائمًا على إنتاج المعرفة والأفكار، ومن هذا الحرص: إنتاج روايتها للتاريخ التي تدعم شرعيتها وأفكارها وقيمها وغاياتها. لذلك فكلما ابتعدت الفترة المدروسة عن تسجيلها كلما كانت كتابتها أفضل لخفوت تأثير القوى المسيطرة والكشف عن روايات ووثائق أرادت لها السلطة أو شبكات القوى أن تختفي، ولهذا ترى مدارس تاريخية أخرى أن التاريخ ينتصر على السلطة في نهاية الأمر، لأنه يمكن دائمًا استخلاص التاريخ الذي شاءت السلطة تغيبه.

Readonly

ومن هنا فبقدر ما نعاني حتى الآن نقصًا في مصادر تاريخ مصر الحديث باعتبار أن دولة محمد علي العلمانية العسكرية الحديثة لا تزال مستمرة، بقدر ما أن معرفتنا بالتاريخ تتناقص تدريجيًّا، فنحن نعرف عن دولة محمد علي أفضل مما نعرف عن دولة السيسي، فتظل معرفتنا تتناقص كلما اقتربت الفترة التي نبحثها.

٣ـ الخلاف حول تفسير التاريخ، كما يقول جلال كشك، ليس ترفًا نظريًّا وإنما هو في حقيقته خلاف حول المستقبل. ومعنى كلمة جلال كشك ببساطة: أن الذي يعتبر أن الحملة الفرنسية كانت خيرًا ستكون رؤيته للمستقبل نقيض الذي يعتبرها شرًّا، كذلك الذي يرى أن محمد علي هو مؤسس مصر الحديثة وباني نهضتها ستكون رؤيته للمستقبل على عكس الذي يراه رجل الغرب وممثل مصالحه وأول من مزق المجتمع المصري وقضى عليه ومكَّنَ للأجانب فيه... وهكذا.

ثم نأتي للكتب المرشحة، وسأكتفي بعشرين عنوانًا فقط، قسمتها في أربعة تصنيفات، في كل تصنيف خمسة، وهي في التاريخ السياسي فحسب:

أولًا: الكتب ذات المجلد الواحد

ـ موجز تاريخ مصر في الحقبة العلمانية، أسامة حميد

ـ تاريخ مصر الحديث، د. محمد مورو

ـ ودخلت الخيل الأزهر، محمد جلال كشك

ـ الحركة السياسية في مصر، طارق البشري

ـ ثورة يوليو الأمريكية، محمد جلال كشك

ثانيًا: كتب متوسعة

ـ عجائب الآثار، عبد الرحمن الجبرتي

Readonly

ـ تاريخ الأستاذ الإمام، محمد رشيد رضا

ـ تقويم النيل، أمين سامي

ـ حوليات مصر السياسية، أحمد شفيق باشا (وبالتأكيد أن هذا لا علاقة له بأحمد شفيق المعاصر)

ـ تاريخ الحركة القومية في مصر، عبد الرحمن الرافعي

ثالثًا: المذكرات الشخصية

ـ مذكرات أحمد عرابي، بتحقيق: د. عبد المنعم الجميعي

ـ مذكرات اللورد كرومر (مصر الحديثة)

ـ مذكرات سعد زغلول

ـ مذكرات محمد حسين هيكل (مذكرات في السياسة المعاصرة)

ـ مذكرات عبد اللطيف البغدادي

رابعًا: كتب مستشرقين

ـ لمحة عامة عن مصر، كلوت بك

ـ قاموس تراجم مصر الحديثة، آرثر جولد شميت «الابن»

ـ الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي، جوان كول

ـ التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر، ولفرد سكاون بلنت

ـ رؤية جديدة لمصر: ١٩١٩ ـ ١٩٥٢، تحرير: آرثر جولد شميت وآخرين

Readonly

وفي النهاية أذكر بما تعلمناه من أسلافنا العظماء العلماء من أن «العلم ينادي بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»، والعلم لا يبقى في الصدور إلا حين يريد صاحبه استثماره في الواقع، والثقافة لمجرد الثقافة عبث وتضييع أوقات وأعمار.

❊ ❊ ❊

Readonly

الدولة المستحيلة

* الكتاب: الدولة المستحيلة: «الإسلام السياسي وأزمة الحداثة الأخلاقية»

* المؤلف: وائل حلاق

* المترجم: عمرو عثمان

* الناشر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

* سنة النشر: ٢٠١٢م

* عدد الصفحات: ٣٥٢ صفحة

منذ أن أنهيتُ كتاب «الدولة المستحيلة» لوائل حلاق، وأنا أهيئ نفسي لتدبيج مقال مطوّل عنه، ومع الأسف يمرُّ الوقت وتجتمع المشاغل مع ضعف الهمة فلا يلبث المرء إلا أن يكون بين خياريْن: إما أن يُدرك بعضَ ما نوى أو أن يتخلى عنه كله.

ولهذا، فما هذه السطور إلا خواطر متناثرة، لا تزال تترسب في الذاكرة، قدَّرْتُ أن بثَّها خيرٌ من طيِّها.

فكرة صحيحة ومسبوقة

بداية، ولكي نريح القارئ العجول، فأنا في صفّ المعجبين بالكتاب والمؤيدين لفكرته، والفكرة البسيطة للكتاب أن نموذج النظام الإسلامي مختلف جذريًّا ومتناقض تمامًا مع نموذج الدولة الحديثة، ولا يمكن التوفيق بين هذين النموذجيين، إذ أحدهما ديني أخلاقي أنتج بالفعل نظامًا عاش ١٣٠٠ سنة، فضلًا عن تجذره في نفوس المسلمين وعالمهم بما يجعل انخلاعهم عنه وانخلاعه عنهم

Readonly

مستحيلًا، مثلما يستحيل انخلاع الأوروبي من إرثه اليوناني والمسيحي والتنويري... بينما النموذج الثاني علماني مادي وهو ابن تجربته الغربية، التي جعلت الدولة إلهًا حقيقيًّا متغولًا وسائدًا على المجتمع، مع أنه ليس لها لا رحمة الإله ولا حكمته، كما أنه ليست لها أخلاق، بل هي نظام عنيف مدمّر ولا إنساني.

وبالتالي ـ يقول حلاق ـ فالمسلمون حين يتطلعون إلى «دولة حديثة» كالتي في العالم الغربي، فإنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير! بل يجب على الغرب أن يحاول حل مشكلة الحداثة بالنظر إلى التراث الإسلامي وما فيه من هيمنة أخلاقية قوية.

هذه الفكرة في جوهرها ليست جديدة، بل طرحها آخرون من المستشرقين والمسلمين منذ مائة عام على الأقل، ولم تزل تتردد في أروقة البحث ذي الصلة بهذا الموضوع... ولكن قيمة كتاب حلاق هذا في أمرين:

الأول: أنه خدم هذه الفكرة وتعمق في إثباتها بنقولات غزيرة من حقول القانون والفلسفة والسياسة لأعلام الفكر الغربي، تدلّ على تمكنه من مادته، وقدرته البارعة على المقارنة الموفقة بين النموذجين الإسلامي والغربي.

والثاني: هو هذا العنوان التشويقي الإثاري في الزمن الملتبس.

وعنوان إثاري

سأفترض جدلًا أن اختيار حلاق للعنوان كان بريئًا، وهذا أمر مستبعد جدًّا، لكن الذي يهمنا الآن أكثر من التفتيش في نواياه أن العنوان غير معبِّر بدقة عن فكرته... فالكتاب أصلًا لم يؤلف ليقرأه المسلمون، بل غرض تأليفه وجمهوره هم الغربيون الذين يُحاول تبصيرهم بعيوب الحداثة وكيف أنه يمكن أن نجد لها

Readonly

حلًّا في التراث الإسلامي... فالعنوان الفرعي أدق في التعبير عن غرض الكتاب «الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي»!

ولكني أعرف تمامًا أنه لو كان هذا هو عنوان الكتاب، فلم يكن أحد ليتشجع لترجمته، ولم يكن مركز عزمي بشارة ليتحمس لنشره، ولكن عزمي بشارة يحمل مشروعًا فكريًا من أركانه إقناع المسلمين باستحالة عودة الدولة الإسلامية، حتى لو اعترفنا ـ حقًّا أو تخديرًا ـ بأنها كانت دولة عظيمة في زمانها وضمن ظرفها التاريخي!

لقد كان عنوان الكتاب واقعًا بقوة ضمن مشروع عزمي بشارة... ولعله لهذا كان هو الكتاب الوحيد الذي ترجمه ونشره هذا المركز من تراث حلاق كله.

ولا يمكن أن ننسى الزمن الذي صدر فيه الكتاب، لقد كان زمن الاحتدام الضخم حول المستقبل، في إبان الربيع العربي ووصول الإخوان إلى السلطة في مصر وتونس، واحتمال وصولهم إليها في غيرهما... لقد شهدت هذه الفترة سعارًا علمانيًّا محمومًا لنقض فكرة الدولة الإسلامية، يستوي في ذلك من اعتمد لغة هادئة أو من اعتمد لغة هائجة.

لقد زادَ هذا كلُّه ـ العنوانُ والتوقيتُ ـ من رواج الكتاب وانتشاره، ولكنه شوَّه فكرته أيضًا. أتصور أن الكاتب إذا خُيِّر بين رواج مع تشوه مثير للنقاش والجدل، وبين خفوت وانطماس فسيختار الأول.

كلمة «الدولة» معناها ملتبس، فهي في التراث الإسلامي تساوي الزمن أو العصر أو الحقبة، يقال: دولة بني أمية أو دولة بني العباس، ويُقصد به زمانهم، فهي مشتقة من التداول ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]... ولكنها في المعجم السياسي المعاصر تشير إلى «جهاز الحُكْم» وإلى النظام

Readonly

السياسي... ولهذا يفهمها المعاصرون العرب باعتبارها مرادفًا للحكم والسلطة والنظام ...إلخ!

بينما وائل حلاق يرفض استعمال هذا اللفظ «الدولة» إلا بمعنى «الدولة الحديثة» التي هي النسخة الغربية المعاصرة من شكل الحكم... فالدولة عنده هي هذا المعنى، ويرفض بإصرار أن يُطلق لفظ الدولة على أي معنى آخر، حتى أنه اشتبك في أكثر من حاشية مع مستشرقين آخرين عبَّروا عن نظام الحكم الإسلامي بكلمة «دولة»، واشتبك مع نوح فيلدمان لاستعماله لفظ «دولة» لوصف نظام الحكم الإسلامي في كتابه «سقوط الدولة الإسلامية ونهوضها» مع أن طرحهما متقارب جدًّا إن لم يكن متطابقًا.

برأيي أن هذا الإصرار على هذا المعنى الوحيد للفظ «الدولة» لا ضرورة له، ففي النهاية فإن المنادين بالدولة الإسلامية ـ مهما كان إيمانهم بإمكانية تلاقي نظام الحكم الإسلامي مع شكل الدولة الحديثة ـ يعرفون أنهم في سعيهم هذا يُعدِّلون تعديلًا جوهريًّا في شكل النسخة الغربية المعاصرة من الحكم «الدولة الحديثة»... وبالتالي فليس الاشتباك حول اللفظ أمرًا شديد الأهمية طالما نستطيع تمييز الفحوى والمضمون.

كذلك فإن استعماله لفظ «المستحيلة»، بدا لمن لم يقرأ الكتاب، وكأنه يُصدر بهذا حُكْمًا نهائيًّا على استحالة عودة نظام الحكم الإسلامي، وهذا المعنى جديرٌ بأن يثير حساسية كل مسلم، مع أنه أوضح صراحة في أكثر من موضع أنه لم يقصد هذا، ولكنه قصد إلى أن شكل نظام الحكم الإسلامي إن عاد للواقع ذات يوم فسيكون مغايرًا ومخالفًا لشكل الدولة الحديثة. كما أنه طرح فكرة الصعوبات الواقعية، إذ

Readonly

النظام العالمي بتركيبته الرأسمالية المعولمة القائمة على شبكة من الدول القومية القُطرية لن يسمح بقيام حكم إسلامي، وسينفق في هذا كل ما لديه من عنف هائل في سبيل تحطيم أي حركة تسعى إليه.

لمن هذا الكتاب؟

ذكرتُ أن الكتاب لم يُكتب لنا، وإنما كتب للجمهور الغربي أو لصناع القرار في الغرب، ومن أبرز الأدلة على هذا أنه أنفق وقتًا طويلًا في شرح أركان الإسلام ـ في الباب قبل الأخير إن لم تخني الذاكرة ـ ليشرح آثارها الأخلاقية على مجتمع المسلمين.

ولهذا فإن الكتاب ليس مفيدًا للحركيين ولا لعموم المسلمين، هو مفيد لمساحة المثقفين والباحثين الذين يخوضون هذا السجال الفكري مع العلمانيين أو مع الغربيين، والذين يهتمون بجمع الأدلة في بيان عيوب الدولة الحديثة وتفوق النموذج الإسلامي.

بينما المسلم يتشرب المعاني المطروحة فيه بشكل طبيعي من خلال الكتاب والسنة وتراث المسلمين ومواعظ العلماء والدعاة... بل يتشربها بطريقة أكثر عمقًا وبساطة، بل ـ وهذا هو الأهم ـ يتشربها بالطريقة التي تحثه على العمل.

أنا شخصيًا قبل عشر سنوات كتبتُ كتابًا عن «منهج الإسلام في بناء المجتمع»، أشعر أحيانًا حين أقرؤه بأنه تافه لا يطرح جديدًا على المجتمع المسلم، وأحيانًا أشعر أنه جيد جدًّا وأتعجب كيف كتبته قبل عشر سنوات، لم أكن قد اطلعت فيها على آلاف الأدلة الإضافية على فكرته الرئيسية، وأشعر بإلحاح أني في حاجة إلى إنتاج نسخة أخرى منه مشروحة ومزيدة تحتوي ما وقعتُ عليه في هذه السنين من الأدلة والإضافات.

Readonly

ضربتُ المثل بنفسي هنا لكي أقول، وبدون أي محاولة تواضع، أن الشاب المسلم يستطيع ببضاعة قليلة مزجاة من الثقافة العامة أن يعتنق نفس الفكرة الرئيسية التي تبدو وكأنها مفاجئة للبيئة الثقافية يومًا ما! وذلك لشدة وضوحها... والقصد أن أقول: إن هذا الكتاب ـ كتاب حلاق ـ ليس مؤثرًا أبدًا في مسيرة أي حركة إسلامية، لأنها تعتنق فكرته بطبيعتها... هو ربما كان مفاجئًا لقومه ومفاجئًا للبيئة الثقافية المرتبطة بالإنتاج الغربي.

حتى الحركات الإسلامية التي تبدو مؤمنة بالحداثة والدولة الحديثة، هي في حقيقة الأمر ليست كذلك، ولو أتيحت لها الفرصة الحقيقية لتطبيق نموذجها، فسينتج عنها بشكل تلقائي تغييرات جوهرية على نموذج الدولة الحديثة يُفرِّغها عمليًا من محتواها العلماني، ويتدرج في التطبيق والتنفيذ إلى إنتاج صيغة معاصرة من نظام الحكم الإسلامي. حتى الغنوشي والعثماني ـ مع عميق بغضي لأفعالهما ورفضي التام لسياساتهما وأفكارهما ـ إذا أتيحت لهما فرصة تامة وارتفعت عنهما الإكراهات العلمانية والدولية لكانت النتيجة نسخة توفق بين الإسلام والحداثة، وستنتهي حتمًا إلى الإسلام لا الحداثة!... على الأقل هذه قناعتي، ولست مستعدًّا الآن للجدال حولها.

ضرر المنهج الوضعي

يعد كتاب وائل حلاق هذا واحدًا من الكتب التي أتعجب أن صاحبها لم يعتنق الإسلام... إن الكتاب يمكن ببساطة أن نجعل عنوانه «الإسلام هو الحل» وسيكون هذا العنوان أكثر تعبيرًا عن محتواه من هذا العنوان الحالي.

يصلح الكتاب أن يكون مرافعة ممتازة لصالح نظام الحكم الإسلامي في

Readonly

مقابل نموذج الدولة الحديثة، ولا أكاد أشك أن نشأة وائل حلاق القديمة في الشام وما بقي في ذهنه من ذكراها جعلته يقارن بوضوح بين المجتمع الأخلاقي الذي نشأ فيه وبين الحداثة القاتلة التي يحياها الآن.

إن الذين يقيمون في الغرب يذوقون بالفعل روعة المجتمع الإسلامي الأخلاقي المتكافل، بشرط أن يتخلصوا من عقدة النقص... وهذا الأمر بدا كثيرًا في إنتاج كثيرين من المستشرقين بل وفي إنتاج المسلمين الذين ذهبوا إلى الغرب إذا لم يفقدوا أنفسهم... ولا يزال تعبير سيد قطب العبقري يرنّ في رأسي منذ قرأته، «أمريكا: تلك الورشة الضخمة الغبية»!.

ويمكن في هذا السياق أن نطالع كتابات جوستاف لوبون، وآنا ماري شيميل، وزيجريد هونكه، وعلي عزت بيجوفيتش، وعبد الوهاب المسيري... حتى إن بعض المستشرقين المتعصبين يندّ عنهم شيء كهذا أحيانًا مثل جولدزيهر الذي كان يتنكر ليصلي مع المسلمين ورينان الذي كان منظر الصلاة يثير فيه الندم أنه لم يكن مسلمًا.

قرأت كثيرًا من كتب المستشرقين عن سيرة النبي أو فصولًا كتبوها عنه، وتعجبتُ إلى درجة الحيرة: لماذا لم يُسلم هؤلاء؟!... إن بعضهم كتب أمورًا يعجز عن كتابتها بعض الدعاة والعلماء المسلمين، وما ذلك إلا لأن خبرتهم بـ«الجاهلية» الغربية سمحت لهم بالتقاط جوانب من عظمة الإسلام لا ينتبه لها المسلم.

أحسب أني بعد هذه السنين وصلتُ إلى بعض الجواب: إن منهج الوضعية العلمية السائد في الغرب منذ دخوله عصر العلمانية جعل كثيرًا من الباحثين يرى أن مهمته تتوقف عند إتمام البحث بصورة عملية ممتازة، ولا يرى نفسه بعد ذلك مكلفًا باتباع ما وصل إليه من الحق أو الخضوع له!

Readonly

هذه النزعة الوصفية التفسيرية التي لا يتبعها عمل تسربت بقوة إلى مجتمعاتنا العلمية، صار كثير من الباحثين والأساتذة العرب رؤوسًا كبيرة متضخمة ممتلئة بالأفكار، لكن لا نصيب لهذه الأفكار من سلوكهم وعملهم! صار الباحث يرى عمله واقفًا عند جمع المعلومات وتركيب الصورة وتقديم التفسير وربما تقديم بعض التوصيات، دون أن يرى نفسه مُطالبًا بالحركة في سبيل ما آمن به من هذه القناعات!

وهذا أمر مُدَمِّر... وهو خلاف ما كان عليه حال العلماء في حضارتنا الإسلامية، حيث العلم يُطلب للعمل، وحيث لا يقبل من العالِم أن يخالف ما يقوله... الآن بإمكان الطبيب أن يحاضر عن خطورة التدخين أو الخمر ثم هو يدخن أو يشرب الخمر، وبإمكان أستاذ الجامعة أن يحاضر عن الحقوق والحريات ثم هو نفسه ترسٌ في آلة استبداد بشعة، بل حتى الحقوقي يحاضرنا عن المرأة والتحرش ثم هو نفسه يزني ويغتصب ويتحرش!!

هذا الحال الذي ينفصل فيه العلم عن العمل، والعلم عن الأخلاق، مقبول في الزمن الغربي حيث المنهجية الوضعية (التي هي بنت العلمانية)، ولكنه مرفوض أشدَّ الرفض في ديننا ومنهجنا.

كتاب حلاق هذا هو واحد من طابور طويل من الكتب التي عرف أصحابها الإسلام ثم لم يعتنقوه... فكيف يفعل هؤلاء أمام ضمائرهم؟ وكيف يكون حالهم أمام الله يوم القيامة؟!

مأساة في حالتنا الثقافية

كشف هذا الكتاب، عند صدوره، مأساة في حالتنا الثقافية العربية... فلو امتدت يد إلى كتاب حلاق هذا فغيَّرت أسلوبه الأكاديمي الجاف، واستبدلت بعض صياغاته

Readonly

بأخرى فيها آيات وأحاديث وبعض العاطفة، ومدَّت بعض الأفكار على استقامتها، لتحول هذا الكتاب إلى تنظير جهادي ممتاز، ولصار طبعة جديدة موسعة من «معالم في الطريق» لسيد قطب، أو طبعة جديدة من كتاب تأسيسي حركي لجماعة جهادية!

هذا يخبرك كيف أن الفكرة حين يكتبها غربي باللغة الإنجليزية وبالأسلوب البارد تصير موضع حفاوة وتقدير، أو على الأقل مناقشة وتفكير، ثم كيف أن نفس هذه الفكرة حين يكتبها مسلم غيور تُجابَه بالإنكار والرفض والتنديد والتشنيع!!

إن نخبتنا الثقافية تشربت من أصول التفكير الغربي ما لم تتشرب عشر معشاره من القرآن والسنة، حتى صار ما يعجبنا لا يزيد عن أن يكون «بضاعتنا رُدَّت إلينا»!! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

Readonly

موجز تاريخ الإسلام

* الكتاب: موجز تاريخ الإسلام
* المؤلف: كارين أرمسترونج
* المترجم: أسامة شفيع السيد
* الناشر: منتدى العلاقات العربية والدولية
* سنة النشر: ٢٠٢١م
* عدد الصفحات: ٢٣٩

صدرت قبل أيام الترجمة العربية لكتاب «موجز تاريخ الإسلام» للباحثة البريطانية المعروفة كارين أرمسترونج، وهذه الترجمة كانت ـ على حد ما أعلم ـ آخر شيء كتبه الدكتور أسامة شفيع السيد رحمه الله، الذي فارق دنيانا إلى رحاب الله في رمضان الماضي، متأثرًا بفيروس كورونا.

وهي الوفاة التي هزَّت أوساط الشباب والباحثين في مصر، فلقد كان د. أسامة ممن تعقد عليه الآمال، وكان كما وُصِف بحق «نابغة الشباب»، وقد كان على مستوى رفيع من الأخلاق يناظر ما هو عليه من التميز العلمي.

وهذه الترجمة ـ وقد أتيح لي الاطلاع عليها قبل صدور الكتاب بأشهر ـ دليل صدق، وذلك أنها لغة سلسة سهلة مع كونها رصينة عالية، لا تصدر إلا عن ذائقة أديب، وفير الحصيلة من الأمثلة والتراكيب العربية.

ويشعر المرء إذ يقرأ الكتاب أن المترجم ـ رحمه الله ـ كان منشطرًا بين الدقة العلمية وأمانة النقل التي يلتزم بها الباحث، وبين التصرف في التركيب الذي يقتضيه

Readonly

تحويل المعنى إلى اللفظ العربي، لذلك كثيرًا ما كتب العبارة ثم فتح قوسًا كتب فيه [حرفيًّا: كذا]، يشير إلى الفارق بين الترجمة الحرفية وبين اللفظ الذي سبكه للتعبير عن المعنى.

والإقدام على ترجمة كتاب لكارين أرمسترونج فيه روح التحدي، وذلك أنها من أشهر اللذين تترجم كتبهم إلى العربية، بل قد تعددت ترجمة الكتاب الواحد لها مثل كتابها «سيرة النبي محمد» وهو هو نفسه «محمد نبي لزماننا»، وكذا كتابها «معارك في سبيل الله» وهو نفسه «النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام»... وغيرها.

كذلك فقد سبق إلى ترجمة كتب كارين أرمسترونج عريقون في الترجمة مثل محمد عناني الذي ترجم كتابها «سيرة النبي محمد»، وكتابها «القدس: مدينة واحدة وعقائد ثلاث» وكتابها «معارك في سبيل الله»... وكذلك محمد الجورا الذي ترجم «الإسلام في مرآة الغرب» و«النزعات الأصولية» و«الله والإنسان». وللصديق الشاب المترجم الواعد أسامة غاوجي تجربة في الترجمة لها، حيث ترجم كتاب «حقول الدم: الدين وتاريخ العنف».

وهذه العوامل تثير إحجام المترجم عادة لأن المقارنة حاضرة، ولكن د. أسامة ـ رحمه الله ـ كان على قدر التحدي، مع أنه يصف نفسه في سيرته الذاتية بأن إتقانه للإنجليزية جيد لا أكثر، بينما هو أقدر على الترجمة من الفرنسية.

أجمل ما في هذا الكتاب أنه سلس مختصر، يأخذ بعضه بزمام بعض حتى نهايته، وهذا ما دفع المترجم إلى الإقبال على نقله إلى العربية، مع أنه صدر لأول مرة في عام ٢٠٠٠ أي قبل عشرين سنة! وهي عشرون سنة تدفقت بالأحداث التي تصب بشدة في صلب الكتاب.

Readonly

وبرأيي فإن هذا الكتاب هو أضعف كتب أرمسترونج، وتكمن قيمته في أنه يفسر تصور الكاتبة عن الإسلام أو عن الأديان عمومًا، وهو التصور الذي يتوقف أمامه القارئ لكتب أرمسترونج، لا سيما: سيرة النبي محمد، والقدس، والله لماذا...

لئن كان كتاب سيرة النبي محمد مشبعًا برائحة مونتجمري وات، فأشعر أن هذا الكتاب مشبع برائحة مارشال هودجسون. أقول: أشعر، لأنها صرَّحت بنقلها عن مونتجمري في بداية كتابها «سيرة النبي محمد» وكنتُ قد قرأت كتابي مونتجمري «محمد في مكة» و«محمد في المدينة» فصدَّق الخبر النظر... ولكنها لم تصرح في هذا الكتاب بنقلها عن هودجسون كما أني لم أُنْهِ بعد كتابه «مغامرة الإسلام» فيظل كلامي في مجال الظن والحدس.

للكاتبة قصة في الانتقال من الرهبانية المسيحية إلى الخروج من دائرة الأديان والنظر إليها نظرًا موضوعيًّا كما يفعل العلماني، لكنها مع ذلك شديدة التعلق بالروحانية والروحانيات، بل كانت بداية قصتها مع الإسلام الروحانيةُ التي شعرت بها في زيارة إلى سمرقند.

ولهذا، فمجمل أفكارها الرئيسية، وهي التي دارت عليها كتبها، تتلخص في أن الأديان ضرورة للإنسانية، وأن الإنسان لا غنى له عن الروحانيات والأخلاق التي يوفرها الدين، وأن كل ما تقوله العلمانية عن العنف الديني وتاريخه الدموي قد فعلته العلمانية بأعتى وأوسع وأشرس مما فعله تاريخ الدين، بل إن العلمانية ـ مع ذلك ـ خربت حياة الإنسان الروحية وأظلمت علاقاته الاجتماعية!

ولهذا، فهي بقدر ما تدافع عن الإسلام أمام الصورة المشوهة التي صنعها الغرب، فهي تريد من الإسلام أن ينسجم مع تصورها للروحانية... ويفلت منها

Readonly

الزمام تمامًا حين تعالج مسائل السياسة والجهاد والنبوة، إنها تريد من الدين أن يكون الرائحة الجميلة التي تعبق الحياة الإنسانية، بشرط أن تبقى رائحة غازية، أو عطرًا سائلًا... ويصيبها التوتر إذا كان الدين شيئًا صلبًا له رأي وتوجه وطريقة لإدارة الحياة... هنا تحاول بقوة أن تفسر «تصلب الدين» بأوضاع اجتماعية واقتصادية وتاريخية!!

إنها ذات وجه مشرق فيما يخص الدفاع عن الإسلام مقابل التشويه الغربي له، وتحسن للغاية في تذكير الغرب بما أعطاه الإسلام للإنسانية من إنجاز حضاري ومن روحانية، وفي تذكيره بما اقترفته المسيحية والعلمانية من جرائم وخطايا عبر تاريخها، وفي تذكيره بأن هذه الجرائم والخطايا لها نصيب قوي في نشأة «التطرف» (أو: الأصولية)، فالأصولية هي ردة فعل الأديان وأهلها على الحداثة العلمانية، وهي موجودة في كل الأديان... فلماذا تتخوفون من الإسلام وحده؟

ولكنها ذات وجه آخر حين تتحدث عن ضرورة أن ينتج المسلمون أفكارًا إسلامية جديدة تتكيف مع الحداثة ومع المجتمع الصناعي (ففي تصورها أنه دين مناسب للمجتمعات الزراعية)، وهي تنزع أيضًا إلى إدانة ما تراه تطرفًا وإرهابًا حتى لو أنها ساقت الظروف التي أنتجته وأثارته.

ولهذا كله فهي حفية بنموذج ابن عربي، وجلال الدين الرومي، وإلى حد ما بالغزالي... وتنفر من نماذج ابن تيمية وسيد قطب، بل تنفر من الفقهاء الذين تراهم حوَّلوا الدين إلى مؤسسة دينية ظاهرية حرفية افتقدت الروح.

وهي ترى في عصور التفكك الإسلامي (ما بعد العصر العباسي الثاني) روحًا أقرب إلى الإسلام من عصور الوحدة (الدولة العثمانية مثلًا)، وذلك لأن الدين

Readonly

في تلك الفترات كان شأنًا شخصيًّا أو شأنًا شعبيًّا أو شأنًا يرعاه العلماء، بينما كان حاضرًا بقوة في بلاط الدولة وسياستها كما هو في العصر العثماني.

لقد كان أفضل فصول كتابها هذا «موجز تاريخ الإسلام» هو الفصل الأخير، وهو الفصل الذي تحدثت فيه عن الهجوم الاستعماري الغربي على العالم الإسلامي، وردة الفعل الإسلامية... لقد كان هذا الفصل أقرب إلى أفكارها وأبحاثها وعالمها الذي تفهمه... بينما كثرت أخطاؤها في الفصول الأولى التي تتناول التاريخ.

ومع أن المترجم د. أسامة ـ رحمه الله ـ أمسك أعصابه كثيرًا في التعليق على أخطائها إلا أنه اضطر اضطرارًا لكي يعلق على أخطاء شديدة الوضوح، فقد زعمت أن العدالة الاجتماعية في الإسلام أهم من الاعتقاد بالله. وأن الأنبياء كانوا يبنون رسالاتهم على الموروثات الجاهلية لأقوامهم. وأن الفتوحات كانت بغرض الغنيمة أو تحت ضغط الحاجة الاقتصادية. وأن الإسلام لم يهتم بنقد العقائد الأخرى بل اهتم بنقد السلوك الفاسد فحسب.

ولما نالت المؤلفة شيئًا من التصوف لم يطق د. أسامة صبرًا، فقد كان متصوفًا، وانطلق قلمه في تعليق طويل، هو أطول ما في الكتاب من اعتراضاته عليها.

وفي الكتاب أخطاء أخرى واضحة تجاوز المترجم التعليق عليها، مثل: زعمها أن المسلمين أحجموا عن استكمال الفتوح في أوروبا لأنهم اكتشفوا فقرها وبرودة جوها وضعف غنائمها (ص٦٨)، وهي في هذا متأثرة بنظرة جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» وجاك ريسلر في كتابه «الحضارة العربية». وزعمها أن حرب الأمين والمأمون دليل على سيطرة الروح العلمانية على القصر العباسي (ص٧٩). وقد فهمت من فعل المؤرخين المسلمين ـ كالطبري ـ بإيرادهم جميع الروايات

Readonly

أنهم يضعونها كلها في مرتبة واحدة من الأهمية رغم تضاربها (ص١٠٠)، وهذا هو عكس مقصودهم تمامًا، وإلا لما اهتموا بالإسناد!!. وزعمت أيضًا أن المغول كانوا يتخذون من ثقافة الشعوب التي احتلوها ما يبنون عليه سياستهم (ص١١٢)، وهذا أمر ظاهر الخطأ.

كما فيه أخطاء من جهة المعلومات المشهورة كقولها إن آخر خلفاء بني أمية هو «المنصور» الثاني (ص٧١) والواقع أنه «مروان» ولم يلقب بالمنصور. أو أن بيبرس هو الذي انتصر في عين جالوت (ص١١١) والمشهور أنه قطز.

ويكفي هذا في باب ضرب المثال.

ومع هذا، فيجب القول إن في الكتاب نظرات جميلة، وتعليقات ذكية، وتحليلات جيدة، وسلاسة في الانتقال بين الأفكار، وإنصاف للإسلام وتاريخه.

ولكنه ـ مع هذا ـ لا يقارن في الجودة بأشباهه من الكتب الغربية ككتاب تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان، أو تاريخ المجتمعات الإسلامية للابيدوس، أو تاريخ الشعوب العربية لألبرت حوراني... فهذه الكتب أجود كثيرًا جدًّا.

وإن محاولة الإقدام على تلخيص تاريخ أمة وحضارة هي محاولة كبيرة يتهيبها المتخصص الذي شاب شعره في هذا الباب وحده، ولا أدري لم استسهلت المؤلفة ذلك... فهي لم تكتف بالتاريخ السياسي ـ وإن غلب هذا على كتابها ـ بل خاضت في التاريخ الفكري الفلسفي والصوفي والفقهي والمذهبي أيضًا... فكانت تأتي بالعجائب كحال من يتكلم في غير فنه.

* * *

Readonly

نقد التقليد الكنسي

* الكتاب: نقد التقليد الكنسي
* المؤلف: محمد هنداوي الأزهري
* الناشر: دار اللؤلؤة
* سنة النشر: ٢٠٢١م
* عدد الصفحات: ٤٢٩

لست باحثًا في مجال الأديان، ولا أنوي أن أكون، ولم أعرف بكتاب «نقد التقليد الكنسي» إلا من خلال التحريض الكنسي عليه، وهو التحريض الذي استجاب له السيسي فصدر الأمر بمصادرة الكتاب!

وأول ما سمعتُه عن الكتاب كان هو هذا التحريض الكنسي لأحد آباء الكنيسة المصرية «أغاثون، أسقف المنيا»، واستفزني منه عبارتان على وجه التحديد، وهما:

١ ـ قوله: إن هذا الكتاب لا يمكن أن يكتبه مسلم، لأنه لا يمكن للمسلم أن يحيط بهذه التفاصيل!

٢ ـ قوله: هذا الكتاب جعل الكنيسة المصرية صفرًا وهدم كل ما قامت عليه!

ثم هدد بأن بقاء الكتاب قد يشعل فتنة طائفية، ولأن السيسي يمكن أن يفرط في أي شيء إلا في بقاء الكنيسة قوة في ظهره فقد استجاب سريعًا.

وهكذا ترى عزيزي المسلم في مصر أن الكتب التي تسب الإسلام تُطبع طباعة فاخرة، بما في ذلك كتب التنصير التي تطبعها الكنيسة نفسها، وكتب الإلحاد، بل إنك لتجد كبار العلمانيين والملحدين والمشككين في القرآن والسنة والصحابة

Readonly

أصحاب برامج على القنوات المصرية... بينما باحث مسلم يتخوف من مصادرة كتابه إذا كتب في نقد المسيحية، دين الأقلية التي لا تتجاوز ٥٪.

بالمناسبة: من الضروري يا أيها القارئ أن تتذكر جيدًا أن كاتب هذا الكتاب ليس سلفيًّا وهابيًّا، وليس إخوانيًّا معارضًا، إنه أزهري... نعم، كما تقرأ الآن، أزهري ينتسب إلى الأزهر الشريف... هذا الأزهر الذي لطالما استعملته السلطة كغطاء لها في حرب الإسلام، فألبسته ثياب الاعتدال والوسطية كأنهما حكر عليه ولا يخرجان عنه!!

فكاتب الكتاب أزهري، وممن قدَّموا له أستاذ بالأزهر...

ولكن، لا قيمة للأزهر ـ قلعة الوسطية والاعتدال والاستنارة ـ إذا غضبت الكنيسة، فليُصادر الكتاب ولو كان كاتبه أزهريًّا، ولو كان الذي يزكيه من أساتذة الأزهر!!

قصة الأقباط في مصر قصة طويلة ومريرة ولا يتسع لها المقام، إنهم حقًّا أسعد أقلية في العالم... ومن رأى منكم دولة تُصادَر فيها الكتب العلمية لأنها تغضب الأقلية، فليخبرنا مشكورًا مأجورًا.

لنعد إلى غرض هذا المنشور... وغرضه أني قرأت من الكتاب مائة صفحة، وهي حوالي ربع الكتاب... وهو غاية ما أستطيعه في ظل انشغالي بأمور أخرى، ولولا استفزاز هذا الكاهن ما تحمست لقراءته!

ولقد كنتُ منتبهًا في قراءته لأمريْن؛ أولهما: لغة الكاتب وهل يمكن أن يتطرق الشك لكون الكاتب ليس هو نفسه؟ وثانيهما: هل يمكن أن يبلغ كتاب من الخطورة بحيث يكون تهديدًا وهدمًا لكل الكنيسة المصرية؟!

Readonly

فأما لغة الكتاب فلا شك عندي في أن صاحب الكتاب هو صاحبها، فللأزهريين لغة معروفة، فيها مسحة أصيلة من علم الكلام الذي يدرسونه، وطريقة صياغاتهم في التعبير عن المعاني لا تزال واضحة... وهي تفارق ـ بوضوح ـ طريقة الباحثين من غير الأزهريين ممن تخرجوا في الجامعات المدنية! وهذا أمر لا أستطيع التعبير عنه، ولكنه أمر يتذوقه بسهولة من يمارس الكتب والبحوث!

ثم إن المؤلف كان حريصًا على اللغة العلمية الهادئة، فلم ينجرف إلى السخرية والاستهزاء، مع أن بعض المواطن تشد القارئ شدًّا لكتابة تعليق ساخر... بل كان الرجل من الحساسية بحيث إنه لما نقل نقلًا عن الأستاذ علي الريس تحفظ على كلمة ساخرة قالها علي الريس في الحاشية!!

ومع أصالة لغة المؤلف التي تظهر فيها طريقته الأزهرية، فإن المؤلف قليلًا بل نادرًا ما تكلم... إن الكتاب هو حشد من الاقتباسات، ومن المراجع الكنسية المعتمدة، وما فعل هو إلا أن ربط بينها بعبارة أو بعض عبارة!!

وأما أن الكتاب يهدم الكنيسة ـ كما قال أغاثون ـ فأمرٌ يكاد يكون صحيحًا... وإنما أقول «يكاد» لأني لست من أهل هذا المجال وأتحفظ أن أدخل فيما ليس لي به علم!!

ولكنني مع كل صفحة من الكتاب أزداد اندهاشًا...

إن النقد العلماني والاستشراقي المتوجه لعلم الحديث النبوي الشريف، قد أجبرنا أن نخوض بعض الحوارات في شأن الحديث وطريقة روايته وأسانيده وعلله... وفي كل مرة كان يثبت بغير شك أن علم الحديث بناء شامخ صلب متين، وأن نقد العلماء المسلمين للمرويات وطرائقهم في تصحيح الحديث

Readonly

وتنقيحه هي غاية ما يمكن أن يصل إليه عقل بشر أو مجهودهم... وأبسط دليل على هذا هو أننا لو عاملنا الأخبار التاريخية بمنهج المحدثين لانهار التاريخ كله ولم تصح منه رواية واحدة!!!

ولذلك لا يمكن كتابة أي تاريخ وفقًا لمنهج المحدثين... بل إنني أحيانًا يداخلني الغيظ من هذا التشدد الحديثي!!

عندما قرأت كتابر «نقد التقليد الكنسي» كنت أهتف من أعماق قلبي: أين العلمانيون والمستشرقون من هذا؟!... أين هم من هذه المعلومات المتناثرة التي لا يصلح لها حتى أن توصف بالروايات المهلهلة...

إن أصول الدين نفسها معرضة للنقد بسهولة، فصاحب الإنجيل لا يُعرف من هو على وجه التحديد، ولا يعرف تاريخ مولده ولا وفاته على وجه التحديد، ولا يعرف هل زار مصر أم لا، ولا يعرف هل هو من الرسل السبعين ليسوع أم لا... وكل المعروف عنه معلومتان أو ثلاثة، ثم بُنِي حولهما بناء ضخم... مع الأخذ في الاعتبار أنه لا يمكن الجزم بأن هاتين المعلومتين تخصان مرقص كاتب الإنجيل، فربما كانتا عن مرقص آخر!!

إن الكتاب يصيب بالدوار حقًّا...

ومن الغريب أن الكاتب لا يتكلم من تلقاء نفسه، بل يحشد المقولات المسيحية من المراجع المعتمدة المشهورة التي تؤخذ منها أصالة هذه المعلومات... وبعض هذه المراجع التي أخذ منها هي المراجع التي توصي الكنيسة بقراءتها!!

وبعض النقاشات والأقوال هي لرؤوس الكنيسة الذين تولوا كرسي البطريركية مثل الراحل شنودة!

Readonly

إن الكتاب يضع المسيحي في محنة حقًّا... ولكن الأهم من هذا أنه دليل جديد يُرسِّخ في وعي المسلم أن كبار أهل الكتاب وعلماءهم يعرفون مقدار ما هم عليه من الباطل، ويدركون هشاشة ما يستندون عليه من الأدلة، فما هي إلا ظنون أو أوهام!

على العلماني أو المستشرق أو التنصيري الذي يأتي ليجادل المسلمين في علم الحديث وتدقيقهم في المصادر، أن يأخذ جولة عند النصارى إن كان يهمه بالفعل طلب الحق والوصول إلى الحقيقة... أما أن يترك الخشبة التي في عينيه ويأتي ليبصر الذي يظنه قذى عندنا فهو دليل على أن طلب الحق هو آخر ما يريد!!

***

Readonly

تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي

* الكتاب: تاريخ مصر

* المؤلف: يوحنا النقيوسي

* المترجم: عمر صابر عبد الجليل

* الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

* سنة النشر: ٢٠٠٩م

* عدد الصفحات: ٢٨١

فوجئت صباح اليوم (٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٩) بكتاب (تاريخ مصر) ليوحنا النقيوسي صادرًا ضمن سلسلة مكتبة الأسرة التي تدعمها الدولة في مصر، وكان منبع الدهشة أن الدولة التي تعاني مشكلة طائفية حادة تثور نقاطها البركانية الملتهبة تحت السطح الرقيق لنظام الدولة المصرية بين كل حين وآخر، هذه الدولة كانت في غنى عن نشر مثل هذا الكتاب بالسعر المدعوم.

لماذا؟

يحتاج هذا السؤال لأن نفهم حكاية هذا الديوان:

فديوان يوحنا النقيوسي هو التاريخ الذي كتبه الأسقف القبطي المصري يوحنا النقيوسي لتاريخ الفتح الإسلامي لمصر، وهو تاريخيًّا أقرب المصادر التاريخية لزمان الفتح الإسلامي، بما يجعله ذا أهمية خاصة باعتباره المصدر الوحيد «المعاصر» في الجانب المصري لهذه الفترة في تاريخ مصر، حتى أن ألفريد بتلر صاحب الدراسة التاريخية (فتح العرب لمصر) يعترف أنه لم يمكن

Readonly

كتابة دراسته إلا بعد اكتشاف الإنجليز لمخطوطة يوحنا النقيوسي في الحبشة[١].

وهذا الاعتراف نابع من تفاصيل تاريخية غير موجودة إلا فيه، من ناحية الصورة والتفاصيل والحوادث في معسكر الرومان والأقباط، وهي بهذا صورة لم توجد أو لم تفصل في كتابات المؤرخين المسلمين.

ويمكنني أن أضيف «ظنًّا» آخر لهذا الاعتراف، وهو محاولة الحيادية والموضوعية لدى بتلر باعتبار أن المصادر المتوفرة عن الفتح كلها إسلامية أو رومانية، فكان في حاجة لمصادر مصرية أيضًا، غير أن بتلر لم يكن محايدًا كما ينبغي[٢]، وإن كان لا يُنكر أنه بذل جهدًا بحثيًّا عظيمًا ومتميزًا.

على أية الحال، فأهمية الكتاب من الناحية التاريخية لا ينكرها أحد على مستوى الباحثين، لكن الاستغراب نابع من أن مشروع مكتبة الأسرة الذي تدعمه الحكومة قد يَسَّرَه لجمهور الناس، وجمهور الناس في مصر مسلمون، فكانوا أحوج مثلًا إلى كتاب ابن عبد الحكم «فتوح مصر وأخبارها»، أو إلى مثله.

إلا أن يكون هذا مغازلة للأقباط (أعني المسيحيين في مصر)، ولكنه غزل تم في نقطة حرجة حساسة، كما تم بشكل غير مناسب على الإطلاق.

---

(١) ألفريد بتلر: فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م. ص٣٠.

(٢) انظر مثلاً قوله: «الحقيقة المُرَّة هي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ... ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته». فتح العرب لمصر ص٤٥٨، فهل كلمة (المرة) تعبر عن حياد أم عن مشاعر هي خارج دائرة التأريخ. ولكن الإنصاف يقتضي أن أقول إنه لم يكن متعصبًا ذلك التعصب الأعمى أيضًا.

Readonly

لأن ديوان يوحنا النقيوسي هو المصدر الوحيد الذي يشتمل على أن المسلمين ارتكبوا مذابح غزيرة لدى فتحهم مصر، ونسب إليهم أنهم لم يرحموا أحدًا لا شيخًا ولا طفلًا ولا امرأة. ولا أظن مثل هذه المعلومات الكاذبة، كما سأبين بعد قليل، يحتاج أحد في مصر، فضلًا عن النظام المتهالك الذي تتسع عليه الخروق، أن يذيعها وينشرها موثقة في مصدرها التاريخي. ونستثني من هذا طبعًا طوائف المنصرين وأقباط المهجر والقيادة الكنسية التي لم يعد يخفى أنها ترى في المسلمين غزاة محتلين لمصر.

فكان من المثير للدهشة أن ينشر مثل هذا الكتاب تحديدًا.

غير أن الإنصاف يقتضي أن أقول إن الكتاب المنشور لم يكن هو المشهور بين الباحثين، فإلى ما قبل تسعة أعوام، كان الموجود في أيدي الباحثين هي النسخة الإنجليزية المترجمة عن الفرنسية المترجمة عن الحبشية المكتوب بها المخطوط الحبشي، الذي هو النسخة الوحيدة الموجودة لديوان يوحنا النقيوسي[١]، فقام الدكتور عمر صابر عبد الجليل بعمل ممتاز، فترجم المخطوط من الحبشية إلى العربية مباشرة، مصحوبة بتحقيق علمي وتاريخي شارك فيه المؤرخ المعروف د. قاسم عبده قاسم، بما جعل الكتاب متجنبًا لمثالب الترجمات الكثيرة ومصحوبًا برؤية تحقيقية نقدية.

---

(١) مع معلومة ذكرها بتلر عن أن المستشرق الفرنسي الأب أميلينو رأى نسخة عربية لديوان حنا النقيوسي، وهي النسخة التي يتوقع بشكل كبير أن تكون هي التي ترجمت إلى الحبشية، لكن أميلينو لم يُفد بأكثر من أنها موجودة في «أعماق إقليم من أقاليم مصر». انظر: فتح العرب لمصر ص٣١.

Readonly

تناقضات

أما بخصوص ما انفرد به الكتاب من ذكر المذابح والمجازر التي ارتكبها المسلمون في مصر، ووصف الإسلام والمسلمين بأوصاف شنيعة، فإن ما ينقضه ويرد عليه هو يوحنا النقيوسي نفسه وفي الكتاب نفسه.

فالكتاب متناقض إلى حد كبير وهذه بعض أمثلته:

يتحدث عن قسوة عمرو بن العاص في فرض الضرائب وأخذها على أهل الإسكندرية فيقول: «وزادت الضرائب قدر اثنتين وعشرين عصا من الذهب، حتى اختبأ كل (!!) الناس، لكثرة البؤس، وعدموا ما يؤدون»[١]، رغم أن عمرو بن العاص كان قبل سطر واحد على هذه الصورة:

«وكان عمرو (بن العاص) يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددوها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافظ عليها طوال الأيام»[٢].

ويتحدث عن مذبحة إسلامية تجاه المصريين فيقول: «ثم دخل المسلمون نقيوس واحتلوها، ولم يجدوا أحدًا من المحاربين، وكانوا يقتلون كل من وجدوه في الطريق وفي الكنائس، رجالًا ونساء وأطفالًا، ولم يشفقوا على أحد»[٣]، رغم أنه قبل ذلك بصفحة واحدة فقط كان يتحدث عما أنزله الروم بالمسيحيين في مصر،

---

(١) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر (ديوان حنا النقيوسي)، تحقيق د. عمر صابر عبد الجليل، سلسلة مكتبة الأسرة، ١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩ م. ص٢٢١.

(٢) ديوان حنا النقيوسي، ص٢٢٠.

(٣) ديوان حنا النقيوسي، ص٢٠٥.

Readonly

فيعقب بقوله عن المسلمين: ولم نجد من يصنع مثل هذا ممن يعبدون الأصنام الكذبة[١].

وهو يتحدث عن مصريين اعتنقوا الإسلام مبكرًا حتى قبل اكتمال الفتح، يقول: «وعندما وصل هؤلاء المسلمون مع المصريين الذين جحدوا عقيدة المسيحية»[٢]، رغم أنه قبل فقرة واحدة فقط يتحدث عن «خوف في كل مدن مصر، وكان أهل المدينة يهربون ويلجأون إلى مدينة إسكندرية، وهجروا كل أموالهم وخزائنهم وحيواناتهم»[٣].

من المتهم؟

دعا هذا القدر من التناقض د. عمر صابر لأن يَتَّهم المترجم الحبشي لديوان يوحنا النقيوسي (وهو المصدر الوحيد الموجود إلى الآن للديوان) بأنه «سمح لنفسه أن يقحم في النص عبارات من عنده تنم عن تعصبه ضد الإسلام»، ذلك أن المسلمين لم يكونوا يجهلون اللغة القبطية التي كتب بها يوحنا النقيوسي في ذلك الوقت، مما يجعل من الصعب توقع أن يوصف الإسلام والمسلمين بما هو موجود من شناعات. كما أن المصادر القبطية اللاحقة مثل تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع والذي ينقل عن ديوان يوحنا، بالإضافة إلى أن ساويرس كان يُجِلّ يوحنا النقيوسي نفسه، لم تأت بذكر هذه الوقائع والأوصاف، بل بالعكس جاءت بالثناء على الفتح العربي ومعاملته لأهل مصر، فذلك مما يدعم أن تكون الشناعات الموجودة عند يوحنا النقيوسي من إضافات المترجم الحبشي الذي نقل الديوان

---

(١) ديوان حنا النقيوسي، ص٢٠٤.

(٢) ديوان حنا النقيوسي، ص١٩٧.

(٣) ديوان حنا النقيوسي، ص١٩٦.

Readonly

إلى اللغة الحبشية بأمر من ملك الحبشة وقائد قواته في وقت حروب ومواجهات بينهم وبين المسلمين[١].

بينما رأى الأستاذ أحمد عادل كمال[٢] أن يوحنا النقيوسي نفسه مُتَّهَم في صدقه وأمانته بدليل الواقعة التي رواها ساويرس بن المقفع الذي يحب يوحنا النقيوسي ويُجلّه، عن مؤامرة اشترك فيها يوحنا النقيوسي بتزوير وصية البطريرك يوحنا بأن يخلفه في البطريركية الراهب إسحاق، ونصبوا بدلًا منه بطريركًا آخر مدعين أن هذه هي وصية البطريرك يوحنا، وهي المؤامرة التي اكتشفها والي مصر عبد العزيز بن مروان فصحح الوضع، وفشل تدبير يوحنا النقيوسي ومن معه من الأساقفة.

وعلى هذا فالأسقف هو كاتب هذه الافتراءات بأثر من تعصبه وبدليل تزويره وعدم أمانته، بما يجعل تفرده بالتأريخ لمذابح فعلها المسلمون تجاه الأقباط دليلًا آخر على كذب هذا التاريخ الذي لم يعرفه غيره من المؤرخين.

وبهذا يكون ساويرس بن المقفع من النزاهة والأمانة العلمية بحيث لم ينقل من يوحنا النقيوسي هذه الأكاذيب والافتراءات.

وهذا إذا استبعدنا ـ جدلًا ـ روايات المؤرخين الثقات من المسلمين الذين لم يذكروا شيئًا عن هذا الذي يرويه النقيوسي، وتواريخهم لا تُتَّهَم بالتعصب.

والحقيقة التاريخية المتفق عليها بين الباحثين والتي تنفي ما ذكره النقيوسي، أن المسلمين لم يكونوا في عداوة مع المصريين أساسًا، وإنما الحرب كانت دائرة

---

(١) ديوان حنا النقيوسي، (مقدمة التحقيق) ص٣٦، وما بعدها.

(٢) أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٣م. ص١٤١ وما بعدها.

Readonly

مع الرومان الذين كانوا في عداوة مع الأقباط، فليس ثمة داع إلى مشكلات ومذابح مع المصريين.

كما أن الابتهاج لدى الأقباط بالفتح الإسلامي وما ترتب عليه هو حقيقة تاريخية أخرى[1] ذكرها النقيوسي نفسه، فلماذا كانت المذابح؟!!

غزل الدولة للأقلية!!

وسواء كان يوحنا النقيوسي هو الكاتب أو أن العبارات قد أقحمها المترجم الذي نقل الكتاب إلى الحبشية، فإن نشر هذا الكتاب هو غزل فاشل للجماعة القبطية التي ترى في الفتح الإسلامي غزوًا يجب التحرر منه، بل هو غزل مهين وعار على من كان لهم يد في النشر.

فكيف ينشر كتاب للعامة مدعوم بمال الدولة وفيه مثل هذا السب الصريح لسيدنا محمد (ﷺ):

١ ـ في ص ٢٢٢: «والآن، كثير من المصريين الذين كانوا مسيحيين كَذَبَة، أنكروا العقيدة الأرثوذكسية والمعمودية الحية، وساروا في عقيدة الإسلام أعداء الرب وقبلوا التعاليم الركس للحيوان الذي هو محمد».

٢ ـ وفي ص ١٩٧: «المصريين الذين جحدوا عقيدة المسيحية وانضموا إلى عقيدة هذا المفترس».

٣ ـ وفي ص١٩٦: «وارتكب (عمرو بن العاص) آثامًا كثيرة لا تحصى».

٤ ـ وفي ص٢٠٧: «وكانت مصر كذلك مستعبدة للشيطان».

---

(١) ألفريد بتلر: فتح العرب لمصر ص٤٥٧ وما بعدها.

Readonly

٥ ـ وفي ص ٢١٤: «وألحق عمرو الخسران ببلاد مصر».

وكيف ينشر كتاب حافل بالأكاذيب التاريخية التي لا تخفي حقدها وراء أي ستار، والتي تفتري على الفتح الإسلامي العظيم، فتجعل المسلمين متوحشين لم يرفقوا بأحد لا شيخ ولا طفل ولا امرأة (ص١٩٠)، ويأخذون الجزية حتى يبكي عامل الجزية «حين رأى بؤسهم، أشفق عليهم، وكان يبكي لما أصابهم» بل إلى الحد الذي كان المصريون «يقدمون أبناءهم بدلًا من الآلاف التي كانوا يقدمونها كل شهر». (ص٢٢٢).

وهذه الافتراءات هي التاريخية فقط، فلم نتناول ما يكون من رأيه هو كاعتباره المسلمين أعداء المسيح، أو تمنيه أن ينزل الله بهم ما أنزله بفرعون. (ص٢١٣، ٢٢٢، وغيرهما).

إن نشر مثل هذا الكتاب الذي هو غير مفيد إلا في دوائر البحث، لأن صورته عن التاريخ مجتزأة وناقصة، وتقديمه مدعومًا للقارئ العادي لا يحتمل إلا ثلاثة احتمالات:

١ ـ جهل بمحتوى الكتاب، وهو يعبر عن فضيحة قد اعتدنا عليها في الجيل الأخير من المؤسسات الثقافية لعصر الاستبداد.

٢ ـ أو علم بمحتواه وموافقه عليه ورغبة في تسويق هذه الصورة للناس عن الفتح الإسلامي، وهذا غير مستبعد من بعض عناصر الدوائر الثقافية في مصر.

٣ ـ غزل للأقباط في مصر، مع الجهل بمحتوى الكتاب، إذ لو كان الغزل وحده فقد كان أولى أن ينشر كتاب سير الآباء البطاركة لساويرس بن المقفع، هذا إن لم

Readonly

يكن كافيًا نشر كتاب عمر طوسون عن تاريخ الأديرة والرهبان في وادي النطرون والذي صدر قبل قليل من هذا الكتاب.

وهذه الاحتمالات الثلاثة كل منها يمثل عارًا يستطيع وحده أن يصم وجوه فاعليه، هذا إن كان ما زال بالوجوه بقية من حياء أو قطرة من دماء.

* * *

Readonly

حياتي في رحاب الأزهر

* الكتاب: حياتي في رحاب الأزهر: طالب وأستاذ ووزير

* المؤلف: محمد البهي

* الناشر: مكتبة وهبة

* سنة النشر: ١٩٨٣

* عدد الصفحات: ١٦٨

لكم وددتُ أن تطول هذه المذكرات، وتكون أكثر تفصيلًا، وما ذلك إلا لأحاول فهم شخصية صاحبها، فإنه أحد الشخصيات المُحَيِّرة.

إنه محمد البهي...

المفكر الإسلامي الكبير الذي فاضت ألسنة الكثيرين من مشايخنا في مدحه والثناء عليه، وأولئك الذين مدحوه أبعد من أن يُتَّهموا بنفاق، فمنهم القرضاوي، وأحمد العسال، وعبد الجليل شلبي، وأنور الجندي، ومحمد عبد الله السمان، وغيرهم.

وهو مع ذلك الوزير في عصر عبد الناصر، في أشد حقبة عبد الناصر ظلاماً، إذ كان وزيرًا لشئون الأزهر، وكان واحدًا من رجال قانون «تطوير الأزهر»، أو بالأحرى تحطيم الأزهر، وهو الذي نَفَّذ بنفسه تحجيمًا لشيخ الأزهر لم يجرؤ عليه أحد من قبله، حتى لم يجد شيخ الأزهر (محمود شلتوت) حينها إلا أن يرفع شكايته لمجلس الدولة يحاول أن يسترد شيئًا من كرامته، فإذا بمجلس الدولة ينصر الوزير عليه (وهذا هو المتوقع في ظل قانون وُضِع أصلًا لتحطيم شيخ الأزهر)، فلم يجد شلتوت إلا أن يعتكف في بيته مريضًا حتى مات!

Readonly

ثم هو مع ذلك الرجل الذي لما سأله عبد الحكيم عامر عن رأيه في كتاب سيد قطب «معالم في الطريق» قال: تمنيت لو أنني كتبتُ هذا الكتاب، فإن فيه رأي القرآن... متعرضًا في ذلك لدهشة عبد الحكيم عامر ـ الرجل الثاني، وربما الأول في ذلك الوقت ـ وغضبته!

محمد البهي...

الرجل الذي فاض لسانه وقلمه في التحذير من المستشرقين، وهضم الفكر الغربي، حتى إن سيد قطب حين أراد تلخيص هذا الفكر لم يجد خيرًا من أن ينقل من كتاب البهي «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار»... وهو كتاب فاخر جميل يوصى به. ومع ذلك لا تجد مستشرقًا يناقش انحدار شأن الأزهر إلا وهو جذل أو مستغرب من دور البهي في إمضاء قانون الأزهر المشؤوم عام ١٩٦١.

الرجل الذي لا يُشَكُّ في صدق همّه وهمته لاستئناف الحياة الإسلامية، وإعادة المكانة للشريعة الإسلامية، ولكنه كان حريصًا على تطبيق القانون الوضعي تطبيقًا صارمًا كأنما هو الشريعة، أثناء حياته كأستاذ وكرئيس للجامعة وكوزير!

الرجل الذي كانت له من الجرأة أن يحاضر ويكتب ضد الشيوعيين في ذروة قوتهم بمصر في مطلع الستينات من القرن العشرين، ثم لا يقترب منه أحد، إلا أن تُمْنَع كتبه من الطبع، أو تُصادر إذا طُبِعت خارج مصر. ومع ذلك فهو يحظى بحماية عبد الناصر نفسه في مقابلة عبد الحكيم عامر وزوجته برلنتي عبد الحميد!!

الرجل الذي شُهِد له بالنزاهة ونظافة اليد والنفور من أية مكاسب، حتى إنه لم يستطع أن يشتري مسكنه... كيف لهذا أن يكون وزيرًا في عصر عبد الناصر الذي كان وزراؤه أمثلة نموذجية في الفساد والانحلال؟!

Readonly

لكم تمنيتُ أن تحل هذه المذكرات لغز هذه الشخصية، ولكن اختصارها وأخبار شذراتها لم تشفِ غليلي.

لقد مرَّ بسرعة على قانون تطوير الأزهر، ولم يُشر إلى دوره في إقراره إلا بكلمات بسيطة... ولا مَدَح القانون ولا أثنى عليه (مع أنه كان مستبشرًا به كثيرًا في خاتمة كتابه: الفكر الإسلامي الحديث)... ومرَّ على الأحداث الفاصلة في عصره دون أن يشير إليها. لقد انصب اهتمامه على توضيح مواقف شخصية ونزاعات بينه وبين أساتذة الجامعة أو مسؤولي الوزارة!

لا أجد تفسيرًا لهذه الشخصية إلا أن هذا الرجل المستقيم في نفسه، البعيد الهمة والكثير الهمّ، إنما كان مصابًا بما أسميه «فيروس الدولة»!!... وهو الفيروس الذي يصيب صاحبه بالشغف بالخضوع والنظام وتنفيذ القانون حرفيًّا مهما كان القانون جائرًا، والسعي للإصلاح بقدر ما تتيحه السلطة من مساحة، وبحسب ما تتيحه السلطة من أدوات. فإن اعترض على شيء لم يكن له أن يكافح أو يناضل بل أن يكتم غيظه في نفسه، مستمرًّا في تأدية مهمته على الوجه الأمثل كما يفعل «المواطن الصالح»!.

ترى هل يكون غيظ هذا «المواطن الصالح» منبعثًا من انتهاك الدولة للعدل والحق؟ أم من انتهاكها لقانونها الذي وضعته؟!... في مثل حالة الشيخ محمد البهي: لا أستطيع الإجابة.

لقد تفتحت حياة الرجل في ألمانيا، حيث كان في بعثه، وذلك في زمن هتلر، في السنوات التسع الذهبية التي عادت فيها ألمانيا كماكينة عمل هادرة، وتلملم شتاتها وأشلاءها من الحرب العالمية الأولى لتتحول فيما يشبه غمضة العين إلى قوة فظيعة تكاد تلتهم أوروبا كقطعة من الحلوى!

Readonly

تضرب ألمانيا، منذ بسمارك وحتى الآن، مثلًا نموذجيًّا في الدولة القوية التي تهيمن على شعب نشيط، كأنما هي مصنع كبير مُحْكَم التصميم، وتقدّم نموذجًا يُدرَّس في العلوم السياسية عن السلطة التي تستطيع إنشاء شعب على وفق مثالٍ منضبط. ومن خلال مذكرات من عاشوا ذلك الزمن، نرى أن هذا النموذج قد بلغ ذروته في هذه السنوات التسع (١٩٣٠ ـ ١٩٣٩م)... وتلك هي السنوات التي عاشها صاحبنا هناك.

هل يصلح هذا لتفسير ما يبدو كتناقضات لدى محمد البهي؟!

هل يكون إيمانه بالإصلاح السلطوي، والتنفيذ الحرفي لتوجهات السلطة، هو الذي دفعه لما يُعاب عليه من العنف الشخصي والقسوة الإدارية والسعي نحو قانون تطوير الأزهر على هذا النحو؟

لقد كان مؤمنًا أن الأزهريين لن يُصلحوا من أنفسهم أبدًا، وكان مؤمنًا أن الحل كامن في إجبار الأزهريين على تعلم اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة.

وهو في قسوته الإدارية وعنفه في موقع المسؤولية يُذَكِّر بما قيل عن ابن خلدون، الذي كان إذا تولى القضاء بدا عنيفًا شديدًا، فإذا عُزِل عنه بدا سهلًا رقيقًا رفيقًا.

إلا أنه في هذا يخالف محمد عبده، فمحمد عبده رغم قربه من السلطة الإنجليزية التي كانت تحتل مصر، ورغم تشوقه الكامل لإصلاح حال الأزهر بما قد يقترب من رؤية محمد البهي (بالمناسبة: محمد البهي يرى نفسه من مدرسة عبده) إلا أنه حين كان يقع الاختيار بين «إصلاح» يفرضه الإنجليز فرضًا على شيوخ الأزهر لم يكن يسعى في هذا بل كان يتوقف عنه، كان عبده في نهاية الأمر يريد أن

Readonly

يحتفظ للأزهر بهيبته ومكانته وألا يكون شأنه في متناول السلطة، لقد كان عبده مدركًا أن الأزهر لم ينحط إلا حين سيطرت السلطة على أوقافه وشيوخه منذ محمد علي، وكان متحسرًا على هذه الأزمة: فلا أهل الأزهر يرغبون في تطوير حاله، ولا إصلاحه سيكون على يد العدو المحتل، وقد روى رشيد رضا عنه في هذا الأمر ما يُصَوِّر حجم حسرته.

فارق محمد البهي محمدًا عبده في هذا النهج، وكان ذراعًا للسلطة في ضرب الأزهر.

على كل حال، إن هذيْن القرنيْن، هما عصر الهزيمة... وهو عصر تلتبس فيه الحلول على أهل العقول، عصر يصير فيه الحليم حيرانَ، لا يدري ماذا يفعل... والقاعدة عندي أن من ثبت ولاؤه للإسلام وهمّه في العمل له يوسع له في الإعذار ويُغَلَّب في شأنه حسن الظن، ولا يمنع هذا من الإنكار عليه والإشارة لما وقع فيه.

ونسأل الله أن يهدينا إلى أرشد الأمور، وأن يخرجنا من هذا الضعف والوهن.

***

Readonly

في أروقة أدب السجون

لأن تاريخنا المعاصر صفحة سوداء في تاريخ أمتنا المديد، فقد كانت من أبرز معالمه أن نشأ في أروقته الثقافية والفكرية فرعٌ في «أدب السجون».

والداخل إلى هذا الفرع إنما يدخل إلى ردهات الظلمات وصرير الأبواب وصليل المزاليج، ففي السجون ترى كيف ترزح الشعوب التي دفعت من حياتها وأعمارها ثمن الطغيان والاحتلال، وهو فرعٌ مهم جدًّا لإدراك الواقع واكتشاف عالم السياسة والأمن، كما أنه مهم لاكتشاف عالم النفس وطبائع الاجتماع.

في هذا الفصل نستعرض عددًا من كتب أدب السجون، وقدَّمْت لذلك بكلمة في أدب السجون، أرجو أن تبلغ غرضها لتفتح هذا الباب أمام من لم يدخله، فإن معرفة الحقيقة مهما كانت مرارتها وقبحها أفضل من العيش في الوهم والأحلام.

وهكذا جاءت عناوين الفصل على هذا النحو:

ـ كلمة في أدب السجون

ـ البلاء الشديد والميلاد الجديد

ـ تلك العتمة الباهرة

ـ السجينة

ـ الغريبة

Readonly

كلمة في أدب السجون

ذكرتُ غير مرة أني لست من أهل الروايات بل ولا أرشحها عادة، لأن الرواية خيال محكي، وهو خيال محكوم بأفكار المؤلف وصياغته وطريقته في توصيل فكرته، إلا أن المرحلة الوسيطة بين التاريخ والرواية والتي قد أهتم بها وقد أرشحها أيضًا هي: المذكرات الشخصية أو الروايات التاريخية، والمذكرات مقدمة على الرواية في أنها أقرب للواقع.

أدب السجون من هذا الصنف الذي أهتم به وأرشحه أيضًا... وأتمنى لو أن الشباب عامة ينفقون أوقاتهم وطاقاتهم في قراءة ما كان أقرب إلى الحقيقة منه إلى الخيال والتأليف!

فمن هاهنا فإن أدب السجون ثروة يجمع قارئها بين الاستفادة التاريخية وبين المتعة الأدبية... إن صحَّ أن نطلق لفظ «المتعة» على مثل هذا النوع من الأدب.

لكن الفائدة الأخرى، وهي هنا أهم، أن قراءة أدب السجون وما يحدث فيه يفتح الذهن فعلًا على أمور من علوم النفس والاجتماع والتاريخ يصعب للغاية استيعابها من قراءة الكتب المتخصصة في هذه العلوم!

في أدب السجون ترى صورة حقيقية لتحول البشر إلى شيء لا وصف له إلا قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وفيه ترى صورة حقيقية لنزوع البشر ليكون إلهًا منفردًا بالتسلط والتحكم والهيمنة، وهو مع ذلك يخلو تمامًا من رحمة الإله وعلمه وحكمته وعنايته، ليس له

Readonly

من نزعة التأله هذه إلا أن يقول (أنا أحيي وأميت)، وهناك حوادث حقيقية لسجانين كانوا يأمرون المساجين بالركوع والسجود لهم وشرب أبوالهم وما هو أقسى من ذلك مما أتحاشي كتابته.

وفيه ترى صورة حقيقية لنفس هذا البشر الذي قسا قلبه، والذي نزع إلى الألوهية، وهو يتحول في التو واللحظة إلى العبد الذليل الخانع المطيع للرتبة العليا إذا حضرت!... فيتمثل لك المشهد الشيطاني للنفس المريضة بالكبر والذل في نفس الوقت واللحظة!

وفيه ترى صورة حقيقية لجنود تحولوا إلى ماكينات تعذيب، كأنها منضبطة على ممارسة التعذيب والإذلال، تعمل بكفاءة ورتابة وآلية... بشر لم يعد لهم قلب أو مشاعر أو إحساس... هذه صورة متجسدة لجنود فرعون كما حكى عنهم القرآن الكريم... أولئك الجنود الذين كانوا يذهبون لقتل الوليد الذكر دون تردد، وهم الذين جمعوا الناس لمشاهدة السحرة أمام موسى، ثم شاهدوا المعجزة التي أسلم لها السحرة، ثم أمرهم فرعون فعذبوا السحرة حتى الموت، وهم أنفسهم الذين انشق أمامهم البحر ومع ذلك اتبعوا أمر فرعون حتى غرقوا معه... بشر قد نُزِعت منهم البشرية والعقل والقلب والروح... فأولئك من يُفهم كيف أن العدل هو دخولهم النار، وأن لا علاج لهم إلا هذه النار!

وفيه ترى صورة الإنسان حين يصيبه الذل ويأكله الاستضعاف ويستنزفه القهر ويتحكم به من لا يرحم... مهما كان المرء قويًّا فيما مضى أو ذا كرامة في أهله وقومه، مهما كان مرموقًا نبيلًا، مهما كان عنيدًا... مع استثناءات نادرة يجري حكم المصيبة الشديدة على البشر فيحيلهم نوعًا آخر من البشر: أشباحًا متهالكة ضعيفة تود لو تختفي في نفسها وتختبئ في داخلها!... يفعل القهر في الإنسان ما لا يُتَصَوَّر!

Readonly

وفيه ترى تطوير البشر لقدراتهم ومواهبهم وحواسهم، وكيف يستطيع السجين أن يحفظ الكلام من أول مرة، واستطاع بعضهم حفظ القرآن كاملًا برواياته، واستطاع بعضهم حفظ قصائد ألفها زميل له وإن بلغت مئات الأبيات، ويستطيع أحدهم أن يميز روائح مختلطة، وأن ينام في مساحة ضئيلة حتى يحلم بل ويحتلم!

وفيه ترى الأماني المهدورة المسحوقة، وتيار لا يتوقف من الرؤى والأحلام الذي يتدفق على من لم يكن يحلم بطبعه، ثم يجتهد المؤولون في تأويل ذلك كله بالفرج القريب!

تلك أمور لا يمكن فهمها من كتب العلوم المتخصصة في النفس والاجتماع والسياسة كما يمكن فهمها من هذه التجارب العملية... بل إن اللغة الأكاديمية والترتيب المنطقي يمزق الصورة الحقيقية الإنسانية لطبيعة الحياة فيحيلها إلى نظام مرتب صفيق غليظ!

كثيرًا ما أطالع المتحدثين على الفضائين، والكتاب في الصحف، والمفكرين في المجالس النخبوية، حين يتحدث أولئك في أمور السياسة والأزمات فأقول: ترى كم منهم قرأ كتابًا أو رواية في أدب السجون؟!

يبدو هؤلاء في حياتهم المخملية بين المكاتب والصالونات والفنادق والاستوديوهات كأنما لا يعرفون ولا يتوقعون ولا يتصورون أن الحياة أعنف بكثير وأقسى بكثير وأبشع بكثير من حديثهم الناعم الرخو عن التوافق والمصالحة والعدالة الانتقالية والحفاظ على المؤسسات والعسكري الغلبان...

بل حتى الذين يتحدثون عن حقوق الإنسان، أكثرهم لا يبدو في حديثه أنه يلامس هذه المعاناة الإنسانية التي يتحدث هو نفسه عنها... وكثير منهم تسرقه حتى

Readonly

تسحله ضوابط التوثيق والتدقيق وانتقاء الألفاظ المعيارية والصياغات القانونية، حتى يتحول المشهد من مدافع عن حقوق الإنسان إلى مذيع نشرة يتلو أخبار الدماء ويعقبها بابتسامة دبلوماسية لطيفة!!

وذات الكلام يُقال أيضًا في شأن العلماء والفقهاء الذين لم يعرفوا أمر السجون، ويتوقف خيالهم عند مشهد الإمام أحمد، حيث الحبس والضرب بالسياط... لا يعرفون أن شأن السجون قد تطور كثيرًا وصار منظومة علمية لها فلسفاتها المكتوبة والتي تدرس في دروات تعلمهم أساليب سحق البشر وإذلالهم جسديًّا ونفسيًّا، وقد وصلت المنظومة إلى وضع معايير للبناء والتخطيط والتقسيم والتوزيع والرقابة داخل السجون... لم يعد الأمر سجنًا محكم الإغلاق كما هي الصورة الباقية من زمن العباسيين والمماليك والعثمانيين... نحن الآن في زمن «الحضاااارة الغربية» التي ابتكرت هذا كله.

ونعم، القراءة في أدب السجون تصيب بالخوف وتحبط الشجاعة وتعرقل الهمة... كما أنها تعلم الفرار وتثير الغضب وتبصر بالحقيقة وتجعل المرء يتمنى الشهادة ويقاتل ألا يؤسَر!

وقد كنتُ قديمًا أحفظ نونية الشيخ القرضاوي (قصيدة تبلغ أكثر من ثلاثمائة بيت) التي أنشأها في السجن الحربي، وحُفِظت في الصدور حتى كُتِبت فيما بعد، ونشرها في ديوانه «نفحات ولفحات»... وأرى أنها مما ينبغي حفظها وتدريسها للشباب المسلم لما فيها من الأحداث والمعاني.

على كل حال: مقصود هذا المنشور أن في قراءة «أدب السجون» علمًا كثيرًا يغني عن كثير غيره، وفيه ألم شديد إلا أنه ألم الواقع الذي يجب أن نبصره، فالعمى ليس حلًّا أبدًا.

Readonly

البلاء الشديد والميلاد الجديد

* الكتاب: البلاء الشديد والميلاد الجديد: أربعة عشر عامًا في جوانتانامو
* المؤلف: فايز الكندري
* الناشر: جسور للترجمة والنشر
* سنة النشر: ٢٠٢٠م
* عدد الصفحات: ٥١٢

أنهيتُ أخيرًا كتاب «البلاء الشديد والميلاد الجديد» للأسير السابق في جوانتانامو فايز الكندري... ليأخذ هذا الكتاب موضعه ضمن أفضل الكتب التي قرأتُها في حياتي على الإطلاق، وليتربع على عرش الكتب التي قرأتها في أدب السجون...

وإذا كنتُ الآن مُقْدِمًا على كتابة شيء عنه، فاعلم أخي القارئ أن الكاتب يُحْسِن التعبير عن المعاني التي أمسكها وقبض على زمامها، وأما المعاني التي تغمره وتحاصره فليس يحسن وصفها، بل يتيه ويتلعثم ويتلجلج، يحاول التنفيس عن نفسه أكثر مما يحاول تقديم الثمر إلى غيره... وإن حالي مع هذا الكتاب كحال هذا الغريق الذي هاجمته المعاني من أقطارها فلم يحر سبيلًا.

قد اجتمع في هذا الكتاب ما تفرق في غيره... ودعني أقرب لك الصورة...

يحتفي الناس بكتاب ابن تيمية «درء التعارض بين العقل والنقل» لأنه سدَّ ثغرة فارغة، بين منهج السلف والالتزام بالنص وبين طريقة الفلاسفة وتسليط المنهج الفلسفي على النص، فهو ـ أي الكتاب ـ ردٌّ أثري على الطرح الفلسفي، حيث ثَوَّر

Readonly

ابن تيمية نصوص القرآن ليهدم بها بناء الفلسفة الذي بدا برّاقًا وخدَّاعًا حتى استلب عددًا من فضلاء المسلمين فصاروا ينصرون الدين بمنطق الفلسفة ومنهجها.

ويحتفي الناس بكتاب ابن القيم «مدارج السالكين» لأنه سدَّ ثغرة فارغة بين الروحانية الصوفية التي تنزع إلى الشطحات وتتفلت من الأحكام وتتذرع لنفسها بالنصوص الضعيفة، وبين الجفاف الفقهي والصرامة الحديثية التي تصنع عقلًا عظيمًا لكنه أشبه بالمحامي والخبير القانوني الذي يفتقد إلى روحانية العابدين... فجاء هذا الكتاب ليكون هو الأمنية، كما يقول رشيد رضا!

ويحتفي الناس بكتاب سيد قطب «في ظلال القرآن»، وذلك أنه التفسير الذي قصد إلى بيان هداية القرآن والتعمق في معانيه وتوجيهاته وإرشاداته، وقد جاء بعد زمن طويل من تفاسير عديدة تهتم في القرآن بالنحو واللغة والبلاغة والأحكام الفقهية والجدل العقدي... وكل هذا مهمٌّ في بيئة لا يتهدد فيها الإسلام نفسُه، أما وقد تهدد الإسلام بين أبنائه فما كان أشد حاجتهم إلى تفسير يُجَلِّي لهم معاني القرآن وهدايته وتفوقه وسموه على مناهج الأرض. وهو الأمر الذي رامه قبل ذلك محمد عبده ثم رشيد رضا ولكن لم يُقَدَّر لهما أن يكملاه، فبلغ الأمر تمامه على يد الشهيد سيد قطب رحمه الله.

وهذا الكتاب «البلاء الشديد والميلاد الجديد» يستحق أن يوضع في ذات المكانة بين كتب المذكرات وأدب السجون... فقد اجتمع فيه ما تفرق في غيره!

اجتمع فيه ما تفرق في غيره

اجتمع فيه أن كاتبه داعية إسلامي، يحسن التعبير عن الإسلام والدفاع عن قضيته وبيان محاسنه... ولو أنك نظرتَ إلى كتب أدب السجون في عالمنا العربي

Readonly

لوجدتَ عجبًا، إن الأغلبية الساحقة من نزلاء السجون هم من الدعاة والإسلاميين، ولكن أقل القليل منهم هو الذي كتب تجربته في السجن!

فلو أنك نظرت إلى كتب أدب السجون لانطبع في ذهنك أن أغلب الذين ذاقوا السجن كانوا من اليساريين والشيوعيين والمتهمين في انقلابات عسكرية فاشلة.

لقد كان الإسلاميون أكثر المسجونين، وأقلَّ الرواة لتجربتهم... بعض هذا لزهدهم في الكتابة والرواية، وبعضه لأن الظرف الأمني والسياسي لم يكن ليسمح بهذا.

وحتى الذين كتبوا تجربتهم من أولئك الإسلاميين، قد ندر فيهم من كتبها بقلمٍ بليغ وأسلوب بديع... لقد جاء أغلب هذا كتابةً خبرية تقريرية توثيقية... بعض هذا لقلة الاهتمام بالأسلوب، وبعضه لأن الظرف الأمني والسياسي كان يناهض روايتهم فكانوا يكتبونها كإثبات وتوثيق أكثر من كتابتها لغرض الإفادة والتوجيه.

لقد اجتمع في هذا الكتاب عقل الداعية المسلم الذكي، مع القلم الأديب البليغ حسن البيان... لقد كان المؤلف ذا علم غزير وذا بيان جميل، ولا يُزاحم كثرة المعاني الذكية الفائقة في كتابه إلا كثرة التشبيهات البديعة والعبارات الرائقة.

العلم في خدمة الشر

لم يكن جوانتانامو سجنًا وحشيًّا كما هو حال السجون في الصين وروسيا والعراق وسوريا ومصر والأردن والمغرب... لم تكن محنته في التقطيع والتعليق والسلخ وهتك الأعراض... كان توحش هذا السجن توحشًا على الطريقة الحديثة، على طريقة الحضارة الغربية... إنه السجن الذي لا يسمح لك بالموت شهيدًا في

Readonly

سبيل الله، بل يحاول أن يسلب إيمانك من قلبك، ويسيطر على مراكز التفكير في عقلك، ونقاط المشاعر في نفسك!

سجن أنشأه علماء نفس، لا لكسر العدو، بل «لترويضه»... سجنٌ يريد منك أن تتوب إلى الغرب وتقف باكيًا على أعتابه، مؤمنًا بأنك قد أخطأت في حقه، معترفًا وموقنًا في قرارة نفسك بأنك ارتكبت إثمًا عظيمًا حين فكرت في مقاومته، بل حين فكرت في إغاثة من سحقهم هو بيده!

لذلك اجتمع في جوانتانامو من قاومهم، ومن ذهب إلى الإغاثة، ومن ظل على الحدود يغيث من بعيد...

ولئن كان الأسير في السجون الوحشية على الطريقة الشرقية والعربية لا يجد له ملجأ إلا الإيمان، رغبًا أو رهبًا، حبًّا أو اضطرارًا، فإن سجين الحضارة الغربية يوضع إيمانه على المحكّ!!

ولقد نجحوا أحيانًا... في هذا الكتاب ترى مسلمين قد ارتدوا، ومزقوا المصاحف بأيديهم، وترى من كان مجاهدًا في الصفوف الأولى يومًا قد عمل جاسوسًا على إخوانه، وترى من كان يصوم النهار ويقوم الليل وقد تطوع ليوقع غيره في المشكلات إرضاء للأمريكان!!

هنا ترى زلزلة النفس، وانقلابها، وتقلبها بين السمو والدُّنُوّ، بين السموق والسفول...

نجحوا أحيانًا، وفشلوا كثيرًا... تاجر المخدرات الذي سيق إلى جوانتانامو بالخطأ فأشرقت روحه فانقلب حاله، وآخر فضَّل البقاء في جوانتانامو على أن يُفرج عنه ليذهب إلى أوروبا خشية الفتنة، يوسف جديد يقول: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا

Readonly

يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وآخر قد بلغ الغاية من النحافة والنحول والهزال ولكن همَّته أعجزتهم فكان يبلغ منهم وهو في أسره وضعفه ما جعلهم يندفعون إلى قتله والتخلص منه! وآخر قد خرج من جوانتانامو فصار مفاوضًا للأمريكان ضمن وفد طالبان! وآخر قد خرج منه فعاد لمواجهتهم مرة أخرى حتى قضى نحبه!!!

بل انقلب عليهم الأمر أحيانًا أخرى، لقد أسلم عدد من الجنود الأمريكان بعدما رأى الإسلام يشع من هؤلاء الأسرى! ووقف المحققون معجبون أو متحيرون من صلابة هؤلاء واجتماعهم على غير أرحام ولا أنساب!!

اجتمعوا على غير أرحام بينهم

ألم أقل لك قد اجتمع في هذا الكتاب ما تفرق في غيره؟!... إذا كنت قد قرأت شيئًا عن مآسي السجون المصرية أو السورية أو المغربية... فهنا في جوانتانامو جاءك المصري والمغربي واليمني والسعودي والأفغاني والتركستاني والموريتاني... أمة واحدة في سجن واحد!!

انتظر انتظر... قد جاءك أيضًا آخرون، قد جاءتك وفودٌ أمنية من البلاد العربية لتحقق مع المعتقلين... سترى في هذا الكتاب قصة الوفد الأمني المصري، وقصة وفد أمني كويتي، وقصة وفد صيني، وقصة وفود أخرى لم يشأ المؤلف أن يُعَيِّنَها...

قد اجتمع في جوانتانامو خلاصة الظلم، وخلاصة المظلومين، قد نطق جوانتانامو عن نفسه بأنه ساحة المعركة الحضارية العالمية، حين يأتي مصري ومصري، بعضهم أسير وبعضهم يحقق معه، على الأرض الكوبية التي احتلها الأمريكان... هل كان بوسع أحد أن يُلَخِّص حقيقة ما يحدث في هذا العالم أبلغ وأخصر وأوجز من أن يضع لك هذه الصورة؟!

Readonly

أدب السجون: مراجع دراسية

كنتُ قد ذكرتُ أن من فوائد القراءة في أدب السجون أن تتعلم منها طبائع النفس والجماعات بأسلوب بسيط ومفهوم ومَحْكِيّ بدلًا من كتب علوم النفس والاجتماع التي تمزق طبيعة المأساة الإنسانية لتحقق انسجامها التصنيفي الدراسي الصفيق الغليظ...

في هذا الكتاب أبدع المؤلف في وصف مشاعر النفس وتأملاتها ومآزقها ومحنها... إنها أربعة عشر عامًا في جوانتانامو... حيث اليوم الواحد مزدحم بالمآسي فكيف بالأعوام الطويلة!

كذلك أبدع في وصف مجتمع المقهورين، وما ينشأ بينهم من الروابط، ثم ما ينشأ بينهم وبين سجانيهم وجلاديهم من العلاقات، وكذلك مجتمع الجلادين والسجانين... دفقة قوية في علم الاجتماع تأخذها عمليًا من حكاية جوانتانامو.

ولأن المؤلف ـ حفظه الله ـ على قدر عال من العلم والفقه في الدين فقد كانت تأملاته ومواقفه مربوطة دائمًا بالقرآن والسنة وقصص الأنبياء والصالحين... وبهذا اجتمعت المعاني التربوية العميقة بالتأملات النفسية واليوميات الجماعية... لم أر أحدًا من قبل استطاع أن يبلغ هذا المستوى!

ولأن المؤلف قصد إلى بيان الحقيقة، فإن الواقع يظهر في هذا الكتاب كما هو، يظهر معقدًا ومربكًا ومستعصيًا على القوانين والمعادلات البسيطة... فليس كل مظلوم بطلًا ولا كل ظالم فاجرًا، ولا كل من عرف الحق اتبعه، ولا كل من جهل الحق أنكره، ولا كل الذين خاضوا اختبارًا عسيرًا فجازوه بنجاح استطاعوا أن يجتازوا بقية الاختبارات!!

Readonly

جوانتانامو الحضارة

بقي أن ترى في هذا الكتاب طبيعة العدالة الأمريكية، وطبيعة الحضارة الغربية، وطبيعة الحكومات العربية والإسلامية.

ستراها في غرائب المعتقل وعجائبه، حين يأتي محقق ويقول للأسير: لقد اكتشفنا ـ بعد عشر سنوات ـ أنك بريئ فعلًا، وأنك ذهبت إلى الإغاثة، ولكن هذا لن يغير من حالك شيئًا!

حين يُسَلِّم العملاء تاجر مخدرات باعتباره مسؤولًا ماليًّا خطيرًا لطالبان، رغبة في الجائزة الأمريكية، فيكتشف الأمريكان هذا، ولكنهم لا يفكرون في الإفراج عنه بل يفكرون في تشغيله كجاسوس على بقية الأسرى.

حين يأتي جون ماكين إلى المعتقل، ويبدي تعاطفه معهم، ثم يذهب إلى الكونجرس ليعارض إغلاقه!

القصص كثيرة... امتدَّ بها الكتاب حتى جاوز خمسمائة صفحة ضيقة السطور!!

لو كان لي من الأمر شيء، لفرضتُ تدريس هذا الكتاب على سائر المحاضن التربوية وسائر المجموعات الدراسية... فقد اجتمع فيه ما يُغني عن الكثير جدًّا جدًّا من غيره!

إنه كتاب عظيم حقًّا... أسأل الله أن يحفظ مؤلفه وأن يحفظ عليه دينه وأن ينفع به وأن يختم له بالحسني.

وأسأله تعالى أن يجيرنا وإياكم من الضعف والذل، ومن القهر والأسر، وأن يبلغنا أيام العزة والنصر!

Readonly

تلك العتمة الباهرة

* الكتاب: تلك العتمة الباهرة
* المؤلف: الطاهر بن جلون
* المترجم: بسام حجار
* الناشر: دار الساقي
* سنة النشر: ٢٠٠١م
* عدد الصفحات: ٢٢٣

ليس من أحد يسير في طريق الحق في هذا الزمن إلا وهو يتخوف على نفسه السجن والأسر والتعذيب، ويكون هذا من أشد هواجسه وأدومها وأكثرها إلحاحًا على نفسه!

ولا أعرف أحدًا يفضل السجن على الموت، بل كل من أعرف يفضل الموت على السجن!!

وفي ظل هذه الهواجس يثور السؤال المتكرر: ما كان لك ولهذا؟!... أما كان خيرًا لك أن تسكت وتصمت وتعيش مثل الناس؟!... ماذا لو نزل بك السجن الآن، فكيف يكون حال أبيك وأمك؟ كيف تفعل زوجك؟ كيف سيتربى أبناؤك؟!!

تلك الأسئلة التي ينثرها الشيطان في روعك تزيد ضراوة وشراسة إذا ضاق الخناق عليك، وشعرت بالخطر...

يهرع المؤمن ليتلو على نفسه آيات ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وحديث «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك

Readonly

إلا بشيء قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»... وبقدر ما في زاد الرجل من إيمان بقدر ما يطمئن قلبه بهذه الآيات والأحاديث!

يعين على هذه الطمأنينة أن الطغاة لا يغفرون، ولا يصدر عنهم العفو... إن الاسم حين يسكن سجلات الطغيان لا يُمحى... الطاغية نفسه يخبرك ألا سبيل أمامك إلى التراجع، فلا عفو هنا ولا توبة... ولئن كان الطاغية يتصرف كأنه إله، فإنه لا يفكر أبدًا أن يكون كالإله في عفوه ورحمته وقبوله التوبة وإحسانه إلى التائب!

وحيث قد أغلق الطاغية الطريق من جهته، فلم يبق أمامك ـ أخي الذي اختار طريق الحق ـ إلا أن تواصل الطريق... فانظر كيف كان الطاغية من أسباب الثبات والتقدم!!

فلقد أقسمتُ أن لو كان الطغاة يغفرون ويقبلون التوبة، لعاد إليهم كثيرون... ولكن الله ذو رحمة بعباده الصالحين!

لكن أمرًا آخر، غير متوقع أيضًا، عرفته من أسباب الثبات... ذلك هو محنة من لم يكن له في الأمر نقير ولا قطمير... فإنك حين ترى السجون حافلة بمن لم يفكر يومًا في المواجهة أو المقاومة، وترى ما ينزل بهم من العذاب والنكال والإذلال، يندفع إلى رأسك فورًا تفكير عنيف يسأل مفترسًا: كيف هذا؟ ولماذا؟

ثم لن تجد جوابًا إلا ما يندفع إلى قلبك بأنه: لا فرار من القدر، فما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك... فالقدر فوق الأسباب... وما كل من سار في الطريق لقي الأذى، ولا كل من ابتعد عنه نجا...

وهكذا، يكون الفرار هو الفرار إلى الله...

Readonly

تذكرتُ هذا الأمر، إذ قرأت «تلك العتمة الباهرة» للطاهر بن جلون... وهي من أشهر أعمال أدب السجون في العالم العربي، كتبها صاحبها عن قصة حقيقية لمعتقل قضى ثمانية عشر عامًا في سجن تزمامارت المغربي الرهيب، الذي هو علامة على عصر الملك الحسن الثاني.

وقد شاء الله تعالى، وذلك من حكمته، أن يبقى اسم تزمامارت علمًا على هذه الحقبة برغم كل ما بذله ملك المغرب لمحو هذا السجن من سجلات التاريخ... عدد من المذكرات والأفلام الوثائقية والحلقات التلفازية التي أحيت ذكرى تزمامارت حتى صار عصيًّا على النسيان.

فمن لم يكن من أهل القراءة فلقد تيسر له أن يستمع، ومن لم يكن من أهل السرد فقد تيسرت له الدراما... وهكذا يضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء!

وبعيدًا عن تزمامارت الآن، فإن أكثر ما جذبني في تلك الرواية أن الذين قضوا في تزمامارت ثمانية عشر عامًا لم يفكروا لا في المقاومة ولا المواجهة ولا التمرد، كانوا مجرد جنود، وكانوا ينفذون الأوامر... بل إن بعضهم ركب السيارات العسكرية لمجرد أن يصل إلى المدينة أو لمجرد أنه نُسِي في إجازة سابقة، فخرج معهم لمجرد أنها وسيلة مواصلات!!

وهكذا إذن، شاب لا يفهم في السياسة ولا يعرف شيئًا عن الدين، فهو بين مدرسته العسكرية في أهرمومو وبين بيت الدعارة وبين بيت أهله... وجد نفسه فجأة مدانًا في محاولة انقلاب، دفع ثمنها ثمانية عشرة سنة من عمره!

الجنون والموت من الغيظ هو نتيجة منطقية لاختلال المنطق وانعكاس كل شيء... وقد مات عدد منهم بالجنون والقهر بالفعل... ستون سجينًا مات نصفهم بالفعل.

Readonly

لئن كان في مناهضة الطغاة شيء من السلوى، فهي تلك السلوى... إن الأسير الذي أغاظهم فسجنوه ليس مضطرًّا لمواجهة هذا الجنون، على الأقل هو يعرف أنه يدفع ثمن الطريق... وتلك سلوى عظيمة لا يعرف قدرها إلا من اصطدم لأول مرة بالفرعونية والطغيان فتفاجأ بكل هذا الطوفان من الوحشية اللا منطقية واللا معقولة واللا مفهومة، والتي لا يمكن حتى التصرف معها بحال!

تلك العتمة الباهرة...

لن أحدثك كثيرًا عنها، فإنها من أشهر الروايات، وستجد آلاف المراجعات والمقالات المنشورة عنها... يهمني أن أشير إلى ما أرى أنه يغيب ذكره...

كنت قد حدثتك أخي القارئ، وربما تكون مللت مني في هذا، أن أدب السجون من ثلاثة فروع أرشحها دائمًا لمن يحبون قراءة الروايات، وهي: كتب المذكرات والسير الذاتية، كتب الرحلات والأسفار، أدب السجون... ذلك أنها كتب تجمع بين كونها حقيقية ـ لا خيالية ـ وبين كونها خفيفة غير ثقيلة ولا جافة كما هي كتب العلوم الأكاديمية.

إن كتب المذكرات تبسط لنا علوم السياسة والحرب والتاريخ والاجتماع وعلم النفس أيضًا، بحسب كاتبها... وكتب الرحلات والأسفار تبسط لنا علوم التاريخ والحضارة والثقافة والسياسة والاجتماع... وأدب السجون تبسط لنا علوم النفس والاجتماع والتاريخ!

وربما أقسم أن الذي يعكف على تلك الكتب تدبرًا وتأملًا، يستطيع أن يستفيد منها ما لا يستفيده الدارس الأكاديمي الذي يقرأ تلك العلوم في أثواب صفيقة غليظة وتصنيفات صارمة جامدة تنسف الانسجام الإنساني الكائن في تلك العلوم، فتجعلها تحليلًا جافًّا لجزئيات متناثرة.

Readonly

تلك العتمة الباهرة... كتاب يخوض في علم النفس فحسب!!

هو لا يهتم بالتاريخ ولا بالحديث عن المغرب ولا الملك ولا الانقلاب وأسبابه... إنما هو تعمق طويل في أساليب النفس حين تواجه محنة ضخمة لا فكاك منها!!

صاحبنا صاحب الرواية كانت له طريقته في ذلك، الاستسلام التام، النسيان التام، الطرد التام للأفكار والماضي، الطرد التام للمستقبل، محاربة الأمل، محاربة الكراهية... سيبذل جهدًا عظيمًا لكي لا يكره جلاديه، ليس من أجلهم، بل خوفًا أن تكون هذه الكراهية هي النار التي ستأكله وتقتله... سيعكف طويلًا على نفسه وتأملاته وصمته الطويل، يحاول بذلك أن ينسحب من نفسه ويحلق في عالم الروح... نجح أحيانًا ووصل لما يمكن أن نسميه مقامات روحية عالية، ولما قد يسميه آخرون تهيؤات وهلاوس...

كان يلح علي طوال القراءة في هذا النمط سؤال يقول: هل هذه أيضًا هي طريقة شعوبنا المقهورة في مواجهة محنتها؟... إن الهرب إلى المخدرات أو إلى كرة القدم أو إلى الشهوة أو إلى الانغماس في عمل الخير أو إلى التصوف المنسحب... كل هذا أليس هربًا؟!

أليست محاولات التماس الأعذار للسلطة والجلادين هو هرب أيضًا من مواجهة الحقيقة المرة التي يكون الاعتراف بها محنة بلا حل؟!

هل يكون علم النفس هو صورة مصغرة لعلم الاجتماع؟!

على كل حال، سواءٌ أعجبتك طريقة صاحبنا هذا في مواجهة محنته أم لم تعجبك... فالمؤكد أنك ستتوقف طويلًا أمام أنواع الموت في تزمامارت...

Readonly

هنـاك مـن مات بالإمسـاك، تراكمـت فضلاته في جوفـه، تُرك بـلا علاج حتى مـات... وهنـاك من مات بالإسـهال، نـزف كل ما في جسـده حتى مـات... وهناك مـن مات باحتقـان البول!

هناك من مات بالطعام الجيد، فحين تحسنت الأحوال في الشهور الأخيرة ـ لأن نظام المغرب أُحرج بانتشار فضيحة تزمامارت ـ لم يتحمل جسد أحدهم الطعام الجيد بعد ثمانية عشر عامًا من الطعام الرديء... فمات!

وهناك من مات من الجنون... ومن المأساة في تزمامارت أن كلبًا عضَّ أحد الجنرالات ـ فيما يبدو ـ فحكم عليه بالسجن خمس سنوات في تزمامارت... لم يتحمل الكلب أسابيع، زمجر وغضب أول الأمر، ثم استكان وأنَّ وبكى ثانيًا، ثم جُنَّ وهاج حتى خافه السجانون فلم يجرؤوا على إطعامه، فمات...

وهناك أنواع موت مبتكرة، فهناك من مات بسبب فقد الحِكاية... كانت الحكاية سلواه، فلما مرض الذي يحكي فسكت وغشي عليه، مات الذي فقد سلواه!!

لكن موتًا شدّني جدًّا... لقد مات أحدهم من الشكّ...

في كل قصة سجن ستجد قصة معركة بين المساجين، إن الهزيمة تثير الإحباط، وتثير الشك في الطريق، ستقرأ قصة كهذه في كل عمل عن أدب السجون... وفي قصتنا هنا اشتعلت مشادة بين سجينيْن لحسين وسليم على النحو التالي:

قال لحسين لسليم: أنت ابن زنا، أبوك نديم الملك وسميره، فلولا أنه يعرف أنك لست ابنه لتوسط لك ليعفو عنك!

ردَّ سليم، وقد بلغ منه الاستفزاز مبلغه، بواقعة قديمة خلاصتها أن لحسين استطاع ـ قبل أن يأتي لتزمامارت ـ أن يلتقي بزوجته في مستشفى سجن القنيطرة،

Readonly

فوقع بينهما ما وقع بين الرجل وامرأته، فحملت منه، فولدت ولدًا.

لم يجد سليم إلا أن يستفزه فيقول له: كيف تصدق أن هذا ولدك؟!... لقد أنجبته من آخر... ما الذي يدريك؟!

وهنا انهار لحسين... لقد وقع في نفسه الشك... ومع أن سليمًا بذل كل جهد فيما بعد لينزع عنه هذا الشك وليعتذر عنه بأنها ساعة غضب قال فيها زورًا، إلا أن لحسين لم يرجع عن شكه... لقد حطم تزمامارت نفسيته، وجعلها هشة ضعيفة... وما زال في شكه حتى مات!!

تلك الواقعة تحديدًا قد تفسر لماذا تنتشر بين شعوبنا الشائعات الفجة الحقيرة التي تضرب اطمئنان الناس في أوثق صلاتهم الاجتماعية، إن حياتنا تحت ظل الاستبداد القاهر هي التي تنتج شكوكًا فظيعة بين الرجل وزوجه، وبين الرجل وابنه، وبين الرجل وأخيه... ولذلك تكثر حوادث القتل بشبهة الخيانة!!

الوضع القاهر يهيئ النفس لتصديق كل الشكوك، فإذا كان الفقر مصحوبًا بالانحلال الأخلاقي والاجتماعي، فإنه ليس بعيدًا أن تكون الجرائم والفواحش هي الحلول الأقرب لتفسير كل شيء.

قبل عقود لم يكن سهلًا تصديق أن تزني المرأة بدافع الفقر، أو بدافع الحب... كانت المجتمعات قوية متماسكة متعارفة... فللمرأة آلاف السبل لتأكل دون أن تفرط في نفسها، وأمامها آلاف الخواطر والتهديدات لو فكرت في الخروج عن النظام الاجتماعي والمخاطرة بالتفريط في شرفها... الآن ليس الوضع كذلك... الآن يسهل تصديق هذا في المجتمع الذي اجتمع فيه الفقر والانحلال... ولهذا يسهل جدًّا الإيقاع بين الأسرة الواحدة، ولهذا تكثر الجريمة، ويكثر الانتحار!!

Readonly

أحد الحراس في تزمامارت بدأ في التعاون مع السجناء، فصار يهرب لهم العقاقير المسكنة أو الفيتامينات... سأل أحدهم: أي نوع تريد؟ فقال السجين:

أريد أي نوع من العقاقير فعندي كل الأوجاع.

نعم... هكذا كان... وهكذا هي مجتمعاتنا الآن... نحن الآن في حاجة لأية عقاقير، ولأي نوع من العلاج، نحن نحتاج كل التخصصات، كل المسعفين، كل الأطباء، كل علماء النفس والاجتماع والدعاة والوعاظ والعلماء...

لقد منع عنا الطغيان والاستبداد كل أنواع الدواء، في الوقت الذي فتح فيه علينا كل أنواع المرض... وصرنا نحتاج لكل قطرة جهد وكل كلمة حق وكل دعوة خير...

علينا أن نتعامل مع أمتنا بهذه النفسية: نحن بحاجة إلى أية أنواع من العقاقير، لدينا كل الأوجاع!!

* * *

Readonly

السجينة

الكتاب: السجينة

* المؤلف: مليكة أوفقير

* المحرر: ميشيل فيتوسي

* المترجم: غادة الحسيني

* الناشر: دار الجديد

* سنة النشر: ١٩٩٩م

* عدد الصفحات: ٣٦٧

تختلف هذه المذكرات عن سائر ما قرأته قبلها من أدب السجون؛ ذلك أن الذي قرأته من ذلك الأدب يكون في العادة لشخص إسلامي أو متهم بكونه كذلك، ثم ينزل سجن النظام العربي الذي يحارب ما يسميه الإرهاب والتطرف، ثم يذوق الويلات المنكرة الشنيعة عبر سنواته التي تطول أو تقصر بحسب حظه العاثر.

أما هنا فالأمر مختلف من وجوه عديدة!

فصاحبة هذه المذكرات مليكة أوفقير ليست إسلامية بحال، فهي وإن وُلِدت مسلمة إلا أنها لم تفكر في الإسلام كدين، ثم إنها ارتدت عنه واعتنقت الكاثوليكية في سجنها حين ظنت أن الإسلام لم ينقذها... إلا أن شأنها مع الإسلام من قبل لم يكن ذا بال، فهي قد عاشت الحياة المنفلتة ـ التي يسميها أصحابها: المتحررة ـ فكانت منذ مراهقتها ترتاد الحانات وتصادق الشباب وترقص وتتمتع وتسافر وتعيش أيامًا بمفردها مع شباب آخرين في رحلات أو غيرها، حتى إنها لما صادقت

Readonly

ـ مرة ـ ابن موشى ديان لم يكن هذا مزعجًا لوالدها بل مثيرًا لسعادته... وكان شرب الخمور في بيتهم أمرًا عاديًّا، وكان والدها صاحب علاقات نسائية كثيرة، ثم والدتها أيضًا في مرحلة هجرانها لزوجها ثم طلاقها حيث وقعت في غرام ضابط شاب وذهبت معه.

ثم إنها ابنة الجنرال محمد أوفقير، رجل الأمن المرعب في المغرب، والمتهم بقتل المهدي بن بركة، ووزير الداخلية في عهد الحسن الثاني، ثم وزير الدفاع في عهده بعد انقلاب الصخيرات ١٩٧١... وهو الرجل الذي يحمل له اليهود المغاربة جميلًا عظيمًا؛ لأنه سهل هجرتهم بالآلاف إلى إسرائيل... فهي ابنة السلطة المغربية وربيبة الجاه والمال والنفوذ والأمر والنهي، تسير في وسط الحراسة وتنتقل وهي محفوفة بالخدم والحشم.

ثم إنها تربت في قصر ملك المغرب، إذ أعجب بها الملك محمد الخامس مذ كانت طفلة صغيرة لكي تكون صديقة لابنته الصغيرة أمينة، ثم أكمل ابنه الحسن الثاني رعايتها... ومن ثم فقد نشأت في قصور المغرب الملكية، وكانت مقربة من الملك نفسه... إلا أنها رغبت في العودة لبيتها ولم يمانع الملك عودتها، وذلك حين بلغت سن المراهقة.

وفي هذه النسخة التي تبلغ حوالي ٣٠٠ صفحة، ستجد المائة الأولى منها حديثًا عن قصور الملك المغربي الغارقة في البذخ والسرف والرفاهية الخيالية الأسطورية التي تشبه فعليًّا قصص ألف ليلة وليلة، مع فارق واحد، أن رفاهية ألف ليلة وليلة كانت عن بغداد أو القاهرة في زمن عظمتهما، أما قصور ملوكنا وحكامنا الآن فهي في زمن ضعفنا وانسحاقنا، حيث بنوا قصورهم بدمائنا وعظامنا وتركونا نأكل التراب ونلعق الدماء ونتغرب في بلاد الدنيا لتوفير ضرورات الحياة.

Readonly

ما الذي حدث إذن؟!

كيف تكون مثل هذه نزيلة سجن؟ وكيف تكون روايتها واحدة من أشهر ما كتب في أدب السجون؟

هنا يأتيك قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

هنا ترى صورة من تقلب الدنيا بأهلها، وتحول أحوالها، وفجاءة أهوالها، وانعكاس ليلها ونهارها...

لقد وقع الخلاف بين الجنرال محمد أوفقير والملك الحسن الثاني، سعى كل منهما في اغتيال الآخر، نجا أوفقير، ونفذ محاولة اغتيال للحسن الثاني، فأخفقت، فقتل بخمس رصاصات، وأشيع أنه انتحر.

وإذا بانتقام الملك لا يتوقف عند عدوه، بل شمل أهله وأولاده الصغار... أنزلهم السجن عشرين عامًا في فصول مؤلمة لا أريد أن أوجزها هنا فأفسد متعتها لمن يريد القراءة.

وهكذا صارت أمهم وهي في مطلع الثلاثينات أرملة ومسجونة، ومعها أطفالها الخمسة... بلغ من وحشية النظام المغربي أن جعلهم طوال أحد عشر عامًا في سجن لا يكادون يجدون فيه مأكلًا أو مشربًا حتى شربوا أوراق الشجر المغلية، من هذه السنوات الأحد عشر ثمان سنوات لم يكونوا يرون فيها بعضهم البعض، وضعوا في زنازين مغلقة ويُفتح لهم بالتناوب بحيث يحرمون من رؤية بعضهم... وفي فقرة حافلة بالحسرة كانوا يحاولون أن يشاهدوا ظلال بعضهم عبر سكب بعض الماء على الأرض إلى خارج الزنازين ثم الانبطاح لكي يعكس الماء ظلال المنبطحين

Readonly

فيطالعون أشباحهم الضبابية المنعكسة على صفحة الماء.

نفذوا قصة هروب مثيرة تسببت في تحسين أحوالهم في خمس سنوات أخرى، قضوها كأنهم في إقامة جبرية، ثم خمس سنوات أخرى من المراقبة.

إنها واحدة من الروايات التي تظهر مدى الوحشية التي تسكن هذا العالم، لا سيما قصور أنظمة الحكم، ورجاله قساة القلوب الذين لا يجد المرء وصفًا أدق لهم من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

نعم، إن المرء يرجو الرحمة من كل شيء إلا أن يرجوه من الحجر الصلد الأصم... ولكنه قد يعالج هذا الحجر فيحفر فيه ثقبًا أو حتى نفقًا، وقد يتشقق الحجر تحت عوامل التعرية، وقد ينبثق منه الماء، وقد ينهار هابطًا... أما ضابط الأمن في الأنظمة الحاكمة فلا... إنه الحجر الذي مصيره إلى النار حيث قال الله فيه: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]... وحيث قال الله في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

مع أن عائلة أوفقير عائلة مغربية كبيرة مشهورة، ومع ما كان لها من النفوذ الواسع، ومع ما كان لها من شبكة العلاقات الدولية النافذة، ومع الاهتمام الطبيعي للصحافة العالمية بقضيتهم ووقوف بعض مشاهير العالم وراءهم، إلا أنهم قضوا عشرين سنة سجنًا ثم خمسًا تحت المراقبة... إنها سنوات يقضيها الإسلاميون أيضًا في السجون، الإسلامي الذي ليس له من يسأل عنه ولا من يهتم له، بل يتواطأ عليه الجميع.

Readonly

أليس هذا مثيرًا للتأمل؟!... أليس يخبرنا هذا بأن الله هو المقدر المدبر، وأنه فوق كل شيء، وأن الأمور تجري بمقادير... كم إسلاميًّا حقيرًا ـ في ميزان الناس ـ وصفرًا في ميزان القوى خرج بعد سنين أقل من هذه بإرادة الله وحده، بغير أن يتدخل لصالحه رئيس فرنسي ولا صحافة عالمية وبغير أن يملك علاقة مهمة؟!

أتيح لهذا الكتاب عوامل النجاح... قصة مثيرة لشخصية مشهورة، وهي امرأة أيضًا، لكن أهم عوامل نجاحه برأيي هو اللغة المتميزة التي كُتِب بها، وأن كُتَّاب أدب السجون في محنة؛ ذلك أنهم يتبارون في وصف نفس المعاني (مثلما يفعل شعراء الغزل)، وهنا يكونون بحاجة إلى تميز فوق التميز لاشتباه مضمار المنافسة... وقد كانت حاكية هذا الكتاب، وهي صديقة يهودية لصاحبة الرواية، ذات قلم رشيق، استطاعت المترجمة إلى العربية أن تنقله إلى لسان العرب بكفاءة واقتدار، فكأنما هو نص عربي أصيل إلا في بعض التعبيرات القليلة النادرة التي ظهر عليها أثر الترجمة.

* * *

Readonly

الغريبة

* الكتاب: الغريبة

* المؤلف: مليكة أوفقير

* المترجم: حسين عمر

* الناشر: دار التنوير

* سنة النشر: ٢٠٠٧م

* عدد الصفحات: ٢٤٦

صحبني شعورٌ بالذنب منذ نيتي قراءة هذا الكتاب واستمر هذا الشعور إلى نهايته...

إن لدي احتجاجًا دائمًا على نقصان العدالة في هذه الأرض، ولا أحب أن أشارك في هذا، فما الذي يدفعني لقراءة كتاب سجينة قد أسمعت الدنيا كلها صوتها، وجرى تعويضها ماليًّا ومعنويًّا، وهي تعيش حياة باذخة بين باريس وميامي وتستطيع حتى أن تزور المغرب نفسها؟

نعم، أعرف تمامًا أن السجن لعشرين سنة لا يُعوضه شيء... ولكني أعرف أيضًا أن أكثر الذين سُجِنوا لعشرين سنة أو أكثر لم يحصلوا على شيء من هذا كله!

ألم يكن الأولى أن أقرأ كتابًا لسجين آخر لم يحصل على هذه الشهرة، ولم يتمتع بكل هذا التقدير والعناية العالمية؟!... وإذا كان شيء ما شدَّني لقراءة كتابها «السجينة»، فلماذا أذهب لقراءة كتابها الآخر «الغريبة»، وهو الكتاب الذي قرأتُ في مراجعة صديق عزيز أنه مجرد ثرثرة عن نفسها؟!

Readonly

لن أشغل القارئ الآن بمحاولة تفسير تصرفي هذا، ولن أغوص في تحليل سلوكي... ما يهمني فقط أن أعلن شعوري بوخز الضمير لأني قدَّمتُ ما قدَّمته الآلة الإعلامية، وأخرَّتُ ما أخَّرتْه الآلة الإعلامية، فأفرغت من وقتي لها ما ضننتُ به على من قد يكون أولى وأحوج بأن يُقرأ له ويُسْمَع صوته!

في بعض الأحيان يُخَيَّل لي أن سبب هذا الشغف بكتابي مليكة هو رغبتي في معاينة قصةٍ أصابت عائلة رجل كان مرعبًا متوحشًا مشهورًا بفنونه في التعذيب والتقطيع والسلخ!

أعرف تمامًا أن لا ذنب لعائلة الرجل فيما نزل بهم، وأن الذي أصابهم هذا هو ظلم شنيع بشع... ولكني لا أستطيع منع نفسي من التفكير: هل يكون هذا الذي أصابهم هو دعوة رجل مظلوم مُعَذَّب، رفع يده إلى السماء ودعا على محمد أوفقير أن ينزل بعائلته مثلُ الذي أنزله أوفقير بعائلته؟... لقد كان أوفقير يعذب النساء والأطفال أيضًا!!

ترى هل يتعظ ضباط الأمن؟ هل لديهم شيء من الإيمان أو من العقل ليعرفوا أن الذي يفعلونه بالناس قد ينزل بهم؟! وقد يصيب معهم أبناءهم وزوجاتهم؟!

في هذا الكتاب تروى مليكة أوفقير كيف تفاجأت بالحياة بعد سجن عشرين سنة... تحكي ارتباكها الدائم وانزعاجها المتكرر وخوفها المرضي ووساوسها المستمرة... بداية من الناس الذين تكاثروا وصاروا أكثر سرعة وأكثر عبوسًا وأكثر عصبية، وحتى الآلات الجديدة التي ظهرت في دنيا الناس كماكينة الصرف الآلي البنكية وكيف تبتلع قطعة معدنية ثم تلفظ الأموال! كذلك الصنبور (الحنفية) وكيف أنها صارت تسيل بالماء بمجرد مرور اليد من تحتها!!

Readonly

الأسواق والمتاجر التي زخرت بأطنان من البضائع، البضائع الكثيرة المتكررة المصفوفة إلى ما لا نهاية، ملء عربيات التسوق، الانهمار على العروض، التهام الأطعمة مهما كانت كثيرة، وستُلقى في المزابل!

فجوة الزمن التي عاشتها في السجن عشرين سنة جعل كل شيء غريبًا ومربكًا ومزعجًا ومثيرًا للمخاوف!

ولكن فجوة الزمن كانت مصحوبة بأمراض أخرى صنعتها حياة السجن؛ أهمها الخوف... الخوف الذي يسكن النفس حتى يُعطلها عن أي تصرف خشية أن يكون تصرفًا خاطئًا، يترتب عليه استجواب وتحقيق... الخوف من مجرد رؤية زي الشرطة ولو من بعيد... الخوف من الظلمة... الكوابيس التي تمنع النوم!

ومليكة صريحة في هذا، فهي تكتب بالفرنسية للفرنسيين وليست تهتم بالدين، فوصفت كل شيء، حتى إخفاقاتها في ممارسة الجنس... لأنها خائفة ولا تدري ماذا تصنع في الفراش!

السجن مفسد للإنسان... ومن روائع الشريعة أنه ليس فيها عقوبة سجن، اللهم إلا الحبس الاحتياطي لأيام معدودات ريثما يزول خطر ما أو يُفصل في شأن ما... وهو الحبس الذي نسميه الآن «إقامة جبرية»... على كل حال، لهذا مقام آخر.

ومما لا يغيب عني منذ قرأته، فتوى الإمام أحمد بن حنبل، حين سُئل عن الرجل الذي يقاتل ولا يمكنه النجاة، هل يقاتل حتى يُقتل أم يستسلم للأسر؟ فأجاز الإمام أحمد أن يقاتل بلا أمل في النجاة وأن يُقتل، وقال: «الأسر شديد»!.

فكأن شدة الأسر أهون منها الموت!

إن شعوبنا إذا انصلحت أحوالها وحكمها الحاكم العادل الصالح، ستظل لفترة

Readonly

لا ندري كم تطول حتى تتعافى من أخلاق الطغيان والظلم والقهر، فإن الأمر البسيط الذي يفعله الإنسان الغربي بلا تردد يكون هو نفسه مخاطرة كبيرة لا يجرؤ عليه إلا الندرة المتشبعون بالمروءة والشجاعة في بلادنا!

سطوة القهر والظلم صارت عميقة في النفوس، والأمل معقود على أجيالٍ لم يصبها القهر والظلم... إن بقاء الأنظمة الحاكمة في بلادنا هو أخبث الأمراض وأشدها فتكًا بنا، وزوال هذه الأنظمة حتى ولو كان البديل هو الفوضى يعيد إلى أمتنا أخلاق المروءة والشجاعة...

لقد أنقذ الله بني إسرائيل من فرعون فما استطاعوا أن يدخلوا الأرض المقدسة لما رسخ فيهم من الخوف والجبن مع أنهم تحت قيادة نبي ومع أنهم رأوا معجزة انشقاق البحر وغرق فرعون... فقضى الله عليهم بالتيه، الحياة خارج سلطة، الحياة في الصحراء، حتى نشأ الجيل الجديد الذي فتح الأرض المقدسة دون أن يشهد معجزة!

رغم كل ما قدَّمتُه في البداية، فإن هذا الكتاب مفيد في التعرف على حالة السجين إذا خرج من سجنه... ليعرف القارئ أن مأساة السجن لا تنتهي بالخروج منه بل تستمر وقتًا غير قصير بعده! وهذا الجانب هو من الجوانب التي لا تتناولها أغلب المؤلفات في أدب السجون، فالعادة أن ينتهي الكتاب بقصة الخروج!

* * *

Readonly

خاتمة

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمني ومن الشيطان، وقد أبى الله أن يتم كتابًا إلا كتابه.

وأسأل الله تعالى ألا تكون خاتمة اللقاء بالقراء الكرام، وأن يوفقنا لما فيه رضاه، وأسأله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ولا يجعل لأحد سواه فيها نصيبًا.

وأستقبل ملاحظاتكم وتعقيباتكم وإضافاتكم على بريدي:

moha.elhamy@gmail.com

* * *